




قصص الرسول ﷺ وأصحابه

في صحيح الحديث النبوي

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان الأشقر







رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصص الرسول ﷺ وأصحابه

في صحيح الحديث النبوي

جميع الحقوق محفوظة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م

الطبعة الأولى



العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس
ص.ب : 927511 عمّان 11190 الأردن
هاتف : 5693940 - فاكس : 5693941
e-mail : alnafaes@hotmail.com
web : www.al-nafaes.com

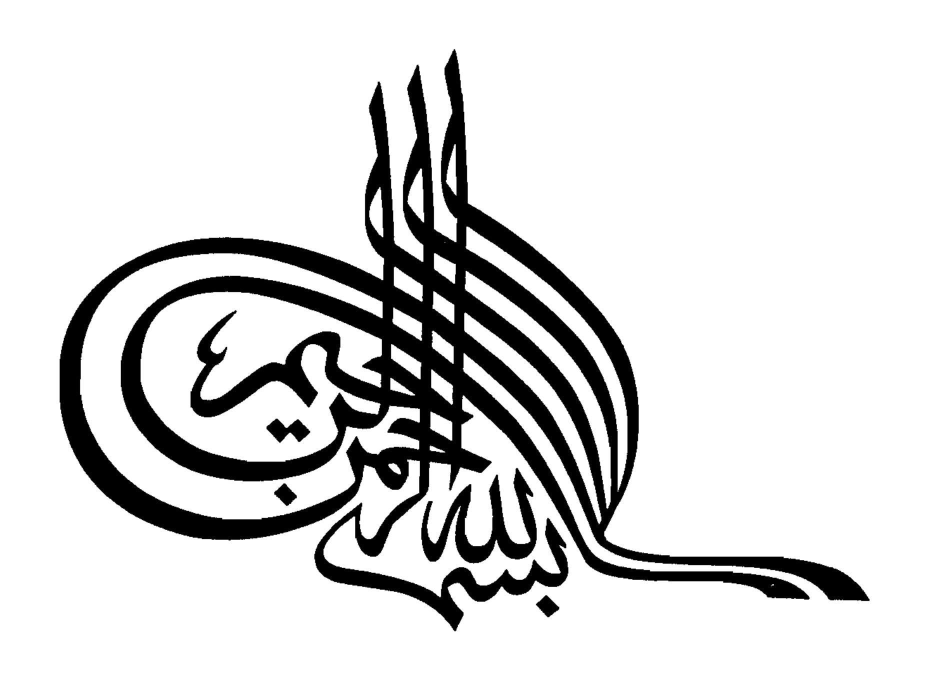
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قصص الرسول ﷺ وأصحابه

في صحيح الحديث النبوي

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان الأشقر




بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فاتحة الكتاب

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وأنعم علينا بالإيمان، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على من بعثه ربّه للعالمين نذيراً، وعلى آله الأخيار، وصحبه الأطهار، وعلى من اهتدى بهديهم، واستقام على طريقتهم إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا الكتاب يجمع بين دفّتيه كثيراً من القصص التي جرت مع الرسول ﷺ وأصحابه، وقد حفظت هذه القصص كتب السنّة، وكان الناس ولا يزالون يروونها، ويتفقّهون بها، ويتعلّمونها ويعلّمونها.

وقد ألّفتُ كتاباً فيما مضى جمعت بين دفّتيه صحيح القصص في الحديث النبوي، قصرته على قصص الماضين، ثم أتبعته بمؤلف ثانٍ جعلته في قصص الآتين، ويأتي هذا الكتاب ليضم بين دفّتيه ما قدّر الله أن يضم من قصص الرسول ﷺ وأصحابه، وقد قصدتُ في هذه المؤلفات الثلاثة تقديم الزاد للدعاة والصالحين، لتكون شراباً صافياً رويّاً، وغذاءً نقيّاً.

وهذا الكتاب ينبئك عنه عنوانه، فهو يقتصر على الأحاديث الصحيحة، دون السقيمة والضعيفة والباطلة والموضوعة، فالكذب على رسول الله من الكبائر، وعلى أصحابه من العظائم، وقد تهاون بعض أهل العلم فيما لم يصح إسناده عن الرسول ﷺ وعن أصحابه، وقد تسبب رواية

غير الصحيح بمعضلات كبار أفسدت شيئاً من الدين، وأضاعت بعض التعاليم.

وقَصْرُ هذا الكتاب على أحاديث الرسول ﷺ وأصحابه، لأنهم واسطة العقد، وأول الأمر وآخره، وهم الأخيار الذين لا يسبقهم سابق، ولا يلحقهم لاحق، والاقتداء بمثلهم هو القدح المعلى، والنصيب الأوفر.

وقد مضيت في هذا الكتاب على المنهج الذي سلكته في الكتابين السابقين، فقد دلّلت على مواضع الحديث في كتب السنّة، وبخاصة إذا كان في الصحيحين أو أحدهما، ولكنني لم أستقص في تخريج الأحاديث وذكر رواياتها وألفاظها، وإنما ذكرت أشمل هذه القصص، فإن كان في الروايات الأخرى من العلوم والفوائد ما لا يوجد في الرواية التي سقتها، فإنني أذكرها كلها، وقد يكون ذكري لها في أثناء شرحي للحديث.

ولم أذكر من الأحاديث ما ليس بقصة، فهناك أخبار كثيرة في الحديث النبوي تتحدث عن خلق السموات والأرض، وخلق الملائكة والجن والإنس، وعن الرسل والصالحين والطالحين، ولكنها لا تشكل قصة، ولذا لم أوردها، لأنها لا تدخل في الإطار الذي حدّدته لهذا الكتاب.

وسيرى القارئ أنني سلكت في تأليف هذا الكتاب مسلكاً موحداً في كل الأحاديث، فقد قدمت لكل حديث بتمهيد، ثم سقت الحديث بنصه، وأتبعت ذلك بذكر مواضعه في المصادر التي أخذته منها، وتناولت المفردات الغريبة بالشرح والبيان، ثم شرحت الحديث شرحاً وافياً، وختمت الكلام على كل حديث بذكر عبره وفوائده.

وسيرى القارئ الكريم أنني لم أترك العنان للفكر كي يحلّق بعيداً عن النص الحديثي، فيتخيل المواقف كما يريد، ويضيف إلى المشاهد التي تضمنها الحديث مشاهد أخرى، بدعوى أننا نريد أن نصنع من الحديث رواية أو قصة مطوّلة، توجد فيها الحبكة القصصية والمؤثرات المختلفة.

إن هذا النهج الذي سلكه بعض الكُتّاب المعاصرين خطأٌ كبير، فليس هناك مجال للتزيّد في القصة الحديثية؛ لأنها تحكي الواقع كما حصل، وليست حديثاً مفترى، والتزيّد فيها على النحو الذي سلكه هؤلاء الكُتّاب يجعلها حديثاً مفترى، كل ما يملكه الباحث أن يستخلص من النص ما يمكنه استخلاصه منه، وفق المنهج الذي حدّده أهل العلم في استخلاص الفوائد والعبر والأحكام من النصوص.

وقبل عرضي للقصص التي صحّت عن رسول الله ﷺ وأصحابه سأورد ما ذكرته في مقدمة كتابي «صحيح القصص النبوي» من التعريف بالقصص، وبيان أهمية القصص عامة، والقصص القرآني والحديثي خاصة.

آمل أن يكون هذا العمل الذي قدّمته في هذا المؤلف نافعاً لعباد الله ، وأن يسدّ فراغاً في المكتبة الإسلامية، فيُستغنى به عن القصص المكذوب والموضوع الذي يلجأ إليه الناس، ويدل بعض أهل العلم عليه، وأسأله تعالى أن يرزقني النيّة الخالصة فيه، وأن يأجرني فيه بمنّه وكرمه ورحمته، وأن يوفق القرّاء الكرام لدعوة صالحة لكاتبه. والحمد لله ربّ العالمين.

د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

عمان – الأردن

١٤ من شهر الله المحرم ١٤٢٧هـ

١٣ شباط ٢٠٠٦م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



مُقَدِّمَة

تعريف القصص
وبيان أهمية القصص عامة
والقصص القرآني والحديثي خاصة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة(1)

سأتناول في هذه المقدمة تعريف القصص، ثم أبين أهمية القصص، وبخاصة القصص القرآني وقصص الحديث النبوي.

تعريف القصص:

القصص بكسر القاف جمع، واحده قصة، والقصة في لغة العرب الأخبار المرويّة، والأنباء المحكية، وقد سمى القرآن ما حدّثنا به من أنباء الغابرين قصصاً، ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه:٩٩]، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود:١٠٠]، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠]، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣]، وسمى الله إخبار موسى والد الفتاتين اللتين سقَى لهما بما كان من أخباره بالقصص ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ [القصص:٢٥].

وأصل القصص عند العرب تتبع الأثر، فالعليم بالآثار يسير وراء من يريد معرفة خبره، ويتتبع أثره، حتى ينتهي إلى موضعه الذي حلّ فيه. وسميت حكاية الأخبار قصصاً لأن القاص يتتبع أحداث القصة كما

(١) انظر: «صحيح القصص النبوي»، ص١١-١٥.

وقعت، ويتتبع ألفاظها ومعانيها، ولذا لا يكون المرء قاصّاً حقاً إلا إذا جاء بأحداث ما يرويه على وجهه الذي وقع عليه، وقد سمى القرآن تتبع الأثر قصصاً في قوله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾ [الكهف:٦٤] والمتحدث عنهما في الآية موسى وفتاه، عندما علما بمجاوزتهما المكان الذي حدده الله لهما لمقابلة العبد الصالح، فرجعا يتتبعان آثارهما، ليعودا من الطريق نفسه الذي قَدِما منه ليصلا إليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص:١١]، والآمرة هنا أم موسى عليه السلام ، أمرت أخته أن تتبع أثر أخيها موسى بعد أن قذفته في التابوت في النهر.

ومنه سمي قتل القاتل قصاصاً، لأن أولياء القتيل يتتبعون فعل القاتل، فيفعلون به مثل ما فعل بصاحبهم(١).

والعرب تجعل حكاية كل خبر قصة، إلا أن المتأمل فيما تعارف عليه أهل العلم والأدب أن القصة لون خاص من الأخبار ذو طبيعة خاصة، وعلى ذلك فكل قصة خبر، وليس كل خبر قصة، فما حدّثنا الله به عن خلق السموات والأرض وخلق الملائكة والجن أخبار، ولكنها ليست بقصص، وما حدّثنا به عن أسماء رسله وأنبيائه وأسماء آبائهم أخبار، وليست بقصص، أما أخبار الرسل مع أقوامهم، والصراع بين الأخيار والفُجّار فهو قصص كما أنه أخبار.

---

(١) راجع في المعنى اللغوي: للقصص: المفردات في غريب القرآن: ص ٤٠٤. النهاية لابن الأثير: ٤/ ٧٠. لسان العرب: ٣/ ١٠٦ الكليات: ص ٧٣٤.

وتعرف القصة بأنها «فن حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود.

والقصة فن أدبي قديم صاحَبَ الأمم من عهد البداوة وإلى عهد ذروة الحضارة، ومكانتها ممتازة بين الفنون الأدبية لمرونته، واتساعه للأغراض المختلفة، ولجمال أسلوبه، وخفّته على النفوس، وقد بلغ به القرآن ذروة السمو والكمال»[1].

أسلوب القصة:

استخلص الباحثون في مجال القصة الأسلوب الذي يميز القصة عما سواها من الألوان الأدبية، وقد حدّد بعض الباحثين هذه الخصائص في النقاط التالية:

١- الصفة العامة لخطة الرواية، هي الاطراد والتسلسل بحيث يشعر القارئ أنه مسوق دائماً إلى غاية، فهو في ترقّب وشوق إلى النهاية.
٢- تكون القصة منسقة تنسيقاً منطقياً وتوجز، وتحذف منها التفاصيل التافهة.
٣- تكون القصة ذات مغزى رئيس يُفهم من السياق بطريق غير مباشر.
٤- يجب أن تكون العبارات سهلة واضحة، لأن القارئ معني بمجرى حوادث القصة.
٥- تنوع العبارة بين الرقة والقوة حسب المواقف والشخصيات.
٦- تنوع الأسلوب بين القصص والوصف والحوار.
٧- من مظاهر الأسلوب القصصي المبالغة أحياناً للتنبيه إلى النقاط المهمة، وكذلك المفاجآت، والرمز، ليفتح المجال للخيال.

---

(١) معجم علوم اللغة العربية. د. محمد سليمان عبدالله الأشقر: ص ٣٢٠.

٨- قد يدخل الحب كعنصر ثانوي في القصص لقوته، ولأنه عاطفة مشتركة بين البشر[(١)].

أهمية القصص :

القصص لون من ألوان الأدب، يقبل الناس عليه ما لا يقبلون على غيره، فهو حبيب إلى نفوسهم، أثير عندهم، تهواه النفوس وتطرب له القلوب، وتصغي إليه الأسماع.

ولأهميته فقد تعددت أنواعه في هذا العصر، فمنه الرواية، وهي القصة الطويلة الكثيرة الأشخاص المتشابكة المواقف والحوادث، ومنه القصة القصيرة، وتسمى الأقصوصة، ومنه القصص الخيالية، والقصص الواقعية، والقصص الرمزية، ومن القصص الخيالي القصص الحيواني، الذي يجعل المؤلف أبطال قصته حيوانات تتكلم وتفكر، وتدبر، وتنطق بالحكمة.

وقد كثر في أيامنا كتابة القصص، وحُوِّلت كثير منها إلى مسرحيات وأفلام، تمثل القصة كما وقعت أو كما تخيّلها صاحبها، وأصبحت تُعرض في قاعات السينما وعلى شاشات التلفاز، وهذه الروايات الممثلة تحمل عقائد كاتبيها وأفكارهم وأخلاقهم وقيمهم، وتحرص كثير من الدول على بث ثقافتها وقيمها من خلال هذه الروايات عبر الأفلام المختلفة وعبر الكتب والمجلات، لأسْر عقول البشر وقلوبهم، ليصبحوا تبعاً لها، دائرين في فلكها.

---

(١) معجم علوم اللغة: د. محمد سليمان عبدالله الأشقر: ص ٣٢٠.

أهمية القصص القرآني والحديثي :

وأحسن القصص، القصص القرآني المنزّل من العليم الخبير ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف:٣]، ويأتي قصص الحديث النبوي في المرتبة التالية للقرآن.

لقد اعتاد كثير من الناس أن يقرؤوا القصة للمتعة والتسلية، لأنه استقر عندهم أن أكثر القصص لا يمثل الحقيقة، وإنما هو تأليف وتلفيق، يدلك على هذا أن كثيراً من القصص يستحيل وقوعها، فهي قصة متخيلة الوقائع والأحداث، وكثير من القصص الشعبية المرويّة عن الأوائل وخاصة الفرس والروم هي من هذا النوع، وكانت تدعى بالأسطورة، ومنها قصص ألف ليلة وليلة، ومن هذا القصص عند العرب قصة عنترة، وقصة أبي زيد الهلالي، وهذا النوع لا يزال له وجود قوي في أيامنا، وقد ابتكر الكُتّاب اليوم نوعاً يسمى بالخيال العلمي، يتخيل الكاتب فيه ما يمكن أن يصل إليه البشر مستقبلاً، ويصوّر حال الناس في ذلك الوقت.

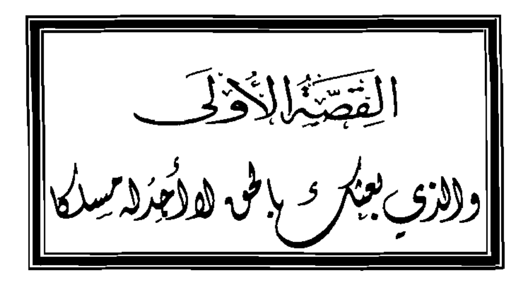
إن القصص في القرآن وصحيح الحديث صدق كله، وحق كله، فهو يحكي أخباراً وقعت، ليس فيها نقص ولا زيادة، ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف:١٣]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران:٦٢]. ولا يكون القصص حقاً إلا إذا قصّه القاص كما وقع من غير تزيّد فيه، والله تبارك وتعالى منزّه عن الكذب، فلا يمكن أن يقص قصصاً لم يقع ولم يحدث، والله تعالى عليم سميع بصير، شاهد حاضر، ولذا فإنه عندما يقص علينا يقصّ بعلم المشاهد الحاضر ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف:٧].

ومتى أيقن العباد أن ما يتلى عليهم من قصص القرآن وما بلغهم من حديث الرسول ﷺ كله حق وصدق، فإنه سيكون له أثر عظيم في تقويم نفوسهم، وتهذيب طباعهم، وأخذهم العبر والعظات من هذه القصص.

وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يقص على الناس ما يعلمه من القصص، لعل الناس يتفكرون في أحوال الغابرين، ويقيسون أنفسهم بهم، فيأخذوا العبرة لأنفسهم، فيبتعدوا عن مسارهم إن كانوا ظالمين، ويتأسّوا بهم إن كانوا صالحين ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦]. ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف:١١١].

لقد كان الرسل والدعاة يأخذون العظة من قصص السابقين، وقد كان قصص القرآن وقصص الحديث النبوي ولا تزال زاداً تروي النفوس، وتُثَبِّتُ القلوب، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠]. إن الحياة الإنسانية فوق ظهر هذه الأرض متشابهة في استقامتها وانحرافها، والنماذج البشرية المنحرفُ منها والمستقيم نماذج مكرورة، ولذا فإن القرآن الكريم والحديث النبوي يحدثنا كلٌّ منهما أحاديث نجد فيها أنفسنا، أو نجد فيها رجالاً من حولنا، فكأنما النصوص وهي تروي قصة فلان تحدثنا عما نعانيه من البلاء، أو ننعم به من الرخاء، أو كأنما هي تحدثنا عن الحاكم العادل الذي يعيش بيننا، أو الجبار الطاغية الذي يصول ويجول مفسداً في الأرض، وقد تحدثنا عن نماذج إنسانية عادية، فقد يكون المتحدث عنه مزارعاً صالحاً، أو تاجراً أميناً صادقاً، أو إنساناً رحيماً، وقد نرى هذا النموذج في فلاح نعرفه، أو تاجر نعامله، أو رجل أصابتنا نفحات من رحمته.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



تمهيد

عنوان القصة كلمة قالها أبو هريرة للرسول ﷺ عندما ألحّ عليه مرة بعد مرة أن يشرب من اللبن الذي قدّمه له، فقد شرب حتى تضلع وارتوى ولم يعد يطيق أن يشرب أكثر مما شربه، وكان قبل ذلك بقليل خائفاً أن لا يصيبه من ذلك اللبن ما يطفئ عطشه، ويروي غلّته.

نص الحديث

عن مجاهد، أن أبا هريرة كان يقول: «الله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجرَ على بطني منَ الجوع.

ولقد قعدتُ يوماً على طريقهم الذي يخرجونَ منه، فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألتُه إلا ليُشبعَني، فمرَّ ولم يفعَل، ثم مرَّ بي عمرُ فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ فلم يفعل، ثم مرَّ بي أبو القاسم ﷺ فتبسمَ حينَ رآني، وعرَف ما في نفسي، وما في وجهي، ثم قال: يا أبا هِرٍّ، قلتُ: لبَّيكَ يا رسول الله ، قال: الحَقْ، ومَضى. فتَبعتُه، فدخل، فاستأذنَ، فأذن لي، فدخَلَ فوجد لبَناً في قَدَح

فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداهُ لكَ فلان أو فلانة قال: أبا هِرّ، قلت: لبَّيكَ يا رسول الله ، قال: الحَقْ إلى أهلِ الصُّفة فادْعهم لي.

قال: وأهلُ الصفة أضيافُ الإسلام، لا يأوون على أهلٍ ولا مال، ولا على أحدٍ، إذا أتَتْه صدَقة بعثَ بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتَتْه هديةٌ أرسلَ إليهم وأصابَ منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهلِ الصفة؟ كنتُ أحقُّ أنا أنْ أُصيب من هذا اللبن شَربةً أتقوَّى بها، فإذا جاؤوا أمرني، فكنتُ أنا أُعطيهم، وما عسى أن يبلُغَني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدّ، فأتيتُهم فدعوتهم، فأقبلوا، فاستأذنوا فأذِنَ لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت.

قال: يا أبا هِرّ، قلت: لبيك يا رسولَ الله، قال: خُذْ فأعطِهم، فأخذتُ القدح، فجعلتُ أُعطيه الرجلَ، فيشربُ حتى يَروَى، ثم يَردُّ عليَّ القدح، فأُعطيه الرجلَ، فيشربُ حتى يَروَى، ثم يردُ عليَّ القدح، فيشرَبُ حتى يروَى، ثم يرُدُّ عليَّ القدح، حتى انتهيتُ إلى النبيّ ﷺ ، وقد رَوِيَ القومُ كلهم.

فأخذ القدَح، فوضعهُ على يدهِ، فنظرَ إليَّ فتبسمّ، فقال: أبا هرٍّ، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيتُ أنا وأنت. قلتُ: صدَقتَ يا رسول الله، قال: اقعد فاشربْ، فقعدتُ فشربت، فقال: اشربْ، فشربت، فما زال يقول: اشربْ، حتى قلتُ: لا والذي بعثك بالحق، ما أجدُ له مَسلكاً. قال: فأرني، فأعطيتُه القدح، فحمدَ الله وسمَّى وشربَ الفَضْلة ».

تخريج الحديث

رواه البخاري بتمامه في كتاب الرقاق، « باب كيف كان عيش النبي ﷺ » [رقمه: ٦٤٥٢].

ورواه الترمذي في سننه ورقمه: [٢٤٧٧] وقال فيه: «هذا حديث حسن صحيح».

غريب الحديث

آللهِ الذي لا إله إلا هو	: هذا قَسَمٌ من أبي هريرة بحذف واو القسم، أو أن الهمزة بمنزلة واو القسم. قاله الحافظ أبو ذر. اهـ. من النسخة اليونينية للتأكيد على الحال الصعبة التي كان عليها في عهد الرسول ﷺ.
أعتمد بكبدي على الأرض من الجوع	: أي ألصق بطني بالأرض من الجوع.
إن كنت لأشدُّ الحجر على بطني من الجوع	: كان من عادة أحدهم إذا أصابه جوع شديد أخذ حجراً رقيقاً قدر الكف، فيضعه على بطنه، ثم يشدّه بعصابة، لتعتدل قامته.
الحقْ	: أمر من الرسول ﷺ لأبي هريرة أن يتبعه.
الْحقْ بأهل الصفة	: اذهب إلى أهل الصفة فادعهم.

شرح الحديث

يحدثنا أبو هريرة ﷺ عن الحال التي كان يبلغها من الجوع في العهد النبوي، فقد كان يصل به الجوع الشديد إلى أن يلصق بطنه بالأرض من

شدة الجوع إذا كان نائماً، فإذا قام أخذ حجراً رقيقاً فوضعه على بطنه، ثم عصبه بعصابة حتى تعتدل قامته.

وكان يبلغ به الحال أعظم من ذلك، فقد كان في بعض الأحيان يخرُّ على وجهه من الجهد والجوع، كما روى ذلك عنه البخاري في صحيحه [٥٣٧٥].

وكانت تأبى عليه نفسه أن يستجدي غيره، ويسأله مذقة اللبن، أو كسرة الخبز، وكذلك حال المتعففين، يظنهم من يراهم أغنياء، وواقع الحال أن بهم من البلاء ما الله به عليم ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة:٢٧٣].

وكان في بعض الأحيان يتعرض لصحابة الرسول ﷺ الذين عندهم شيء من المال، وقد قعد يوماً في الطريق الذي اعتاد بعض الصحابة من ذوي الثراء المرور منه، لعلهم يفطنون لما به من البلاء، فيدْعونه، فيذهبون ما به من شدة الجوع، فمرّ به أبو بكر فسأله عن مسألة علمية، فأجابه، ولم يدْعُهُ، ثمّ مرَّ به عمر، فكان منه ما كان من أبي بكر، ولعلهما لم يفطنا لحاله، أو فطنا له، ولكن لا يوجد عندهما في ذلك اليوم ما يواسيانه به، فقد كان الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر يخرجهم من بيوتهم الجوع في بعض الأحيان.

ثم مرّ به رسول الله ﷺ ، فما إن رآه حتى عرف حاله ومصابه، فتبسّم في وجهه، وناداه آمراً إياه باتباعه إلى منزله، واستأذن على أهله، وأدخله داره.

فوجد في الدار لبناً في قدح، فاستعلم الرسول ﷺ من أهله عن مصدر هذا اللبن، فإذا به هدية من بعض أصحابه، فأمر الرسول ﷺ أبا هريرة أن ينطلق فيدعو له أهل الصفة، هكذا... كل من وجده من أهل الصفة.

ولك أن تتصور حال أبي هريرة والرسول ﷺ يأمره أن يدعو أهل الصفة، وهم جمع غفير، والطعام الذي يدعوهم إليه قدح لا يكاد يكفي الواحد أو الاثنين، لقد كان أبو هريرة يرجو أن يدفع إليه الرسول ﷺ ، وقد بلغ به الجوع مداه، هذا اللبن يسد به جوعته، ويقيم به أوده، ويتقوى به على ضعفه.

لقد كان أبو هريرة يحدث نفسه بهذا الحديث، وهو منطلق إلى أهل الصفة يدعوهم، وتصور في نفسه ما يمكن أن يحدث بعد دعوته إياهم، لقد قام في نفسه أن الرسول ﷺ سيأمره بعد دخول أهل الصفة عليه أن يسقيهم ذلك اللبن، وخشي أن يأتوا عليه، ولا يبقى له منه شيء.

وكان الأمر على النحو الذي توقّعه أبو هريرة ﷺ ، فبعد أن استأذنوا ودخلوا على رسول الله ﷺ ، وأخذوا أماكنهم، ناوله الرسول ﷺ القدح آمراً إياه أن يباشر إسقاءَهم منه، فكان يناول الرجل القدح، فيشرب، ثم يعيده إلى أبي هريرة، فيناوله إلى الآخر، وهكذا، حتى شربوا جميعاً، وانتهى بالقدح إلى رسول الله ﷺ ، فأخذ صلوات الله وسلامه عليه القدح، ووضعه على يده، وكأنه علم ما دارَ في خلد أبي هريرة، من خشيته أن ينتهي اللبن من غير أن ينال منه شيئاً، فتبسّم ﷺ ، وناداه قائلاً: «أبا هرّ»، فقال أبو هريرة: «لبيك يا رسول الله»، قال: «بقيت أنا وأنت»، فقال: «صدقت يا رسول الله». فقال: «اقعد فاشرب». فشرب أبو هريرة، ثم أمره أن يشرب أخرى، وما زال يأمره بأن يشرب، حتى لم يطق أبو هريرة أن يتناول المزيد، لقد شرب وتضلع، وامتلأ بطنه، وأقسم للرسول ﷺ أنه لا يجد له مسلكاً.

عند ذلك أخذ الرسول ﷺ الفضلة التي في الإناء، فحمد الله وسمَّى، وشرب ما بقي فيه، فانتهى اللبن الذي في القدح بشرب الرسول ﷺ منه.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- بيان الحال الصعبة التي كان عليها الرسول ﷺ وكثير من أصحابه، فما أصاب أبا هريرة من الجوع الشديد لم يكن قصراً عليه، فأهل الصفة كانوا جميعاً على مثل حاله، بل كان الجوع الشديد يصيب الرسول ﷺ وكبار صحابته.

٢- مشروعية القَسَم في غير الخصومة، ومن غير طلب، فقد أقسم أبو هريرة لسامعيه الذين كان يحدّثهم عن الحال التي كان عليها في عهد الرسول، «الله الذي لا إله إلا هو إن كنت» وأقسم ثانياً للنبي ﷺ بعد أن شبع، والرسول ﷺ يدعوه إلى تناول المزيد «والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً».

٣- كتمان الحاجة والتلويح بها أولى من إظهارها والتصريح بها، وهذا من مكارم الأخلاق على ما قرره أهل العلم، وهذا ما جرى من أبي هريرة، فمع جوعه الشديد أبت عليه عزة نفسه أن يصرح به لمن عرض لهم، وأرادهم أن يعرفوه بفطنتهم.

٤- عِظَم فطنة النبي ﷺ ، ومدى اهتمامه بأصحاب الحاجة من أصحابه، فما إن وقع نظره على أبي هريرة حتى عرف ما به، ثم دعاه إليه ومن كان على شاكلته من أهل الصفة، فأزال ما بهم من الجوع بما أُهدِيَ إليه.

٥- مشروعية التبسّم في الأحوال التي تدعو إلى التبسّم، فمن ذلك تبسّمه ﷺ في وجه أبي هريرة، ليطمئنه أنه عرف ما خفي من حاله، وأنه سيلبي حاجته، وتبسّم أخرى تعجباً من حال أبي هريرة، فقد أدرك ما قام في نفسه من خشيته أن لا يبقى له من اللبن شيء، فأمره أن يشرب حتى لم يبقَ من جوعه شيء، وإنه لموضع تبسّم.

٦- مشروعية التكني، فقد كنّى أبو هريرة الرسولَ ﷺ بكنيته التي عُرِفَ بها (أبو القاسم) ونادى الرسول ﷺ أبا هريرة بكنيته التي كان يُنادى بها (أبا هرّ).

٧- دلّ الحديث على ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النور:٢٧]. فالرسول ﷺ استأذن لأبي هريرة حين دخل داره، وأهل الصفة استأذنوا حين دخولهم على الرسول ﷺ.

٨- كان اللبن الذي وجده الرسول ﷺ من بعض أصحابه، وهذا يدل على أنه كان يقبل الهدية، ولكنه كان لا يقبل الصدقة، بل يرسل بها إلى الفقراء من أصحابه.

٩- ضَيَّف الرسول أصحابه من أهل الصفة من اللبن الذي أُهدِيَ إليه، وهذا يدل على جواز تضييف الرجل مما أُهدِيَ إليه، كما يجوز بيعه، وهو يدل على خطأ ما يدور على ألسنة الناس من أن الهدية لا تُهدى ولا تُباع، ذلك أن المهدَى إليه بقبضه الهدية ملكها، ثم يجوز للمالك أن يتصرف فيما يملكه، ولذلك كان الرسول ﷺ يأكل مما تُصدق به على بريرة، وعلَّل ذلك بأنه وإن كان صدقة على بريرة، فإنه منها هدية له، فبريرة ملكت، ثم أهدت.

١٠- مشروعية قول الرجل: لبيك، كما قال أبو هريرة ذلك للرسول ﷺ عندما ناداه، ويكثر قول ذلك إذا كان المنادي له سلطان أو آمر على من ناداه.

١١- وجوب طاعة الرسول ﷺ في المنشط والمكره، فأبو هريرة مع شدة جوعه ومعاناته، أطاع، ودعا أهل الصفة، وصبر على جوعه، ولم يرد على الرسول ﷺ أمره.

١٢-دعا الرسول ﷺ أهل الحاجة إلى منزله، فدعا أبا هريرة، ودعا أهل الصفة، وكان هذا دأبه معهم، إن جاءَته صدقة أرسل بها إليهم، وإن جاءَته هدية أشركهم معه، ولأولي الأمر به أسوة وقدوة، فعليهم تفقّد أهل الحاجة والاهتمام بأمرهم.

١٣-على المسلم أن يسأل أهله عما دخل داره بغير علمه، كما سأل الرسول ﷺ أهله عن مصدر اللبن الذي وجده في داره.

١٤-لا يستطيع المسلم مهما علا إيمانه، وقوي إسلامه أن يمنع وساوس الشيطان أن تدور في خلده، فأبو هريرة أهمه ما أمره به الرسول ﷺ من دعوة أهل الصفة، وأخذ يتصور ما سيجري، والذي سيكون عاقبته أن لا يبقى له من اللبن شيء.

١٥-البركة التي أجراها الله على يدي رسوله ﷺ ، فقد بارك الله في اللبن القليل الذي لا يكاد يكفي الواحد أو الاثنين فكفى الجمع الكبير، وهذا جرى على يد الرسول ﷺ مرات كثيرة.

١٦-هَدْي الرسول ﷺ في تقديم الشراب إلى ضيوفه، فلم يكن يشرب الرجل اللبن، ثم يناوله إلى من يليه، بل كان أبو هريرة ﷺ - بتكليف من الرسول ﷺ - يناول الرجل، فيشرب حتى يُروى، ثم يردّه إلى أبي هريرة، ليناوله إلى من يلي الأول، وهكذا، وهذا من حُسْن الأدب، ومزيد التكريم والعناية بالضيف.

١٧-ومن هدي الرسول ﷺ أنه لم يأمر أبا هريرة أن يشرب اللبن بعد أن سقى القوم، ولكنه أخذه منه، ثم أمره بالقعود، ثم ناوله الإناء، وطلب منه الشرب، فكان لأبي هريرة فضل مناولة الرسول ﷺ له الإناء والإسقاء.

١٨- لا حرج على صاحب المنزل إذا سقى ضيوفه قبله، ولو لم يكن هو الساقي، فأبو هريرة سقى القوم قبل الرسول ﷺ ، ولابد أن ذلك كان عن أمره.

١٩- ساقي القوم آخرهم شرباً، فأبو هريرة شرب بعد أن سقى القوم، والرسول ﷺ بعد أن صار إليه الإناء شرب بعد شرب أبي هريرة.

٢٠- شرب الصحابة من إناء واحد، يأخذ كل واحد منهم حاجته، ولا حرج على من قدّم الشراب لضيوفه في كاسات أو أوانٍ صغيرة، فقد كان للرسول ﷺ إناء صغير يسمى (الغمر) يكفي الواحد، يصب له فيه الماء.

٢١- شرب ضيوف رسول الله ﷺ من أهل الصفة جلوساً، وأمر الرسول ﷺ أبا هريرة أن يجلس فيشرب، وجاءَت أحاديث كثيرة تدل على أن الشرب جالساً من هدي الرسول ﷺ وسنّته.

٢٢- لا حرج على ولي الأمر أو العالِم أن يكلف بعض أتباعه ببعض المهمات، كما كلّف الرسول ﷺ أبا هريرة بدعوة أهل الصفة، وإسقاء القوم اللبن.

٢٣- كريم سجايا رسول الله ﷺ ، وحُسْن تلطّفه بأصحابه، فعندما رأى الرسول ﷺ أبا هريرة جائعاً تبسّم في وجهه وناداه، وأمره أن يتبعه، وعندما سقى أبو هريرة من حضر من أهل الصفة نظر إليه متبسماً، وقال له: بقيت أنا وأنت، ثم أمره أن يقعد ويشرب.

٢٤- شرب أهل الصفة من اللبن الذي ضيّفهم منه الرسول ﷺ حتى رووا وشبعوا، وأمر الرسول ﷺ أبا هريرة بالشرب من اللبن مرة بعد مرة، حتى لم يجد له مسلكاً، وهذا يدل على جواز أن يأخذ الرجل من

الطعام لدرجة الشبع، خاصة في مثل حال الصحابة الذين لا يجدون الطعام والشراب إلا في مرات متباعدة.

٢٥- مشروعية البداءة بالحمد مع التسمية قبل الطعام والشراب، كما فعله الرسول ﷺ عندما شرب فضلة اللبن الذي في الإناء، وقد يقال: إن المستحب هو التسمية، أما حمده ﷺ في ذلك المقام فلما أنعم الله به وتفضّل من كفاية ذلك اللبن القليل الجمع الكبير.

٢٦- الحياة الطيبة الهنية التي كان ينعم بها الصحابة مع رسولهم ﷺ ، فأهل الصفة الفقراء نعموا بصحبة رسول الله ﷺ ، وكانوا يرون الآيات تجري على يديه، حتى وهم يتناولون شرابهم، فالمذقة القليلة من اللبن تكفي جموعهم، وتشبعهم عن آخرهم، لقد كان يقدم دلائل صدقه، فيرونها من غير خفاء، فلا يأثر فيهم البلاء واللأواء، لقد كان أهل الصفة الفقراء، أضياف الإسلام، وجند الإسلام، ورافعي لوائه، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

٢٧- يجب على العاملين بالإسلام أن لا يحتجوا بضيق ذات اليد في ترك العمل للإسلام، فالذين بنوا الأمة الإسلامية في عهدها الأول، كانوا على ما وصفتهم الأحاديث الدالة على قلّة ما كان في أيديهم، ولكنهم بذلوا جهدهم فأعانهم ربهم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩].

٢٨- العسر لا يدوم، فقد وسّع الله على الذين طالت أعمارهم من الصحابة، فجاءتهم الدنيا صاغرة، وملكوا كنوز كسرى وقيصر، ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴾ [نوح:١٠-١٢].

٢٩-معرفة الكيفية التي كان يعالج بها الرسول ﷺ بعض المشكلات في المجتمع المسلم، ومن ذلك فقراء الصحابة الذين خصّص لهم الرسول ﷺ موضعاً في المسجد لمبيتهم، وفيهم يقول أبو هريرة في هذا الحديث: «وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال، ولا على أحد». وكانوا يقلون ويكثرون، فربما اجتمعوا فكثروا، وربما تفرقوا في السفر وغزوا فقلوا، وقد يغتني بعضهم، فيتحول من الصفة، وكان رسول الله ﷺ يعنَى بهم، ويرعاهم، فكان في كثير من الأحيان يوزعهم على أصحابه من أصحاب اليسار، ويأخذ عدداً منهم إلى منزله، وإذا جاءته صدقة بعث بها إليهم، وإذا جاءته هدية، نالَ منها، وأرسل لهم بعضاً منها، وربما دعاهم إلى منزله، فأشركهم في الهدية التي جاءته.

٣٠-مع أن النصوص من الكتاب والسنّة تأمر بالبذل والإنفاق وتحث على رعاية الفقير والمسكين واليتيم وابن السبيل فإنها لا تأمر الأغنياء بالخروج من أموالهم وبذلها جميعاً للفقراء، ففي الحالة الصعبة التي يحدث عنها أبو هريرة، والتي كان أهل الصفة يبلغون فيها المئات أحياناً كان عدد كبير من الصحابة أغنياء يملكون الكثير من الحرث والزرع، وكان فيهم التجار، ولم يأمر الرسول ﷺ الأغنياء بالخروج عن أموالهم.

٣١-أحاديث أخرى تبين صعوبة معيشة الرسول ﷺ وصحبه.

لم يكن يحظى رسول الله ﷺ بنصيب وافر من نعيم الدنيا، فقد كانت حياته وأهله كفافاً، بل دون الكفاف، ولو شاء ﷺ لأغدق الله عليه من خيرات الأرض، ولو شاء لملأ بطنه دائماً من غير كبير عناء، ولكنه

صلوات الله عليه اختار أن يكون عبداً شكوراً يجوع يوماً ويشبع يوماً، وكذلك كان حال أصحابه في حياته.

وقد أورد البخاري بعد حديث أبي هريرة جملة من الأحاديث التي تصوّر الحال التي كان عليها الرسول ﷺ وكثير من أصحابه من شظف العيش، وقلة المؤونة، فمن ذلك:

١- ما رواه عن سعد بن أبي وقاص قال: «رأيتنا نغزو، وما لنا طعام إلا ورق الحبلة، وهذا السَّمُر، وإن أحدنا ليضع كما تضع الشاة، ما له خِلْط» والحُبْلَةُ والسمر: نوعان من شجر البادية، وقيل: الحبلة هو شجر السمر، وقيل: ثمرة تشبه اللوبيا. ومراده بقوله: «كما تضع الشاة»، أي: عند التغوط، يكون هيئة البراز جافة كهيئة ما تضعه الشاة أو الجمل من البعر.

٢- عن عائشة قالت: «ما شبعَ آل محمد منذ قدِمَ المدينة من طعام بُرٍّ ثلاث ليال تِباعاً حتى قُبض».

٣- عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما أكل آل محمدٍ ﷺ أكلتين في يوم إلا إحداهما تمرٌ».

٤- عن عائشة قالت: «كان فِراشُ رسولِ الله ﷺ من أدَم وحشْوُهُ لِيف».

٥- عن قتادة قال: كنا نأتي أنس بن مالك، وخبّازُه قائم، وقال: «كلوا، فما أعلمُ النبيَّ ﷺ رأى رغيفاً مرَقَّقاً حتى لحقَ بالله ، ولا رأى شاةً سَميطاً بعينه قط».

٦- عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يأتي علينا الشهر ما نوقِدُ فيه ناراً، إنما هو التمرُ والماء، إلا أن نُؤتى باللُّحَيم».

٧- عن عُروة، عن عائشة أنها قالت لعروة: «ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلالِ، ثلاثةَ أهلةٍ في شهرين، وما أُوقِدَتْ في أبياتِ رسولِ الله ﷺ نارٌ.

فقلتُ: ما كان يعيشُكم؟ قالت: الأسْودان التمرُ والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار كان لهم منائحُ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من أبياتهم، فيسْقيناه».

٨- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «اللهم ارزُق آلَ محمد قوتاً»[(١)].

* * *

(١) انظر هذه الأحاديث في صحيح البخاري وأرقامها: (٦٤٥٣-٦٤٥٨) وإن شئت الاطلاع على مزيد من الأحاديث التي تصف حال الرسول ﷺ وأصحابه في معاشهم، فارجع إلى جامع الأصول لابن الأثير (٤/ ٦٨٢).

القِصَّةُ الثَّانِيَةُ
ادعُ اللهَ أن يَهدِيَ أُمَّ أبي هُريرة

تمهيد

هذه العبارة التي عنونت بها لهذه القصة قالها أبو هريرة ﷺ للرسول ﷺ عندما جاءَه باكياً، طالباً منه أن يدعو لأمّه بالهداية إلى الإسلام، وكان دعاها كثيراً فرفضت، وفي ذلك اليوم طفح به الكيل عندما أسمعته في رسول الله ﷺ ما يكره، فدعا لها الرسول ﷺ بالهداية، فأسلمت في الحال.

نص الحديث

عن يزيد بن عبدِ الرَّحْمَنِ، قال: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ، قالَ: «كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الإِسْلاَمِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ. فَدَعَوْتُها يَوْماً فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ. فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الإِسْلاَمِ فَتَأْبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ. فَادْعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (اللَّهُمَّ! اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ) فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِراً بِدَعْوَةِ النَّبِي ﷺ ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى البابِ، فإذا هُوَ مُجَافٌ، فَسَمِعَتْ أُمِّي خَشْفَ قَدَمَيَّ. فَقَالَتْ: مَكَانَكَ! يا أَبَا هُرَيْرَةَ! وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْماءِ.

قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَها وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا. فَفَتَحَتِ الْبَابَ. ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَبْشِرْ قَدِ اسْتَجَابَ الله دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْراً.

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! ادْعُ الله أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «اللَّهُمَّ! حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ. وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ» فما خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي، وَلاَ يَرَانِي، إِلاَّ أَحَبَّنِي».

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة، [ورقمه: ٢٤٩١].

غريب الحديث

مجاف : أجفت الباب؛ فهو مجاف إذا أغلقته.

خشف قدمي : أي: صوتهما.

خضخضة الماء : صوته عند تحريكه.

مكانك : أي: الزم مكانك، ولا تدخل.

شرح الحديث

كان أبو هريرة صادقاً في إيمانه، يحمل دعوة الإسلام إلى العالمين، ويجاهد في سبيل هذا الدين، وهذا النوع من الرجال أكثر ما يؤلمهم أن يكون أقرب الناس إليهم كفاراً، يحادون الله ورسولَه، وهذا ما كان من أم أبي هريرة، فكان يديم دعوتها إلى الإسلام فتأبى.

وفي يوم من الأيام طفح بأبي هريرة الكيل، فعندما دعا أمّه إلى الإسلام أسمعته في رسول الله ﷺ ما يكرهه، فغاظته أيّما غيظ، حتى بلغ به غيظه وحزنه وألمه أن تنحدر دموعه على لحيته، وتتقاطر منها، وهو منطلق إلى رسول الله ﷺ يبثه حزنه، ويعرفه مصابه، ويطلب منه أن يدعو لأمه بالهداية، فلم يخلف الرسول ﷺ ظنه، ولم يرد طلبه، وقال داعياً ربّه: «اللهم اهدِ أم أبي هريرة».

فسرّ أبو هريرة واستبشر بدعوة رسول الله ﷺ ، وعاد إلى داره لينظر أثر هذه الدعوة المباركة، وكم كانت فرحته غامرة، إذ تحقق له بدعوة رسول الله ﷺ في وقت يسير ما عجز عنه في السنوات الطوال الغابرة. لقد وجد باب الدار مغلقاً على أمه، وسمع صوت الماء مما يدل على أنها تغتسل، وسمعت أمه صوت قدميه قادماً، فطلبت منه الانتظار في مكانه، ولبست ثيابها سريعاً، ولسرعتها عجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله، فرجع أبو هريرة إلى الرسول ﷺ ، ودموعه تسيل على خديه كما وقع معه في المرة الأولى، ولكن لم تكن كما كانت في المرة الأولى، ففي الأولى كانت دموع الألم والحزن، وفي الثانية كانت دموع السرور والفرح، فالمرء يبكي لحزنه ولفرحه.

عاد أبو هريرة إلى الرسول ﷺ منبسطة أسارير وجهه، باسماً ثغره، قائلاً: «يا رسول الله ، أبشر فقد استجاب الله دعوتك، وهدى أم أبي هريرة».

فحمد الرسول ﷺ ربّه في استجابته دعاءَه، وهدايته أم أبي هريرة، وأثنى على ربّه بما هو أهله، وقال لأبي هريرة خيراً. وهنا طلب أبو هريرة طلباً آخر من رسول الله ﷺ ، طلب منه أن يحبّبه وأمه إلى عباد الله المؤمنين، ويحببهم إليه وإلى أمّه، فقال رسول الله ﷺ : «اللهمّ حبّب عُبَيْدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمّه إلى عبادك المؤمنين، وحبّب إليهم المؤمنين».

وقد أيقن أبو هريرة بأن دعوة الرسول ﷺ قد أُجيبت، ولذلك قال: «فما خلق مؤمن يسمع بي، ولا يراني إلا أحبني».

وأسأل الله أن أكون ممن حبّب الله إليه أبا هريرة وأمّه، فإني كلما سمعتُ باسمه أو قرأت سيرته، شعرت بذلك الحب في قلبي، وتلك بشرى لمحبي أبي هريرة وأمه، أن تكون محبته دالة على الإيمان، والله المستعان.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- المسلم الحق يحب أن ينضم عباد الله إلى موكب الإيمان، وبخاصة أهلُه وأقرباؤه، كما وقع من أبي هريرة في دعوته أمه وحرصه على إيمانها.
٢- أثر الدعاء في هداية أهل الكفر والفساد، فقد هدى الله أمّ أبي هريرة بدعاء الرسول ﷺ ، وعلى العبد أن يلح في دعاء الله لهداية العباد كما كان يفعل الرسول ﷺ .
٣- مشروعية سؤال الآخرين الدعاء له ولأهله وتجارته ونحو ذلك، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة.

٤- إذا أسلم الكافر فعليه أن يغتسل لإسلامه، كما وقع لأم أبي هريرة وغيرها.

٥- لا يدخل الرجل منزله وفيه أمه وأقاربه إلا بعد أن يستأذن عليهم.

٦- استحباب تبشير من صنع لك خيراً بأن معروفه تحقق، كما فعل أبو هريرة بإخبار الرسول ﷺ أن دعوته استُجيبت في أمه.

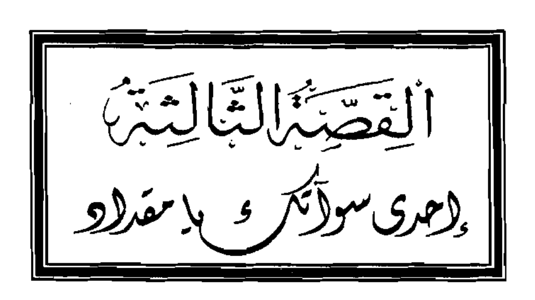
٧- حمد الله والثناء عليه إذا أحدث الله للعبد نعمة، كما فعل الرسول ﷺ حين بشّره أبو هريرة أن الله استجاب دعاءه، وحقق رجاءه.

٨- من علامات الإيمان الدالة على صدق الإيمان محبة المؤمن لأبي هريرة وأمّه.

٩- الذين يبغضون أبا هريرة، ويذكرونه بسوء، ويهزؤون به على خطر عظيم، لأن حبّ أبي هريرة وأمه من قِبَل المؤمنين، خصلة دعا بها الرسول ﷺ لأبي هريرة.

١٠-صبر أبي هريرة على أمه طيلة فترة كفرها التي امتدت إلى ما بعد هجرة أبي هريرة إلى المدينة، وهو لم يهاجر إلا بعد معركة خيبر.

* * *



تمهيد

«هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود البهراني، وقيل: الحضرمي.

قال ابن الكلبي: كان عمرو بن ثعلبة – والد المقداد – أصاب دماً في قومه، فلحق بحضرموت، فحالف كندة، فكان يقال له: الكندي، وتزوج هناك امرأة، فولدت له المقداد، فلما كبر المقداد وقع بينه وبين أبي شمر بن حجر الكندي، فضرب رجله بالسيف، وهرب إلى مكة، فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري، وكتب إلى أبيه فقدم عليه، فتبنى الأسود المقداد، فصار يقال له: المقداد بن الأسود، وغلبت عليه، واشتهر بذلك، فلما نزلت ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٥] قيل له: المقداد بن عمرو، واشتهرت شهرته بابن الأسود» (الإصابة: ٣/ ٤٥٤).

أسلم المقداد قديماً، فقد كان من أوائل الصحابة إسلاماً، وقد أفادنا المقداد في حديثه الذي حدّث به عن نفسه أنه كان فقيراً، وأنه خدم رسول الله ﷺ، ومع أن الخدمة تغضّ من قيمة صاحبها، إلا أن خدمة الرسول ﷺ كانت مجال فخر واعتزاز عند الصحابة، فخدمة الرسول ﷺ تعني طول صحبته، مما يجعل الخادم ألصق بالرسول ﷺ، وأعرف بهديه، وأكثر لأجره.

هذا الفقير الخادم للرسول ﷺ أصبح بالإسلام سيّداً، فقد صنعه الإسلام كما صنع جيل الصحابة الكرام، فكانوا خيار هذه الأمة وساداتها من غير منازع، وقد قال فيه الذهبي: « المقداد بن عمرو صاحب رسول الله، وأحد السابقين الأولين» [سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٨٥].

وللمقداد مواقف مشهورة، غبطه عليها كبار الصحابة، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه : «أول من أظهر إسلامه سبعة وذكر المقداد فيهم» وقال: «شهدت مع المقداد مشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إليّ مما عدل به» [الإصابة لابن حجر: ٣/ ٤٥٤].

والموقف الذي غبط ابن مسعود المقداد عليه هو مقالته في مسيرة الرسول ﷺ إلى بدر عندما استشار الناس، وكان مما قاله المقداد: «يا رسول الله امضِ لما أراك الله، فنحن معك والله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه» [البداية والنهاية لابن كثير: ٣/ ٢٦٢].

وكان المقداد رجل حرب وقتال، فقد وهبه الله بسطة في الجسم، فقد وصفه عارفوه بقولهم: «كان آدم طوالاً، ذا بطن، أشعر الرأس، أعين، مقرون الحاجبين، مهيباً» [سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٨٦].

وكان أحد فرسان رسول الله ﷺ الذين لا يُشق لهم غبار، وأحد المقاتلين الأشداء الذين يعتمد عليهم في الحرب والقتال، فقد شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وثبت أنه كان يوم بدر فارساً، واختلف

يومئذ في الزبير، ولم يكن لأحد من الصحابة في ذلك اليوم فرس غيرهما [سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٨٦، الإصابة: ٣/ ٤٥٤].

وذكر ابن كثير أن الرسول ﷺ جعله يوم بدر على ميسرة الجيش، وجعل الزبير على الميمنة [البداية والنهاية: ٣/ ٢٦٠].

وقد بقي المقداد حاملاً راية الجهاد إلى آخره عمره، فما منعه كبر سنّه، ووهن عظمه، عن متابعة مسيرة الجهاد، فقد روى الذهبي عن راشد الحُبْراني قال: «وافيت المقداد فارس رسول الله ﷺ بحمص على تابوت من توابيت الصيارفة، قد أفضل عليها من عِظَمِه، يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أبت علينا سورة البحوث ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ [التوبة:٤١] [سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٨٨].

وقد كان المقداد عازفاً عن الإمارة، ولي لرسول الله ﷺ مرة، ثم أقسم أن لا يلي لأحد عملاً بعد ذلك، فقد جاء عنه أنه قال: « استعملني رسول الله ﷺ على عمل، فلما رجعت قال: (كيف وجدت الإمارة؟) قلت: يا رسول الله، ما ظننت إلا أن الناس كلهم خول لي، والله لا الي على عمل ما دمت حيّاً».

وقد كان المقداد صاحب نظرة ثاقبة، ورأي راجح، يدلك على ذلك موقفه الذي سبق ذكره عند مشورة رسول الله ﷺ لأصحابه في مسيره إلى بدر، ومن ذلك أن بعض من صحبوه غبطوه على صحبته لرسول الله ﷺ ، ورؤيته له، فقد قال له أحدهم: «طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت».

فلم يرضِ المقداد مقالته، فما يدري القائل أنه لو أدرك رسول الله ﷺ لكفر به كما كفر به غيره، فإن مما يعين المرء على الإسلام أن يوجد في مجتمع مسلم فيأخذ الإسلام بيسر وسهولة، ولذلك قال المقداد لذلك الغابط في مجمع من الناس: «ما يحمل أحدكم أن يتمنى محضراً غيَّبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام كبّهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه، ولم يصدّقوه، أوَلا تحمدون الله، لا تعرفون ربكم إلا مصدقين بما جاء به نبيكم، وقد كفيتم البلاء بغيركم، والله لقد بُعث النبيُّ ﷺ على أشدّ حال بعث عليه نبيٌّ في فترة وجاهلية، ما يرون ديناً أفضلَ من عبادة الأوثان، فجاء بفُرقان حتى إن الرجل ليرى والده، أو ولده، أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان، ليعلم أنه قد هلك من دخل النار، فلا تقرُّ عينه وهو يعلم أن حميمه في النار، وإنها للتي قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان:٧٤] [سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٨٨].

وكما حظي المقداد بلقب صاحب رسول الله ، وفارس رسول الله ﷺ فقد حظي بمصاهرة الرسول ﷺ ، فقد زوّجه الرسول ﷺ ابنة عمّه ضُباعة بنت الزبير، وكان سبب ذلك أن عبدالرحمن بن عوف قال للمقداد: «ما لك لا تتزوج؟ قال: زوّجني ابنتك، فغضب عبدالرحمن، وأغلظ له» فشكا ذلك للنبي ﷺ ، فقال: (أنا أزوجك) فزوّجه بنت عمّه ضباعة بنت الزبير ابن عبدالمطلب [الإصابة: ٣/ ٤٥٤].

لقد كان المقداد حبيباً إلى الله، حبيباً إلى رسول الله ﷺ ، حبيباً إلى صحابة الرسول، وسيبقى المقداد أحد الذين يحبّهم المؤمنون إلى قيام الدين.

نصّ الحديث

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبي لَيْلَى، عَنِ الْمِقْدَادِ، قَالَ: أَقْبَلْتُ أنَا وَصَاحِبَانِ لِي، وَقَدْ ذهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ، فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا.

فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَانْطَلَقَ بنَا إلَى أَهْلِهِ، فَإذا ثلاثَةُ أعْنُزٍ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ ((احْتَلِبُوا هَذا اللَّبَنَ بَيْنَنَا))، قَالَ: فَكُنَّا نَحْتَلِبُ، فَيَشْرَبُ كُلُّ إنْسَانٍ مِنَّا نصيبَهُ، وَنَرْفَعُ للنَّبِيِّ ﷺ نصِيبَهُ، قَالَ: فَيَجيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيماً لاَ يُوقِظُ نائِماً. وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَيُصَلِّي، ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ.

فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذاتَ لَيْلَةٍ، وَقَدْ شَرِبْتُ نصِيبِي. فَقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الأَنْصارَ فَيُتْحِفُونَهُ، وَيُصيبُ عِنْدَهُمْ. مَا بِهِ حَاجَةٌ إلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ. فَأَتَيْتُها فَشَرِبْتُها. فَلَمَّا انْ وَغَلَتْ في بَطْنِي، وَعَلِمْتُ أنَّهُ لَيْسَ إلَيْهَا سَبيلٌ. قَالَ: نَدَّمَنِي الشَّيْطَانُ. فَقَالَ: وَيْحَكَ! مَا صَنَعْتَ؟ أَشَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ؟ فَيَجيءُ فَلاَ يَجِدُهُ، فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ. فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ. وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ. إذا وَضَعْتُها عَلَى قَدَمَيَّ خَرَجَ رَأْسِي، وَإذا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي خَرَجَ قَدَمايَ. وَجَعَلَ لاَ يَجيئُنِي النَّوْمُ. وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ. قَالَ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ. ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى. ثُمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ فَلَمْ يَجِدْ فيهِ شَيْئاً. فَرَفَعَ رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ: الآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ. فَقَالَ: ((اللَّهُمَّ! أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي. وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي)).

قَالَ: فَعَمَدْتُ إلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُها عَلَيَّ، وَأَخذْتُ الشَّفْرَةَ، فَانْطَلَقْتُ إلى الأَعْنُزِ أَيُّها أَسْمَنُ فَأَذبَحُها لِرَسُولِ الله ﷺ ، فَإذا هِيَ حَافِلَةٌ، وَإذا هُنَّ

حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ، فَعَمَدْتُ إِلَى إِناءٍ لآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فِيهِ، قَالَ: فَحَلَبْتُ فِيهِ، حَتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ، فَجِئْتُ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟». قَالَ قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِي.

فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوِيَ، وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ، ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيتُ إِلى الأَرْضِ، قَالَ: فَقَالَ النبيُّ ﷺ: (إِحْدَى سَوْآتِكَ يَا مِقْدَادُ)، فقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذا وَكَذا. وَفَعَلْتُ كَذا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَا هَذِهِ إِلاَّ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ. أَفَلاَ كُنْتَ آذَنْتَنِي، فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا).

قَالَ فَقُلْتُ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! مَا أُبَالِي إِذا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ، مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ».

تخريج الحديث

١- رواه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف، [ورقمه: ٢٠٥٥].

٢- رواه الترمذي في كتاب الاستئذان، باب كيف السلام، [ورقمه: ٢٧١٩] مختصراً وقال فيه: «هذا حديث حسن صحيح».

غريب الحديث

الجهد : الجوع والمشقة.

يتحفونه : التحفة: الهدية والبر.

الجُرْعَة : الحثوة من المشروب.

وغلت في بطني : دخلت فيه، وتمكنت منه.

حافلة	: الضرع الحافل: هو الممتلئ لبناً.
رغوة	: هي زبد اللبن الذي يعلوه.
إحدى سوآتك يا مقداد	: أي إنك فعلت سوأة من الفعلات.
رحمة من الله	: الرحمة إحداث اللبن في غير وقته وعادته بتلك الكثرة.

شرح الحديث

كان الرعيل الأول يعيشون في شظف من العيش، ومع جود الأنصار لإخوانهم المهاجرين الذي بلغ مبلغ الإيثار ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر:٩] إلا أن قدرات الأنصار وموارد المدينة لم تكن تكفي أهل المدينة، ومن قدم إليهم من المهاجرين.

وقد حدثنا صاحب هذه القصة المقداد بن الأسود ﷺ ، أنه قدم المدينة وصاحبان له مهاجرين، ولم يكن معهما من المال ما يسدُّ رمقهم، ويقيم أودهم، حتى أثر الجوع الشديد الذي أصابهم في أسماعهم وأبصارهم، وعرضوا حالهم على صحابة الرسول ﷺ ، فلم يجدوا من يؤويهم في داره، ويكفيهم المؤونة، فالكل مجهد، والحاجة شديدة، والمؤونة شحيحة. فذهبوا إلى رسول الله ﷺ الذي قال الله في حقه ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨].

فلم يخيِّب رجاءَهم، ولم يردهم على أعقابهم، فذهب بهم إلى أهله، واستضافهم في منزله، وواساهم بنفسه، فأراهم ثلاثة أعنز، وطلب منهم أن يحتلبوا لبنها، ويقسموه أربعة أقسام، لكل واحد منهم نصيب، لم يتكلف

لهم الرسول ﷺ ما لا يوجد عنده، ولم يبخل عليهم بالموجود، ومع الجود بالموجود فازوا بالقرب من الرسول ﷺ في داره.

وقد حدّثنا المقداد ﷺ طرفاً من هدي الرسول ﷺ ، فقد كان ﷺ يأتي منزله في وقت متأخر من الليل، فقد كان ﷺ يسهر في مصالح المسلمين مع كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر، يدير شؤون الدولة، وينظر أحوال الرعية، وكان إذا جاء منزله سلّم سلاماً هو بين الجهر والمخافتة على حدٍّ ما أدبه ربه في صلاة الليل ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:١١٠] ولذا فإن سلامه كان يسمع الصاحي، ولا يوقظ النائم، لا كما يفعل الزعماء والرؤساء عندما يقدمون إلى منازلهم يفزعون جميع من فيها.

وبعد أن يسلم يذهب إلى مسجده، فيصلي، ويبدو أن صلاته هذه صلاة خفيفة، وليست هي صلاة قيام الليل، فصلاة الليل تكون بعد أن يأخذ قسطاً من الراحة، ثم يقوم في منتصف الليل أو قبله أو بعده بقليل فيصلي ما كتب له.

وبعد أن يصلي يأتي شرابه، فيتناول نصيبه منه. وفي إحدى الليالي زيّن الشيطان للمقداد أن يشرب نصيب رسول الله ﷺ بدعوى أن الرسول في العادة يأتي الأنصار، وهم يحبون أن يأتيهم، فيكرمونه، ويقدمون له أحسن ما عندهم، فلما استقرَّ هذا المعنى في نفس المقداد أقدم على شرب تلك الجرعة من اللبن التي كانوا قد تركوها لرسول الله ﷺ .

فلما تناولها ودخلت في بطنه أخذ الشيطان يبكته ليحزنه، وخشي على نفسه أن يأتي رسول الله ﷺ فلا يجد نصيبه، فيغضب، فيدعو عليه دعاءً يوبق دنياه وآخرته.

وجعل المقداد يحاول النوم فلا يجده، وكان غطاؤه في ليله شملة لا تفي بتغطية جسده كله، فكان إذا غطى بها رأسه انكشفت رجلاه، وإذا غطى بها رجليه انحسر الغطاء عن وجهه.

وجاءت اللحظة التي كان يخشاها المقداد، جاء الرسول ﷺ فسلّم كما كان يسلّم، ثم جاء المسجد فصلى، ثم جاء إلى شرابه، فكشف الإناء فلم يجد شيئاً، ويبدو أن الرسول ﷺ كان جائعاً، فرفع رأسه إلى السماء، وهنا بلغ الخوف بالمقداد أقصاه، فها هو يرى الرسول ﷺ يرفع رأسه إلى السماء يريد الدعاء، وهو يخشى أن يدعو على من تناول نصيبه من اللبن وحرمه منه، وقد دعا الرسول ﷺ فعلاً، ولكنه ليس بالدعاء الذي توقّعه المقداد؛ إنه دعاء آخر غيَّر حالَ المقداد ظاهراً وباطناً، لقد دعا الرسول ﷺ ربّه قائلاً: «اللهم أطعم من أطعمني وأسْقِ من أسقاني» لقد كان المقداد خائفاً من دعاء من الرسول عليه، فلما طرق مسامعه دعاؤه بعثه ذلك على أن يبذل الجهد في سبيل تحصيل ما يُطعم الرسول ﷺ به ويسقيه، لينال بركة دعائه.

ولكن أنـّى للمقداد الطعام الذي يطعمه الرسول ﷺ والشراب الذي يسقيه منه، ليس أمامه إلا الأعنز الثلاثة التي هي مصدر قوتهم، وهو يعلم أنه لا حليب فيها، فقد حلبوها منذ وقت ليس بالبعيد، فما بقي أمامه إلا أن ينحر واحدة منها تكون طعاماً ينال به بركة دعوة الرسول ﷺ .

ومع أن ذبح واحدة من الشياه الثلاث سيضير الرسول ﷺ وصاحبيه كما سيضيره هو، إذ سينقص ثلث مصدر اللبن الذي يأتيهم في كل يوم، إلا أنه لم يجد أمامه إلا ذاك، فأخذ السكين قاصداً أسمن الأعنز، ليصنع منه وليمة ينال بها دعوة الرسول ﷺ .

ولكن المقداد فوجئ بأن الأعنز الثلاث أضرعتها ملأى باللبن على نحو لم يعهد منها من قبل، فجاء بأعظم إناء وجده في الدار، فحلب منها حتى امتلأ، وعلته الرغوة، وإنما يكون ذلك إذا كثر الحلاب.

ثم جاء بذلك اللبن الكثير الطيب، وخاطب رسول الله ﷺ خطاب الذي لا علم له بما جرى، وقال له: أشربتم شرابكم الليلة؟ فلما شرب الرسول ﷺ وارتوى، وشرب هو وارتوى، أخذه العجب من حاله الذي كان فيه، إذ كان قلقاً مهموماً خائفاً من دعوة من رسول الله ﷺ توبقه، فإذا هو في حال أخرى حظي فيها بدعوة صالحة من رسول الله ﷺ ، فأخذه الضحك حتى استلقى على ظهره.

فعلم الرسول ﷺ أن وراء ضحكه سرّاً، ويبدو أن للمقداد في صحبته للرسول ﷺ سوابق من هذا النوع، فقال له الرسول ﷺ مستوضحاً: (إحدى سوآتك يا مقداد).

فأخبره المقداد بما كان من أمره، فقال له الرسول ﷺ : (ما هذه إلا رحمة من الله، أفلا آذنتني، فنوقظ صاحبينا، فيصيبان منها)؟

فقال له المقداد، وروح الدعابة لا تفارقه: «والذي بعثك بالحق، ما أبالي إذا أصبتَها، وأصبتُها معك، من أصابها من الناس».

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- في الحديث صورة بيّنة للحال الصعبة التي كان يحياها الرعيل الأول بناة دولة الإسلام في دار الهجرة.

٢- قلة الطعام والشراب قد تُضعف سمع الإنسان وبصره، كما فعلت بالمقداد وصاحبيه.

٣- كان الرسول ﷺ كريماً جواداً، فقد استضاف المقداد وصاحبيه في منزله، وواساهم بنفسه، مع قلة الزاد وشدة الحاجة.

٤- بيان هدي الرسول ﷺ في دخوله منزله حين عودته من الليل، فكان يدخل منزله بهدوء، فلا يزعج أهل المنزل، ويسلم سلاماً وسطاً بين الجهر والمخافتة، يسمع اليقظان، ولا يوقظ النائم.

٥- وكان من هديه إذا عاد من الليل أن يبدأ بصلاة ركعتين في المسجد، وكان المسجد بجوار منزله بعد أن يدخل منزله، ويسلم على أهله.

٦- كان الرسول ﷺ يتناول اللبن في وقت متأخر من الليل، فقد كان صاحبا المقداد قد استغرقا في النوم عندما عاد الرسول ﷺ إلى منزله، مما يدل على عودة الرسول ﷺ متأخراً، ولا حرج على من تناول شيئاً من الطعام إذا كان جائعاً من الليل.

٧- هذا الحديث يدل على مدى خشية الصحابة من غضب الرسول ﷺ وسخطه عليهم، فالمقداد لما قام في نفسه أنه سيغضب الرسول ﷺ جافاه النوم.

٨- في الحديث بيان مدى حرص الصحابة على دعوة صالحة من الرسول ﷺ ، فقد أثارت دعوة الرسول ﷺ بأن يسقي الله من يسقيه المقداد إلى السعي في إسقاء الرسول ﷺ .

٩- هدي الرسول ﷺ في عدم ملاحقة الناس فيما ضاع من حقه من أمور الدنيا، فإنه لم ينفعل، ولم يغضب عندما لم يجد نصيبه من اللبن الذي

يتركه له أصحابه من حليب تلك الشياه، ولم يحقق معهم ليعرف من الذي اعتدى على نصيبه، ولم يصرخ فيهم فيفزعهم ويأنّبهم، بل ولم يعاتبهم، وكل الذي فعله أنه التجأ إلى الله يدعوه ويسأله، وكل هذا من اليسر الذي وهبه الله إياه.

١٠-مشروعية رفع الرأس إلى السماء في الدعاء، كما فعل الرسول ﷺ حين دعا ربه أن يُطعم من يطعمه، ويسقي من يسقيه، وهذا الفعل مما تقتضيه الفطرة.

١١-مشروعية الضحك في الأحوال المستغربة، فقد ضحك المقداد حتى ألقاه ضحكه على قفاه، فقد كان حاله عجباً، فبينما كان خائفاً وَجِلاً يخشى أن يدعو عليه الرسول ﷺ من أجل مذقة اللبن التي اعتدى عليها إذا به ينال دعوة رسول الله ﷺ ، ثم هو في الوقت نفسه يسقي رسول الله ﷺ شراباً كثيراً، ويشرب هو حتى يُروى.

١٢-مشروعية أن يشرب المسلم حتى يُروى، فقد شرب الرسول ﷺ من اللبن الذي قدّمه له المقداد حتى روي، ثم شرب المقداد أيضاً حتى روي.

١٣-الصحابة بشر يدور في نفوسهم ما يدور في نفوس البشر، كما وقع للمقداد مما حدّث به عن نفسه في هذا الحديث مما زيّنه له الشيطان في تناول اللبن، ومما خوّفه منه بعد ذلك، ولكنهم جاهدوا أنفسهم حتى ارتقت في طاعة الله، وعملت بشريعة الله، فأصبحوا بدور الدجى، وأعلام الهدى، ومن سلك سبيلهم فعل الله به ما فعل بهم، والله على كل شيء قدير.

١٤-في الحديث صورة من هدي الرسول ﷺ مع أصحابه، فكان يسع أصحابه في مختلف أحوالهم، ويتبسط معهم في الحديث، ويسمعهم وهم يحدثونه عما اعتمل في ضمائرهم، بمثل هذا ملك على أصحابه نفوسهم، حتى قدّموه على الأهل والعشيرة والولد.



تمهيد

صدق قائل هذه العبارة وبرّ، فأضيافه الذين حلّوا بداره وبستانه: الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر، والصحابي المضيف قائل العبارة أبو الهيثم بن التيهان، واسمه مالك.

لقد كان أبو الهيثم في غاية النشوة والسعادة عندما رجع إلى بستانه، فوجد رسول الله ﷺ وصاحبيه في زيارته، فرحّب بهم أحسن الترحيب، وضيّف فأحسن الضيافة، فأجلسهم في أحسن موضع من بستانه، وقدّم لهم خير ما عنده من ضيافة.

نص الحديث

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ. فإذا هُوَ بأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ. فَقَالَ: (مَا أَخْرَجَكُما مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟) قَالاَ: الْجُوعُ، يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ (وَأَنا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا) فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ. فإذا هُوَ لَيْسَ في بَيْتِهِ.

فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَباً! وَأَهْلاً! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (أَيْنَ فُلاَنٌ؟) قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إذ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى

رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ. مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافاً مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بعِذقٍ فيه بُسْرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ، فقال: كُلُوا مِن هذِه، وأخَذَ الْمُدْيَةَ، فقالَ لَهُ رسولُ الله ﷺ : (إيَّاكَ والحَلُوبَ) فَذَبَحَ لَهُم فأَكَلُوا مِن الشَّاةِ، ومِن ذلكَ العذقِ، وشربوا، فلَمَّا أنْ شَبعوا ورَوُوا، قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ وعُمَرَ: (والذي نفسِي بيَدِهِ! لَتُسْأَلُنَّ عن هذا النَّعيمِ يومَ القيامةِ، أخرجَكُم من بيوتِكم الجوعُ، ثم لَمْ تَرجِعوا حتَّى أصابَكم هذا النَّعيمُ).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق رضاه بذلك [ورقم الحديث: ٢٠٣٨].

ورواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ [ورقمه: ٢٣٦٩]. وقال فيه الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب» ورواه مالك في موطئه بلاغاً من غير إسناد في كتاب صفة النبي ﷺ ، باب جامع ما جاء في الطعام والشراب، [ص: ٥٨٠].

غريب الحديث

مرحباً وأهلاً : كلمتان تقولهما العرب للترحيب بالضيف ومعناهما: صادفت رحباً وسعةً وأهلاً تأنس بهم.

ذهب يستعذب : يطلب لنا العذب من الماء.

المُدْية : السكين.

الحلوب	: الشاة المعدّة للحلب.
حديقته	: البستان المحوَّط عليه.
بقِنْو	: القنو: العذق من الرطب، والقنو والعذق: الغصن من النخل، والعذق من الرطب بمنزلة العنقود من العنب.
البطانة	: أهل مشورة الرجل.
لا تألوه خبالاً	: لا تقصر في المشورة عليه بما يضيره، والخبال: فساد الأمر.

شرح الحديث

رسول الله ﷺ أفضل هذه الأمة وخيرته من خلقه، وأفضل أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليه، وصاحباه ووزيراه أفضل هذه الأمة بعد نبيّها، يخرجهم الجوع من منازلهم، فلا يجدون فيها ما يسدُّ رمقهم، ولو شاؤوا لادخروا فيها ما يجعل بطونهم وبطون ذويهم ملأى، ولكنهم كانوا يبذلون ما عندهم في حاجة المسلمين، وقد خيّر الله رسوله ﷺ بين أن يكون ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً يشبع يوماً، ويجوع يوماً، واستمر على ذلك صلوات الله عليه إلى أن توفّاه الله تعالى.

يقول النووي في شرحه لهذا الحديث: «هذا فيه ما كان عليه النبي ﷺ وكبار أصحابه رضي الله عنهم من التقلل من الدنيا، وما ابتلوا به من الجوع، وضيق العيش في أوقات، وقد زعم بعض الناس أن هذا كان قبل فتح الفتوح والقرى عليهم، وهذا زعم باطل، فإن راوي الحديث أبو هريرة، ومعلوم أنه أسلم بعد فتح خيبر.

فإن قيل: لا يلزم من كونه رواه أن يكون أدرك القضية، فلعله سمعها من النبي ﷺ أو غيره، فالجواب: أن هذا خلاف الظاهر، ولا ضرورة إليه، بل الصواب خلافه، وأن رسول الله ﷺ لم يزل يتقلب في اليسار والقلة، حتى توفي ﷺ ، فتارةً يوسر، وتارةً ينفد ما عنده، كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة: وخرج رسول الله ﷺ من الدنيا، ولم يشبع من خبز الشعير. وعن عائشة: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض، وتوفي ﷺ ودرعه مرهونة على شعير استدانه لأهله، عند يهودي» [شرح النووي على مسلم: ١٣/ ١٨٢].

ويحدّث أبو هريرة ﷺ في هذا الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج يوماً من منزله، وجاء في رواية الترمذي: أن خروجه كان في ساعة لم يكن من عادته الخروج فيها، وفي رواية الموطأ: أن خروجه كان إلى المسجد، فإذا هو يفاجأ بقدوم أبي بكر وعمر عليه في موضعه ذاك وساعته تلك، وعندما استعلم منهما عن سبب خروجهما، وجد أن الذي أخرجهما هو الذي أخرجه: الجوع.

فانطلق بهما إلى منزل أحد أصحابه من الأنصار، وقد حددت رواية الترمذي ورواية الموطأ اسم هذا الصحابي، وهو أبو الهيثم بن التَّيِّهان، واسمه على ما يذكره أصحاب التراجم مالك، وكان - كما في رواية الترمذي - رجلاً كثير النخل والشاء، فلم يجدوه في منزله وبستانه، فرحبت بهم زوجته أجمل ترحيب، وأخبرتهم أن زوجها ذهب يستعذب لهم الماء، أي: يأتي بماء عذب من عين أو بئر يتصف ماؤه بالعذوبة.

وقد صرح الترمذي في روايته: أن أبا الهيثم لم يكن له خادم يخدمه، ولذلك كان يقوم بحاجاته من استعذاب الماء والحرث وجني الثمر بنفسه،

ولم يطل غياب أبي الهيثم، فقد وصل يحمل قربة الماء العذب على ظهره، فوضعها سريعاً، وأقبل على رسول الله ﷺ وصاحبيه تبرق أسارير وجهه فرحاً، وأخذ يلتزم رسول الله ﷺ ، ويفديه بأبيه وأمه، أي يقول له: فداك أبي وأمي، ويقول: الحمد لله، ما من أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة من نخله فجاءهم بقطف من قطوفها، ويسمى القطف في مثل هذا (القنو) وعندما قال له رسول الله ﷺ : (أفلا تنقّيت لنا من رُطَبِه؟) قال: يا رسول الله، إني أردت أن تختاروا، أو قال: تخيّروا من رُطَبِه وبُسْرِه، ثم أخذ أبو الهيثم المدية وهي السكين، فعرف الرسول ﷺ أنه يريد أن يذبح لهم، فقال له: «إيّاك والحلوب».

والحلوب: الشاة ذات اللبن، نهاه عن ذبحها، لأنه ينتفع بلبنها، وقد يكون ولدها حيّاً فيتضرر بذبح أمه لفقده حليبها، وفي رواية الترمذي أن الرسول ﷺ قال له: (لا تذبحنّ ذات دَرٍّ)، وذات الدرّ، أي: ذات اللبن لإدرار لبنها بذلك، فذبح لهم شاة. وجاء في رواية الموطأ: أنه أمر لهم بشعير فعمل منه خبزاً، فلما نضج الطعام قدّم لهم خبز الشعير ولحم الشاة فأكلوا وشبعوا، وسقاهم من ذلك الماء العذب بعد أن برد، فقال الرسول ﷺ لأبي بكر وعمر: (والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم).

وفي رواية الترمذي أن الرسول ﷺ قال لصاحبه: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورُطَبٌ طيّبٌ، وماء بارد» وكانت مقالته تلك بعد أكلهم الرطب وشربهم الماء، وقبل أن يأكلوا لحم الشاة.

وجاء في رواية الترمذي أن الرسول ﷺ سأل أبا الهيثم: هل له من خادم؟ فقال: لا، قال: (فإذا أتانا سبي فأتنا، فأُتي النبيُّ ﷺ برأسين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم، فقال النبي ﷺ : (اختر منهما)، فقال: يا نبي الله، اختر لي، فقال النبي ﷺ : (إن المستشار مؤتمن، خذ هذا، فقد رأيته يصلي، واستوصِ به معروفاً).

وعندما أخذ أبو الهيثم عبده الذي أعطاه الرسول ﷺ إياه، وعَرَّف زوجته بما وصّاه الرسول ﷺ به، وكانت امرأة ديّنة عاقلة، نصحته بعتقه، فإن قمة تحقيق وصية الرسول به لا يتم إلا بالعتق، وقد استجاب الرجل الصالح لنصيحة زوجه، وعاد ليعتمد على نفسه في العمل في بستانه، وعندما بلغ الرسول ﷺ خبرُ ما أشارت به زوجة أبي الهيثم قال: (إن الله لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومن يوقَ بطانة السُّوء، فقد وقيَ).

وقول الرسول ﷺ يشير إلى سنّة من سنن الله في خلقه من بني آدم، فلكل واحد منا بطانتان من أهله وأقاربه ومعارفه، بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر، والسعيد هو الذي يوقى بطانة الشر، وقد كان أبو الهيثم من هؤلاء الذين يسّر الله لهم زوجة صالحة تأمره بالخير، وتنهاه عن الشر.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- في الحديث صفة ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه من التقلل من الدنيا، فكانوا يجوعون حتى يرهقهم الجوع، ويخرجهم من منازلهم، كما أخرج الرسولَ ﷺ وأبا بكر وعمر فيما أخبر به أبو هريرة في هذا الحديث.

٢- لم يكن جميع الصحابة على هذه الحالة التي وصفت من التقلل في الدنيا، فقد كان فيهم الأغنياء، منهم أصحاب النخل والشاء كحال هذا الصحابي الذي استضاف الرسول ﷺ وصاحبيه، كما جاء في رواية الترمذي. ومنهم أصحاب التجارة، كعبدالرحمن بن عوف وعثمان ابن عفان وأبي بكر. ومنهم الصنّاع الذين مهروا في الصناعات، كصهيب الرومي، وقد ترك مالاً كثيراً لأهل مكة، حتى أذنوا له بالهجرة إلى المدينة. وليس من هدي الإسلام أن يأمر المسلمين بأن يتخلوا عن جميع أموالهم، ليكونوا فقراء، بل كان في بعض الأحوال يأمر أصحابه أن يمسكوا بعض أموالهم، ويأمر بالاعتدال في الإنفاق.

٣- لا حرج على من أظهر ما أصابه من ضيق أو جوع على غير وجه التشكّي، كما فعل الرسول ﷺ وصاحباه عندما تحدث كل واحد بحاله، وبالسبب الذي أخرجه من داره، وهو الجوع.

٤- لا حرج على من أظهر المشاعر النبيلة التي يُحسّ بها تجاه الآخرين، فقد فرحت أم الهيثم وزوجها أبو الهيثم بحلول رسول الله ﷺ وصاحبيه ضيوفاً عليهم، وعبّروا عن فرحهم هذا الذي ملأ نفوسهم بألوان كثيرة، فأم الهيثم تقول للرسول ﷺ وصاحبيه عندما قدموا الدار: «مرحباً وأهلاً» وعندما نظر أبو الهيثم إليهم حمد الله ، وقال: «ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني» وفي رواية الترمذي: أن أبا الهيثم عندما عاد ورأى الرسول ﷺ أقبل عليه يفديه بأمه وأبيه، أي يقول له: فداك أبي وأمي، وأخذ يلتزمه، وإذا أنت تأملت في الحديث ورأيت فعل أبي الهيثم من اختيار أحسن الأمكنة في بستانه، وما قدّمه من الرُّطَب، وذبح الشاة، ونحو ذلك رأيته كله ينطق بالمشاعر الإنسانية النبيلة التي

يعبر بها صاحبها عن فرحته وسروره وسعادته، والمسلم الحق يمثل الإنسان الحق في أكرم صوره، وأرقى مشاعره.

٥- شكر المؤمن ربه على ما أحدث الله له من نعم، فقد حمد أبو الهيثم ربه عندما وجد خير الناس في منزله ضيوفاً عليه، وهي نعمة من أعظم النعم التي ينعم الله بها على عباده.

٦- يجوز للمرأة أن تأذن بدخول الأماكن التي لزوجها إذا كانت تعلم أن ذلك يرضي زوجها ويفرحه، فقد أذنت أم الهيثم للرسول ﷺ وصاحبيه، ورحّبت بهم، ولكن يشترط أن تتوفر الشروط التي اشترطتها الشريعة الإسلامية في الدخول على النساء، من عدم الخلوة، والتزام المرأة بأحكام الشرع فلا يظهر منها إلا ما أجاز الشارع ظهوره.

٧- صوت المرأة ليس بعورة، فقد رحّبت أم الهيثم بالرسول ﷺ وصاحبيه، وأذنت لهم بالدخول، وسألها الرسول ﷺ عن مكان زوجها فأجابته.

٨- لا حرج على من تكلّف لإكرام ضيفه كما فعل أبو الهيثم بضيوفه، فقد جاءهم بقنو كامل من الرطب، وذبح لهم شاة، وقد جاء أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ضيوفه من قبل بعجل حنيذ، وما ذكره أهل العلم من النهي عن التكلف في إكرام الضيف محمول على ما يشقّ على صاحب المنزل مشقة ترهقه.

٩- مشروعية الثناء على الآخرين، وخاصة في مقام الترحيب بالضيوف، فقد قال أبو الهيثم مرحِّباً بضيوفه مثنياً عليهم: ما أحد أكرم أضيافاً، وهذا مقيد بأن لا يخاف على المثنى عليه الفتنة، وأن لا يبالغ في الثناء بحيث يخرج إلى منزلة الكذب.

١٠-مشروعية قول: «أنا»، فقد قال الرسول ﷺ لصاحبيه: «وأنا أخرجني الجوع» وبعض الناس يتعوذ بالله من قول: «أنا» ظاناً أن قولها من الكبر والعجب، وهذا ليس بصواب، وقد كان الرسول ﷺ يقول (أنا) من غير تحرّج، وكذلك أصحابه من بعده.

١١-مشروعية قول مرحباً، وأهلاً، ونحو ذلك من ألفاظ الترحيب، كما قالت أم الهيثم للرسول ﷺ وصاحبيه: «مرحباً، وأهلاً»، ويكون ذلك بعد إلقاء تحية الإسلام وردّها بمثلها، أما استبدال تحية الإسلام بألفاظ الترحيب مثل «مرحباً وأهلاً» فلا يجوز.

١٢-مشروعية التزام الضيف كما فعل أبو الهيثم بالرسول ﷺ عندما وجده في منزله، إظهاراً للسرور، وإكراماً للضيف، ولو لم يكن الضيف قادماً من سفر.

١٣-في الحديث بيان لمدى محبة الصحابة للرسول ﷺ وإكرامهم له، وتفاؤلهم بقدومه عليهم، كما ظهر ذلك من أبي التيهان وزوجه.

١٤-طلب أبي الهيثم الماء العذب وتكلفه في إحضاره وتبريده، يدل على جواز طلب المسلم للشراب الطيب والطعام الطيب، وجواز استعمال الآلات الحديثة التي تنقي الماء وتبرّده.

١٥-في الحديث دلالة على فضيلة هذا الصحابي وبلاغته وعظيم معرفته، فقد أظهر من الأفعال والأقوال ما يدل على الفطنة والنباهة، وقد كان أهلاً لأن يقصده الرسول ﷺ، ويخصه بقدومه عليه.

١٦-قدم أبو الهيثم الرُّطَبَ لضيوفه قبل الخبز واللحم، وقد استدلّ النووي (شرح النووي على مسلم ١٣/ ١٨٤) بهذا على استحباب تقديم الفاكهة على الخبز واللحم، وهذا الحديث لا يكفي للدلالة على

الاستحباب، فقد يكون إنما قدّمه لتيسُّره في الحال، لا لأنه الأفضل والأحسن، واستدل بعض المفسرين على استحبابه بتقديم الله له بالذكر في طعام أهل الجنة في قوله: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة:٢٠-٢١] فقدّم تناول الفاكهة على تناول اللحم، وذكر الأطباء القدامى ومنهم ابن القيم والمحدثون أن هذه الطريق أفضل لجسد الإنسان، وأنفع من تقديم اللحم على الفاكهة، كما هي عادة الناس.

١٧- ما تناوله الرسول ﷺ وصاحباه من طعام وماء هو من النعيم الذي يسأل الله عنه يوم القيامة في قوله: ﴿ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨] كما أخبر الرسول ﷺ صاحبيه بذلك، والسؤال إنما هو عن مدى شكر العبد ربّه عند حصوله على هذا النعيم، فالله يرضى عن العبد، يأكل الأكلة فيشكره عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها.

١٨- يجوز أن يوهب لأغنياء المسلمين من المغانم، ويبدو أن العبد الذي وهبه الرسول ﷺ أبا الهيثم كان من الخمس أو من خمس الخمس الذي للرسول ﷺ .

١٩- على المستشار أن يخلص النصح لمن يستشيره، فقد طلب أبو الهيثم من الرسول ﷺ أن يختار له خير الرجلين اللذين عرضهما عليه، فاختار له الرسول ﷺ أفضلهما، وعلّل ذلك بقوله: (المستشار مؤتمن) فذهبت مثلاً، وأصبحت قاعدة من قواعد الأخلاق في الإسلام. وعلى ذلك فإن من الخيانة أن تدل مستشارك على ما يعود عليه بالضرر والسوء.

٢٠- فضّل الرسول ﷺ الرجل الذي اختاره لأبي الهيثم لكونه رآه يصلي، فدلّ ذلك على أن المقياس المرتضى هو التزام المرء بالإسلام.

٢١-وصى الرسول ﷺ أبا الهيثم بالعبد الذي أعطاه إياه خيراً، وهذا أدب إسلامي أصيل، وهو معاملة العبيد والإماء والخدم والأجراء معاملة حسنة، وعدم الإساءة إليهم، وعدم تحميلهم فوق طاقتهم.

٢٢-تعظيم الصحابة لوصايا رسول الله ﷺ ، والبلوغ بها أعلى ما يمكنهم في ذلك، فلم ترَ أم الهيثم طريقاً لتحقيق وصية رسول الله ﷺ أفضل من إعتاقه، فاستجاب أبو الهيثم لمشورتها، وأعتقه مع حاجته إليه فيما يقوم به من أعمال.

٢٣-في الحديث جواز الأكل إلى أن يشبع والشرب حتى يُروى، فقد جاء في رواية مسلم: «فلما أن شبعوا ورووا» وما ورد في النهي عن الشبع محمول على المداومة على ذلك.

٢٤-من فضل الله على عبده ونعمته عليه أن يهيئ له بطانة صالحة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، كما هيّأ لأبي الهيثم زوجة خيّرة أمرته بأن يبلغ أعلى ما يستطيع في تحقيق وصاية الرسول ﷺ بالعبد الذي أعطاه إياه، فأعتقه، مع شدة حاجته إليه.

ومثل الزوجة الصالحة الأبناء والآباء والأقارب والأصدقاء الصالحون.

ومن البلاء الذي يُبتلى به العبد أن تكون بطانته بطانة سيئة تأمره بالشر وتنهاه عن الخير، وقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن من أزواجنا وأولادنا أعداء لنا، وهو إخبار يحمل التحذير من هذه البطانة.

٢٥-يجوز للمسلم أن يحلف بالله العظيم، وإن لم يُكذَّب، ولم يُستحلف، فقد أقسم الرسول ﷺ لصاحبيه بقوله: «وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القصة الخامسة
ما لك يا عائش حشيا رابية

تمهيد

هذا العنوان الذي عنونت به لهذه القصة نصٌّ سؤال وجّهه الرسول ﷺ إلى زوجته عائشة، يستعلم منها عن السبب في ارتفاع نفسها واشتداده مع أن المفروض ألا تكون كذلك؛ لأنه تركها نائمة عندما انسل في ليلتها خارجاً إلى البقيع، فتبعته ظانة أنه ذاهب إلى بعض أزواجه، فلما عاد أدراجه إلى منزله رأى سواداً يسعى بين يديه، وكانت تلك عائشة.

نص الحديث

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيسِ بْنِ مَخرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ؛ أَنَّهُ قَالَ يَوْماً: أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ أُمِّي! قَالَ: فَظَنَنَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أُمَّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ. قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ! قُلْنَا: بَلَى.

قَالَ: قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِيَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْداً، وَانْتَعَلَ رُوَيْداً، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْداً، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ، وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي. ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ. حَتَّى جَاءَ

الْبَقيعَ فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ.

فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ. فَلَيْسَ إِلاّ أَنِ اضْطَجَعْتُ فَدَخَلَ. فَقَالَ: (مَالَكِ؟ يَا عَائِشُ! حَشْيا رَابِيَةً!) قَالَتْ: قُلْتُ: لاَ شَيْءَ. قَالَ: (لَتُخْبِرِيني أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! فَأَخْبَرْتُهُ. قَالَ: (فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟) قُلْتُ: نَعَمْ. فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي ثم قَالَ: (أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟) قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ. نَعَمْ.

قَالَ: (فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي. فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي. فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ).

قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ؟ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: (قُولِي: السَّلاَمُ عَلَى أَهْلِ الدِيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ. وَإِنَّا، إِنْ شَاءَ اللهُ، بِكُمْ لَلاحِقُونَ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز، باب «ما يقال عند دخول القبور»، [ورقمه: ٩٧٤].

وعزاه ابن الأثير بالإضافة إلى مسلم إلى النسائي والموطأ مختصراً [جامع الأصول: ١١/ ١٥٤].

غريب الحديث

ريثما	: أي: بمقدار ما.
رويداً	: متمهلاً فيما يفعله من أخذ الرداء والانتعال وإيجاف الباب.
أجاف الباب	: أغلقه.
درعي	: درع المرأة قميصها.
واختمرت	: الخمار غطاء الرأس.
أحضر	: عدا، أي: ركض.
وتقنعت إزاري	: أي: لبسته.
حَشْيا رابية	: الحشو ارتفاع النفس وتواتره، ويكون المرء كذلك إذا أسرغ في مشيه، أو انطلق راكضاً، والرابية من الربو، وهو ارتفاع النفس.
السواد	: أي: الشخص.
فلهدني	: أي: دفعني.
يا عائش	: أي: يا عائشة، حذف الرسول ﷺ الحرف الأخير من اسمها على طريقة العرب في كلامها فيما يسمى بالترخيم.

شرح الحديث

حدّثت عائشة بعض طلبة العلم الذين كانوا يقصدونها لسماع حديث رسول الله ﷺ وأخباره منها، ولتفقههم فيما ترويه عنه، وقد استعملت معهم أسلوب التشويق، قائلة: «ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ ؟ قالوا: بلى».

فحدَّثتهم أن رسول الله ﷺ جاءها في إحدى الليالي التي كان دورها فيها، فأخذ يتهيأ للنوم، فخلع رداءه عن كتفيه ووضعه، وخلع نعليه، وجعلهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، ثم اضطجع.

ولكنه لم يلبث في فراشه إلا بمقدار ما ظن أنها قد نامت، فقام بهدوء شديد، وأخذ يتهيأ للخروج، فأخذ رداءه، ووضعه على كتفيه، وانتعل نعليه، ثم فتح الباب فخرج وأغلقه وراءه، كل ذلك يفعله رويداً رويداً حتى لا يوقظها من منامها.

فما كان من عائشة إلا أن قامت مسرعة، فأخذت عليها ثيابها التي تلبسها حين تريد الخروج، فلبست قميصها وإزارها، واختمرت بخمارها، وانطلقت في إثر رسول الله ﷺ ظانةً أنه ذاهب إلى بعض نسائه في ليلتها.

ولكنها أخطأت في ظنّها، فلم يتوجه الرسول ﷺ إلى واحدة من نسائه، بل توجه إلى بقيع الغرقد، وهو المقبرة التي تضم رفات أصحابه، فأخذ يدعو لهم واقفاً، فأطال الوقوف، ثم رفع يديه ثلاث مرات يدعو لهم.

انصرف الرسول ﷺ راجعاً إلى منزله، فانقلبت عائشة راجعة مسرعةً كيلا يعلم باتباعها إياه، ورأى رسول الله ﷺ سوداً يسعى بين يديه في ظلمة الليل، فأسرع ليدركه، فزادت عائشة من سرعتها، فمشى الرسول ﷺ أسرع ما يكون الرجل ماشياً، وهو الهرولة، فهرولت عائشة بين يديه، فما كان منه إلا أن عدا راكضاً، فعدت عائشة فسبقته، وانسلّت إلى فراشها، سريعاً، كي تخفي أمرها على الرسول ﷺ .

ولكنها وإن استطاعت أن تأخذ الوضع الذي كانت عليه قبل خروج رسول الله ﷺ من عندها، إلا أنها لم تستطع أن تخفي آثار عدوها المتمثل في

ارتفاع نفسها وسرعة تواتره، فالقلب يخفق في مثل هذه الحالة بشدة، ولا يطيق الإنسان أن يخفض من نبضات قلبه، وعلو نفسه وتسارعه بمجرد إرادته.

ولحظ الرسول ﷺ ذلك منها، فسألها عنه، فلم تعترف له بما كان منها، ولم تقدّم تفسيراً مقنعاً لما لحظه عليها، هنا واجهها بأمر جعلها تبوح بسرّها، قال لها: «لتخبريني أو ليخبرنّي اللطيف الخبير) فأخبرته بما كان منها، وأنها كانت هي السواد الذي عرض له أمامه، فجمع عند ذلك أصابع يديه، ودفعها في صدرها فآلمها، وهنا وجّه إليها اللوم في ظنّها به أن يذهب إلى غيرها من أزواجه في ليلتها، مستنكراً عليها ظنها فيه، مؤنباً لها في سماحها لذلك الظن أن يجول بفكرها: (أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟) فقالت معترفةً بما كان منها: «مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم».

ثم بيّن لها السبب الذي جعله يفعل ما فعل، فقد جاءه جبريل عليه السلام بعد أن تهيأ لمنامه، فنادى رسول الله ﷺ فأخفى نداءه عن عائشة، وسمعه الرسول ﷺ ، فأجابه الرسول ﷺ جواباً أخفاه عن عائشة، وسمعه جبريل، والسبب في ذلك أن جبريل عليه السلام لا يدخل منزلاً فيه امرأة وضعت عنها ثيابها.

وقد حمل جبريل فيما خاطب به الرسول ﷺ إليه أمراً من ربّه، يطلب منه أن يأتي أهل بقيع الغرقد، فيستغفر لهم.

فلما سمع الرسول ﷺ ما جاءه من ربّه كره أن يوقظها ظاناً أنها نائمة، خشيةَ أن تستوحش بعد خروجه من عندها.

واهتبلت عائشة الفرصة، فسألت الرسول ﷺ كيف تقول إن هي زارت أهل البقيع، فأمرها أن تقول: (السلام على أهل الديار من المؤمنين

والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون).

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- في الحديث أنه يحسن استعمال الأساليب التي توقظ الغافل، وتشوقه إلى السماع عند إرادة تحديثه، فقد وجهت عائشة السؤال إليهم عند إرادة تحديثهم، وكذلك فعل محمد بن قيس عند إرادة تحديثهم عنها.

٢- احترام وتبجيل زوجات الرسول ﷺ عند الحديث عنهن، فراوي الحديث لم يقل: ألا أحدثكم عني وعن عائشة، بل قال: أمي، اهتداءً بهدي القرآن القائل: ﴿ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب:٦].

٣- رفق الرسول ﷺ بزوجاته، فقد خرج من منزله بغاية الهدوء واللطف، حتى لا يوقظ عائشة من منامها.

٤- من المصالح العظام التي أمر الله رسوله بها، وأمرنا بها رسوله ﷺ إتيان المقابر لتذكر الموت والبلى من جهة، وللدعاء لأهلها والاستغفار لهم من جهة أخرى.

٥- مشروعية رفع اليدين في الدعاء، فالرسول ﷺ رفع يديه ثلاث مرات، وهو يدعو لأهل بقيع الغرقد.

٦- لا حرج على من أسرع وعدا إذا أراد أن يستكشف أمراً يهمه، كما فعل الرسول ﷺ حين رأى سواداً أمامه يتحرك.

٧- في الحديث صورة لما كان يفعله الرسول ﷺ عند منامه، وما كان يفعله عند خروجه من منزله، وصورة للباس زوجات الرسول ﷺ عند خروجهن من منازلهن.

٨- غيرة المرأة على زوجها، وسعيها إلى استكشاف ما خفي من أمره، لا ينجو من ذلك زوجات الأنبياء، كما فعلت عائشة حين لحقت النبي ﷺ في ظلمة الليل.

٩- للرجل أن يظهر لزوجه حين تفعل ما لا يرضاه عدم رضاه بذلك، فقد ضرب الرسول ﷺ عائشة بكفه في صدرها، وأنّبها بإنكاره عليها ما كان منها من ظن غير حسن في سبب خروج الرسول ﷺ من عندها في ليلتها.

١٠-اعتذار الرجل من زوجته ببيان الحقيقة التي تكشف عن سبب فعله الذي حاولت معرفته بنفسها، كي يزول ما في نفسها، كما بيّن الرسول ﷺ لعائشة عن سبب خروجه ليلاً من عندها.

١١-لا حرج أن يأتي الرجل المقابر ليلاً، فيزور أصحابها، ويدعو لهم.

١٢-زيارة النساء للمقابر جائزة، فعندما سألته عائشة عما تقوله إن هي زارت المقابر، لم ينهها عن ذلك، بل علّمها ما تقوله في زيارتها، والمنهي عنه الإكثار من ذلك للنساء، وتصرفهن تصرفات حمقاء عند الزيارة، كالنواح ولطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك.

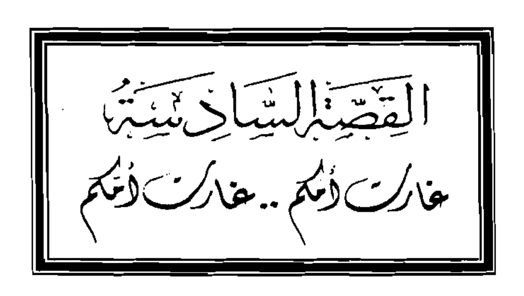
١٣-قد يرى الناس الأمر هيناً، وهو عند الله عظيم، فكثير من الناس يستهين بزيارة المقابر، والله يرسل لرسوله ﷺ جبريل في ظلمة الليل، وهو على وشك النوم آمراً إياه بزيارة أهل بقيع الغرقد.

١٤-أدب جبريل عليه السلام وحياؤه في عدم دخوله منزلاً فيه امرأة وضعت عنها ثيابها.

١٥- قدرة الرسول ﷺ على سماع جبريل، مع عدم قدرة الآخرين على سماعه في تلك الحال، وقدرته على تكليمه من غير أن يسمع من معه كلامه.

١٦-السنّة في زيارة المقابر أن يقول الزائر: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» وجاء في رواية عن عائشة أن الرسول ﷺ كان يقول في سلامه عليهم: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غداً، مؤجلون.. وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد) [مسلم: ٩٧٤].

* * *



تمهيد

هذه الكلمة: (غارت أمكم) قالها الرسول ﷺ عندما ضربت عائشة رضي الله عنها يد خادم كانت تحمل صحفة فيها طعام، أرسلته إحدى أمهات المؤمنين لرسول الله ﷺ ، وكان في غرفة عائشة في يومها، وقد كسرت الصحفة بسبب ضرب عائشة يد الخادم.

نص الحديث

عن أنس، قال: «كان النبيُّ ﷺ عندَ بعضِ نِسائه، فأرسَلَتْ إحدى أمَّهاتِ المؤمنين بصَحْفَةٍ فيها طعامٌ، فضربَتِ التي النبيُّ ﷺ في بيتِها يدَ الخادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَة فانفلقَتْ، فجمع النبيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثم جَعَلَ يَجْمع فيها الطَعامَ الذي كان في الصَّحْفَةِ، ويقول: (غارَت أُمُّكُم)، ثم حبس الخادِمَ حتَّى أُتِيَ بصَحْفَةٍ مِن عندِ التي هو في بيتها، فدفَع الصَّحْفَةَ الصحيحةَ إلى التي كُسِرَتْ صَحْفَتُها، وأمسكَ المكسُورَة في بيتِ التي كُسِرَت فيه».

تخريج الحديث

روى هذا الحديث البخاري في صحيحه في كتاب النكاح، باب الغيرة، [رقم: ٢٥٢٥] وانظره أيضاً [برقم ٢٤٨١]. وأم المؤمنين التي غارت هي

عائشة رضي الله عنها كما في رواية الترمذي والنسائي، أما التي أرسلت بالصحفة ففي رواية النسائي أنها أم سلمة، وفي حديث آخر عند النسائي وأبي داود أنها صفية [راجع: جامع الأصول: ٨/ ٤٣٦، ٤٣٧].

غريب الحديث

الصحفة : إناء من آنية الطعام كالقصعة، والقصعة وعاء يؤكل فيه ويثرد، وكان يُتَّخذ من الخشب غالباً.

شرح الحديث

غارت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يوماً، وقلما امرأة لا تغار من ضرائرها، وكانت غيرتها أن إحدى ضرائرها من أمهات المؤمنين وهي أم سلمة أو صفية أرسلت إلى رسول الله ﷺ بإناء فيه طعام في يوم عائشة وفي غرفتها، فما كان من عائشة إلا أن ضربت يد الخادم، فوقع الإناء فانكسر، وتناثر الطعام على أرض الغرفة. فما كان من الرسول ﷺ إلا أن جمع الإناء المكسور، وأعاد الطعام الذي كان فيه إليه، وأخذ يقول: (غارت أمّكم).

لقد عَدَّت عائشة إرسال ضرّتها الطعام إلى رسول الله ﷺ في يومها وفي غرفتها نوعاً من التحدي لها والإضرار بها، فتصرفت على هذا النحو.

إن مثل هذا التصرف قد يثير مشكلات كبيرة في داخل الأسرة، فقد يتصرف مثل هذا التصرف الزوج أو الزوجة أو الأخ أو الأخت أو الابن أو الأب في ساعة غضب، فإذا لم يكن في أطراف النزاع عقلاء، يحسنون التصرف في مثل هذه الأحوال، فإن الصراخ يعلو، وقد يصحبه السباب

والشتائم، وقد يتعدى الكلام إلى الفعال، ويحدث ما لا تحمد عقباه، وقد يكون على إثره قطيعة بين الأقارب وشحناء وبغضاء.

انظر إلى حُسْن تصرف الرسول ﷺ ، فقد عزا الرسول ﷺ تصرف عائشة هذا إلى الغيرة، وقام الرسول ﷺ بجمع الإناء المكسور، وأعاد الطعام فيه، وأبقى لها الإناء الذي كسرته، وأرسل بإناء عائشة السليم إلى أم المؤمنين التي كُسر إناؤها معللاً فعله هذا بقوله: (طعام بطعام وإناء بإناء) [رواه الترمذي: ١٣٥٩، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح] وأمر الحاضرين بأن يأكلوا الطعام فأكلوه [سنن أبي داود: ٣٥٦٧]. وانتهت المشكلة عند هذا الحد، من غير أن تتحول إلى معركة حامية الوطيس، كما يفعل بعض الناس الذين تجري مثل هذه المشكلة عندهم.

وليس هذا الموقف هو الموقف الوحيد الذي غارت فيه عائشة، فقد وقعت الغيرة الشديدة منها مرات كثيرة، فمن ذلك: «أن الرسول ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: (ما لك يا عائشة، أغرت؟) فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ [مسلم: ٢٨١٥. وللحديث بقية فانظره في موضعه].

ومن ذلك ما رواه محمد بن القاسم عن عائشة «أن الرسول ﷺ كان إذا خرج، أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، فخرجتا معه جميعاً. وكان الرسول ﷺ إذا كان بالليل، سار مع عائشة، يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين بعيري، وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظر. قالت: بلى.

فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء الرسول ﷺ إلى بعير عائشة وعليه حفصة، فسلّم ثم سار معها، حتى نزلوا، فافتقدته عائشة، فغارت.

فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر، وتقول: «يا ربِّ، سلِّط علي عقرباً أو حيّة تلدغني، رسولُكَ، ولا أستطيع أن أقول له شيئاً». [رواه البخاري: ٥٢١١، ومسلم ٢٤٤٥ واللفظ لمسلم].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- الغيرة قد تقع من أفضل النساء، والمشكلات قد تثور بين الخيرات، حتى لو كنّ زوجات الرسول ﷺ.

٢- حُسْن تصرف الرسول ﷺ في معالجة المشكلات التي تثور بين زوجاته، كما كان يحسن التصرف في معالجة المشكلات التي تثور بين أصحابه.

٣- حطّمت عائشة إناء ضرّتها، فألزمها الرسول ﷺ بمثل الإناء الذي كسرته، وأرسله إلى من كُسِر إناؤها، جزاءً وفاقاً.

٤- وجود الأواني الخشبية في العهد النبوي، والأواني المصنوعة من غير الخشب.

٥- كان في بيوت الرسول من يقوم على خدمته هو وزوجاته، فقد ذكر في الحديث أن عائشة ضربت يد الخادم التي جاءت بالصحفة.

* * *



تمهيد

أصاب الرسول ﷺ في الخندق خمص شديد، حتى ربط على بطنه بحجر رقيق يقيم به أوده، ورأى الصحابي الشاب جابر بن عبدالله ما بالرسول ﷺ من شدة الجوع، فاستأذن الرسول ﷺ في العودة إلى منزله، وشكا لزوجته ما رآه بالرسول ﷺ ، فوجد عندها من الطعام ما يكفي الثلاثة أو الأربعة، فانطلق إلى الرسول ﷺ يدعوه، واثنين أو ثلاثة معه، فإذا به يدعو أهل الخندق جميعاً وهم يزيدون على ألف إلى وليمة جابر بن عبدالله.

نص الحديث

١ - عن جابرَ بن عبدِالله رضي الله عنهما قال: «لما حُفِرَ الخندقُ رأيت بالنبيِّ ﷺ خَمَصاً شديداً، فانكفأتُ إلى امرأتي، فقلتُ: هل عندِك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خَمصاً شديداً.

فأخرجَتْ إليَّ جِراباً فيه صاعٌ من شَعير، ولنا بُهَيْمَةٌ داجنٌ فذبحْتُها، وطحنَتِ الشعيرَ، ففرَغَتْ إلى فَراغي، وقطعتُها في بُرْمَتها. ثم ولَّيتُ إلى رسولِ الله ﷺ . فقالت: لا تفضحني برسولِ الله ﷺ وبمن معهُ.

فجِئتُهُ فسارَرْتُهُ، فقلت: يا رسولَ الله ذبحنا بُهيْمة لنا، وطَحنّا صاعاً من شَعير كان عندَنا، فتعالَ أنت ونفر معك، فصاحَ النبيُّ ﷺ : (يا أهلَ الخندقِ،

إن جابراً قد صَنع سُوْراً، فحيَّ هلا بكم) فقال رسولُ الله ﷺ : (لا تُنزِلُنَّ بُرْمَتَكم، ولا تخبزُنَّ عجينَكم حتى أجيءَ).

فجئتُ وجاء رسولُ الله ﷺ يَقدُمُ الناسَ، حتى جئتُ امرأتي، فقالت: بكَ وبك. فقلت: قد فعلتُ الذي قلتِ. فأخرجت له عجيناً، فبصقَ فيه وبارك، ثم عمدَ إلى بُرمَتِنا فبصق وبارك، ثم قال: (ادعُ خابزةً فلتخبزْ معي، واقدَحي من برمتكم ولا تنزلوها)، وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمَتَنا لتغطُّ كما هي، وإن عَجينَنا ليُخبَزُ كما هو».

٢- حدَّثنا عبدُ الواحِدِ بنُ أيمنَ، عن أبيهِ، قال: «أتيتُ جابراً رضيَ الله عنه فقال: إنّا يومَ الخَندقِ نحفِرُ فعرضَتْ كيدة شديدة، فجاؤوا النبيَّ ﷺ فقالوا: هذه كُديْةٌ عرضَت في الخندق، فقال: (أنا نازل). ثم قام وبطنهُ مَعصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المِعْوَل، فضرب في الكُدية، فعاد كثيباً أهْيل أو أهْيَم.

فقلت: يا رسولَ الله ائذن لي إلى البيت. فقلتُ لامرأتي: رأيتُ بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندَكِ شيء؟ فقالت: عندي شعير وعَناق. فذبحتُ العَناقَ، وطحنَتِ الشعيرَ حتى جَعلنا اللحمَ بالبُرمةِ. ثم جئتُ النبيَّ ﷺ والعجينُ قد انكسرَ، والبرمة بينَ الأثافيِّ قد كادَت أن تَنضَجَ، فقلتُ: طُعيِّم لي، فقم أنتَ يا رسولَ الله ورجلٌ أو رجلان. قال: (كم هو؟) فذكرت له، فقال: (كثيرٌ طيِّب). قال: (قل لها لا تَنزع البرمةَ، ولا الخُبزَ من التنُّور حتى آتي). فقال: (قوموا). فقام المهاجرونَ والأنصارُ. فلما دخل على امرأتهِ قال: ويحك، جاءَ النبيُّ ﷺ بالمهاجرينَ والأنصارِ ومَن معهم. قالت: هل سألك؟ قلتُ: نعم. فقال: (ادخلوا ولا تَضاغَطوا). فجعلَ

يكسِرُ الخبزَ ويجعلُ عليه اللحم، ويُخمِّرُ البرمةَ والتنُّورَ إذا أخذ منه، ويُقرِّبُ إلى أصحابه ثم يَنزع، فلم يزلْ يكسِرُ الخبز، ويغرِف حتى شبعوا، وبقيَ بقية، قال: (كلي هذا وأهدِي، فإن الناسَ أصابتْهم مجاعة).

تخريج الحديث

هاتان الروايتان من حديث جابر بن عبدالله أوردهما البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق [٧/ ٤٩٧ ورقمهما: ٤١٠١، ٤١٠٢] وقد قدمت في كتابي هذا الرواية الثانية عند البخاري على الأولى، لأنها أنسب للقصة.

وروى البخاري الحديث مختصراً في كتاب الجهاد (باب من تكلم الفارسية) [٦/ ٢٢٠ ورقمه: ٣٠٧٠].

ورواه مسلم في صحيحه [٣/ ١٦١٠، ورقمه: ٢٠٣٩].

غريب الحديث

الخَمَص : بفتح الخاء والميم الضامر البطن من الجوع.

انكفأت : انقلبت ورجعت.

جرابا : وعاء من الجلد على شكل الجراب يحفظ فيه الطعام من الأرز والشعير والتمر ونحوهما.

بُهَيْمةٌ داجن : البُهيمة بضم الباء تصغير بُهْمةٌ، وهي الصغيرة من أولاد الضأن، وتطلق على الذكر والأنثى، والداجن ما ألف البيوت وتربى فيها.

البرمة : القدر الذي يُطبخ فيه.

طعيِّم	: بتشديد الياء، أي: طعام قليل.
السُوْر	: بضم السين وإسكان الواو: الوليمة، والطعام الذي يدعى إليه، وهي لفظة فارسية.
اقدحي	: اغرفي، والقدح: المغرفة.
حيٍّ هلا	: كلمتان جعلتا كلمة واحدة، ومعناها: تعالوا وعجِّلوا.
فقالت بك وبك	: كلمة تقولها العرب عندما يضيق قائلها بفعل غيره، وكأنها ذمته، ودعت عليه، وقيل: معناه بك تلحق الفضيحة، وبك يتعلق الذَّم.
لتغط	: غطت القدر، تغط، غلت، وغطيطها: صوتها.
كَيْدة	: بفتح الكاف وسكون الياء: القطعة الشديدة الصلبة من الأرض. وفي رواية: (كديّة) بضم الكاف، وهي القطعة الصلبة الصماء.
بطنه معصوب بحجر	: كانوا يعصبون على بطونهم حجراً رقيقاً إذا اشتدّ بهم الجوع.
كثيباً	: أي: تفتت حتى أصبحت كالرمل.
أهيل أو أهيم	: أهيل، أي: كالرمل السائل، يقولون: أنهل الرمل وانهال: إذا سال وجرى، وأهيم: من الهيام، وهو الرمل الذي يكون تراباً دقاقاً يابساً.
الأثافي	: الحجارة التي ينصب القدر عليها.
لا تضاغطوا	: المضاغطة: المزاحمة في الباب أو عند الدخول ونحو ذلك.
يُخمِّر البرمة	: أي: يغطي القدر.

شرح الحديث

يحدثنا جابر بن عبدالله ﷺ عن بعض الوقائع التي جرت أيام حفر الخندق، فقد كان المسلمون يعملون في حفر الخندق، وكان رسول الله ﷺ يشاركهم عملهم، فعرضت لبعض أصحابه صخرة شديدة الصلابة، تكسرت فيها معاولهم، ولم يستطيعوا إزاحتها عن طريقهم.

فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوه من تلك الصخرة، فقام صلوات الله وسلامه عليه - مع ما به من شدة الجوع - إلى تلك الصخرة، وأخذ المعول، وضربها ثلاث ضربات، فعادت كثيباً مهيلاً.

وهذه هي الصخرة التي ورد في بعض الأحاديث أنه كان يكسر مع كل ضربة منها ثلثها، وكانت تبرق مع كل ضربة برقة، ورأى في ضوء البرقة الأولى قصور الشام، ورأى في ضوء البرقة الثانية قصور كسرى في المدائن، ورأى في الثالثة أبواب مدينة صنعاء وقصورها، وكان الرسول ﷺ يكبر مع كل برقة، وأخبر أصحابه أن جبريل أخبره أن ملك أمته سيبلغ ما رآه في ضوء تلك البرقات الثلاث.

قال ابن حجر: « وقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب، قال: «لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة، لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ ، فجاء فأخذ المعول». فقال: (باسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم

ضرب الثالثة وقال: باسم الله؛ فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة) وللطبراني من حيث عبدالله بن عمرو نحوه.

وأخرجه البيهقي مطولاً من طريق كثير بن عبدالرحمن بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده، وفي أوله: «خط رسول الله ﷺ الخندق، لكل عشرة أناس عشرة أذرع» وفيه «فمرت بنا صخرة بيضاء كسرت معاويلنا، فأردنا أن نعدل عنها، فقلنا: حتى نشاور رسول الله ﷺ ، فأرسلنا إليه سلمان». وفيه: «فضرب ضربة صدع الصخرة، وبرق منها برقة، فكبَّر وكبّر المسلمون» وفيه «رأيناك تكبر فكبرنا بتكبيرك»، فقال: (إن البرقة الأولى أضاءت لها قصور الشام، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم) وفي آخره: «ففرح المسلمون واستبشروا» وأخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص نحوه.

وقد استأذن جابر الرسول ﷺ في الرجوع إلى منزله، فأذِنَ له، فقد آلمه ما رآه برسول الله ﷺ من الجوع الشديد، فأخبر زوجته بما رآه بالرسول ﷺ من الجوع، وسألها عما عندها مما يصلح طعاماً لرسول الله ﷺ ، فوجد عندها صاعاً من شعير، وشاة صغيرة، فأمر زوجته أن تطحن ذلك الشعير، وقام إلى الشاة فذبحها وقطعها، ووضعها في قدر أوقد النار تحته، وأمر زوجته أن تعجن ذلك الطحين الذي استفادته من الشعير الذي طحنته.

وقبل أن ينطلق إلى رسول الله ﷺ أوصته زوجته أن لا يدعو صحبة رسول الله ﷺ إلا عدداً قليلاً خشية افتضاحها وزوجها بسبب قلة الطعام، ومما قالته له: « لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه ».

جاء جابر إلى رسول الله ﷺ وحوله أصحابه، فدعاه سرّاً، وأخبره بالحال، وأن عنده طعاماً يكفيه ويكفي رجلاً واحداً أو رجلين من أصحابه، وأخبره بمقدار ذلك الطعام وقلته عندما سأله عن مقداره، واستعان جابر على تقرير قلة الطعام بتصغيره بقوله: «طعيم لنا» فالتصغير هنا للتقليل.

ولكن الطعام القليل في نظر جابر عند الرسول ﷺ كثير، فقال لما أخبره جابر بقلته (كثير طيب) وطلب من جابر أن يأمر زوجه بأن لا تفرغ القدر من اللحم، ولا تخبز الخبز حتى يأتي.

وصاح الرسول ﷺ بأهل الخندق، وعددهم في ذلك اليوم لا يقل عن ألف رجل بل يزيدون، مخبراً إياهم بأن جابراً صنع لهم وليمة، ودعاهم إلى التوجه إلى منزل جابر، فقام الرجال من المهاجرين والأنصار، وانطلق جابر إلى زوجته يخبرها الخبر، لقد جاء الرسول ﷺ ومعه أهل الخندق كلهم، وكانوا جوعى لم يتناولوا طعاماً من ثلاثة أيام.

لقد ظن جابر وزوجه أنهم وقعوا في ورطة، فالطعام الذي عندهم قليل لا يكاد يكفي الثلاثة أو الأربعة، يقول جابر مبيّناً ما حدّث به نفسه وهو عائد إلى منزله بين يدي ضيوفه: «فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقلت: جاء الخلق على صاع من شعير وعناق!!» [هذا السياق في رواية يونس كما أفاده ابن حجر في الفتح: ٧/ ٤٩٧].

وعندما أخبر جابر زوجته بمجيء رسول الله ﷺ مع أصحابه من أهل الخندق ثارت عليه، ولامته لوماً شديداً على ما كان منه، ذلك أنها أوصته فلم يرع وصيتها كما ظنّت.

فلما أخبرها بما كان منه، وأنه سارَّ رسول الله ﷺ بالدعوة وأعلمه بقلة الطعام، وأخبرها بما قاله الرسول ﷺ من أن الطعام كثير طيب، وأنه يأمرها بعدم إفراغ اللحم وخبز الخبز حتى وصوله، اطمأن قلبها، وعلمت أنه سيكون لطعامها شأن، فقالت لزوجها كما صحّ في بعض الروايات: «الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا» قال: « فكشفت عني غمّاً شديداً».

وجاء الرسول ﷺ يقدم أصحابه، فأخرجت له زوجة جابر العجين، فبصق فيه، ودعا فيه بالبركة، ثم عمد إلى القدر الذي فيه اللحم، ففعل به مثل ما فعل بالعجين، ثم أمرها أن تدعو امرأة تعينها، فتخبز معها، فكانتا تخبزان من ذلك العجين، والرسول ﷺ يكسر من ذلك الخبز، ويصب عليه اللحم والمرق، وكلما أخذ من الخبز والبرمة خمر التنور والبرمة، وأمر أصحابه أن يدخلوا من غير ازدحام، فكان يقرب لكل فوج منهم الطعام فيأكلون حتى يشبعوا، حتى أكلوا جميعاً، ولا يزال العجين على حاله، واللحم على حاله، فأمر الرسول ﷺ جابراً وزوجته أن يأكلوا ما فضل من الطعام، ويهدوا إلى جيرانهم، فالناس قد أصابتهم مجاعة.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- دلّ الحديث على القوة الجسدية التي كان يتمتع بها الرسول ﷺ ، فقد ضرب الصخرة التي أعيت أصحابه، ومع الجوع الشديد فإن ضرباته الثلاث كانت كافية لتفتيتها وإزالتها.

٢- هدي الرسول ﷺ في مشاركة أصحابه ما ينوبهم من أعمال ومهمات، وهكذا هي القيادات التي تملك النفوس والقلوب، وتتحمل الأعباء، وتكون في المقدمة دائماً.

٣- لم يكن الرسول ﷺ وصحبه وافري المال، فقد بقي الرسول ﷺ وصحبه ثلاثة أيام يعملون في الخندق عملاً شاقّاً مضنياً، لا يذوقون فيها طعاماً، ومع ذلك كله بذلوا ما عندهم وما في قدرتهم، فمكّن الله لهم في الأرض، وأقاموا دولة راسخة البنيان، لا يزال أثرها باقياً على مرّ الزمان.

٤- على المسلمين في كل عصر أن يعملوا لإقامة دين الله في الأرض، بما لديهم من إمكانات، والقليل إلى القليل يبارك الله فيه، ويجعل فيه خيراً كثيراً، والله هو الغني المالك للسموات والأرض.

٥- النظام سمة المسلمين في أعمالهم، وخاصة الجامع منها، فقد قسم الرسول ﷺ العمل على أصحابه في الخندق، لكل عشرة مسافة معينة، وكان الواحد إذا أراد أن يترك العمل لسبب ما يستأذن الرسول ﷺ ، كما فعل جابر عندما أراد العودة إلى منزله، وأمر الرسول ﷺ أن يدخلوا إلى الطعام منظمين عشرة عشرة، ونهاهم عن التزاحم وأن يضغط بعضهم بعضاً.

٦- محبة الصحابة للرسول ﷺ ، واهتمامهم بأمره، فمع قلة ما في يد جابر وزوجه، فإنهما بذلا كل ما عندهما في منزلهما لإعداد طعام للرسول وبعض أصحابه.

٧- يجوز للرجل أن يناجي غيره سرّاً إذا كان في مجمع من الناس، كما ناجى جابر الرسول ﷺ سراً حين دعاه إلى وليمته، والمنهي عنه أن يتناجى اثنان دون الثالث، إذا كانوا ثلاثة من أجل أن ذلك يحزنه.

٨- كان من هدي الصحابة أن يعمل الرجال والنساء في منازلهم، فجابر ذبح العناق، وسلخها وقطّعها وغسلها، ووضعها في القدر، وأشعل النار تحتها، وزوجته طحنت الشعير، وعجنته، وخبزته، وهذا يدل على خطأ من زعم من أهل العلم أن الزوجة لا يجب عليها أن تعمل في منزل زوجها، والزوج وحده المكلف بأعمال المنزل.

٩- قد يقع لوم وتقريع من الزوجة لزوجها، فزوجة جابر ثارت عليه وقرعته، عندما جاء ووراءه الرسول ﷺ والصحابة وهم يزيدون على الألف، ولكنها هدأت ورضيت عندما أعلمها أنه عَمِل بوصيتها، فقد أخبر الرسول ﷺ بمقدار الطعام وقلّته.

١٠-كان في وليمة جابر آية من الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ ونبوءته، فقد كثّر الله تبارك وتعالى ببركة بصاق الرسول ﷺ ودعوته الطعام الذي لا يكاد يكفي الثلاثة أو الأربعة، فكفى العاملين في الخندق، وعددهم يزيد على ألف، فكلهم أكل من ذلك الصاع من الشعير، ومن لحم تلك الشاة الصغيرة، حتى شبعوا.

١١-كان الرسول ﷺ يعلم بأن طعام جابر سيكفي ذلك العدد الكبير، ولذلك دعا أهل الخندق كلهم إلى ذلك الطعام، وأمر جابراً وزوجته أن لا ينزلوا البرمة عن النار، ولا يخبزوا حتى يأتيهم، لأنه يعلم أنه سيكون لبصاقه ودعوته أثر في تكثير الطعام.

١٢-تواضع الرسول ﷺ ، فقد كان يعمل مع أصحابه في الخندق، وفي الوليمة كان يكسر الخبز، ويصب اللحم فوقه، ويقرب الطعام لأصحابه، وبقي يفعل ذلك حتى أكلوا كلهم، وأكل هو في آخرهم.

١٣- يجوز لمن كان في مثل حال الصحابة في وليمة جابر الأكل حتى الشبع، كما فعل الصحابة لأنهم إذا شبعوا مرة جاعوا بعد ذلك مرات، وقد كانوا قبل ذلك جياعاً ثلاثة أيام.

١٤- دعا الرسول ﷺ أهل الخندق جميعاً إلى وليمة جابر من غير أن يستأذنه في ذلك، لأنه هو السبب في تكثير الطعام الذي كفى ذلك العدد الكبير، والأصل أنه لا يجوز أن يدعو الرجل أحداً إلى طعام غيره إلا إذا استأذنه، فقد دعا رجل من الأنصار يدعى أبو شعيب الرسول ﷺ خامس خمسة، فتبعهم رجل، فقال الرسول ﷺ : (يا أبا شعيب، إن رجلاً تبعنا، فإن شئت أذنت له، وإن شئت تركته). قال: «لا، بل أذنت له» [البخاري: ٥٤٦١، ومسلم: ٢٠٣٦]. ودعا رجل فارسي الرسول ﷺ إلى طعام، فاشترط الرسول ﷺ أن يصحب عائشة معه، فأبى، مرة بعد مرة، حتى وافق في الثالثة [مسلم: ٢٠٣٧]. فدلّ هذان الحديثان على أنه لا يدعو الرجل غيره لطعام من دعاه إلا بإذنه، وإنما كانت دعوة الرسول ﷺ لأهل الخندق إلى وليمة جابر للسبب الذي ذكرته.

١٥- كان حال الرسول ﷺ وثباته وطمأنينته مما يثبت قلوب أصحابه مهما ادلهمت الخطوب، وعظمت النازلات، فقد كان الصحابة مهددين باجتياح قريش وحلفائها للمدينة، فقد أُخبروا أن قريشاً حشدت حشوداً هائلة لاجتياحهم، وبينما هم في ذلك عرضت لهم الصخرة، فأخبرهم الرسول ﷺ وهو يضربها أنه رأى في بروقها ما سيبلغه ملك أمّته، فهم سيملكون الشام والعراق واليمن، فكان لذلك أثره في طمأنينة قلوبهم، وتيقّنهم أن جيش قريش سيرتد خاسراً على عقبيه، وأنهم سينتصرون في تلك المعركة، وبينما كان الصحابة يطوون

بطونهم، وقد بلغ بهم الجوع مداه، إذا بطعام قليل لا يكفي الآحاد يشبعهم كلهم خبزاً ولحماً ببركة دعوة الرسول ﷺ ، وكان لذلك أثره في ثباتهم ويقينهم.

١٦-استدل البخاري بهذا الحديث على جواز الكلام بالفارسية، لقول الرسول ﷺ لأصحابه: (إن جابراً قد صنع لكم سُوْراً) والسور بلسان الفرس الضيافة والاحتفال والوليمة. ولم يرد البخاري لسان الفرس دون غيره، بل مراده الكلام بلغة غير العربية، وقد استدل على ما ذهب إليه بقوله تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم:٢٢] وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم:٤] وأورد في ذلك الباب حديثاً قال فيه الرسول لفتاة صغيرة لبست لباساً حسناً: (سَنَهْ سَنَهْ) وهي بلغة الحبشة: حسنة. وأورد حديثاً ثالثاً قال فيه الرسول ﷺ للحسن بن علي عندما أخذ تمرة من تمر الصدقة: (كخ كخ) وهي كلمة فارسية. وانظر هذه الأحاديث في صحيح البخاري: وأرقامها: (٣٠٧٠، ٣٠٧١، ٣٠٧٢).

١٧-الأحاديث الواردة في تكثيره الطعام ﷺ كثيرة هذا واحد منها، وسيأتي ذكر بعضٍ منها.

والأحاديث الدالة على ذلك متواترة تواتراً معنوياً، لا شك في ذلك، ولا ينفي ذلك إلا من لم يطّلع على هذه الأحاديث أو رجل معاند. وأحب هنا أن أورد أحاديث أخرى غير ما سبق ذكره، وهي وإن كان أكثرها قصصاً، فإن شرحها وفوائدها قريب مما ذكرته من قبل، وإنما أوردها لما فيها من دلائل تعمّق الإيمان بصدق الرسول ﷺ ، وأن الله أجرى على يديه من المعجزات والكرامات ما يدل على أنه رسول الله حقاً.

١- حديث أم سلمة قالت: «خفت أزواد القوم وأملقوا، فأتوا النبي ﷺ في نحره إبلهم، فأذن لهم، فَلقيَهم عمرُ فأخبَروهُ فقال: ما بَقاؤكم بعدَ إبلِكم؟ فدخَلَ على النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله ما بقاؤُهم بعدَ إبلهم؟ فقال رسول الله ﷺ : (نادِ في الناسِ فيأتونَ بفضلِ أزوادِهم)، فبُسِطَ لذلِكَ نِطَعٌ وجعلوه على النِّطعِ، فقامَ رسولُ الله ﷺ فدَعا وبرَّكَ عليه، ثم دعاهم بأوعيتهم فاحْتثى الناسُ حتى فرغوا، ثم قال رسولُ الله ﷺ : أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، وأني رسولُ الله» [البخاري: ٢٤٨٤].

٢- عن أبي بكر ﷺ قال: «كنا مع النبي ﷺ ثلاثينَ ومائة، فقال النبيُّ ﷺ : (هل معَ أحد منكم طعامٌ؟) فإذا معَ رجلٍ صاعٌ من طعام أو نحوهُ، فعُجِنَ، ثم جاء رجلٌ مُشركٌ مُشعانٌّ طويلٌ بغنم يسوقها، فقال النبي ﷺ : (أبيعٌ أم عَطِيَّةٌ - أو قال: هبَة - ؟) قال: لا، بل بيعٌ. قال: فاشترى منه شاةً فصُنِعَت، فأمرَ نبيُّ الله ﷺ بسوادِ البطنِ يُشوَى. وايمُ الله ما منَ الثلاثينَ ومائة إلا قد حَزَّ له حُزَّةً من سوادِ بطنها، إن كان شاهداً أعطاها إياه، وإن كان غائباً خَبَأها له، ثم جعل فيها قَصْعَتين، فأكلنا أجمعون وشَبعْنا، وفضلَ في القصعتَين فحملته على البعير، أو كما قال» [البخاري: ٥٣٨٣].

٣- وأنَّ أُمَّ مَالِكٍ كَانَتْ تُهْدِي للنَّبيِّ ﷺ في عُكَّةٍ لَهَا سَمْناً. فيَأْتِيها بَنُوهَا فَيسْأَلُونَ الأُدْمَ. ولَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ. فَتَعْمِدُ إلى الَّذِي كَانَتْ تُهْدِي فِيهِ للنَّبِيِّ ﷺ . فَتَجِدُ فيهِ سَمْناً. فَمَا زَالَ يُقِيمُ لَهَا أُدمَ بَيْتِهَا حَتَّى عَصَرَتْهُ. فأتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «عَصَرْتِيها؟» قَالَتْ: نَـعَمْ. قَالَ: «لَوْ تَرَكْتِيهَا مَا زَالَ قائِماً» [مسلم: ٤/ ١٧٨٤ الحديث ٢٢٨٠].

٤- ومنها حديث جابر أيضاً: «أن رَجُلاً أتى النَّبيَّ ﷺ يَستَطعِمُهُ، فأطعَمَهُ شَطرَ وَسْقِ شَعِيرٍ، فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَأكُلُ مِنهُ وامرَأتُهُ وَضَيفُهُمَا حتَّى كَالَهُ. فأتى النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ، وَلَقَامَ لَكُمْ» [مسلم: ٢٢٨١].

* * *



تمهيد

انتدب الرسول ﷺ أصحابه الذين كانوا حوله في آخر ليلة من ليالي غزوة الأحزاب، ليذهب واحد منهم ليأتي له بخبر القوم، ضامناً له الرجوع، داعياً له بأن يكون رفيقاً له في الجنة، فلم يقم واحد منهم، فكلف حذيفة بن اليمان بالقيام بالمهمة، فذهب وعاد محفوظاً مكلوءاً، وعلم للرسول ﷺ خبر القوم.

نص الحديث

الحديث الأول:

عَنْ إبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أبيهِ، قالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ. فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وأَبْلَيْتُ.

فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (ألاَ رَجُلٌ يَأْتِينا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ الله مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟) فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قالَ: (ألاَ رَجُلٌ يَأْتِينا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ الله مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟) فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثم قال: (ألاَ رَجُلٌ يأتينا بِخَبَرِ القَوم، جعلَهُ الله مَعِيَ يومَ القيامةِ؟) فسكَتْنا، فلم يُجِبْهُ أحدٌ.

فَقَالَ: (قُمْ. يَا حُذَيْفَةُ! فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ) فَلَمْ أجدْ بُدّاً، إذ دَعَانِي باسْمِي، أنْ أَقُومَ. قَالَ: (اذهَبْ، فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ).

فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ، حَتَّى أَتَيْتُهُمْ. فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْماً في كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أنْ أَرْمِيَهُ، فَذكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ : (وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ) وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ. فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ، قُرِرْتُ. فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ الله ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيها. فَلَمْ أَزَلْ نائِماً حَتَّى أصْبَحْتُ، فَلَمَّا أصْبَحْتُ قالَ: (قُمْ، يَا نَوْمَانُ).

الحديث الثاني:

عن مُحمَّد بن كعب القُرَظي، قال: «قال فتىً مِنَّا من أهل الكُوفة لِحُذيفةَ بن اليمان: يا أبا عبدِالله، رأيتُم رسولَ الله ﷺ وصَحِبتُموه؟ قال: نعم يا ابن أخي. قال: فكيف كُنتم تَصنعونَ؟ قال: والله لقد كُنَّا نَجْهَد، قال: والله لو أدركناه ما تَرَكْناه يمشي على الأرض، ولَجعلناه على أعناقِنا.

قال: فقال حُذيفةُ: أي ابنَ أخي، والله لقد رأيتُنا معَ رسول الله ﷺ بالخَندقِ، وصلَّى رسولُ الله ﷺ من الليل هَوِيّاً ثم التفتَ إلينا، فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَقومُ فينْظُرَ لنا ما فَعلَ القومُ - يشرُطُ له رسولُ الله ﷺ أنَّه يَرجعُ - أدخَلَه الله الجَنَّةَ» فما قام رجلٌ.

ثم صلَّى رسولُ الله ﷺ هَوِيّاً من الليل، ثم التفتَ إلينا فقال: «مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فينظُرَ لنا ما فعلَ القومُ، ثُمَّ يَرجِعَ - يَشرُطُ له رسولُ الله ﷺ الرَّجعةَ - أسألُ الله أنْ يَكُونَ رَفيقي في الجنَّةِ» فما قام رجلٌ من القوم مع شِدَّة الخوف وشِدَّة الجُوع وشِدَّة البَرْد.

فلمَّا لم يَقُمْ أحدٌ دعاني رسولُ الله ﷺ ، فلم يكُنْ لي بدٌّ من القيام حينَ دعاني، فقال: «يا حذيفةُ فاذهَبْ فادخُلْ في القوم، فانظُرْ ما يَفْعلون، ولا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتِيَنا».

قال: فذهبتُ فدخلتُ في القوم، والرِّيحُ وجُنودُ الله تَفعلُ ما تَفعلُ، لا تُقِرُّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان بنُ حَرْب، فقال: يا مَعشرَ قُريش لينظُرِ امرؤٌ مَنْ جَليسُه.

فقال حُذيفةُ: فأخذتُ بيد الرَّجل الذي إلى جنبي، فقلتُ: مَن أنت؟ قال: أنا فلانُ بنُ فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشرَ قُريش إنَّكم والله ما أصبحتُم بدارِ مُقام، لقد هلك الكُرَاع، وأخلفَتْنا بنو قُريظة، وبلَغَنا عنهم الذي نَكْرَهُ، ولقِينا مِن هذه الرِّيح ما تَرَونَ، والله ما تطمئنُّ لنا قِدرٌ، ولا تقومُ لنا نارٌ، ولا يستمسكُ لنا بناءٌ، فارتحلوا فإنِّي مُرْتَحِلٌ.

ثم قام إلى جَمَلِه وهو معقولٌ فجلسَ عليه، ثم ضَرَبه فوثبَ على ثلاث، فما أطلقَ عِقالَه إلا وهو قائمٌ، ولولا عهدُ رسولِ الله ﷺ : «لا تُحْدِثْ شيئاً حتى تأتيَني»، ثم شِئتُ لقتلتُه بسهم.

قال حذيفةُ: ثم رجعتُ إلى رسول الله ﷺ وهو قائمٌ يُصلِّي في مِرطٍ لبعض نسائِه مُرَحَّل، فلمَّا رآني أدخلَني إلى رَحْلِه، وطرحَ عليَّ طَرَف المِرْط، ثم ركعَ وسجدَ وإنه لَفيه، فلمَّا سلَّم أخبرتُه الخبرَ، وسمعَتْ غَطَفانُ بما فعلَتْ قُريش، فانشمروا إلى بلادهم.

تخريج الحديث

الحديث الأول رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، «باب غزوة الأحزاب» [ورقمه: ١٧٨٨].

والحديث الثاني رواه أحمد في مسنده، [٣٨/ ٣٥٨ ورقمه: ٢٣٣٣٤] وقال مخرجيه فيه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن لولا إرساله، وقد روى هذا الحديث من طرق أخرى تقويه، وذكروا هناك من رواه.

غريب الحديث

أبليت : بالغت في نصرته.

قر : القرّ: البرد.

لا تذعرهم : لا تفزعهم عليّ، ولا تحركهم.

كأنما أمشي في حمام : يريد أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس.

يصلي ظهره : يدفئه، ويدنيه من النار ليدفأ.

كبد القوس : مقبضها.

قَرَرْتُ : بردت.

العباءَة : هي الكساء المفتوح من قدام، يلبس فوق الثياب.

أصبحت : طلع عليّ الفجر.

نومان : كثير النوم.

هويّاً من الليل : جزءاً من الليل.

عقاله : الحبل الذي يُربط به البعير في يده.

شرح الحديث

يظن بعض الناس أثناء راحتهم أنهم لو كانوا مع رسول الله ﷺ لخدموه وقاموا بحقه وواجبه خير قيام، وهذا ما صرح به فتى من أهل البصرة لصاحب رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان.

فذكر حذيفة للجمع الذين حوله نبأ واقعة كان هو فيها شاهداً، كان ذلك في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق، تلك المعركة التي جمعت فيها قريش ومن ناصرها كل ما تستطيعه من قوى وجنود، وجاءت إلى المدينة المنورة، وقد وصف القرآن خير وصف ما فعلوه بالمسلمين ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۞ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

وفي آخر أيام المعركة أرسل الله على جيش قريش ومن معهم ريحاً شديدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩].

وفي تلك الليلة التي كانت آخر ليالي الأحزاب أحب الرسول ﷺ أن يكون أحد أصحابه هناك في وسط المشركين، حتى يرى وينظر ما الذي يفعله الكفار. وصلى رسول الله ﷺ جزءاً من الليل، ثم قال لأصحابه: (ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة).

فسكت الصحابة، فلم يجبه منهم أحد، ثم صلى ثانيةً، فلما سلّم انتدب من معه من أصحابه ليقوم ليأتي بخبر القوم، يشترط الرسول ﷺ له الرجعة، ويكون رفيقه في الجنة، فلم يقم منهم أحد لشدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد.

عند ذلك دعا رسول الله ﷺ حذيفة باسمه طالباً منه أن يقوم بهذه المهمة الصعبة، وأمره أن لا يحدث حدثاً في منطلقه حتى يرجع إليه.

انطلق حذيفة حتى دخل في القوم، وكان يمشي ويتحرك كأنما هو في حمام، لا يشعر بالبرد والقر الذي يحيط بالناس، فرأى ما تفعله الريح بالقوم

على النحو الذي وصفه رب العزة، فرأى أبا سفيان أصابه برد شديد، فهو يقرب ظهره من النار حتى يناله بعض الدفء، فأراد أن يرميه بسهم، وهذا يدل على أن قوسه وسهامه كانت معه، ولكنه تذكر وصية رسول الله ﷺ له بأن لا يحدث حدثاً حتى يعود إليه.

وهنا خاطب أبو سفيان القوم، ويبدو أنهم كانوا في اجتماع، فطلب أن يتأكد كل واحد ممن هو قريب منه، فسأل الذي بجانبه عن اسمه، فأجابه.

وتكلم أبو سفيان بكلمة مختصرة، بيّن فيها حالهم، وما أصابهم، وإخلاف بني قريظة لهم ما وعدوهم به من نصرهم، وما فعلته بهم الريح، فقد كفأت القدور، وأطفأت النيران، وزلزلت ما بنوه من خيام، وطلب منهم أن يرتحلوا، فإنه مرتحل.

ثم قام إلى جمل له معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به، وهو معقول، وأطلق من عقاله، وهو قائم.

رجع حذيفة ﷺ إلى الرسول ﷺ هادئاً قلبه، مطمئنة نفسه، لا يشعر بما يشعر الناس به من قرّ، ودخل على رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه، فأدخله في ذلك المرط، فلما أنجز صلاته أخبره بما كان منه، وما رآه من قريش.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- قد يظن المرء أنه قادر على فعل ما لا يطيقه، كما ظن هذا الفتى الذي ظنّ أن بإمكانه لو صحب الرسول ﷺ أن لا يدعه يمشي على الأرض.

٢- أدّب حذيفة ذلك الفتى بذكره لما وقع له ولبعض صحابة الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب.

٣- عيّن الرسول ﷺ حذيفة ليقوم بما أراد أن يعرفه، فقام بالدور خير قيام، فدخل في القوم، وعلم العلم الذي يريده الرسول ﷺ .

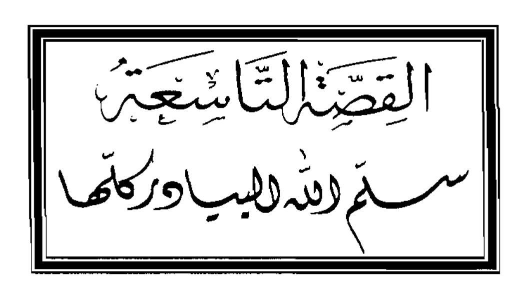
٤- كان خروج حذيفة ورجوعه آية من الآيات، فقد حفظه الله من الجو البارد الذي أحاط بالناس، فكان يمشي ذهاباً وإياباً فكأنما هو في ديماس، والديماس: الحمام.

٥- التزام حذيفة لما طلبه منه الرسول ﷺ في عدم إحداث حدث، ولولا ذلك لقتل أبا سفيان.

٦- نباهة حذيفة حيث سارع، فسأل جاره عن اسمه، فنجا من أن يسأله هو عن اسمه.

٧- معرفة واقع ما جرى لقريش في آخر ليلة من لياليهم في تلك الغزوة.

* * *



تمهيد

عنوان هذه القصة كلمة قالها جابر بن عبدالله ﷺ، وكان قد طلب من غرماء أبيه أن يتقاسموا فيما بينهم كل ما أنتجه نخله من تمر سداداً لدينه، فأبوا ذلك ظانّين أن ذلك التمر لا يفيهم حقهم، وهم يريدون حقّهم وافياً كاملاً، فدعا الرسول ﷺ في ذلك التمر، فوفى للغرماء حقهم، وبقي التمر على حاله.

نص الحديث

١- عن جابرٍ ﷺ قال: «تُوُفِّيَ عبدُالله بنُ عمرِو بن حَرامٍ وعليهِ دَينٌ، فاستعَنْتُ النبيَّ ﷺ على غُرَمائِه أن يضَعوا من دَينِه، فطَلَبَ النبي ﷺ إليهم فلم يَفعَلوا، فقال لي النبيُّ ﷺ: (اذهبْ فصنِّفْ تَمْرَكَ أصنافاً: العَجْوةَ على حِدَةٍ، وعِذقَ ابنِ زيدٍ على حِدةٍ ثم أرسِلْ إليَّ). فَفَعَلْتُ، ثم أرسَلتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فجاءَ فجلَسَ على أعلاهُ، أو في وَسَطِه، ثم قال: (كِلْ للقَومِ)، فكلْتُهم حتَّى أوفَيتُهُم الذي لهم، وبَقيَ تَمري كأنّه لم يَنقُصْ منهُ شيءٌ».

٢- عن جابرِ بنِ عبدِالله رضي الله عنهما أخبرَهُ «أنَّ أباهُ قُتِلَ يومَ أُحُدٍ شَهيداً وعليهِ دَيْنٌ، فاشتَدَّ الغُرَماءُ في حقوقِهم، فأتيتُ النبيَّ ﷺ، فسألَهُم أن يَقبَلوا تَمرَ حائطي، ويُحَلِّلوا أبي فأَبَوا، فلم يُعطِهم النبيُّ ﷺ حائطي، وقال:

(سنَغْدو عليكَ)، فغَدا علينا حينَ أصبحَ، فطافَ في النَّخلِ ودَعا في ثمَرِها بالبركَةِ، فجَدَدْتُها فقضَيتُهم، وبقيَ لنا من تمْرِها».

٣- عن جابرِ بنِ عبدِاللهِ رضي الله عنهما أنه أخبَرَهُ: «أنَّ أباهُ تُوُفِّيَ، وتَرَكَ عليه ثلاثينَ وَسْقاً لرجُلٍ مِنَ اليهودِ، فاستَنْظَرَهُ جابرٌ، فأبى أن يُنظِرَهُ، فكلَّمَ جابرٌ رسول الله ﷺ ليَشْفَعَ لهُ إليهِ، فجاءَ رسول الله ﷺ فكلَّمَ اليَهوديَّ ليأخُذَ تمْرَ نخلِه بالتي لهُ فأبى، فدخَلَ رسول الله النخلَ فمشى فيها، ثم قال لجابرٍ: جُدَّ لهُ فأوفِ لهُ الذي لهُ، فجدَّهُ بعدَ ما رجَعَ رسول الله ﷺ فأوفاهُ ثلاثينَ وَسْقاً، وفَضَلَتْ لهُ سبعةَ عشرَ وَسْقاً، فجاءَ جابرٌ رسول الله ﷺ ليُخبِرَهُ بالذي كان فوجدَهُ يُصلِّي العصرَ، فلما انصرفَ أخبَرَهُ بالفَضْلِ، فقال: أخبرْ ذلكَ ابنَ الخطَّابِ، فذهبَ جابرٌ إلى عمرَ فأخبرَهُ، فقالَ لهُ عمرُ: لقد علمتُ حينَ مَشى فيها رسول الله ﷺ ليُبارَكَنَّ فيها».

تخريج الحديث

روى هذا الحديث البخاري في صحيحه، والرواية الأولى منه في كتاب البيوع، باب الكيل على البائع والمعطي، [ورقمه: ٢١٢٧].

والثانية والثالثة في كتاب الاستقراض، باب «إذا قضى دون حقه» وباب: «إذا قاصَّ أو جازفه في الدَّين» [ورقمهما: ٢٣٩٥، ٢٣٩٦].

وانظره في الأرقام التالية: [٢٤٠٥، ٢٦٠١، ٢٧٠٩، ٢٧٨١، ٣٥٨٠، ٤٠٥٣].

غريب الحديث

عبدالله بن عمرو بن حرام : هو والد جابر.

عِذْق ابن زيد : نوع من النخل ينسب إلى شخص يدعى ابن زيد، هو أول **من زرعه، والعذق:** بفتح العين: النخلة، وبكسرها: نوع من التمر.

العجوة : أجود أنواع تمر المدينة.

اشتد الغرماء في حقوقهم : أي: طالبوا بقوة بحقهم كاملاً.

وسْقاً : الوسق ستون صاعاً.

شرح الحديث

استشهد عبدالله بن عمرو بن حرام، والد جابر بن عبدالله راوي هذه القصة، وأوصى الوالد ولده بسداد دينه ليلة استشهاده كما وصّاه برعاية أخواته التسع، لقد ترك عبدالله لابنه همّاً كبيراً، ناء به كاهله، وهو الشاب اليافع.

وقد لقيه رسول الله ﷺ يوماً، وهو مهموم مكروب، وقد ظهر عليه ما يعتمل به باطنه، فقال له الرسول ﷺ : (ما لي أراك منكسراً؟). قلت: «استشهد أبي يوم أحد، وترك عيالاً وديناً» فقال: (ألا أبشرك بما لقي الله به أباك؟) قلت: بلى، قال: (ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك، فكلمه كفاحاً، فقال: يا عبدي تَمَنَّ عليَّ أُعْطِكَ، قال: يا رب تحييني فأُقْتلَ ثانيةً، قال سبحانه: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، فنزلت: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩] [الترمذي في التفسير، باب «ومن سورة آل عمران» وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه: ٣٠١٠].

لم يعطه الرسول ﷺ ، ولم يعده بشيء منه في المستقبل، ولكنه أخبره بما لقيه أبوه من ربّه بعد استشهاده، فمن كان له مثل هذا المقام عند ربّه، فلن يضيع ذريته، وسيجعل لهم من كل ضيق فرجاً، ومن كل هم مخرجاً، وهذا ما وقع لجابر في هذه القصة.

ولم يكن لجابر ما يسدُّ به دَيْن أبيه إلا بستاناً من نخل، فانتظر حتى نضج الثمر، فطلب من غرماء أبيه أن يأخذوا ثمر حائطه كله بدين أبيه، ويسامحوه فيما بقي عليه، فأبوا، يقول جابر: «فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه، فأبوا ولم يروا فيه وفاء» [البخاري: ٢٧٠٩] وكان جابر يعلم أن دَيْن أبيه كبير، وأنه لا يفي للغرماء حقهم، وفي ذلك يقول: «وأنا أرضى أن يؤدي الله أمانة والدي، ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة» [٤٠٥٣].

فلما رفض الغرماء عرض جابر، واشتدوا عليه في طلب حقوقهم وافية، ذهب إلى الرسول ﷺ مستعيناً به عليهم، فطلب منهم الرسول ﷺ أن يضعوا عنه بعض دَيْنه فرفضوا [البخاري: ٢١٢٧] وكان أحد الغرماء يهودياً له ثلاثون وسْقاً، «فجاء الرسول ﷺ وكلم اليهودي، ليأخذ ثمر نخله بالذي له، فأبى» [البخاري: ٢٣٩٦].

لقد كان اليهودي والغرماء يعرفون مكانة جابر ووالده عند رسول الله ﷺ ، فكانوا يتوقعون أن يأخذوا تمر جابر كله، وما بقي عليه يسدّه عنه الرسول ﷺ ، أو يباع البستان، فيأخذوا حقّهم من ثمنه، أو يستدين جابر ليوفيهم، ولكن الرسول ﷺ خيّب ظنّهم، وأبطل كيدهم، فطاف في ذلك النخل، ودعا في ثمره، فبارك الله فيه، فقضى الغرماء الذي لهم، وفاض من ذلك الثمر خيرٌ كثير.

وقد سلك الرسول ﷺ طريقين:

الأولى: أنه طافَ ببعض نخل جابر، ودعا فيه، وأمر جابراً بعد ذلك أن يسدّ بعض الغرماء، ومنهم اليهودي، فسدّ ذلك النخل الذي طافَ به الرسول ﷺ دَيْن ذلك اليهودي ومن معه، وزاد منه خيرٌ كثير، فقد أخبرنا جابر أن الغرماء عندما استشفع بالرسول ﷺ عليهم، فطلب منهم أن يقبلوا ثمر حائطه، ويحللوا أباه فرفضوا، قال الرسول ﷺ لجابر: (سأغدوا عليك) قال جابر: «فغدا علينا حين أصبح، فطاف بالنخل، ودعا في ثمره بالبركة، فجددتها، فقضيتهم حقوقهم، وبقي لنا من ثمرها بقية» [البخاري: ٢٦٠١].

وذكر في رواية أخرى عنه أن اليهودي عندما رفض شفاعة الرسول ﷺ «دخل النخل فمشى فيها، ثمّ قال لجابر: (جدّ له، فأوف الذي له)، فجد له بعدما رجع رسول الله ﷺ ، فأوفاه ثلاثين وسقاً، وفضلت سبعة عشر وسقاً» [البخاري: ٢٣٩٦].

الثانية: أنه أمر جابر أن يجد طائفة أو ناحية من نخله، ويصنفه كل نوع على حدة، ففي رواية قال الرسول ﷺ لجابر: (صنّف تمرك كل شيء منه على حدته، عِذْق ابن زيد على حِدَة، واللّين على حدة، والعجوة على حِدَة، ثم أحضرهم حتى آتيك). قال: «ففعلت، ثم جاء فقعد عليه، وكالَ لكل رجل حتى استوفى، وبقي التمر كما هو، كأنه لم يُمَسْ» [راجع: ٢١٢٧].

وفي رواية أن جابراً طلب من الرسول ﷺ أن يأتيه عندما يأتيه الغرماء لسداد ما هم عليه من دَيْن ليرونه، لعلهم يتنازلون عن بعض حقهم، فقال له الرسول ﷺ : (اذهب فبيدر كل تمر على ناحية). قال: «ففعلت، ثم دعوته، فلما نظروا إليه، كأنما أغروا بي تلك الساعة» ومراده أن حضوره

أثار الغرماء، وجعلهم يشتدون في طلب حقهم، على عكس ما توقع جابر، فلما رأى رسول الله ﷺ هذا التعنّت منهم، أغاظه واستثاره، يقول جابر: «فلما رأى ما يصنعون أطاف حول أعظمها بيدراً ثلاث مرات، ثم جلس عليه، ثم قال له: (ادع لي أصحابك) فما زال يكيل لهم حتى أدى الله عن والدي أمانته، وأنا أرضى أن يؤدي الله أمانة والدي، ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة، فسلّم الله البيادر كلها وحتى إني أنظر إلى البيدر الذي كان عليه النبي ﷺ كأنها لم تنقص تمرة واحدة» [البخاري: ٤٠٥٢].

ففي الطريقة الأولى: غدا الرسول ﷺ على جابر في نخله في الصباح، وطافَ به، ودعا فيه، ولم يكن قد جُدَّ بعد، ولم يحضر الرسول ﷺ جذاذ النخل، وجابر هو الذي جدّه، وكال منه للغرماء، وأوفاهم، وفضل منه بقية، وفي رواية فضل منه سبعة عشر وسقاً، وفي رواية ثلاثة عشر، وفي هذه الواقعة، أن جابراً وافى الرسول ﷺ في صلاة العصر أو المغرب، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فضحك، وطلب منه أن يأتي أبا بكر وعمر فيخبرهما [البخاري: ٢٧٠٩].

وفي الطريقة الثانية: أمر الرسول ﷺ جابراً أن يجذ نخله قبل أن يأتيه، ويصنّفه، واضعاً إياه في البيدر، وأن يحضر الغرماء قبل أن يحضر هو، فجاء الرسول ﷺ ، وطافَ بأعظمها بيدراً ثلاث مرات، ودعا فيه، وكال لهم منه حتى أوفاهم.

ولم يذكر في هذه الطريقة أنه طاف بالنخل، بل طاف ببيدر واحد من ذلك التمر، وكال لهم منه وحده، ووفي للجميع حقوقهم، وأن البيدر الذي كال الرسول ﷺ منه بقي على حاله لم ينقص منه شيء، فسلم ذلك البيدر، وسلمت بقية البيادر، لأنها لم تُمَس.

وبهذا الذي ذكرته زال الإشكال الذي ذكره بعض أهل العلم، إذ ظنوا أن الرسول ذهب إلى جابر مرة واحدة، في نخل واحد، وثمر واحد، وليس الأمر كذلك.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- اهتمام جابر بسداد دَيْن أبيه يدل على ما كان عليه الصحابة من العناية بسداد دَيْن المتوفى، وإبراء ذمته، فإن الشهيد يغفر له ذنوبه بأول دفقة من دمه إلا الدَّيْن.

٢- طلب جابر من غرماء أبيه أن يقضيهم بعض دَيْن أبيه، ويبرئونه من باقي الدَّيْن، وهذا يدل على إن إبراء الدائن المدين يسقط حقه في الدنيا والآخرة. وأكد هذا الحكم شفاعة الرسول ﷺ عند الغرماء بذلك، وما كان للرسول ﷺ أن يسعى في إسقاط حق لا يجوز إسقاطه.

٣- سعي الرسول ﷺ في مصالح أصحابه، فقد استجاب لجابر في شفاعته عند غرماء أبيه، وجاءه في اليوم التالي، وطافَ في بيادر التمر ودعا فيها بالبركة.

٤- إجابة دعاء الرسول ﷺ ، فقد بارك الله في ذلك التمر، فسدَّ التمر القليل المال الكثير، وبقي التمر على حاله، كأنه لم يؤخذ منه شيء، وهذا من علامات صدقه صلوات الله عليه وإمارات نبوَّته.

٥- عدم غضب الرسول ﷺ من غرماء جابر عندما طالبوا بكامل حقهم، فمن طالب بحقه فما ظلم.

٦- جواز إيفاء الرجل أقلِ من دَيْنه إذا قَبِل بذلك من غير اتفاق مسبق.

٧- يفيد الحديث معرفة بعض أصناف التمر التي كانت في المدينة في عصر النبوة، فقد ذكر الرسول ﷺ الأنواع التالية: عذق ابن زيد، ولعله سمي باسمه لأنه أول من غرسه كما أفاده ابن حجر والعجوة، واللين. وقد نقل ابن حجر عن بعض أهل العلم أن أصناف التمر الأسود في المدينة تزيد على الستين صنفاً، وأصناف الأحمر أكثر من ذلك [فتح الباري: ٤/ ٤٣٦].

٨- روى البخاري أن عدد أخوات جابر تسع أخوات [البخاري: ٤٠٥٢] وورد في أحاديث أخرى أنهن ست [البخاري: ٤٠٥٣] والجمع بينهما كما يقول ابن حجر أن ثلاثاً منهن كنّ متزوجات، فاللاتي تلزمه نفقتهن ست.

٩- في إحدى روايات الحديث عند البخاري أن جابراً عندما انطلق إلى الرسول ﷺ في سداد دَيْنه دقّ الباب، فقال الرسول ﷺ من؟ قال جابر: أنا. فقال: (أنا، أنا) كأنه كرهها: [البخاري: ٦٢٥٠] وقد ثبت في بعض كتب السنّة أن على الطارق إذا طُلب منه التعريف بنفسه أن يذكر اسمه صريحاً، فيقول أنا فلان، لأن قوله: أنا، من غير تعريف، لا يُعرِّف أهل المنزل به [راجع فتح الباري: ١١/ ٤٢].

١٠- في بعض روايات الحديث أن الرسول ﷺ هو الذي كال للغرماء [البخاري: ٢٤٠٥] وفي أخرى أنه جابر [البخاري: ٢١٢٧] ولا تعارض بين الحديثين فالرسول هو الآمر، وجابر هو الفاعل. ويدل لصحة هذا الجمع قول جابر: «ثم قال: (كل للقوم). فكلتهم حتى أوفيتهم الذي لهم» [البخاري: ٢١٢٧]. ويمكن الجمع بين الروايات على تعدد الواقعة، كما بيّنته في الشرح.

١١-طلب الرسول ﷺ أن يكيل للغرماء حقهم من التمر، وهذا يدل على أن مؤونة الكيل على البائع والمعطي، وقد ترجم البخاري على هذا الحديث في كتاب البيوع بقوله: (باب الكيل على البائع والمعطي) [٢١٢٧].

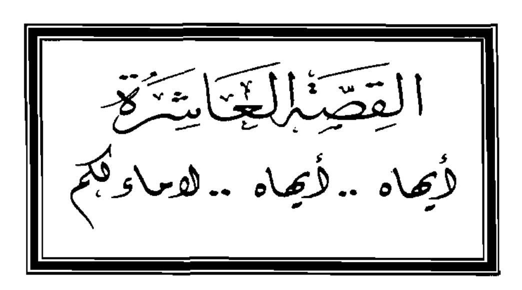
١٢-جواز تأخير الدَّيْن عموماً ودَيْن الميت أو الشهيد خصوصاً حتى يجد المكلَّف بسداد الدَّيْن ما يسدّ به دَيْنه، كما هو الحال بدَيْن والد جابر.

١٣-يجوز للوصي أن يقضي ديون الميت من غير حضور الورثة كما فعل جابر فقد قضى دَيْن أبيه من غير أن تحضر أخواته القضاء، وقد ترجم البخاري على الحديث بما يفيد هذا المعنى [البخاري: ٢٧٨١].

١٤-الذي يظهر أن مقدار دَيْن جابر كان ستون وسقاً، منها ثلاثون لليهودي، كما هو صريح في رواية [البخاري: ٢٣٩٦] وأن بقية الغرماء لهم ثلاثون وسقاً: [٢٧٠٩]. والوسق ستون صاعاً، والصاع أربعة أمداد، والمد أن يملأ الرجل يديه طعاماً، ثمّ يمدهما.

١٥-جواز معاملة غير المسلمين بيعاً وشراءً واستدانة، كما فعل والد جابر في استدانته من يهودي.

* * *



تمهيد

عنوان القصة كلمة قالتها أعرابية تركب بعيرها تحمل عليه الماء من مكان بعيد، تريد به أن تصور للصحابة الذين سألوها عن الماء بُعدهم عنه، وقد جعل الله في مائها آية لرسوله ﷺ ، فقد مجّ الرسول ﷺ في مائها مجّة جعلته يتكاثر حتى استقى منه صحابة الرسول وهم عطاش، وتوضأ منهم من يريد الوضوء، واغتسل من عليه جنابة، وملؤوا آنيتهم وقربهم.

نص الحديث

عن عمران، قال: «كنا في سَفَرٍ مع النبيِّ ﷺ ، وإنّا أسْرَينا حتى إذا كنا في آخرِ الليلِ وقَعْنا وَقعةً ولا وَقعةَ أحْلى عندَ المسافِرِ منها، فما أيْقظَنا إلا حَرُّ الشمسِ، وكان أوْلَ مَنِ استيقَظَ فُلانٌ ثمَّ فُلانٌ ثمَّ فلان - يُسمِّيهمْ أبو رَجاءٍ[1]، فنسِيَ عوفٌ - ثمَّ عُمرُ بنُ الخطَّابِ الرَّابعُ، وكان النبي ﷺ إذا نامَ لَمْ يُوقَظْ حتى يَكونَ هُوَ يَستيقِظُ، لأنّا لا ندرِي ما يَحدُثُ لهُ في نومِهِ.

فلمَّا استَيقظَ عمرُ ورأى ما أصابَ النَّاسَ - وكانَ رجُلاً جَليداً - فكبَّرَ، ورفَعَ صَوتَهُ بالتكبيرِ، فما زالَ يُكبِّرُ ويَرفَعُ صوتَهُ بالتكبيرِ حتى

(١) أبو رجاء العطاردي واسمه عمران بن ملحان، تابعي روى الحديث عن عمران بن حصين، وعوف هو عوف بن أبي جميلة المعروف بالأعرابي، راوي الحديث عن أبي رجاء.

اسْتَيْقَظَ بصوتِه النبيُّ ﷺ ، فلما استيقظَ شَكَوْا إليهِ الذي أصابَهمْ، قال: (لا ضَيْرَ - أو لا يَضيرُ - ارتَحِلوا) فارتحلَ، فسارَ غيرَ بَعيدٍ، ثمَّ نزلَ فدَعا بالْوَضوءِ فتوضَّأ، ونُودِيَ بالصلاةِ فصلَّى بالناسِ، فلما انفتَلَ من صلاتِه إذا هُوَ برَجُلٍ مُعتزلٍ لم يُصَلِّ مع القومِ، قال: (ما مَنَعَك يا فلانُ أن تُصلِّيَ مع القومِ؟) قال: أصابَتْني جَنابةٌ ولا ماءَ. قال: (عليكَ بالصَّعيدِ. فإنه يَكفيكَ).

ثم سارَ النبيُّ ﷺ فاشتكى إليه الناسُ من العَطَشِ، فنزَلَ فدعا فُلاناً - كان يسمِّيهِ أبو رجاء نَسِيَهُ عوفٌ - ودَعا علياً فقال: (اذهَبا فابتَغِيا الماء) فانطلقا فتلقَّيا امرأةً بين مَزادَتينِ - أو سطِيحَتَيْنِ - من ماءٍ عَلَى بَعيرٍ لها فقالا لها: أينَ الماء؟ قالتْ: عَهدِي بالماءِ أمسِ هذهِ الساعةَ، ونَفَرُنا خُلوفاً. قالا لها: انطَلِقي إذاً. قالت: إلى أينَ؟ قالا: إلى رسولِ الله ﷺ ، قالتِ: الذي يُقالُ له: الصابئُ؟ قالا: هو الذي تَعْنينَ، فانْطَلِقي. فجاءا بها إلى النبيِّ ﷺ وحدَّثاهُ الحديثَ.

قال: فاستَنْزَلوها عن بَعيرها، ودَعا النبيُّ ﷺ بإناءٍ ففرَّغَ فيه من أفواهِ المَزادَتَينِ أو السَّطِيحتَيْنِ، وَأَوْكَأَ أفْواهَهُما، وأطلَقَ العَزالَى، ونُودِيَ في الناسِ: اسْقوا واستَقوا. فسَقَى من شاءَ، واستَقى من شاء، وكان آخِرَ ذاكَ أنْ أعطى الذي أصابَتْهُ الجَنابَةُ إناءً من ماء، قال: اذهبْ فأفرِغْهُ عليكَ. وَهيَ قائمةٌ تنظُرُ إلى ما يُفْعَلُ بمائِها، وايمُ الله لقدْ أُقلِعَ عنها، وإنه لَيُخيَّلُ إلينا أنها أشدُّ مِلأةً منها حينَ ابتَدَأَ فيها.

فقال النبيُّ ﷺ : (اجْمَعوا لها)، فَجَمعوا لها - من بينِ عَجْوَةٍ وَدُقيقةٍ وَسُوَيقةٍ - حتى جَمَعوا لها طَعاماً، فجعلوها في ثوبٍ، وحَمَلوها على بَعيرها، وَوَضَعوا الثَّوبَ بينَ يَدَيْها، قال لها: (تَعلَمينَ ما رَزِئْنا من مائِك

شَيْئاً، ولكنَّ الله هوَ الذي أسقانا) فأتتْ أهلَها وقدِ احتبَستْ عنهم. قالوا: ما حبَسكِ يا فُلانةُ؟ قالتِ: العَجَبُ، لَقِيَني رَجُلانِ فذهبا بي إلى هذا الذي يُقالُ له: الصابيُّ، ففعلَ كذا وكذا، فوالله إنه لأسْحَرُ الناسِ من بينِ هذهِ وهذهِ - وقالت بإصبَعَيْها الوُسطى والسَّبابةِ فرَفعَتْهما إلى السماء تعني السماءَ والأرضَ - أوَ إنه لَرسولُ الله حقاً.

فكانَ المسلمونَ بعدَ ذلكَ يُغيرونَ علَى من حَوْلها مِنَ المشركِينَ، ولا يُصيبونَ الصِّرْمَ الذي هيَ منه. فقالتْ يوماً لِقومِها: ما أرَى أنَّ هؤلاء القَوْمَ يدعونَكم عَمداً، فهل لكم في الإسلامِ؟ فأطاعوها، فدَخلوا في الإسلام».

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ. قَالَ: «كُنْتُ مَعَ نبيِّ الله ﷺ في مَسِيرٍ لَهُ، فَأدْلَجْنا لَيْلَتَنَا، حَتَّى إذا كَانَ في وَجْهِ الصُّبْحِ عَرَّسْنَا، فَغَلَبَتْنا أعْيُنُنا حَتَّى بَزَغَتِ الشَّمْسُ.

قَالَ فكَانَ أوَّلَ مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَّا أبُو بَكْرٍ، وَكُنَّا لاَ نُوقِظ نبيَّ الله ﷺ مِنْ مَنَامِهِ إذا نَامَ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ عُمَرُ فقَامَ عِنْدَ نبيِّ الله ﷺ ، فَجعَلَ يُكبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بالتَّكْبِيرِ، حَتَّى اسْتَيْقَظَ رَسُولُ الله ﷺ ، فَلَمَّا رَفعَ رَأْسَهُ، وَرَأى الشَّمْسَ قَدْ بَزَغَتْ قَالَ: (ارْتَحِلُوا) فَسَارَ بنَا، حَتَّى إذا ابْيَضَّتِ الشَّمْسُ نَزَلَ فَصَلَّى بنَا الْغَدَاةَ.

فاعْتَزَلَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لَمْ يُصَلِّ مَعَنَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : (يَا فُلاَنُ! مَا مَنعَكَ أنْ تُصَلِّي مَعَنا؟) قَالَ: يَا نبيَّ الله، أصَابَتْنِي جَنابَةٌ. فَأمَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَتيَمَّمَ بالصَّعِيدِ، فَصَلَّى، ثُمَّ عَجَّلَنِي في رَكْبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، نَطْلُبُ الْمَاءَ، وَقَدْ عَطِشْنَا عَطَشاً شَدِيداً.

فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسيرُ إذا نَحْنُ بامْرَأَةٍ سَادِلَةٍ رِجْلَيْهَا بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ، فَقُلْنَا لَهَا: أَيْنَ الْمَاءُ؟ قَالَتْ: أَيْهَاهْ. أَيْهاهْ. لاَ مَاءَ لَكُمْ، قُلْنَا: فَكَمْ بَيْنَ أَهْلِكِ وَبَيْنَ الْمَاءِ؟ قَالَتْ: مَسِيرَةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. قُلْنَا: انْطَلِقِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ .

قَالَتْ: وَمَا رَسُولُ الله؟ فَلَمْ نُمَلِّكْهَا مِنْ أَمْرِهَا شَيْئاً حَتَّى انْطَلَقْنَا بها، فَاسْتَقْبَلْنَا بهَا رَسُولَ الله ﷺ ، فَسَأَلَها فَأَخْبَرَتْهُ مِثْلَ الَّذِي أَخْبَرَتْنَا، وَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا مُوتِمَةٌ. لَهَا صِبْيَانٌ أَيْتَامٌ، فَأَمَرَ براوِيَتِهَا فَأُنِيخَتْ. فَمَجَّ في الْعَزْلاَوَيْنِ الْعُلْيَاوَيْنِ. ثُمَّ بَعَثَ براوِيَتِهَا فَشَرِبْنَا، نَحْنُ أَرْبَعُونَ رَجُلاً عِطَاشٌ، حَتَّى رَوِينَا، وَمَلأْنَا كُلَّ قِرْبَةٍ مَعَنَا وَإِدَاوَةٍ. وَغَسَّلْنَا صَاحِبَنَا، غَيْرَ أَنَّا لَمْ نَسْقِ بَعِيراً، وَهِيَ تَكَادُ تَنْضَرِجُ مِنَ الْمَاءِ (يَعْنِي الْمَزَادَتَيْنِ) ثُمَّ قَالَ: (هَاتُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ). فجَمعنا لها مِن كِسَرٍ وتمرٍ، وَصُرَّ لها صُرَّةً.

فقال لها: (اذهبي فأطْعِمي هذا عيالكِ، واعلمي أنـّا لم نـرزأْ مِن مائِكِ) فلمَّا أتتْ أهلَها قالت: لقد لقيتُ أسحرَ البشرِ، أو إنه لنبيٌّ كما زعم، كان من أمرِه ذيتَ وذيتَ، فهدَى اللهُ ذلك الصِّرْمَ بتلكَ المرأةِ، فأسلمَتْ وأسلموا.

تخريج الحديث

روى البخاري هذا الحديث بطوله في كتاب التيمم، باب «الصعيد الطيب وضوء المسلم » ورقمه: (٣٤٤)، ورواه في مواضع أخرى من صحيحه. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب: «المساجد ومواضع الصلاة» باب: «قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل صلاتها» ورقمه: (٦٨٢).

غريب الحديث

أسرينا وأدلجنا : السرى والإدلاج سير الليل.

عرس	: التعريس بالمكان: النزول فيه، والحلول به.
رجلاً جليداً	: القوي في جسده ونفسه.
أجوف	: رفيع الصوت، يخرج صوته من جوفه.
لا ضير، أو لا يضير	: أي: ليس عليكم ضرر، أو لا مضرة عليكم.
عليك بالصعيد	: عليك بالتيمم، والصعيد: وجه الأرض، وقيل: التراب خاصة.
ابتغيا	: اطلبا.
سادلة رجليها	: أي: مرسلة إياهما.
مزادتين	: المزادة: هي التي تسميها العرب الراوية والسطيحة، وهي أعظم ما تصنعه العرب من القرب، وهي تُصنع بطريقة خاصة، لتناسب الجمل في حملها عليه، سميت مزادة، لأنه لا يكفي جلد الشاة في صناعتها، بل يزاد في الجلد الذي تُصنع منه، كي تكبر وتعظم، والمزادتان، حمل بعير، يحملان على البعير متساويتان متعادلتان.
أيهاه، أيهاه	: كلمة تقال يُعبَّر بها عن بُعد المكان الذي يسأل عنه، ومرادها إخبارهم ببُعد الموضع الذي استقت منه الماء.
ونَفَرُنا خُلُوفٌ	: أي: رجالنا غائبون عن الحي، والنفر اسم جنس لا واحد له من لفظه، يُطلق على

القوم ما بين الثلاثة والعشرة، والخلوف: جمع خالف، وهو الغائب. وذكر ابن حجر أن بعض أهل العلم ضبطها: (ونَفَرْنا خلوف) فهي منصوبة على الحال الذي سدَّ مسدَّ الخبر [راجع فتح الباري: ١/ ٥٨٦، والنهاية لابن الأثير: ٥/ ٩٣].

الصابئ : الصابئ في لغة العرب الذي فارق دينه إلى دين آخر، وكان المشركون يطلقونه على الرسول ﷺ ، لخروجه عن دينهم المتمثل في عبادة الأصنام، ويذكر الباحثون في الملل أن الصابئة فرقة تعبد الكواكب، وكان منهم قوم إبراهيم عليه السلام .

تغنين : تريدين.

الراوية : الجمل الذي يحمل الماء، وقد يطلقونها على القربة الجلدية التي يُحمل بها الماء على ظهر الجمل، والتي تسمى بالمزادة أو السطيحة.

مُوتمة : أي: ذات أيتام، وهي المرأة التي توفي زوجها، وترك لها أولاداً صغاراً يحتاجون إلى رعاية.

فلم نملكها من أمرها شيئاً : ألزموها بالسير معهم، ولم يتركوا لها الحرية في الانطلاق إلى الموضع الذي تريده.

فَمجَّ : المج: إدخال الماء في الفم، ثم إخراجه بقوة.

أوكأ أفواهها وأطلق العزالي : كانت العرب تصنع للراوية التي ينقل فيها الماء على ظهر الجمال، فتحتان في أعلى المزادتين، يسمونهما الأفواه، ويصبون الماء عبرهما عندما يريدون ملأهما بالماء، كما يجعلون في أسفل المزادتين فتحتين ليخرج منهما الماء عندما يريدون السقيا، أو إفراغ الماء منهما، ويسمون الفتحات السفلى بالعزالي، وقد تطلق العزالي على الفتحات العليا كما تُطلق على السفلى، ويفرقون بينهما بقولهم: العزالاوين العلياوين، والعزلاوين السفلاوين.

وايم الله : اسم وضع للقسم، واصله: ايمن الله، حذفت منه النون تخفيفاً.

أشدّ مِلأة : أي: أن المزادتين كانتا أكثر امتلاءً بعد استقاء الصحابة منهما.

تنضرج : أي: تنشق وتنفجر لشدة امتلائها.

صرّ لها صُرّة : الصرة قطعة قماش وضع فيها الطعام، ثم جمعت وشدَّت وربطت.

ما رزأنا : ما أنقصنا من مائك شيئاً.

ذيت وذيت : بمعنى كيت وكيت، يُكنى بها عن قصة أو حادثة مرَّت.

قالت بإصبعها : أشارت به.

يغيرون : الإغارة الهجوم على العدوّ راكبين على الخيل.

الصِّرم : طائفة من القوم ينزلون بإبلهم منفردين عن غيرهم.

شرح الحديث

حدثنا عمران في قصة هذا الحديث أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في إحدى أسفاره، وأنهم ساروا الليل كله، حتى إذا كان وجه الصبح أخذ منهم التعب كل مأخذ فنزلوا، وكم يكون المنام حلواً لذيذاً إذا جاء غبّ تعب شديد وسهر طويل، كما يكون الطعام والشراب هنيئاً مريئاً إذا كان غب جوع أو عطش، ولذا قال عمران في نزولهم ذاك: «حتى إذا كنا في آخر الليل وقعنا وقعة، ولا وقعة أحلى عند المسافر منها».

ولشدة التعب والسهر لم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وكان أول من استيقظ أبو بكر، واستيقظ عمر بن الخطاب رابع القوم، وكان من هدي الصحابة مع رسول الله ﷺ أنهم لا يوقظونه من نومه حتى يستيقظ هو، ولكن عمر رفع صوته بالتكبير ليوقظ رسول الله ﷺ ، فقد فقه عمر رضي الله عنه أن الحالة التي هم فيها تخالف غيرها، فهناك سبب يوجب إيقاظ الرسول ﷺ وهو كونهم لم يصلوا الفجر، وقد خرج وقتها.

وكان عمر كما وصفه راوي الحديث في رواية مسلم (أجوف جليداً) والأجوف قوي الصوت، والجليد الصلب، وكذا فإن تكبيره أيقظ رسول الله ﷺ من غير تأخير.

فلما استيقظ رسول الله ﷺ بتكبير عمر رأى الشمس بازغة، واشتكى إليه أصحابه ما حلَّ بهم من فوت صلاة الفجر، فهدّأ نفوسهم، وطمأن قلوبهم بقوله لهم: (لا ضير، أو لا يضير)، والمعنى: لا ضرر عليكم، فقد جاء في حديث آخر: (لا تفريط في النوم)، ثم أمرهم بالارتحال من موضع منامهم، حتى إذا ارتفعت الشمس، نزلوا فدعا رسول الله ﷺ بوضوء فتوضأ، ثم أذن للصلاة، فصلى بالناس، فلما التفت من صلاته بعد سلامه، رأى أحد أصحابه معتزلاً لم يصلِّ مع القوم، فلما استفسر منه عن السبب في عدم صلاته مع الجماعة، أخبره أنه جنب، ولا ماء معه، فأمره بالتيمم، وأنه يكفيه عند فقد الماء لصلاته.

وانطلق الرسول ﷺ بأصحابه قاصداً الوجه الذي يريد، فاشتكى إليه أصحابه العطش، فأرسل عمران راوي الحديث ورجلاً آخر من أصحابه بين يديه يطلبون الماء، ويبحثون عنه، فما كادوا يفارقون القوم حتى وجدوا امرأة على ناقة لها مرسلة رجليها بين مزادتين، والمزادتان قربتان كبيرتان يصنعان ليوضعا على ظهر البعير بقدر ما يطيق، وكانت العرب تنقل بهما الماء، وتسمي العرب المزادة أيضاً بالراوية والسطيحة.

ولا شك أن هذه المرأة التي تحمل الماء في مزادتيها كانت تعرف موضع الماء، ولذا بادراها بالسؤال عنه، فأعلمتهم أنه عنهما بعيد، وأن عهدها بالموضع الذي استقت منه الماء بالأمس في مثل الوقت الذي هي فيه الآن، أي مسيرة يوم وليلة كما في رواية مسلم، وأخبرتهم أن الرجال من أهلها غائبون عن الحي، ولذلك احتاجت أن تخرج بنفسها للاستقاء من الماء البعيد.

فطلبا منها أن تسير معهم لمقابلة رسول الله ﷺ ، فقالت: «الذي يقال له: الصابئ؟» والصابئ هو الذي ترك دينه لدين آخر، وكان المشركون من

العرب أطلقوا على رسول الله ﷺ هذا اللقب، لتركه دينهم الذي به يدينون، وهو عبادة الأصنام.

وقد أحسن الصحابيان الجواب حينما قالا: (هو الذي تعنين)، ولم يقولا لها: نعم، أو لا، لأن في كل واحد منهما محظوراً، فلو قالا لها: نعم، لكان في الجواب موافقة لها في تسميته بالصابئ، ولو قالا: لا، لكان في الجواب نفي لما سألت عنه.

فلما وصلت إلى رسول الله ﷺ واستخبرها عن الماء، فأخبرته بالذي أخبرت به صاحبيه، وزادته على ما سأل عنه إخباره بحالها، وأنه موتمة، أي تقوم على أيتام ترعاهم، وهذا يدل على نباهة المرأة، فالرسول ﷺ كان سيداً مطاعاً في قومه، وإخباره بحالها فيه استغلال لفرصة سنحت لها لعلها تنال من جوده وكرمه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إخباره بحالها قد يمنعه أن يسلبها ماءها الذي أرهقها نقله من مكان ناءٍ بعيد، فإن أخذ منه، فلعله يعوِّضها عما يأخذ منها.

فأمر الرسول ﷺ أصحابه أن ينيخوا ناقتها، ثم أخذ رسول الله ﷺ إناء صبّ فيه قليلاً من ماء مزادة المرأة، والأظهر أنه دعا في ذلك الماء بالبركة، ثم أعاد ذلك الماء في المزادتين، وفي رواية مسلم أن الرسول ﷺ «مج في العزلاوين العلياوين» ورقم الحديث (٦٨٢) وفي رواية عند البخاري فمسح العزلاوين ورقم الحديث: (٣٥٧١). والذي يظهر أن كل ذلك كان، فقد أفرغ من المزادتين، ثم أخذ من الماء في فمه، فمجّ فيه، ثم صب الماء في المزادتين من أعلاهما، ومسح المنفذين السفليين. وكان من شأن العرب في المزادتين التي يُنقل بهما الماء أن يجعلوا لكل واحدة منهما فتحة

من الجهة العليا، كي يصبّ فيها الماء حين ملئها، وأن يجعلوا لكل واحدة منهما فتحة من الجهة السفلى، حتى يُفرغ منها الماء، ويُستقى منها، وكانت العرب تسمي الفتحات العليا بالأفواه، والفتحات السفلى بالعزالي، وربما سمت الفتحات العليا بالعزالي، واحدتها: عزلاء، ولكل راوية عزلاوان من الأعلى، ومثلهما من الأسفل.

صبّ رسول الله ﷺ الماء الذي دعا فيه ومجّ فيه في أفواه الراويتين، ثم أحكم ربط أفواههما، ثم فتح الفتحتين اللتين يستقي منهما الماء في أسفل المزادتين، وطلب من أصحابه أن يستقوا، فأقبل أصحابه على الماء وكانوا عطاشاً فشربوا حتى رووا، ولم يكتفوا بذلك، بل ملؤوا كل ما أمكنهم من قِرَب وآنية، وأعطى الرسول ﷺ ذلك الرجل الذي اعتزل الصلاة لجنابته إناءً مملوءاً ماء، وأمره أن يزيل جنابته بالاغتسال منه.

لقد وقفت المرأة صاحبة المزادتين جانباً تنظر إلى مائها الذي ينصب من مزادتيها، ولا شك أنها دهشت أشدّ الدهشة حينما رأت الكم الهائل من الماء الذي أخذ من مزادتيها، فقد شرب منه قريبٌ من أربعين رجلاً عطاشاً، وملأ القوم منه كل ما عندهم من قِرَب وآنية، وكلها كانت فارغة، ومع ذلك فإن المزادتين لم تنقصا شيئاً، فكان ذلك أمراً عجباً، وقد أظهرت عجبها لقومها عندما أخبرتهم بصنيع رسول الله ﷺ قائلة: «العجب، لقيني رجلان، فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ، ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه، وقالت بإصبعيها الوسطى والسبابة، فرفعتهما إلى السماء، تعني السماء والأرض، أو إنه لرسول الله حقاً».

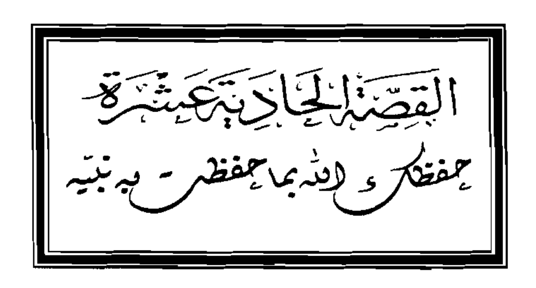
وقد هدى الله تلك المرأة وقومها، وعلمت أنه رسول الله، وليس بساحر. لقد أكرم الله رسوله ﷺ بتكثير الماء، فلم يرزأ المرأة صاحبة المزادتين

شيئاً منه، بل لعلّ الماء الذي في مزادتيها كان أكثر منه بعد أن استقى منه الصحابة مما كان قبله، ومع ذلك فقد كان الرسول ﷺ معها كريماً، فإنه أمر أصحابه أن يجمعوا لها مما معهم من طعام، وكان الذي معهم منه قليل، فأعطوها من ذلك القليل تمراً ودقيقاً وسويقاً، جمعوه في ثوب واحد ووضعوه بعد أن حملوها على بعيرها - بين يديها، وأخبرها الرسول ﷺ أن ما نالته منهم لم يكن ثمناً لمائها، فإنهم لم يأخذوا من مائها شيئاً، فالسقيا التي استقوها كانت بركة ورحمة من الله.

ولم يقف تفضّل الرسول ﷺ وأصحابه على تلك المرأة على ما أهدوه لها من ذلك الطعام، فقد امتد فضلهم عليها وعلى قومها، فقد كانوا يغيرون على من حولها من المشركين، ولا يصيبون الطائفة التي تسكن معها، وقد تنبهت تلك المرأة لحسن صنيع المسلمين معها ومع قومها، وأنهم يتجنبون أذيّتها وأذية قومها والإغارة عليهم والإصابة منهم، حفظاً لما كان من شأنها وشأن رسول الله ﷺ معها، فنبّهت قومها لما يفعله المسلمون بهم، ودعتهم إلى الدخول في الإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ، ففعلوا.

لقد رأت تلك المرأة منظراً من الرسول ﷺ لم تنسه، لقد رأت أمراً ليس من فعل البشر، ولا شك أنها تأملت فيه طويلاً، ورددت النظر كثيراً، ورعى المسلمون ما يعتمل في نفسها، بإهدائهم لها من طعامهم القليل، ثم بالكف عنها وقومها، وهم يُغيرون على من حولها، فآمنت وقومها، وكذلك أفعال الصالحين، تهدي الحيارى التائهين، ولو بعد حين.

* * *



تمهيد

عنوان هذه القصة دعوة حظي بها أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ ، وكان حفظه لنبي الله ﷺ أنه كان يعدل الرسول ﷺ حين يميل عن راحلته، حين يأخذه النوم، في مساره ليلاً في إحدى الغزوات، مما اضطر الرسول ﷺ إلى أن ينزل في آخر الليل مع قلة من الجيش، فيأخذ قسطاً من الراحة، ولشدة التعب جرى معهم ما جرى في قصة عمران السابقة من طلوع الشمس وهم نيام، فهما قصتان، ولذا جعلتهما منفصلتين، وجمعت فوائدهما في موضع واحد، لكثرة ما بينهما من تقارب.

نص الحديث

عَنْ أبي قَتَادَةَ؛ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: (إنَّكُمْ تَسيرُونَ عَشِيَّتَكُمْ وَلَيْلَتَكُمْ، وَتَأْتُونَ الْمَاءَ، إنْ شَاءَ الله، غداً)، فَانْطَلَقَ النَّاس لاَ يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ.

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: فَبَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ يَسيرُ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ وَأَنَا إلى جَنْبِهِ. قَالَ: فَنَعَسَ رَسُولُ الله ﷺ . فَمَالَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، فَأَتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوقِظَهُ، حَتَّى اعْتَدَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ. قَالَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى تَهَوَّرَ اللَّيْلُ مَالَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، قَالَ: فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوقِظَهُ. حَتَّى اعْتَدَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ.

قَالَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى إذا كَانَ مِنْ آخِرِ السَّحَرِ مَالَ مَيْلَةً، هِيَ أَشَدُّ مِنَ الْمَيْلَتَيْنِ الأولَيَيْنِ، حَتَّى كَادَ يَنْجفِلُ، فَأَتَيْتُهُ فَدعَمْتُهُ. فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: (مَنْ هَذَا؟) قلْتُ: أَبُو قَتَادَةَ، قَالَ: (مَتى كَانَ هَذَا مَسيرَكَ مِنِّي؟) قُلْتُ: مَا زَالَ هَذَا مَسيرِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ، قَالَ: (حَفِظَكَ الله بما حَفِظْتَ بهِ نَبِيَّهُ). ثُمَّ قالَ: (هَلْ تَرَانَا نَخْفَى عَلَى النَّاسِ؟) ثُمَّ قَالَ: (هَلْ تَرَى مِنْ أَحَدٍ؟) قلْتُ: هَذا رَاكِبٌ. ثُمَّ قُلْتُ: هَذا رَاكِبٌ آخرُ. حَتَّى اجْتَمَعْنَا فَكُنَّا سَبْعَةَ رَكْبٍ، قَالَ فَمَالَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الطَّرِيقِ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ.

ثُمَّ قَالَ: (احْفَظُوا عَلَيْنَا صَلاَتَنَا). فَكَانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتَيْقَظَ رَسُولُ الله ﷺ وَالشَّمْسُ في ظَهْرِهِ، قَالَ: فَقُمْنَا فَزِعِينَ. ثُمَّ قَالَ: (ارْكَبُوا) فَرَكِبْنَا، فَسِرْنَا. حَتَّى إذا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ نَزَلَ، ثُمَّ دَعَا بِمِيضَأَةٍ كَانَتْ مَعِي فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ماءٍ، قَالَ: فَتَوَضَّأَ مِنْهَا وُضُوءاً دُونَ وُضُوءٍ، قَالَ: وَبَقِيَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ قَالَ لأبي قَتَادَةَ: (احْفَظْ عَلَيْنَا مِيضَأَتَكَ. فَسَيَكُونُ لَهَا نَبَأٌ) ثُمَّ أذنَ بلاَلٌ بالصَّلاَةِ، فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّى الْغَدَاةَ، فَصَنَعَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ كُلَّ يَوْمٍ.

قَالَ: وَرَكِبَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَكِبْنَا مَعَهُ، قَالَ فَجَعَلَ بَعْضُنَا يَهْمِسُ إلى بَعْضٍ: مَا كَفَّارَةُ مَا صَنَعْنَا بتَفْرِيطِنَا في صَلاَتِنَا؟ ثُمَّ قَالَ: (أَمَا لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ؟) ثُمَّ قَالَ: (أَمَا إنَّهُ لَيْسَ في النَّوْمِ تَفْرِيطٌ، إنَّمَا التَّفْرِيطُ عَلَى مَنْ لَمْ يُصَلِّ الصَّلاَةَ حَتَّى يَجِيءَ وَقْتُ الصَّلاَةِ الأُخْرَى، فَمَنْ فَعَلَ ذلِكَ فَلْيُصَلِّهَا حِينَ يَنْتَبِهُ لَهَا، فَإِذا كَانَ الْغَدُ فَلْيُصَلِّهَا عِنْدَ وَقْتِها).

ثُمَّ قالَ: (مَا تَرَوْنَ النَّاسَ صَنَعُوا؟) قَالَ: ثُمَّ قَالَ: (أَصبَحَ النَّاسُ فَقَدُوا نَبيَّهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ: رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَكُمْ، لَمْ يَكُنْ لِيُخَلِّفَكُمْ، وَقَالَ النَّاسُ: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، فإِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا).

قَالَ: فَانْتَهَيْنَا إِلَى النَّاسِ حِينَ امْتَدَّ النَّهَارُ، وَحَمِيَ كُلُّ شَيْءٍ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا رَسُولَ الله! هَلَكْنَا. عَطِشْنَا. فَقَالَ: (لاَ هُلْكَ عَلَيْكُمْ). ثُمَّ قَالَ: (أَطْلِقُوا لِي غُمَرِي). قَالَ: وَدَعا بالْمِيضَأَةِ، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَصُبُّ وَأَبُو قَتَادَةَ يَسْقِيهِمْ، فَلَمْ يَعْدُ أَنْ رَأَى النَّاسُ مَاءً في الْمِيضَأَةِ تَكَابُّوا عَلَيْهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (أَحْسِنُوا الْمَلأَ، كُلُّكُمْ سَيَرْوَى). قَالَ: فَفَعَلُوا. فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَصُبُّ وَأَسْقِيهِمْ، حَتَّى مَا بَقِيَ غَيْرِي وغَيْرُ رَسُولِ الله ﷺ ، قَالَ: ثُمَّ صَبَّ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ لِي: «اشْرَبْ». فَقُلْتُ: لاَ أَشْرَبُ حَتَّى تَشْرَبَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «إِنَّ سَاقِيَ الْقَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْباً» قَالَ: فَشَرِبْتُ. وَشَرِبَ رَسُولُ الله ﷺ . قَالَ فَأَتَى النَّاسُ الْمَاءَ جَامِّينَ رِوَاءً.

قَالَ: فقَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَبَاحٍ: إِنِّي لأُحَدِّثُ هَذَا الْحَدِيثَ في مَسْجِدِ الْجَامِعِ. إذ قَالَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: انْظُرْ أَيُّهَا الْفَتَى كَيْفَ تُحَدِّثُ، فَإِنِّي أَحَدُ الرَّكْبِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، قَالَ: قُلْتُ: فَأَنْتَ أَعْلَمُ بالْحَدِيثِ، فقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قلْتُ: مِنَ الأَنْصَارِ. قَالَ: حَدِّثْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بحَدِيثِكُمْ، قَالَ فَحَدَّثْتُ الْقَوْمَ، فَقَالَ عِمْرَانُ: لَقَدْ شَهِدْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَمَا شَعَرْتُ أَنَّ أَحَداً حَفِظَهُ كَمَا حَفِظْتُهُ.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة. ورقمه: [٦٨١].

ورواه البخاري مختصراً في كتاب مواقيت الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت، ورقمه: [٥٩٥].

تحقيق القول في أن هذه القصة غير قصة عمران السابقة:

قصة هذا الحديث التي رواها أبو قتادة غير قصة عمران بن الحصين السابقة، وقد سمع عمران بن الحصين هذه القصة من عبدالله بن رباح يرويها عن أبي قتادة، فظنّ أنها قصة الليلة التي حضرها، فأنكر على عبدالله ما رواه، ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن رباح راوي قصة أبي قتادة قال: «إني لأحدث هذا الحديث في مسجد الجامع، إذ قال عمران بن حصين: انظر أيها الفتى كيف تحدث، فإني أحد الركب تلك الليلة. قال: قلت: فأنت أعلم بالحديث.

فقال عمران: ممن أنت؟ قلت: من الأنصار. قال: حدث، فأنتم أعلم بحديثكم.

قال: فحدثت القوم. فقال عمران: «لقد شهدت تلك الليلة، وما شعرت أن أحداً حفظه كما حفظته» (صحيح مسلم: الحديث: ٦٨١).

لقد ظن عمران أن الواقعة التي رواها عبدالله بن رباح هي الواقعة التي حضرها ورواها هو، والصواب أنهما واقعتان، ويدل على ذلك أمور:

الأول: في قصة عمران أن أبا بكر وعمر كانا مع رسول الله ﷺ ، وفي قصة أبي قتادة التصريح بأنهما لم يكونا معه، بل كانا في المتقدمين عليه.

الثاني: في قصة عمران أن أول من استيقظ أبو بكر الصديق، وكان عمر رابعهم، وأن عمر أخذ يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ رسول الله ﷺ ، وفي قصة أبي قتادة أن الرسول ﷺ كان أول المستيقظين.

الثالث: في قصة عمران أن الماء الذي كثّره الرسول ﷺ كان من مزادة المرأة المشركة، وأن الصحابة شربوا منه بأنفسهم، وملؤوا كل ما كان معهم

من قِرَب وآنية، وأن رجلاً منهم كان جنباً اغتسل من ذلك الماء، وفي قصة أبي قتادة أن الماء الذي كثّره الرسول ﷺ بدعائه كان من ماء قليل في ميضأة أبي قتادة، وأن استفادة الصحابة من ذلك الماء اقتصرت على شربهم منه، ولم يملؤوا منه إناءً ولم يغتسل منه أحد.

الرابع: في قصة أبي قتادة التي رواها البخاري ومسلم أن عدد الصحابة الذين ناموا مع الرسول ﷺ كانوا سبعة فحسب، وأنهم كانوا جزءاً من الجيش، وفي قصة عمران عند مسلم أنهم كانوا أربعين، وأنهم كانوا جميع من معه.

وعلى كلٍّ، فإن أحداث القصتين ووقائعهما مختلفة اختلافاً كثيراً، ومن تأمل فيهما يدرك جازماً تغايرهما، وإنما جاء الاشتباه في أنهما قصة واحدة، وواقعة واحدة من كونهما وقعتا في السفر، وأن الرسول ﷺ ومن معه ناموا فيهما عن صلاة الصبح بعد تعب ليل طويل.

وحمل ما جرى للرسول ﷺ وأصحابه على تعدد القصة أولى وأظهر من قول من حاول الجمع بين القصتين، ليجعلهما قصة واحدة، فالفروق الكثيرة التي ذكرتها فيما سبق تأبى أن يجعلا قصة واحدة.

ويحسن بي أن أنبه إلى أن قصة أبي قتادة وقعت للرسول ﷺ وفئة قليلة من أصحابه، فخفي أمرها على عمران وغيره من الصحابة، أما قصة عمران فقد بلغ عدد الصحابة الذين صحبوا الرسول ﷺ فيها أربعون، وقد شاع أمرها وانتشر خبرها بين الصحابة، ولذا فإنهم كانوا حينما يغيرون على الناحية التي فيها المرأة والقوم الذين معها يتجنبون الإغارة عليهم.

ولم تعرفنا الروايتان الواردتان في القصتين باسم السفر أو الغزوة التي وقعت في كل منهما واقعة النوم، ولعل واقعة أبي قتادة كانت في رجوع الرسول ﷺ وأصحابه من غزوة خيبر، ففي صحيح مسلم (٦٨٠) عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ ، حين قفل من غزوة خيبر سار ليله، حتى إذا أدركه الكرى عرَّسَ، وقال لبلال: (اكلأ لنا الليل) فصلى بلال ما قُدِّرَ له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه.

فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أوّلهم استيقاظاً، ففزع رسول الله ﷺ فقال: (أيْ بلال!) فقال بلالٌ: أخذ بنفسي الذي أخذ - بأبي أنت وأمي! يا رسول الله! - بنفسك.

قال: (اقتادوا) فاقتادوا رواحلهم شيئاً، ثم توضأ رسول الله ﷺ ، وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلّى بهم الصبح. فلما قضى الصلاة قال: (من نسِيَ الصلاة فليُصلّها إذا ذكرها. فإن الله قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١٤]) .

قد يقال: لِمَ جعلت قصة أبي قتادة وقصة أبي هريرة قصة واحدة، فهلا جعلتهما قصتين مختلفتين كما قلت ذلك في قصة عمران وأبي قتادة، أو هلاّ جعلت قصة أبي هريرة هي قصة عمران؟

والجواب أن التشابه بين قصة أبي هريرة وقصة أبي قتادة كبير، فمن ذلك:

١- أن الرسول ﷺ قال لأصحابه في قصة أبي قتادة: (احفظوا علينا صلاتنا) وفي حديث أبي هريرة أنه قال ذلك لبلال: (اكلأ لنا الليل).
وهما بمعنى واحد، وأمر الرسول ﷺ للواحد أمر للجماعة.

٢- أن أول المستيقظين في الحديثين هو الرسول ﷺ ، بخلاف قصة عمران فإن أول المستيقظين كان أبو بكر، بل إن بعضاً آخر من الصحابة أفاقوا قبل الرسول ﷺ في تلك الواقعة.

٣- في قصة أبي قتادة وقصة أبي هريرة أن بلالاً كان أحد الذين كانوا مع الرسول ﷺ ، ولم يرد له ذكر في حديث عمران. وأورد أبو داود في سننه [٤٣٧] قصة أبي قتادة، وفيها أن بلالاً هو الذي أذن لهم لصلاة الصبح.

غريب الحديث

لا يلوي : لا يعطف عليه، ولا يلتفت، وألوى رأسه ولواه: أماله من جانب إلى جانب.

ابهارّ الليل : مضى نصفه، وقيل: استنار بكواكبه.

نعس : النعاس أول النوم ومقدمه.

دَعَمْتُه : أقمتُه وأسندْتُه.

تهوّر الليل : ذهب معظمه، مأخوذ من تهور البناء إذا تهدم.

ينجفل : ينقلب عن راحلته ويسقط.

يهمس : الهمس: الكلام الخفي.

أحسنوا الملأ : بفتح الميم واللام وبالهمز: الخُلُق والعشرة.

ركب : الركب جمع راكب. كصحب وصاحب.

الميضأة : الإناء الذي يتوضأ به كالركوة.

وضوءاً دون وضوء : أي: وضوءاً خفيفاً.

النبأ : الخبر، والمراد: أنها يكون لها شأن يتحدث به الناس.

الغُمَر	:	القَدَح الصغير.
جامّين	:	أي: مستريحين من التعب والإعياء.
الرِّواء	:	جمع راوٍ، وهو المستكفي من الماء.
قفل	:	رجع.
أدركه الكرى	:	النعاس.
عرس	:	التعريس، نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة.
مواجه الفجر	:	مستقبله.
اقتادوا	:	قودوا رواحلكم.

شرح الحديث

يخبر أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ أنه كان مصاحباً لرسول الله ﷺ في بعض أسفاره، ويبدو من السياق أن الصحابة قلَّ الماء الذي معهم حتى كاد ينفد، فخطب الرسول ﷺ أصحابه مخبراً إياهم بالوقت الذي يردون فيه الماء، وأخبرهم في خطبته تلك بأنهم سيسيرون عشيّتهم وليلتهم تلك، ويردون الماء غداً، ويبدو أن مقالة الرسول ﷺ تلك دفعت أصحابه إلى الإسراع بالمسير، ورغبتهم فيه، فالوصول إلى الماء مرهون بالمسير المستمر إلى حين بلوغ الماء، وقد وصف أبو قتادة إسراع الناس بالمسير إثر إعلام الرسول ﷺ بما خطب بقوله: «فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد» أي: ساروا مسرعين، لا يعطف الواحد منهم على الآخر.

وسار أبو قتادة قريباً من رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل نعس الرسول ﷺ ، فمالَ عن راحلته، فأسرع إليه أبو قتادة فأقام ميله من غير أن يوقظه، حتى اعتدل على راحلته.

وقد فعل أبو قتادة بالرسول ﷺ ذلك ثلاث مرات، كلما مالَ يعدله على راحلته، وكان آخرها في السحر وهو آخر الليل مالَ ميلة أشد من الميلتين الأوليين، حتى كاد يسقط، فدعمه أبو قتادة فأفاق الرسول ﷺ، ورفع رأسه، وسأل عمن فعل به ذلك، فعرّفه أبو قتادة بنفسه، فاستعلم منه عن الوقت الذي كان دأبه فيه كذلك، أي: يميل ويقيمه. فأخبره أنه صحبه الليل كله يحفظه من أن يميل، فدعا له الرسول ﷺ أن يحفظه الله بحفظه لنبيه.

ولما رأى الرسول شدة ما به من نعاس، جمع إليه طائفة من أصحابه، فكانوا سبعة، فمالَ بهم رسول الله ﷺ عن الطريق، فوضع رأسه، ووصى أصحابه بالانتباه لوقت الفجر، خشية أن تضيع الصلاة، وقال لهم في وصاته تلك: (احفظوا علينا صلاتنا). ولكن التعب الشديد، والسهر الطويل الذي أرهقهم جعلهم يستغرقون جميعاً في منامهم حتى طلعت الشمس، وكان أوّلهم استيقاظاً الرسول ﷺ، فقام والشمس في ظهره، أي أن وجهه كان باتجاه الغرب حين كان نائماً.

فقام الصحابة فزعين لمنامهم حتى خرج وقت صلاة الفجر، وكأنهم خشوا أن يكونوا قصّروا في وصاة الرسول ﷺ إياهم حين قال لهم: (احفظوا علينا صلاتنا).

فلما قاموا أمرهم الرسول بالركوب، فركبوا، وساروا، حتى إذا ارتفعت الشمس نزل، ثم دعا بإناء تسمى الميضأة كانت لأبي قتادة، فتوضأ منها وضوءاً خفيفاً لقلة الماء الذي في الإناء، وبقي في الميضأة شيء قليل من الماء، فأمر الرسول ﷺ أبا قتادة بحفظ ذلك الماء، وعدم التصرف فيه، وأخبره أنه سيكون لتلك الميضأة شأن.

بعد ذلك أمر الرسول ﷺ بلالاً فأذن للصلاة، وأقام، وصلى صلاة الفائتة كما كان يصلي الحاضرة.

وبعد أن أتمّ الصحابة صلاتهم، وركبوا صحبة رسول الله ﷺ منطلقين إلى وجهتهم التي يقصدونها، سمع الرسول ﷺ أصحابه يتلاومون فيما بينهم سائلين عن كفارة ما وقع منهم من التفريط في صلاة الصبح بصلاتهم إياها بعد خروج وقتها، فهدّأ قلوبهم، وطمأن نفوسهم، وفقّههم في دينهم، وأخبرهم أنهم غير مؤاخذين فيما وقع لهم من تأخير الصلاة، لأنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على الصاحي الذي يؤخِّر الصلاة، حتى يدخل وقت الصلاة الأخرى. وبيّن لهم حكم من نامَ عن الصلاة بقوله كما بيّنه قبل ذلك بفعله: (فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها) وقد يظن بعض الناس أنه يجب عليه أن يصلي الصلوات التالية في الوقت الذي صلى فيه الفائتة، ولإزالة هذا أمر بصلاة الصبح في الأيام التالية في وقتها المحدد (فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها).

وقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه الذين كانوا معه بما فعله الجيش الذي تقدمه، وهم أكثر أصحابه، فإنهم لما أصبحوا فقدوا نبيهم، فاختلفوا فيما بينهم، هل الرسول ﷺ خلفهم أو أمامهم، فذهب طائفة فيهم أبو بكر وعمر أن الرسول ﷺ خلفهم، واستدلوا على ذلك بهديه السابق فيهم، فإنه لم يكن يخلف أصحابه في سفره وراءَه، وقال آخرون: إنه أمامهم، ولا شك أن هذا الخلاف سيكون له أثره في الواقع، فإن كان أمامهم فعليهم الإسراع بالمسير ليلحقوه، وإن كان خلفهم انتظروه ليدركهم، والذي يظهر أن الصحابة رشدوا – كما قال الرسول ﷺ - باتباعهم لأبي بكر وعمر، فقد

انتظروا رسول الله ﷺ ومن بقي معه، وأدرك الرسول ﷺ من تقدم من أصحابه حين امتد النهار وحمي كل شيء.

فجاءهم الرسول ﷺ وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا، عطشنا، فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه مطمئناً مهدئاً: (لا هلك عليكم) أي: لا هلاك.

وقد كان للرسول ﷺ قدح صغير يشرب فيه، والعرب تسميه: الغُمَر، فدعا به قائلاً: (أطلقوا لي غُمَري) فجيء به، ثم دعا بالميضأة التي مع أبي قتادة، وهي التي توضأ منها الرسول ﷺ لصلاة الصبح، وبقي فيها بقية، فأمر أبا قتادة أن يحفظها، وأخبره أنه سيكون لها شأن، فجيء بها، والماء الذي فيها لا يكاد يسقي رجلاً واحداً، فجعل الرسول ﷺ يصبّ من ماء الميضأة في القدح الصغير، ويناوله لأبي قتادة، فيسقيهم واحداً واحداً، فأقبل الصحابة لما رأوا الماء في الميضأة يتزاحمون، ويتدافعون، فأمرهم الرسول ﷺ أن يحسنوا في انتظار الماء، وأخبرهم أنهم سيروون جميعاً، فما زال أبو قتادة يسقيهم حتى رووا جميعاً، ولم يبقَ غيره وغير رسول الله ﷺ، فصبّ له الرسول ﷺ ليشرب، فأبى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الشارب أولاً، فقال رسول الله ﷺ: (إن ساقي القوم آخرهم شرباً) قال: فشرب، ثم شرب الرسول ﷺ، فأتى الناس الماء جامّين رواء، أي: مستريحين قد رووا من الماء، والرواء جمع ريّان، وهو الذي امتلأ ريّاً من عطش.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- خطب الرسول ﷺ أصحابه مُعْلِماً إياهم بالمقدار الذي يحتاجون إليه في مسيرهم للوصول إلى الماء، فكان في ذلك دافع لهم ليجدوا في المسير،

كي يبلغوا الماء سريعاً، خشية التأخر عن بلوغ الماء فيهلكون، والتأخر يقضي أن يسيروا في اليوم التالي في حرّ الشمس، ولما كان هذا أمراً عامّاً يحتاج إلى معرفته الجميع خطبهم فيه جميعاً، ولم يخص بعضاً دون بعض.

٢- لا حرج على المسافرين أن يسيروا ليلهم كله، وإلا فإن الرسول ﷺ كان يسير بعض الليل، ويستريح بعضاً، وكان يقول لأصحابه: فإن المنبت لا ظهراً أبقى، ولا أرضاً قطع.

٣- الرسول ﷺ بشر يجري عليه ما يجري على البشر من الحاجة إلى المأكل والمشرب والنوم، وقد حدثنا أبو قتادة كيف أن الرسول ﷺ نعس في مسيره على ناقته، بل نامَ عليها حتى كاد يسقط عدة مرات، فكان أبو قتادة يسنده مرة بعد أخرى، وقام الرسول ﷺ عندما وضع جسده على الأرض كما نام أصحابه، وطلعت الشمس وهو نائم، فهو بشر فيه صفات البشر، إلا أنه فُضّل بالرسالة والنبوة، لا بتخلّصه من الصفات البشرية.

٤- يجوز تسمية صلاة الصبح بصلاة الغداة كما جاء في بعض الروايات، خلافاً لمن كره ذلك.

٥- يجوز لمن طلب منه أن يعرف نفسه أن يعرفها بصفة معلومة لدى السائل، فأبو قتادة عندما طلب منه الرسول ﷺ أن يعرف نفسه عندما أقامه من ميلته على ناقته عرف نفسه بكنيته، فليس التعريف وقفاً على ذكر الاسم فحسب.

٦- الأحاديث التي أوردتها، وهي حديث عمران، وحديث أبي قتادة، وحديث بلال، اشتملت على عدد من أعلام النبوة، وهي:

أ- تحديده ﷺ لأمر سيقع في المستقبل، وهو وقت بلوغهم الماء غداً، فكان الأمر على ما أخبر.

ب- إعلام أبي قتادة أن ميضأته سيكون لها خبر وشأن، فوقع الأمر على ما أخبر.

ج- إخباره أصحابه الذين كانوا برفقته بالاختلاف الذي وقع بين أصحابه الذين تقدّموه، وإخبارهم برأي أبي بكر وعمر تحديداً. فكان الأمر وفق ما أخبر.

د- تكثير الماء، فقد أخذ الصحابة من مزادة المرأة المشركة، فشربوا منها كلهم حتى رووا، وكانوا جميعاً عطاشاً، وملؤوا آنيتهم، وتوضؤوا، بل اغتسل بعضهم، وبقيت المزادة ملأى لم ينقص منها شيء، بل زادت.

هـ- وذكر أبو قتادة أنه كان في ميضأته ماء قليل، لا يكفي واحداً، فسقى منه الرسول ﷺ الجيش كله. وتكثير الرسول ﷺ الماء أمر مقطوع به كتكثيره الطعام، حضره العدد الكثير من أصحابه، وجاءت به أحاديث كثيرة، فهو متواتر تواتراً معنوياً.

٧- بيان عظم الجهود التي بذلها الرسول ﷺ وأصحابه في رفعة هذا الدين وإعلاء مناره، حتى مكّن الله لدينه، ونصره نصراً عزيزاً مؤزراً.

٨- في الأوقات الصعبة تبرز طاقات الرجال، فأبو قتادة كان يسمى بفارس رسول الله ﷺ ، لما كان يتحلى به من صفات الفروسية، وكان يملك قدرات هائلة، فقد كان طيلة تلك الليلة متيقظاً منتبهاً، يرعى رسول الله ﷺ ، ويرافقه، وكان كلما مالَ عن راحلته، أقامه عليها، ومثل ذلك لا يقوم به إلا أفذاذ الرجال.

٩- محبة الصحابة لنبيهم ﷺ ، وحرصهم على رعايته، كما فعل أبو قتادة، وإكرام الرسول ﷺ لصحابته، فقد دعا لأبي قتادة بدعوة صالحة (حفظك الله بما حفظت به نبيه)، ومثل هذه الدعوة عند الصحابة لا يعدلها مال الدنيا.

١٠-يستحب لمن صنع لك معروفاً أن تدعو له تأسِّياً بالرسول ﷺ في دعائه لأبي قتادة.

١١-بيان صورة من أدب الصحابة مع الرسول ﷺ ، فقد كان من هديهم أن لا يوقظوه إذا كان نائماً حتى يكون هو الذي يستيقظ بنفسه، وعللوا ذلك بأنهم لا يدرون ما يحدث له في منامه، فإن قلبه كما أخبر لا ينام، وقد يجري الله له في منامه ما لا يعلمه أصحابه.

١٢-استدلال بعض فقهاء الصحابة لمعرفة الصواب فيما أشكل عليهم بالمقرر عندهم من هديه، فقد استدل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على تأخر الرسول ﷺ بهديه في عدم تقدمه الجيش.

١٣-فضل أبي بكر وعمر، فقد كانا يعلمان من حال الرسول ﷺ أكثر مما يعرفه غيرهما، ويدل على عِظَم فضلهما قوله ﷺ فيهما: (فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا).

١٤-فقه عمر ﷺ ، فإنه تعمّد أن يكبر بصوت مرتفع ليوقظ رسول الله ﷺ ، مع كونه يعلم أنه لا ينبغي له إيقاظ الرسول ﷺ إذا كان نائماً، لكن الظرف والحال هنا مختلف، فلم يجر الأمر على القاعدة.

١٥-في الحديث التعريف ببعض الصفات التي كان يمتاز بها عمر، فقد كان قوياً في جسده، رفيعاً في صوته.

١٦-أدب الصحابة فيما بينهم، فقد استعملوا التكبير في إيقاظ الرسول ﷺ، لا كما يفعل أهل الجاهلية عندما ينوب أحدهم نائبة، فيأخذ بالزعيق أو الصفير والصراخ.

١٧-ليس في النوم تفريط، فالذي ينام عن صلاة فعليه أن يصليها عندما يقوم من نومه، ولا يجوز تأخيرها إلى وقتها في اليوم التالي، فقد نام الرسول ﷺ وبعض أصحابه عن صلاة الفجر أكثر من مرة، وقال لهم بعد أن استيقظوا: (لا ضير عليكم) وقال لهم: (أما إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصلِّ الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى).

وحال الناسي كحال النائم، وقد قال الرسول ﷺ لأصحابه: (من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك) وفي رواية (من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها) رواهما مسلم في صحيحه (٦٨٤) (٣١٤) و (٣١٥).

وقد احتج الرسول ﷺ لصلاة النائم والناسي إذا قام من نومه أو تذكّر بقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه:١٤] ففي صحيح مسلم (٦٨٤) (٣١٦) أن رسول الله ﷺ قال: (إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها، فإن الله يقول: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه:١٤]).

١٨-إذا نام المسلم عن صلاة أو نسيها، فإنه يصليها إذا قام من نومه، أو حين يتذكر كما سبق بيانه، ويشكل على هذا ما ورد في بعض روايات الحديث الذي قد يُفهم منه أنه يصليها حين يقوم من نومه، ويصليها مرّة أخرى في وقتها من الغد، فقد جاء في بعض الروايات الصحيحة: (أما إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصلِّ الصلاة

حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى، فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها، فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها). ولا إشكال بحمد الله، فمراد الرسول ﷺ (فإذا كان من الغد فليصلها لوقتها) أي يصلي صلاة الفجر لوقتها الذي حدّده الله لها، قال النووي رحمه الله: «معناه أنه إذا صلى صلاة فقضاها لا يتغير وقتها، ويتحول في المستقبل، بل يبقى كما كان، فإذا كان الغد صلى صلاة الغد في وقتها المعتاد، وليس معناه أنه يقضي الفائتة مرتين، مرة في الحال، ومرة في الغد» [شرح النووي على مسلم: ٦/ ٣١٢].

١٩-يجوز لمن فاتته الصلاة لنوم أن يؤخرها للقيام بما تتطلبه من أعمال كالغسل من الجنابة، والوضوء، وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه بالخروج من الموضع الذي ناموا فيه،وهذا التحول يحتاج إلى وقت.

٢٠-ينبغي لمن فاتته الصلاة بسبب النوم أن يتحول من الموضع الذي نام فيه، فإن كان في الصحراء، انتقل من ذلك الموضع، وإن كان في منزل انتقل إلى غرفة أخرى، وعلل الرسول ﷺ أمره إياهم بالتحول عن موضع نومهم بقوله: (هذا منزل حضرنا فيه الشيطان).

٢١-إذا لم يجد من يريد الصلاة الماء تيمم، فإن الصحابة الذين كانوا مع الرسول ﷺ كلهم ناموا في كل من الواقعتين، ولم يكن عندهم ماء عندما قاموا، فكلّهم تيمم إلا الرسول ﷺ ، فإنه كان يتوضأ من ماء قليل كان معه، وأنكر الرسول ﷺ على أحد أصحابه لم يصلّ معه لعدم وجود الماء وهو جنب، وأمره بالتيمم.

٢٢-على النائم أن يعزم على القيام للصلاة، وأن يأخذ من الاحتياطات ما يجعله يقوم في وقتها، فقد أمر الرسول ﷺ قبل نومه أن يحفظوا عليهم صلاتهم، وندب بعض أصحابه وهو بلال لإيقاظهم عند طلوع الفجر،

وهذا الذي يأخذ الأهبة للاستيقاظ هو الذي لا ضير عليه، أما الذي لا نيّة له في القيام للصلاة في وقتها، ولا يعدّ العدّة للقيام فهو آثم.

٢٣- تفقيه الرسول ﷺ أصحابه وتعليمهم، ورفع ما يرد عليهم من إشكالات، وبيان الحق لهم، وبذلك أصبحوا فقهاء علماء، يعلّمون من بعدهم، بما علموه من علم القرآن وعلم رسول الله ﷺ ، فقد جاء في صحيح مسلم أن الصحابة بعد أن صلوا صلاة الغداة التي فاتتهم، «جعل بعضهم يهمس إلى بعض، ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟» فقال الرسول ﷺ لهم معلّماً ومفقّهاً (أما لكم فيَّ أسوةٌ؟ أما إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصلِّ الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى).

وقال لهم أيضاً: (ألا إنا بحمد الله ، لم نكن في شيء من أمور الدنيا يشغلنا عن صلاتنا، ولكن أرواحنا كانت بيد الله عز وجل، فأرسلها إن شاء) [رواه أبو داود: ٤٣٨].

وفي رواية عنده: (إن الله قبض أرواحكم حيث شاء، وردّها حيث شاء) [أبو داود: ٤٣٩].

٢٤- قد ينام الحريص على الصلاة عن صلاته، فيكاد يهلك نفسه على ما وقع له حزناً وأسفاً، ولنا في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة، فيما فعله عند نومه عن صلاته.

٢٥- توجيه الرسول ﷺ أصحابه لفقه القرآن فيما يقع لهم من وقائع، فقد احتج على قضاء الفائتة والمنسية بقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١٤].

٢٦- دلت الأحاديث الواردة في القصتين على أن الصلاة المقضية تصلى على الطريقة نفسها التي تصلى عليها الصلاة الحاضرة، فيتوضأ لها ثم

الأذان، ففي حديث عمران «فنودي بالصلاة فصلى بالناس» وفي حديث أبي قتادة «ثم أذن بلال بالصلاة» وفي حديث بلال أنه أقام الصلاة، وإذا كان الذين فاتتهم الصلاة جماعة صلّوها جماعة، كما فعل الرسول ﷺ بالصحابة إماماً.

ومقتضى هذا أن يجهر إذا كانت الفائتة جهرية، ويسرّ إذا كانت سرّية، ويدل لهذا عموم قوله في حديث أبي قتادة في قضائه ﷺ : «فصنع كما يصنع الناس» وجاء في سنن أبي داود أن الرسول ﷺ قال لأصحابه عندما أفاقوا من نومهم، وقد طلعت الشمس: (افعلوا كما كنتم تفعلون) [سنن أبي داود ١/ ٤٧٩].

٢٧- مشروعية قضاء السنن الراتبة، ففي حديث أبي قتادة أن الرسول ﷺ صلَّى ركعتين بعد أن أذن بلال للفائتة، وهاتان الركعتان هما سنّة الفجر الراتبة، وفي حديث أبي داود أن الرسول ﷺ قال لأصحابه في ذلك المقام: (من كان منكم يركع ركعتي الفجر فليركعهما، فقام من كان يركعهما، ومن لم يكن يركعهما، فركعهما) [سنن أبي داود: ١/ ١٧٧، ورقم الحديث: ٤٣٨].

٢٨- قد لا يستطيع من وعد وعداً أن يفي به، فقد وعد بلال ﷺ بأن يبقى ساهراً ليوقظ النائمين، ولكنه لم يستطع مغالبة النوم فلم يف بوعده، كما أن موسى وعد العبد الصالح بأن لا يسأله عن حكمة ما يراه منه، فلم يستطع صبراً على ما رآه منه.

٢٩- فقه بلال وحُسْن ردّه عندما عاتبه الرسول ﷺ على نومه، وعدم إيقاظهم للصلاة في قوله: «أخذ بنفسي الذي أخذ - بأبي وأمي يا

رسول الله - بنفسك» ففيه حجّة مقنعة، فحاله حال الرسول ﷺ في إلقاء النوم عليه، وتوفى الله روحه في منامه، وفيه إحسان الخطاب بمناداة الرسول، وتفديته له بأبيه وأمه.

٣٠-الإنكار على من لم يصلِّ مع الجماعة، كما أنكر الرسول ﷺ على ذلك الصحابي، وهذا يدل على الاهتمام بأمر الجماعة، حتى لو كان المصلي مسافراً.

٣١-عدم المبادرة بالتبكيت والتأنيب قبل معرفة السبب، فالرسول ﷺ لم يغلظ القول لذلك الصحابي الذي لم يصلِّ معه الجماعة، ولم يلمه بعد أن عرف السبب، بل فقّهه بما يفعل في مثل هذه الحال، ومن جهل الحكم فالواجب تعليمه لا تبكيته، وإنما يبكت من عَلِم إذا رفض قبول الحكم.

٣٢-لم يعلّم الرسول ﷺ ذلك الصحابي الذي لم يصل معه كيفية التيمم، فدلّ هذا أنه يجوز أن يحيل العالم من يعلمه إلى علم سابق علمه، ولا يجب أن يعيد له العلم الذي علمه، وتقرر عنده.

٣٣-فقه الصحابة في الاعتناء بذكر المهم من الأمور، وترك ما لا يفيد، فقد أخبرونا بخبر الرجل الجنب، وما يتعلق به من الأحكام، وهذا هو المهم في الأمر، ولم يذكروا اسم الرجل، فاسمه لا فائدة فيه، بل قد يتضرر من ذكر اسمه، فلو عرفناه، لبقي اسمه يتردد عبر الزمان، وليس في ذلك أي فائدة.

٣٤-في الحديث صورة للمرأة العربية في الجاهلية، فقد كانت المرأة في ذلك الوقت قوية جلدة، تقوم بالأسفار، وتقطع الفيافي والقفار، وإذا غاب

الولد، أو فُقِدَ الزوج تقوم بما يقوم به الرجال، وترعى أولادها، وكانت تملك كثيراً من النباهة، وتجيب على البديهة، فقد أجابت هذه المرأة فأحسنت الجواب، وسألت فأحسنت السؤال، واستعطفت قلوب مخاطبيها بما أخبرت عن نفسها وأيتامها، وهداها عقلها إلى إسلامها وإسلام قومها.

٣٥- التعرّف إلى الطريقة التي كانت العرب تنقل بها الماء من أماكن بعيدة، وكانت وسيلتها في ذلك الجِمال التي تحمل من الأثقال ما لا يستطيع حيوان في الجزيرة حمله، واختُرعت الراوية التي تحمل من الماء الكثير، بطريقة تتناسب مع خلق الجمل، بحيث يبقى لصاحب الماء مكاناً يقعد فيه بسهولة ويسر بين المزادتين.

٣٦- النظام والترتيب مَعْلَم في حياة الصحابة، فمع أن العطش بلغ بهم أقصاه إلا أن الرسول ﷺ أمرهم بحُسْن النظام فكلّهم سيُروى ويأتيه دوره.

٣٧- «ساقي القوم آخرهم شرباً» أَدَبٌ أدَّبَ الرسول ﷺ به أصحابه، والتزم به هو في نفسه، وليست القاعدة قصراً على الماء، بل هي شاملة لكل ما يشرب من ماء ولبن وعصير وشاي وقهوة وغير ذلك.

٣٨- نباهة الرسول ﷺ ، إذ توسم أن المرأة علمت في قرارة نفسها أنها لم ترزأ من مائها بشيء، فهي بخبرتها براويتها تعلم متى تكون ناقصة أو ملأى، يدل لذلك قوله ﷺ جازماً: (تعلمين أنا لم نرزأك من مائك شيئاً) ولو كان الأمر على خلاف ما أخبرها به لأجابت منكرة.

٣٩- كان يكثر الرسول ﷺ من السؤال في تعليمه أصحابه، كما سألهم عما صنع الجيش عندما أصبحوا فلم يجدوا رسولهم بينهم، فإنّ السؤال في هذه يجلب الانتباه، ويشوق للجواب.

٤٠-عدم قمع المخالف، واحترام الآخرين كان معلماً بارزاً عند الصحابة فمن بعدهم من أهل العلم، فقد أنكر عمران بشدة على راوي حديث أبي قتادة لمخالفته لما شهده بنفسه، ومع ذلك أذن للمحدِّث أن يُحدِّث بما روى، ولو منعه من الرواية لم نعرف الحقيقة عبر المقارنة بين القصتين.

٤١-حُسْن أدب الأصغار مع الأكابر حيث عرض عبدالله بن رباح راوي القصة عن أبي قتادة على عمران أن لا يحدث بما حفظه احتراماً له، وتوقيراً لقدره وصحبته وعلمه، ولكنه لم يقبل.

٤٢-التعرّف إلى سبب من أسباب اختلاف أهل العلم، فقد ظنّ عمران أن ما حدّث به عبدالله بن رباح هو الواقعة التي وقعت نفسها، فقام الإشكال عنده، وعندما يعلم أنهما واقعتان يزول العجب.

٤٣-دقة رواة أحاديث رسول الله ﷺ ، فعوف بن أبي جميلة الأعرابي أحد رواة البخاري عن عمران نسي أسماء الصحابة الثلاثة الذين استيقظوا أولاً، وكان شيخه أبو رجاء العطاردي حدّثه بأسمائهم، كما نسي عوف اسم أحد الصحابيين اللذين أرسلهما الرسول ﷺ للبحث عن الماء، وقد حدّثه شيخه أبو رجاء باسميهما كليهما، وما نسيه عوف ذُكر في الروايات الأخرى، فأحدهما عليّ بن أبي طالب، والثاني عمران بن حصين راوي القصة [البخاري: ٣٤٤].

٤٤-أوردت جمعاً من القصص فيما مضى في تكثيره ﷺ الطعام، وذكرت هنا قصتين في تكثيره الماء، والقصص في ذلك كثيرة، وهي متواترة تواتراً معنوياً، لا يجوز الطعن فيها بحال، ومنها:

أ- ما رواه البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «عطش الناس يوم الحديبية، والنبي ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ، فجَهِشَ الناس نحوه، فقال: (ما لكم؟) قالوا: ليس عندنا ماء

نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت (القائل هو سالم بن الجعد راوي الحديث عن جابر): كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة» [البخاري: ٣٥٧٦].

ب- وروى البخاري أيضاً عن أنس قال: «أُتي النبيُّ ﷺ بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم» قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة، أو زهاء ثلاثمائة» [البخاري: ٣٥٧٢].

ويبدو أن أنساً شاهد هذه الواقعة أكثر من مرة من رسول الله ﷺ ، وانظر أحاديث أنس التي ساقها البخاري عنه بعد الراوية التي ذكرتها آنفاً.

ج- وذكر لنا البراء ﷺ أنهم كانوا في الحديبية أربع عشرة مائة، فنزحوا بئرها، حتى لم يتركوا فيه قطرة، فجاء الرسول ﷺ ، فجلس على شفير بئرها، فدعا بماء فمضمض، ومجّ في البئر، فمكث الصحابة غير بعيد، ثم استقوا حتى رووا وروت ركائبهم [البخاري: ٣٥٧٧].

والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة، وقد أورد ابن الأثير طائفة منها في كتاب جامع الأصول [١١/ ٣٤٣-٣٥٠] فانظرها فيه إن شئت.

* * *





تمهيد

عنوان هذه القصة يبين الحالة التي وصل إليها أبو بكر ﷺ ، حيث سبَّ ابنه عبدالرحمن منادياً إياه بقوله: يا غنثر، ودعا عليه أن يجدع أنفه.

لقد أثار أبا بكر وهو الحليم الوديع الهادئ ضيفانٌ استضافهم في منزله، أبوا أن يتناولوا عشاءهم حتى يعود، ولم يعد إلا متأخراً، فشقوا على أنفسهم، كما شقّوا على أهل المنزل، فثارَ وغضب، ولو تمادى به الغضب لتمادت المشكلة، ووقع ما لا تُحمد عقباه، ولكنه ألجم نفسه بلجام التقوى، فحنث في يمينه، وأرغم الشيطان، وأرضى الرحمن، فأنزل عليه وعلى بيته من بركاته، وبدل حزنهم سروراً، وكذلك عاقبة من أقبل على الله، وألقى هواه وراء ظهره.

نص الحديث

عن عبدالرحمن بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما: «أنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ كانوا أُناساً فُقَراءَ، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال مرَّةً: (مَن كان عندهُ طعامُ اثنين فليذهبْ بثالث، ومن كان عندهُ طعامُ أربعةٍ فلْيَذهب بخامس أو سادس). أو كما قال. وإن أبا بكرٍ جاء بثلاثة، وانطلَقَ النبيُّ ﷺ بعشرة، وأبو بكرٍ وثلاثة، قال: فهو أنا وأبي وأمي، ولا أدري هل قال: امرأتي وخادمي، بينَ بيتنا وبين بيت أبي

بكر، وأنَّ أبا بكر تعَشَّى عند النبيِّ ﷺ ، ثمَّ لبث حتى صلَّى العِشاءَ، ثمَّ رَجِعَ فلبثَ حتى تعشَّى رسولُ الله ﷺ ، فجاءَ بعدَ ما مضى مِنَ الليلِ ما شاء الله.

قالت له امرأتُهُ: ما حَبَسَكَ عن أضيافِك - أو ضيفك-؟ قال: أوَ عَشَّيتِهم؟ قالت: أَبَوْا حتى تجيءَ، قد عرَضوا عليهم فغلبوهم. قال: فذهبت فاختبأت. فقال: يا غُنْثر - فجَدَّعَ وسبَّ - وقال: كُلُوا. وقال: لا أطعمُهُ أبداً. قال: وايمُ الله ما كنّا نأخذ منَ اللُّقمةِ إلاّ رَبا من أسفلها أكثرُ منها، حتى شَبعوا وصارت أكثرَ مما كانت قبلُ.

فنظر أبو بكرٍ فإذا شيءٌ أو أكثرُ، فقال لامرأته: يا أُختَ بني فراس، قالت: لا وقُرَّةِ عيني، لهيَ الآن أكثرُ مما قبلُ بثلاث مراتٍ. فأكلَ منها أبو بكر وقال: إنما كان الشيطانُ - يعني يمينه - ثم أكل منها لقمةً، ثم حمَلَها إلى النبيِّ ﷺ فأصبحت عنده. وكان بينَنا وبينَ قومٍ عهدٌ، فمضى الأجلُ ففرَّقنا اثنا عشرَ رجُلاً معَ كل رجل منهم أُناسٌ، الله أعلم كم معَ كلِّ رجلٍ، غيرَ أنه بَعثَ معهم، قال: أكلوا منها أجمعون، أو كما قال».

تخريج الحديث

رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ورقمه: (٣٥٨١) ورواه أيضاً برقم: [٦٠٢، ٦١٤٠، ٦١٤١].

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف، ورقمه: [٢٠٥٧].

غريب الحديث

غُنْثر : كلمة يقولها الرجل الغضبان إذا ضاق صدره من شيء جرى على غير ما أراده. والغُنْثر: الثقيل الوخيم، وقيل: الجاهل.

فَسَبَّ وَجَدَّع : السباب الشتائم، وجدَّع، دعا عليه بأن يجدع أنفه، وتقطع أذنه.
ربا : ربا الشيء يربو إذا زاد وارتفع.

شرح الحديث

أمر الرسول ﷺ أصحابه الذين لديهم سعة في الرزق أن يحمل كل واحد منهم بعضاً من الفقراء وأهل الصفة، وأمر من كان عنده اثنين أن يستضيف ثالثاً على العشاء، ومن لديه أربعة أن يستضيف خامساً وسادساً، فاستضاف أبو بكر رضي الله عنه ثلاثة من أهل الصفة، واستضاف الرسول ﷺ عشرة.

وكانت أسرة أبي بكر تتكون منه وزوجته، وولده عبدالرحمن وزوجته، وخادم يقوم على رعاية الأسرتين: أسرة أبي بكر وأسرة عبدالرحمن، فكان عددهم خمسة.

ذهب أبو بكر بضيوفه إلى منزله، وكلّف ابنه عبدالرحمن أن يقوم عنه بقرى الضيوف، وأخبره أنه لن يحضر لتناول الطعام مع الضيوف، وقام عبدالرحمن بما كُلِّف به، فحضّر الطعام، وقدّمه للضيوف، فأبوا أن ينالوا منه شيئاً حتى يحضر ربّ المنزل.

كان عبدالرحمن يعلم طباع أبيه، وأنه يغضب حين يخالف أمره، وقد حاور الضيوف، وأخبرهم بما سيترتب على رفضهم تناول الطعام حتى يعود والده، وأن أول من سيناله الضرر هو نفسه، فأصروا على موقفهم إصراراً، وزاد من سوء الموقف أن أبا بكر بقي مع الرسول ﷺ إلى أن صلّى العشاء، واستمر معه إلى أن ذهب هزيع من الليل.

ولم يشأ عبدالرحمن مواجهة العاصفة، فقد كان أبو بكر حليماً، ولا أشد من غضبة الحليم حين يثور كالبركان، فيقذف حمماً، فلا يصمد له أحد، فآثر أن يختفي من وجهه.

وأول من توجه إليه غضب أبي بكر ابنه عبدالرحمن، فهو المكلَّف الأول بما طلبه منه، وزاد غضبه عليه أنه توارى من وجهه، مما يؤكد له أنه السبب في هذا التقصير الواقع، فوّجه إليه سيلاً من الألفاظ القاسية، يا غنثر، أي: يا ثقيل، يا خامل، وأخذ يدعو عليه بأن تُقطع أذنه، ويُجدع أنفه، «فسبّ! وجَدَّع».

كان عبدالرحمن يسمع ما يقذفه به والده في موضع اختفائه، ولكنه لا يجرؤ على الظهور، منتظراً أن تهدأ ثورته، ويخفّ غضبه، ولكن عندما وصل إليه صوت الشيخ مقسماً عليه أن يأتيه، ويحضر إليه إن كان يسمع صوته، لم يكن أمامه إلا أن يخرج من مخبئه، ويواجه غضب الشيخ.

دافع عبدالرحمن عن نفسه، وأدلى بحجّته، واستشهد بالضيوف على صدق ما يقول، فنجا عبدالرحمن وما كان يظن أنه منها ناجٍ، وتوجه غضب الشيخ إلى ضيوفه، وعلم أن مقصدهم أن يسعدوا بالجلوس معه ومحادثته، فعاملهم بنقيض قصدهم، فحلف أن لا يذوق من ذلك الطعام شيئاً.

عند ذلك تفاقمت المشكلة إذ حلفت أم رومان كما حلف أبو بكر، فما كان من الضيوف إلا أن أقسموا كما أقسم.

لقد أدرك أبو بكر حجم المشكلة، وأن الشيطان نجح في مقصده بإحزانه وإحزان أهل بيته وضيوفه، فعاد إلى الأدب الذي علمه من رسوله ﷺ ، فقد كان الرسول ﷺ لا يُقسم على يمين، فيرى غيرها خيراً منها إلا

كفّر عن يمينه، وأتى الذي هو خير، فلم يجعل يمينه حائلاً بينه وبين إتيان الذي هو خير، ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:٢٢٤].

لقد راغم أبو بكر الشيطان، وأرضى الرحمن، ومدّ يده إلى الطعام، وطلب من ضيوفه أن يتناولوا ضيافتهم، فهدأت النفوس، وطابت القلوب، وانزاح الهم عن الجميع، فظهرت بركة هذا التصرف لا في النفوس والقلوب فحسب، بل وفي الطعام أيضاً.

لقد أخذ الطعام الذي في الجفنة يتكاثر، ويزيد ولا ينقص، فكلما أخذ منه لقمة نبت مكانها أخرى، بل زاد الطعام حتى أصبح ثلاثة أمثاله فحملت الجفنة إلى منزل رسول الله ﷺ ، فأكل منها، ثم أرسل بها إلى جيش يعدّه ليرسل به إلى قوم بينهم وبينه عهد انتهت مدته، وقد اجتمع منهم عدد كبير فكفاهم ذلك الطعام.

وهكذا يكون حال من راغم الشيطان، وأطاع الرحمن، واهتدى بهدي الإسلام، فرضي الله عن أبي بكر وأرضاه، وجمعنا به في دار الخلد، إنه على ما يشاء قدير.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- بيان الطريقة التي كان يرعى بها الرسول ﷺ أهل الصفة، فقد أمر أصحابه الذين يجدون قوت ليلتهم أن يأخذ كل واحد منهم من أهل الصفة بما يتناسب مع عدد أهل الدار، فالذي عنده طعام اثنين يذهب بثالث، والذي عنده طعام أربعة أو خمسة يستضيف اثنين أو ثلاثة وهكذا، وبذلك يواسي الصحابة إخوانهم، ويشركونهم في طعامهم.

٢- كانت القيادات الإسلامية من الصحابة في مقدمة من يقوم بالتكاليف، فقد ذهب أبو بكر بثلاثة من أهل الصفة، وذهب الرسول ﷺ بعشرة منهم.

٣- ويجوز للرجل أن يوكّل من ينوب عنه في إكرام ضيوفه ورعايتهم إذا كانت لديه مهمات تحول دون قيامه بذلك بنفسه، كما كلَّف أبو بكر ابنه عبدالرحمن بإضافة ضيوفه.

٤- قوة صلة أبي بكر بالرسول ﷺ ، فقد صلّى مع رسول الله ﷺ المغرب، وتعشّى في منزل الرسول ﷺ ، وصلّى معه العشاء، وبقي ملازماً له حتى مضى من الليل جزء طويل، ولا شك أن الرسول ﷺ كان محتاجاً إليه، يباحثه في أمور المسلمين.

٥- جواز إنكار الرجل على أهله فيما يظن أنهم قصّروا فيه، كما فعل أبو بكر حين وجد أن ضيوفه لا يزالون في المنزل لم يتناولوا قراهم.

٦- مع كون أبي بكر أفضل هذه الأمة بعد نبيّها إلا أنه بشر، يأخذه ما يأخذ البشر، فقد ثار وغضب على ابنه، وسبّه ودعا عليه، فلما علم أنه لم يقصّر فيما عهد به إليه، انتقل غضبه إلى ضيوفه، وحلف أن لا يذوق ذلك الطعام وقال لهم: «ويلكم، ما أنتم؟ ما لكم لا تقبلون عنا قراكم؟!!».

٧- على العاقل إذا تفاقمت الأمور، وعظمت الإشكالات، أن يثوب إلى رشده، ويلجم نفسه بلجام التقوى، كما فعل أبو بكر، فإنه لما حلف أن لا يأكل من ذلك الطعام، حلف ضيوفه وأهل داره بمثل ما حلف به، فاستعاذ بالله من الشيطان، وأمر بوضع الطعام وأكل، فأكل ضيوفه، وأكل أهل بيته، ولابد أنه كفَّر عن يمينه، فهذا حكم الحانث في يمينه.

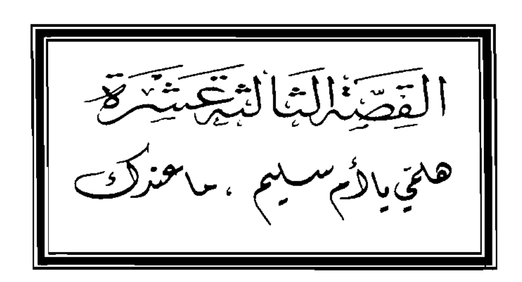
٨- إكرام الله لمن ألجم نفسه بلجام التقوى، وراغم الشيطان، وأرضى الرحمن، كما أكرم الله أبا بكر، فقد كان لا يأخذون من القصعة لقمة إلا رَبا من أسفلها أكثر، فشبعوا وقد أصبح الطعام بمقدار ثلاثة أمثاله.

٩- إثبات كرامات الصالحين والأتقياء، كما كثّر الله طعام أبي بكر ﷺ.

١٠-صورة من الخطاب الذي كان يتخاطب به المسلمون في منازلهم، فأبو بكر يقول لزوجته مخاطباً إياها: «يا أخت بني فراس» وبنو فراس هم أهلها، وهي تقول له مجيبة: «لا، وقرة عيني» وهو خطاب المرأة المحبة لزوجها، التي تحسن خطابه، وتوقره في حديثها.

١١-استحباب الإهداء إلى الصالحين، فقد أهدى أبو بكر الرسول ﷺ من ذلك الطعام المبارك، فأكل منه، ثم أرسل به إلى جمع من أصحابه كانوا يتهيئون للغزو، فكفاهم.

* * *



تمهيد

هذا العنوان «هلمي يا أم سُلَيم» عبارة قالها الرسول ﷺ لأم سُلَيم عندما دخل دار زوجها أبي طلحة، وكان أبو طلحة رأى يوماً الرسول ﷺ جائعاً، دلّه على شدة جوعه ضعف صوته، فأخبر زوجه أم سُلَيم، فأرسلت بأقراص من خبز الشعير للرسول ﷺ ، فلم يأخذ الرسول ﷺ الأقراص، بل سارَ إلى أبي طلحة بالصحابة الذين حوله، وكانوا بين السبعين والثمانين، وكل هؤلاء أكلوا من تلك الأقراص وشبعوا ببركة دعاء رسول الله ﷺ .

نص الحديث

عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول: «قال أبو طلحة لأمِّ سُلَيم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضَعيفاً أعرفُ فيه الجوعَ، فهل عندَكِ من شيءٍ؟ فأخرَجَتْ أقراصاً من شَعير، ثم أخرجَت خِماراً لها فَلَفَّتِ الخبزَ ببعضِهِ، ثم دسَّتهُ تحتَ ثوبي، وردَّتني ببعضِه، ثم أرسَلَتْني إلى رسولِ الله ﷺ ، قال: فَذهَبتُ بهِ فَوَجَدْتُ رسولَ الله ﷺ في المسجدِ ومعهُ الناس، فقُمتُ عليهم.

فقال لي رسولُ الله ﷺ : (آرسلَكَ أبو طلحةَ؟) فقلت: نعم. قال: (بطعامٍ؟) قال: فقلت: نعم. فقال رسولُ الله ﷺ لمن مَعهُ: (قوموا)، فانطلَقَ

وانطَلَقتُ بينَ أيديهم حتى جئتُ أبا طلحةَ، فقال أبو طلحةَ: يا أمَّ سُلَيم، قد جاء رسولُ الله ﷺ بالناس، وليس عندَنا من الطعام ما نطعِمُهم. فقالت: الله ورسوله أعلم.

قال: فانطلَقَ أبو طلحةَ حتى لقي رسولَ الله ﷺ ، فأقبلَ أبو طلحةَ ورسولُ الله ﷺ حتى دَخَلا، فقال رسولُ الله ﷺ : (هَلُمِّي يا أمَّ سُلَيم ما عندَكِ)، فأتَتْ بذلك الخبز، فأمر به ففُتَّ، وَعَصَرَتْ عليه أمُّ سُلَيم عُكةً لها فأَدَمَته، ثم قال فيه رسولُ الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: (ائذن لعشَرة)، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شَبعوا ثم خرَجوا. ثم قال: (ائذن لعشرة)، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرَجوا، ثم قال: (ائذن لعشرة)، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم أذِنَ لعشرةٍ، فأكل القومُ كلهم وشبعوا، والقومُ ثمانون رجلاً».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأطعمة، باب من أكل حتى شبع، [ورقمه: ٥٣٨١]. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة، باب جواز استتباع غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، [ورقمه: ٢٠٤٠].

ورواه الترمذي في سننه في كتاب المناقب: [ورقمه: ٣٦٣٠].

غريب الحديث

خماراً : الخمار: غطاء الرأس

آرسلك : الهمزة الممدودة في أوله للاستفهام.

وعصرت عُكّةً فأدَمَتْه : العُكّة بضم العين وتشديد الكاف إناء من جلد مستدير، يجعل فيه السمن أو العسل غالباً، والمراد أن أم سليم صرَّت هذا الإناء الجلدي أي: عصرته، فخرج ما فيه من بقايا السمن، فجعلت هذا السمن الذي خرج إداماً خلطت به الخبز.

شرح الحديث

كان أبو طلحة فارس رسول الله ﷺ ، وثيق الصلة به، يتفقد أحواله، وينظر فيما ينوبه، ويكثر من مجالسته، فمرّ يوماً بالمسجد، فرأى الرسول ﷺ جائعاً جوعاً شديداً، فرجع إلى منزله، وقال لزوجه أم سليم: «لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك شيء؟».

وفي رواية عند مسلم عن أنس: «رأى أبو طلحة رسول الله ﷺ مضطجعاً في المسجد، يتقلب ظهراً لبطن، فأتى أم سُلَيم، فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ مضطجعاً في المسجد، يتقلب ظهراً لبطن، وأظنه جائعاً» [مسلم: ٢٠٤٠].

وفي رواية عند مسلم عن أنس أنه جاء الرسول ﷺ يوماً، فوجده جالساً مع أصحابه يحدّثهم، وقد عصب بطنه بعصابة، قال أسامة (أحد رواة الحديث): وأنا أشك على حجر، فقال أنس: «فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله ﷺ بطنه؟ فقالوا: من الجوع، فذهبت إلى أبي طلحة، وهو زوج أمه، أم سليم بنت ملحان: يا أبتاه، قد رأيت رسول الله ﷺ عصَّب بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه، فقالوا: من الجوع، فدخل أبو

طلحة على أمي، فقال: هل من شيء؟ فقالت: نعم، عندي كسر من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قل عنهم» [مسلم: ٤٠٤٠].

وهذه القصة تختلف في سياقها عن القصة الأولى، وإن اشتركتا في أن الرسول ﷺ جاء منزل أبي طلحة بجمع من الناس على طعام قليل، فبارك الله حتى أشبع الجمع الكثير.

ففي القصة الأولى أن الذي رأى الرسول ﷺ جائعاً يتقلب ظهراً لبطن، وسمع صوته ضعيفاً من الجوع هو أبو طلحة، وفيه أن أم سليم أخرجت أقراصاً من الشعير، وأرسلتها مع أنس إلى رسول الله ﷺ ، وقد لفّت أمُّ سليم بخمارٍ لها الخبز ببعضه، وجعلت ببقية خمارها رداءً لأنس، ودسّت الخبز تحت ثوبه، فوجد أنس الرسول ﷺ وحوله أصحابه، فلم يدرِ كيف يتصرف، فقد علم أنس بنباهته، أنه لا يحسن به أن يدفع ذلك الطعام القليل إلى الرسول ﷺ بمحضر أصحابه، وإن كان الأمر الصادر إليه بدفعها إليه.

وقد تنبه الرسول ﷺ إلى أنس ووقوفه على الحلقة وحيرته، فبادره بسؤال سهل عليه مهمته، وأنقذه من حيرته، وكان سؤاله آية تدل على أن الله أعلمه بواقع الحال، أو أنه تفرّس فراسة لم تخطئ.

وعندما صرّح له أنس بما أرسل به، لم يأخذ الأقراص منه، بل دعا من حوله إلى الانطلاق إلى منزل أبي طلحة.

ففي هذه القصة أرسلت أم سليم بأقراص من شعير مع أنس إلى الرسول ﷺ فأحبّ الرسول ﷺ أن يُكرم أبا طلحة وأم سليم بدعوة أصحابه على هذه الأقراص، فكفتهم، وفي قصة أنس السابقة أرسل أبو

طلحة أنساً إلى الرسول ﷺ يدعوه وحده، ولم ترسل معه أم سليم أقراص شعير، وكان الموجود عندها كسرات من خبز، ولم يقف أنس فيها حائراً حتى فَطِنَ إليه الرسول ﷺ، بل خاطبه قائلاً: أجب أبا طلحة.

وفي كلتا القصتين جاء الرسول ﷺ منزل أبي طلحة بجمع كبير من أصحابه، وفي كلتا القصتين طار أنس وهو الشاب الصغير ذي الجسم الخفيف والحركة السريعة، وسبق موكب الرسول ﷺ، ليخبر الخبر لأبي طلحة وأمه، ويدلك على انفعال أنس أنه عندما أخبر أبا طلحة بإجابة الرسول ﷺ الدعوة، قال: إنه يقول: «ومن معي» ورقمه: [٥٤٥٠] وكما أدهش مجيء هذا العدد الكبير أنساً، وكان عددهم ثمانين في إحدى القصتين، وأربعين في الأخرى، أدهش أيضاً أبا طلحة، فقد قال لزوجه أم سليم: «يا أم سليم جاء رسول الله بالناس وليس عندنا ما نطعمهم» (الرواية في البخاري ومسلم).

وقد أبدى أبو طلحة عذره للرسول ﷺ، ففي رواية مسلم أنه قال لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، إنما كان شيئاً يسيراً» فطمأن الرسول ﷺ قلب أبي طلحة قائلاً: «هَلُمّه، فإن الله سيجعل فيه البركة» [مسلم: ٢٠٤٠].

وفي كلتا القصتين كانت أم سليم تأتي بذلك الطعام اليسير، ففي إحداهما كان الطعام أقراصاً من شعير فتّتها، ووضعت عليها بقايا من سمن كان في وعاء السمن، وفي الثانية كان الطعام كسرات من الخبز، وتمرات، فكان الرسول ﷺ يدعو في ذلك الطعام، ويقول فيه ما يشاء الله أن يقول، ثم يأمر أن يدخل عشرة من الصحابة فيأكلون حتى يشبعوا، ثم يخرجون، ويدخل غيرهم، حتى شبعوا جميعاً.

وفي رواية مسلم أن الرسول ﷺ بعد أن شبع أصحابه وخرجوا أكل هو وأبو طلحة وأم سليم وأنس، وفضلت بعد ذلك فضلة، فأهدوها لجيرانهم. إن الطعام الذي قالت فيه أم سليم: « عندي كسر من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء معه آخر قلّ عنهم» بارك الله فيه بدعوة رسوله ﷺ ، فكفى أربعين من أصحابه، وأكل منه هو وأهل دار أبي طلحة، وفضل منه فضلة أهدوها إلى جيرانهم.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- كان الرسول ﷺ بشراً، يأكل كما يأكلون، ويجوع كما يجوعون، بل كان يصيبه الجوع الشديد، حتى يتقلب ظهراً لبطن.

٢- خُيِّر الرسول ﷺ بين أن يكون ملكاً رسولاً، أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، يجوع يوماً، ويشبع يوماً.

٣- كان الصحابة كباراً وصغاراً، ورجالاً ونساءً يلحظون أحوال الرسول ﷺ ، ويعنيهم ما يصيبه، ويجهدون أنفسهم في رفع معاناته قدر ما يستطيعون، كما وقع في هذه القصة من أبي طلحة وأم سليم وأنس ابن مالك.

٤- الجوع يؤثر في حواس الناس، فقد أثر شدة الجوع في صوت الرسول ﷺ ، فأضعفه.

٥- كان الطعام الذي يأكله الصحابة في العهد النبوي خشناً قاسياً، فقد كانوا يطحنون الشعير، ويخبزونه، ويأكلونه، كما وقع في هذه القصة.

٦- كان في بيوت الصحابة آلة الطحن، فعند حاجتهم كانوا يطحنون الحب قمحاً أو شعيراً في الحال.

٧- كانت الزوجات الصحابيات هنَّ اللواتي يطحنّ، ويخبزن، ويصنعن الطعام، ويقمن بأعمال المنزل، كما فعلت أم سليم في هذه القصة.

٨- كان الرسول ﷺ على ثقة من أن ربّه سيكرمه، ويستجيب دعاءه، ففي كلتا القصتين دعا الصحابة الذين معه إلى الطعام القليل عند أبي طلحة، فبارك الله في ذلك الطعام، حتى كفاهم وفاضَ عنهم.

٩- لا حرج على من اهتمّ لأمر من يأتيه إذا كانوا كثيراً، والطعام قليلاً، كما اهتم أبو طلحة لذلك عندما جاءهم الرسول ﷺ ومعه ذلك الجمع من الصحابة.

١٠- لا بأس أن يخرج الرجل خارج منزله ليستقبل ضيوفه، فقد خرج أبو طلحة إلى استقبال الرسول ﷺ وصحبه، فهذا مما أذِنَ فيه، بخلاف القيام للداخل، فإنه منهيّ عنه.

١١- لا حرج على الرجل أن يرسل عبده أو غلاماً صغيراً يدعو الناس إلى طعامه، فقد أرسل أبو طلحة ابن زوجته وهو غلام صغير يدعو رسول الله ﷺ وهو خيرة الله من خلقه.

١٢- استحباب جلوس العالِم لأصحابه وخاصة في المساجد، فقد أخبر أنس أنه عندما جاء إلى الرسول ﷺ ، وجده في المسجد وحوله أصحابه، وإنما يجلس العلماء لطلبة العلم لتعليمهم، وتأديبهم وإفادتهم.

١٣- ابتلى الله رسوله ﷺ وكثيراً من أصحابه بالجوع وأنواع المشاق، وفي ذلك خير للصابرين ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥].

١٤- استحباب إرسال الهدية وإن كانت قليلة إلى الجيران والأصحاب، فقد أهدى أبو طلحة وأم سليم إلى جيرانهم شيئاً مما فضل من الطعام

المبارك الذي دعا فيه الرسول ﷺ، ففي رواية عند مسلم «ففضلت فضلة، فأهديناه لجيراننا» وفي أخرى «وأفضلوا ما أبلغوا جيرانهم» [مسلم: ٢٠٤٠].

١٥- اختلاف مواقف الصحابيات، فالصحابية الشابة امرأة جابر ثارت على زوجها عندما رأت جموع الصحابة تتدفق إلى منزلها لتناول طعامٍ لا يكاد يكفي ثلاثة قبل أن تعلم أن زوجها أخبر الرسول ﷺ بواقع الأمر. أما أم سليم صاحبة الخبرة والتجربة والسن المتقدمة، فلم تزد على قولها: «الله ورسوله أعلم» عندما أخبرها زوجها بمجيء الرسول ﷺ وثمانين من أصحابه وفي رواية أخرى في أربعين منهم.

١٦- لا حرج في أن يأكل الناس إذا كانوا جمعاً كبيراً أفواجاً، إذا لم يتسع لهم المكان، ولا توجد الآنية التي تكفي لإطعامهم مرة واحدة، فقد أمر الرسول ﷺ أن يدخل المدعوون عشرة عشرة، وكان العشرة هو العدد الذي يتسع له المكان في المنزل الذي أقيمت فيه الوليمة.

١٧- يجوز للآكل أن يأكل حتى يشبع، فقد شبع الصحابة جميعاً من طعام أبي طلحة الذي كثّره الله بدعاء رسول الله ﷺ، ولم يكن حال الرسول ﷺ وأصحابه كذلك دائماً، ولكن الجائع الذي طوى الأيام من غير طعام، وقد يطوي بعد تلك الأكلة أياماً أخرى لا يجد فيها الطعام، لا حرج عليه إذا ملأ بطنه. أما الذي يجد الطعام في كل وقت وحين، فعليه أن يخفف من الطعام، وقد أرشدنا الرسول ﷺ إلى المنهج السديد في مقدار الطعام، قال ابن حجر العسقلاني: «ورد حديث حسن أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وصحّحه الحاكم من حديث المقدام بن معدي كرب، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما ملأ آدمي

وعاءً شراً من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن غلب الآدمي نفسه، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس) [فتح الباري: ٩/ ٦٥٤].

١٨-في الحديث صورة للأسرة المسلمة في العهد النبوي، فأبو طلحة تزوج من أم سليم، وأنس هو ابنها من زوجها الأول، وقد بقي أنس مع أمه، وقام أبو طلحة برعايته وتربيته والإنفاق عليه، وقد جعله أنس في مقام الأب، ففي رواية في صحيح مسلم أن أنساً قال لأبي طلحة: «يا أبتاه قد رأيت رسول الله ﷺ عصب بطنه بعصابة» [مسلم: ٢٠٤٠].

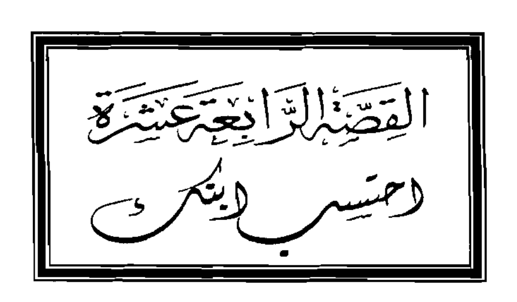
١٩-دلَّ الحديث على صورة من صور رعاية الأمهات لأبنائهن، فعندما أرسلت أم سليم أنساً في تلك المهمة إلى رسول الله ﷺ لفّت الطعام الذي يحمله بجزء من خمارها، فليس من الأدب أن يظهر الطعام، فقد يراه الجائع الذي لا يجد ما يسدُّ رمقه، ولفّت رأس ابنها ووسطه بالجزء الباقي من الخمار، ويبدو أن الملابس التي يلبسها كانت غير كافية لترد برودة الشتاء أو حرارة الصيف عنه. ومثل هذه المهمات التي يُكلّف فيها الآباء والأمهات الأبناء إذا كانت مهمات صالحة تصقل نفوس الأبناء، وتصلهم بمن حولهم، وتعرِّفهم عليهم، فقد أصبح أنس أحد رواة حديث رسول الله ﷺ ، وكان طرفاً في بعضها، وقد عَلِمنا منه من وراء ذلك علماً كثيراً، ولا يزال المسلمون يستفيدون منه فوائد كثيرة على مرّ العصور، وكرّ الليالي والأيام.

٢٠-كان الصحابة فقراء في المال، وكانت بيوتهم وشوارعهم وأثاثهم وأسواقهم متواضعة، ولكنهم كانوا يمثلون قمة الرقي في عقيدتهم وأفعالهم وسلوكهم وتنظيمهم، فقد كانوا يجلسون - كما في الحديث - حول

الرسول ﷺ منظمين، وكانوا لا يدخلون إلى موضع الطعام حتى يُؤذن لهم، فقد طلب الرسول ﷺ عندما وُضع الطعام أن يأذنوا لعشرة عشرة.

٢١-من أدب الطعام في الإسلام التسمية قبيل البدء في الطعام، ففي رواية مسلم أن الرسول ﷺ قال للعشرة الذين أذن لهم فدخلوا: (كلوا وسموا الله).

* * *



تمهيد

هذه العبارة التي عنونت بها لهذه القصة قالتها الصحابية أم سُلَيم رضي الله عنها لزوجها أبي طلحة بعد أن تعشّى في ليلته تلك، ثم عاشرها بعد أن تصنّعت له وتزيّنت، ثم أخبرته بعد ذلك بوفاة ابنه، وفي الصباح أخبر الرسول ﷺ بما كان من زوجته ومنه، فدعا الرسول ﷺ أن يبارك الله لهما في ليلتهما تلك.

نص الحديث

عن أنس بن مالك قال: «قال مالك أبو أنس لامرأته أم سليم – وهي أم أنس – : إن هذا الرجل – يعني النبي ﷺ يحرِّم الخمر – فانطلق حتى أتى الشام فهلك هناك، فجاء أبو طلحة، فخطب أم سُلَيم، فكلّمها في ذلك.

فقالت: يا أبا طلحة! ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة لا يصلح لي أن أتزوجك! فقال: ما ذاك دهرك، قالت: وما دهري؟! قال: الصفراء والبيضاء! قالت: فإني لا أريد صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام، [فإن تسلم فذاك مهري، ولا أسألك غيره]، قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله ﷺ .

فانطلق أبو طلحة يريد النبي ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، فلما رآه قال: (جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه)، فأخبر رسول الله ﷺ بما قالت أم سُلَيم، فتزوجها على ذلك، قال ثابت: (وهو البناني أحد رواة القصة عن أنس) فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت الإسلام مهراً، فتزوّجها، وكانت امرأة مليحة العينين، فيها صغر، فكانت معه حتى ولد له بُني، وكان يحبه أبو طلحة حباً شديداً.

ومرض الصبي [مرضاً شديداً]، وتواضع أبو طلحة لمرضه، أو تضعضع له، فكان أبو طلحة يقوم صلاة الغداة يتوضأ، ويأتي النبي ﷺ فيصلي معه، ويكون معه إلى قريب من نصف النهار، ويجيء يقيل ويأكل، فإذا صلى الظهر تهيأ وذهب، فلم يجِيء إلى صلاة العتمة.

فانطلق أبو طلحة عشية إلى النبي ﷺ (وفي رواية: إلى المسجد) ومات الصبي، فقالت أم سليم: لا ينعينّ إلى أبي طلحة أحد ابنه حتى أكون أنا الذي أنعاه له، فهيأت الصبي [فسجت عليه]، ووضعته [في جانب البيت]، وجاء أبو طلحة من عند رسول الله ﷺ حتى دخل عليها [ومعه ناس من أهل المسجد من أصحابه] فقال: كيف ابني؟ فقالت: يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة [وأرجو أن يكون قد استراح!] قال: فلله الحمد. فأتته بعشائه [فقرّبته إليهم فتعشوا، وخرج القوم].

[قال فقام إلى فراشه فوضع رأسه]، ثم قامت فتطيّبت، [وتصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك]، [ثم جاءت حتى دخلت معه الفراش، فما هو إلا أن وجد ريح الطيب كان منه ما يكون من الرجل إلى أهله]، [فلما كان آخر الليل] قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا قوماً

عارية لهم، فسألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوهم؟ فقال: لا؛ قالت فإن الله عز وجل كان أعارك ابنك عارية، ثم قبضه إليه، فاحتسب ابنك واصبر! .

فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا وقعت بما وقعت به نعيت إليّ ابني! [فاسترجع، وحمد الله]، [فلما أصبح اغتسل]، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ [فصلى معه] فأخبره، فقال رسول الله ﷺ : (بارك الله لكما في غابر ليلتكما)، فثقلت من ذلك الحمل، وكانت أم سُلَيم تسافر مع النبي ﷺ ، تخرج معه إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل، وقال رسول الله ﷺ (إذا ولدت أم سُلَيم فأتوني بالصبي)، [قال: فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقاً، فدنوا من المدينة، فضربها المخاض، واحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ .

فقال أبو طلحة: يا رب، إنك لتعلم أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى، قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد، فانطلقا، قال: وضربها المخاض حين قدموا]، فولدت غلاماً، وقالت لابنها أنس: [يا أنس! لا يُطَعم شيئاً حتى تغدوا به إلى رسول الله ﷺ ، [وبعثت معه بتمرات]، قال: فبات يبكي، وبتُّ مجنحاً عليه، أكالئه حتى أصبحت، فغدوت إلى رسول الله ﷺ]، [وعليه بردة]، وهو يسم إبلاً أو غنماً [قدمت عليه]، فلما نظر إليه، قال لأنس: (أوَلدت بنت ملحان؟) قال: نعم، [فقال: (رويدك أفرغ لك)]، قال: فألقى ما في يده، فتناول الصبي وقال: [(أمعه شيء؟) قالوا: نعم، تمرات]، فأخذ النبي ﷺ [بعض] التمر [فمضغهن، ثم جمع بزاقه]، [ثم فغر فاه، وأوجره إياه]، فجعل يحنك الصبي، وجعل الصبي يتَلَمَّظ: [يمص بعض حلاوة التمر وريق رسول الله ﷺ ، فكان أول ما تُفتَّحتْ أمعاء ذلك

الصبي على ريق رسول الله ﷺ] فقال: (انظروا إلى حبّ الأنصار التمر)، [قال: قلت: يا رسول الله سَمّه، قال:] [فمسح وجهه] وسماه عبدالله، [فما كان في الأنصار شاب أفضل منه]، [قال: فخرج منه رجل كثير، واستشهد عبدالله بفارس] ».

تخريج الحديث

قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تخريجه بعد سياقه له: «أخرجه الطيالسي (رقم ٢٠٥٦) والسياق له، ومن طريقه البيهقي (٤/ ٦٥-٦٦)، وابن حبان (٧٢٥) وأحمد (٣/ ١٠٥-١٠٦، ١٨١، ١٩٦، ٢٨٧، ٢٩٠) والزيادات كلها له كما سيأتي، ورواه البخاري (٣/ ١٣٢-١٣٣) ومسلم (٦/ ١٧٤-١٧٥) مختصراً مقتصراً على قصة وفاة الصبي، وروى النسائي (٢/ ٨٧) قسماً من أوله، والزيادة الأولى له، والسادسة والثامنة والخامسة عشر والسادسة عشر للبخاري، والتاسعة عشر والثانية والعشرون لمسلم، وسائرها لأحمد كما سبق» [أحكام الجنائز: ص٢٤].

غريب الحديث

ما ذاك دَهْرُكِ : أي: ما الذي تطلبينه مهراً.

فيها صَغَر : الصَّغَر ضد العظم، يريد أن جسدها صغير.

أسكن منه : أرادت به سكون الموت، وظنّ أبو طلحة أنها تريد سكون العافية والشفاء.

نعيت : النعي: الإخبار والإعلان عن وفاة إنسان وموته.

غابر ليلتكما : الغابر: الماضي، أي: ليلتكما الماضية.

لا يطرقها طروقاً : لا يدخلها ليلاً.

فضربها المخاض : هو الطلق ووجع الولادة.

مجنحاً عليه : مائلاً عليه، راعياً له.

أكالئه : أراقبه.

يسم إبلاً : وسم الإبل، وضع علامة عليها بطريق الكي لتعرف أنها إبل الصدقة.

بنت ملحان : هي أم سليم، وملحان أبوها.

رويدك : أي: تمهل.

فغر فاه : فتحه.

فمجَّه : أي: طرحه.

يتلمظ : أي: أن التمر أعجبه، فهو يحرك لسانه يتتبع آثار ذلك التمر من فمه ومن على شفتيه.

شرح الحديث

هذه القصة تعدُّ من روائع القصص في صحيح الحديث النبوي، يقرأ الباحث هذه القصة، ثم يعود ليقرأها ثانية وثالثة، ولا يملّ من قراءتها لما تضمّنته من وقائع فيها عظات وعِبَر وطرف.

وراوي القصة الصحابي أنس بن مالك ﷺ وثيق الصلة بأبطال القصة، بل هو جزء منها في بعض أحداثها، وهو في ذلك يحدث عن أمّه أم سليم، وعن زوج أمه أبي طلحة.

وأسرة أبي طلحة وأم سليم أسرة مثالية، أفرادها بلغوا القمة، في كمال شخصية كل منهم، وفي تميّزهم، وفي دخولهم في الإسلام دخولاً حقيقياً مبصراً واعياً، وفي عمق صلتهم بالرسول ﷺ وقربهم منه.

يحدثنا أنس بن مالك ﷺ أن أباه مالكاً زوج أم سليم كان محباً للخمر، فلما حرّم القرآن الخمر، قال لزوجته: «إن هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - يحرِّم الخمر» وسياق النص يدل على أنه لم يسلم، وقد ترك مالك المدينة إلى الشام، حيث يستطيع معاقرة الخمر، وهناك هلك، وأصبحت أم سليم غير ذات زوج.

فتقدّم أبو طلحة إلى أم سليم يخطبها لنفسه، وكان أبو طلحة مثال الزوج الذي تقبل به النساء زوجاً، ولكن حالَ دون قبولها به أنه لم يدخل الإسلام، وكان القرآن قد نزل بتحريم تزويج المسلمات من الكفار.

وعرضت أم سليم عليه إن أسلم أن يكون ذلك مهرها، فلا تطلب منه مهراً غيره، لا ذهباً ولا فضة، ولا غيرهما، إنما تريد أن يكون إسلامه فحسب مهرها، فلما طلب ضمانة لتحقيق ما عرضته عليه، جعلت الرسول ﷺ ضامناً لعرضها الذي عرضته، ولم تكل أمرها إلى واحد من أقاربها.

فانطلق أبو طلحة إلى الرسول ﷺ ، ورآه الرسول ﷺ مقبلاً عليه، وهو جالس في أصحابه، فقال: (جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه). فأخبر أبو طلحة الرسول ﷺ بما قالته أم سليم، وتزوجها على ذلك، فكان مهرها أعظم مهر حصلت عليه امرأة، لقد كان مهرها الإسلام، وهل يوجد مهر مثله!! وقد وصف أنس أمّه، فأخبر أنه كان بها صَغَر، والمراد بالصغر هنا في الجرم، لا في القدر، فقد كانت عظيمة القدر، أما جرمها وجثتها ففيه قلة، كما أخبر أنها كانت مليحة العينين.

وأثمر زواج أم سليم من أبي طلحة، فرُزقا بولد، فأحبّه أبو طلحة حباً شديداً، ولكنه ما لبث أن مرض مرضاً شديداً، وأثر مرضه في أبي طلحة، وظهر ذلك على نفسه وحاله، وبدا ذلك في تصرفاته.

وأخبرنا أنس عن عادة أبي طلحة في أيامه التي يكون فيها في المدينة، فكان يقوم مع انبلاج الفجر، فيتوضأ، ثم يأتي النبي ﷺ ، فيصلي معه في مسجده صلاة الصبح، ثم يعود إلى منزله مع انتصاف النهار، فيقيل، أي: ينام، ثم يأكل، ويصلي الظهر، ثم يتهيأ للخروج، ويذهب، ويبقى إلى أن يصلي مع الرسول ﷺ صلاة العتمة، وهي صلاة العشاء.

وفي يوم خرج أبو طلحة صاحب رسول الله ﷺ في المساء من منزله مخلّفاً وراءه ابنه العليل، فمات في غيبته، فطلبت زوجته أم سليم ممن حولها ألا يخبروا زوجها بوفاته حتى تكون هي التي تخبره بذلك، ذلك أنها عزمت في نفسها على أمر لا يتم إلا إذا كانت هي التي تخبره بالواقعة.

وقامت أم سليم إلى الصبي، فلفّته، ووضعته في ناحية البيت، وجاء أبو طلحة من عند رسول الله ﷺ بعد أن صلى معه العشاء صحبة بعض الصحابة الذين كانوا معه في المسجد، وكان أول ما سأل عنه ذلك الولد العليل، فقالت له زوجه: «يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة، وأرجو أن يكون قد استراح».

لقد أجابت أم سليم بكلام فقه منه أبو طلحة أن الغلام تخلص من مرضه، وشفي من علته، ولكن المعنى الذي قصدته أم سليم غير ذلك.

فاطمأنت نفس أبي طلحة على ابنه، وقدّمت أم سليم له ولضيوفه العشاء، فأقبل على العشاء مع ضيوفه، وبعد انصرافهم أقبل على معاشرة

زوجته بعدما رآها قد تصنّعت وتزيّنت له، ونامَ ليلته تلك هادئاً راضياً، حتى إذا أصبح واغتسل أخبرته، ففي صحيح البخاري: «فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات» (البخاري: ١٣٠١).

وكانت قبل إخبارها بموته ضربت له مثلاً لتخفف عنه ما قد يجده من ألم الفقد، فقالت له: «أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك» [مسلم: ٢١٤٤].

لم يستطع أبو طلحة أن يبلغ مبلغ أم سليم في الصبر على مصابه، ووجد أن فعلها الذي فعلته مستغرب مستعجب، ولذلك غضب، وقال لها: «تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني!!» [مسلم: ٢١٤٤].

ومضى أبو طلحة مشوش الفكر غير قادر أن يحكم على ما كان من زوجته، فصلى مع رسول الله ﷺ ، ثم أخبره بما كان من زوجته ومنه، فقال له الرسول ﷺ : (لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما) (البخاري: ١٣٠١). فهدأت نفس أبي طلحة، وأيقن أن ما فعلته زوجته محل رضا رسول الله ﷺ ، وإلا لم يكن ليدعو لهما بالبركة.

وحملت أم سليم، وضربها المخاض وهي على أبواب المدينة عائدة مع زوجها صحبة رسول الله ﷺ من إحدى أسفاره، فاحتبس عليها أبو طلحة، وآلم أبا طلحة تخلّفه عن رسول الله ﷺ ، فقد كان يحب أن يخرج معه، ويدخل معه.

فتوجه أبو طلحة بالدعاء إلى الواحد الأحد قائلاً: «إنك تعلم يا رب، إنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى».

فما أسرع أن أجاب الله دعاءه، وحقق رجاءَه، فنادته زوجه أم سليم قائلة: «يا أبا طلحة، ما أجد الذي كنت أجد، انطلق، وضربها المخاض حين قدما المدينة، فولدت غلاماً».

لقد جاء الغلام المبارك الذي دعا له رسول الله ﷺ بالبركة، وقد حرص أبو طلحة وزوجه على أن تزداد بركة الغلام، فدعيا أخاه لأمه أنساً، وطلب منه أبو طلحة أن يحمله حتى يأتي به رسول الله ﷺ ، وبعثت معه أم سليم بتمرات، وقالت له أم سليم: يا أنس، لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله، فلما أصبح أنس غدا به على رسول الله ﷺ ، فوضعه في حجر رسول الله ﷺ ، وأخذ التمرات التي أرسلت بها أم سليم، فمضغها، ثم أخذها من فيه ووضعها في فم الصبي، ثم حنكه، فجعل الصبي يتلمظ ذلك الذي وضعه الرسول ﷺ في فمه، والتلمظ تحريك الغلام لسانه يمتص ذلك التمر، وفيه دلالة على استطابته إياه، وقد لفت تلمظه إياه نظر رسول الله ﷺ ، فقال لمن حوله: (انظروا إلى حبِّ الأنصار التمر) ثم إن رسول الله ﷺ مسح وجهه، وسماه عبدالله.

وقد بارك الله في ذلك الغلام ففي صحيح البخاري أن سفيان بن عيينة أحد رواة الحديث قال: «فقال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد، كلهم قد قرأ القرآن» [البخاري: ١٣٠١]. وقوله: (لهما) أي لأبي طلحة وأم سليم من ذلك الولد المبارك.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- فضل أم سليم وفقهها ورجاحة عقلها، فقد جعلت مهرها من زواجها من أبي طلحة إسلامه، وجعلت الرسول ﷺ ضامناً للعرض الذي

عرضته. وعندما فقدت ابنها صبرت على مصيبتها، وكتمت حزنها، وفعلت مع زوجها ما تضمنه الحديث، وعزت زوجها أحسن العزاء، وصبّرته على مصيبته بضربها له ذلك المثل، فكانت عاقبتها إلى خير، فأبدلها الله بولد خيراً منه.

٢- يجوز أن تخطب المرأة إلى نفسها، ولها أن تكلم الخاطب وتحاوره في حدود المعروف، كما فعلت أم سليم عندما تقدم أبو طلحة لخطبتها.

٣- يجوز للمرأة أن تجعل مهرها إسلام الرجل الذي يخطبها إن كان كافراً، ومثل ذلك أن تشترط عليه أن يعمل في دعوة الناس وهدايتهم وتعليمهم ونحو ذلك.

٤- لم يسلم أبو طلحة كي يتزوج من أم سليم، بل كان إسلامه استجابة لدعوة الرسول ﷺ ، وقد ظهر صدق إسلامه بعد ذلك في استقامته وأعماله وجهاده.

٥- كان الرسول ﷺ يحسن الفراسة، وقد عَلِمَ في أبي طلحة الإسلام وهو مقبل عليه من بعيد.

٦- جواز عدم إظهار الحزن عند المصيبة، وقد ترجم البخاري على هذا الحديث بقوله: «باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة» (البخاري: ١٣٠١) وأورد تحته قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦].

٧- مدى قدرة الصحابيات على تحمل المشاق في عصر النبوة، فمع أن أم سليم حامل في شهرها الأخير صحبت زوجها في سفره مع رسول الله ﷺ .

٨- كان من هدي الرسول ﷺ وأصحابه أن لا يدخل المدينة إذا قَدِمَ من سفره ليلاً، إذ لم يكن هناك من وسائل الاتصال ما يُعلم أهل المدينة بعودة الغائبين.

٩- فضل أبي طلحة، فلم يؤنب زوجه على أمر لا تملكه، وإنما لجأ إلى الله، ودعاه وناداه، فرفع عن زوجته آلام المخاض، وعاد هو وزوجه مع رسول الله ﷺ ، وولدت في المدينة.

١٠- تبرُّك الصحابة بالرسول ﷺ بإرسال أبنائهم إليه ليحنكهم، كما فعلت أم سليم وأبو طلحة، وقد استحب بعض أهل العلم ذلك لمن يُقتدى بهم من العلماء والصلحاء، وفي ذلك عندي نظر، فلم يثبت أن واحداً من الصحابة في حياة الرسول ﷺ ، ولا بعد وفاته حنك ولداً من أولاد المسلمين، ولو كان هذا مشروعاً ما تركوه، مما يدل على أنه خصوصية لرسول الله ﷺ ، ويدل لصحة ذلك أن بعض الذين يحنكون قد يكون فيهم من الأمراض ما ينتقل إلى الأطفال الذين يحنكونهم.

١١- مدى عناية الرسول ﷺ بأصحابه، فهو يستمع لشكاتهم، ويحل مشكلاتهم، ويدعو لهم، ويحنك مواليدهم، ويمسح على وجوههم ورؤوسهم، ويسمّيهم.

١٢- تواضع الرسول ﷺ ، فمع كونه رسول الله ﷺ ، يلي أمر المسلمين، ويقود جيوشهم، ويحكم بينهم، وبلغ به الأمر أن يرعى إبل الصدقة، ويقوم عليها.

١٣- اهتمام الرسول ﷺ واعتنائه بأموال الصدقات وحفظها بنفسه، حتى يوصلها إلى أصحابها، ومن ذلك وسمه إبل الصدقات، بختمها بخاتم تُعرف به، فتعاد إذا ضاعت.

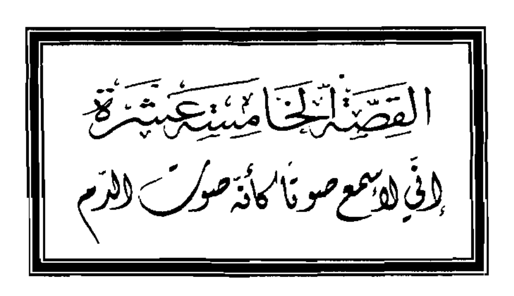
١٤- يجوز للإمام أن يؤخر تقسيم إبل ومواشي الصدقات، ولا يجب عليه إخراجها حين تصل إليه، وإلا لما احتاج إلى وسمها، بخلاف صاحب المال فيجب عليه إخراجها حال وجوبها عليه.

١٥- جواز إيلام الحيوان للحاجة كما فعل الرسول ﷺ بوسمه إبل الصدقة.

١٦- يجوز أن يعهد الرجل إلى غيره كأبيه أو أمه بتسمية ابنه، كما عَهِدَ أبو طلحة وأم سليم بذلك إلى رسول الله ﷺ.

١٧- يجوز تسمية المولود في اليوم الأول لولادته، وقد فعل الرسول ﷺ ذلك أكثر من مرة، وقد ساق البخاري عدة أحاديث في ذلك، منها (٥٤٦٧، ٥٤٦٩) ولكنه بوَّب عليها بما يفيد أن هذا إنما هو في المولود الذي لا يريد وليّه العق عنه.

* * *



تمهيد

القائل لهذه العبارة التي عنونت لهذه القصة بها هي زوجة كعب بن الأشرف اليهودي الذي آذى الله ورسوله، فأرسل له الرسول ﷺ ثلة من جند الإسلام، فاحتالوا عليه حتى قتلوه غيلة.

نص الحديث

قال عمروٌ: سمعتُ جابرَ بن عبدِالله رضيَ الله عنهما يقول: «قال رسولُ الله ﷺ : (مَن لكعبِ بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسولَه).

فقام محمدُ بن مَسلمةَ فقال: يا رسولَ الله، أتحِبُّ أن أقتُلَه؟ قال: (نعم). قال: فأذنْ لي أن أقولَ شيئاً. قال: (قل). فأتاهُ محمدُ بن مَسلمةَ فقال: إنَّ هذا الرجلَ قد سألَنا صدَقةً، وإنه قد عنّانا، وإني قد أتيتُكَ استَسلِفُك. قال: وأيضاً والله لتملُّنَّه. قال: إنا قدِ اتبعْناهُ، فلا نحِبُّ أن ندَعَهُ حتى ننظرَ إلى أيِّ شيءٍ يصيرُ شأنه، وقد أردْنا أن تُسلِفَنا وَسقاً أو وَسقَين.

«فقال: نعم؛ ارهَنوني. قالوا: أيَّ شيءٍ تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نَرهنُكَ نساءَنا وأنتَ أجملُ العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنُكَ أبناءَنا، فيُسَبُّ أحدُهم فيقال: رُهنَ بوسق أو وسقَين، هذا عارٌ علينا، ولكنّا نرهَنك اللأمةَ. قال سفيانُ: يعني السلاحَ. فواعَدَه أن يأتيَه.

فجاءَهُ ليلاً ومعه أبو نائلةَ - وهو أخو كعب منَ الرضاعة فدعاهم إلى الحِصْنِ، فنزلَ إليهم، فقالت له امرأتُهُ: أين تخرُجُ هذه الساعةَ؟ فقال: إنما هو محمدُ بن مَسْلمةَ وأخي أبو نائلة. وقال غيرُ عمرٍو: قالت: أسمعُ صوتاً كأنه يَقطُرُ منه الدَّم. قال: إنما هو أخي محمدُ بن مَسلمةَ، ورضيعي أبو نائلة، إنَّ الكريمَ لو دُعِيَ إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب.

قال: ويُدخَلُ محمدُ بن مَسلمةَ معهُ رجلَين. فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشَعرِهِ فأشمُّه، فإذا رأيتموني استمكَنْتُ من رأسه فدونكم فاضربوه. فنزَلَ إليهم متوشِّحاً وهو ينفَحُ منه ريحُ الطيب فقال: ما رأيتُ كاليوم رِيحاً - أي أطيْبَ - وقال غيرُ عمرو: قال: عندي أعطرُ نساءِ العرب وأكملُ العرب. قال عمرٌو: فقال: أتأذنُ لي أن أشَمَّ رأسَك؟ قال: نعم. فشمَّهُ، ثم أشَمَّ أصحابَه ثم قال: أتأذنُ لي؟ قال: نعم. فلما استمكَنَ منهُ قال: دونَكم. فقتَلوه. ثمَّ أتَوُا النبيَّ ﷺ فأخبروه».

تخريج الحديث

رواه البخاري في مواضع من صحيحه، أتمّها في كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف (وقد اختصرت بعضاً منه)، ورقمه: (٤٠٣٧).

وانظره تحت الأرقام التالية: (٢٥١٠، ٣٠٣١، ٣٠٣٢). ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف ورقمه: (١٨٠١).

غريب الحديث

عنّانا : أي: أتعبنا وشقّ علينا.

أستسلفك : أستقرضك.

اللأمَةُ : لأمة الحرب، أداته، وقد فسّرها في الحديث بالسلاح.

متوشحاً : التوشح بالرداء، لبس الرداء على طريقة لبس المرأة الوشاح، والوشاح شيء مضفور من سيور تجعله المرأة على خصرها.

ينفح منه الطيب : أي: تفوح رائحة الطيب منه.

شرح الحديث

كعب بن الأشرف عربي من قبيلة طيِّئ، من بطن من بطونها يدعى بني نبهان، أصاب أبوه دماً في الجاهلية، فأتى المدينة وحالفَ بني النضير، وتزوّج عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعباً، وكان وابنه على دين اليهود [فتح الباري: ٧/ ٤٢١].

وكان كعب بن الأشرف يهجو رسول الله ﷺ في شعره، ويحرِّض عليه كفار قريش، ويشبب بنساء المسلمين، وحالف كفار قريش على قتال المسلمين [فتح الباري: ٧/ ٤٢١].

وضاق الرسول ﷺ ذرعاً بأفاعيل كعب وأذاه، فندب صحابته لقتله والتخلص منه، خاصة وأنه كان يسكن المدينة، ويؤلّب أهلها على الرسول ﷺ وأصحابه، فقال يوماً لبعض أصحابه: (من لكعب بن الأشرف، فإنه آذى الله ورسوله). ومن آذى الله ورسوله فقد حل دمه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٧] فسأله محمد بن مسلمة فقال: «أتحب أن أقتله؟» قال: (نعم). فطلب محمد بن مسلمة أن يأذن له أن يقول ما يقتضيه المقام لتحقيق الغاية

التي يريدها، إذ لابد له من أن يقول كلاماً يطمئن كعباً حتى يستطيع النيل منه وقتله.

انطلق محمد بن مسلمة من عند رسول الله ﷺ ، وقد أخذ على عاتقه أمراً عظيماً، وأخذ يخطط للأمر، ويعد له عدّته.

لم يكن تنفيذ المهمة قائماً على اختيار مجموعة من الرجال يمتشقون سيوفهم ويحيطون بكعب، ويقتلونه، فالأمر أصعب من ذلك.

لقد كان لكعب حصناً يقيم فيه، وكان حوله رجاله الذين يحمونه ويحرسونه، ومهاجمته علانية لابد أن يوقع معركة لم يكن المسلمون يريدون وقوعها في ذلك الوقت، إن المهمة تقضي بقتل كعب وحده غيلة، ليوقف أذاه، وليُجعل عبرة لغيره.

إن الخطة تقضي بأن يبقى كعب مستشعراً الأمان حتى يتمكّن منه المكلَّفون بقتله، لقد سهَّل على محمد القيام بمهمته أنه كان له صلة حسنة بكعب فيما مضى، وتذكر بعض المصادر أنه كان ابن أخت كعب من الرضاع [فتح الباري: ٧/ ٤٢٣]، واختار محمد بن مسلمة ليكون معه أبا نائلة، واسمه سلكان بن سلامة، أخا كعب من الرضاع، ونديمه في الجاهلية، ولذلك عندما حذرت كعباً امرأته من الخروج إليهما، لم يعبأ بكلامها، وقال لها: «إنما هو محمد بن مسلمة، وأخي أبو نائلة». ولا يكفي أن يكون هذان الرجلان مقبولين عند كعب، فإنه يعلم أنهما أسلما، واتّبعا محمداً الذي يبغضه، ويجمع الجموع لقتاله، ولذلك اختلق محمد وأبو نائلة سبباً معقولاً برّرا به قدومهما إليه، فهما يريدان منه أن يسلفهما كمية من التمر، فقد أفنيا تمرهما في إنفاقه على محمد وأصحابه المهاجرين معه.

لقد انتشى كعب وطرب، وهو ينصت إلى شكواهما من محمد وأصحابه، فإنه سبق له تحذيرهما من مغبّة اتباعه، فاليوم أرهقهما بمطالبه المالية، وغداً سيملّون مجالسته ومخالطته والعيش معه.

ولابد من حجّة تُذهب شكوك كعب، فالمنطق يقول: إذا كنتم كما تقولون أرهقتكم مطالبه المالية، فلم لا تتركونه وتنبذونه، فقالوا له معتذرين: «لا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه». وكان عذراً مقبولاً لدى كعب.

لقد كان كعب تاجراً، وتاجراً يهودياً، فهو وإن كان يتعامل مع من تربطهم به صلة قوية، إلا أنه يريد أن يطمئن إلى أن ماله سيرجع إليه، فطالبهم بأن يرهنوه نساءَهم، وكان رفضهم مبرراً مرضياً لعجب كعب بنفسه، «كيف نرهنك نساءَنا وأنت أجمل العرب؟» ورفضوا أيضاً أن يرهنوه أولادهم، لأن في ذلك مسبّة عليهم، ومذمة لهم، إذ لا يليق بالكريم أن يرهن أولاده في حفنة من تمر، وهنا يأتي العرض الذي يقصدونه مقبولاً مرضياً، فإذا لم يكن عندهم المال، ورهن النساء والأبناء مرفوض، فالحل هو أن يرهنوه السلاح، ولو عرضوا عليه ذلك من البداية ما رضيه، وتشكك فيه، أما الآن فهو عرض مقبول مرضي عنده.

وفي الموعد المحدد جاؤوا متقلدي السيوف، لابسين سلاح الحرب من غير أن يثيروا الريبة في نفسه، وجاؤوا برجال معهم كي يساعدوهم في تحقيق أربهم منه، جاؤوا بهم معهم بدعوى الاستعانة بهم على حمل السلاح.

وجاؤوا إليه في حصنه ليلاً، فالليل يخفي السالكين فيه، ويحفظ سرّهم، وفيه تهدأ الحركة، ويؤوب الناس إلى منازلهم، ونادوه فدعاهم إلى دخول

الحصن، وكانت زوجته من النباهة والذكاء بأن فطنت إلى ما في الصوت الداعي ما يُنذر بشر عظيم، وتلك فراسة لا يدركها إلا القليل من الناس.

ولم يلتفت كعب إلى كلام زوجته، فلم يكن لديه فراسة زوجته، وكانت خطة محمد بن مسلمة محكمة، لم يترك فيها ما يدعو إلى ريبة، أو يوقع شكاً.

وكانت خطة محمد تقضي بأن تؤدى المهمة بأسرع وقت ممكن، فكلما طال الوقت كثرت احتمالات الفشل، أو احتمالات خسارة بعض المهاجمين، قتلاً أو جرحاً.

كان محمد بن مسلمة يعلم أن من عادة كعب أن يكثر من الطيب، حتى يجد ريحه مجالسوه من مكان بعيد، واستخدم محمد هذه المعلومة للإمساك بتلابيبه ومنعه من الحركة، حتى يتمكن من معه من قتله بأقصى سرعة، وأخبر أصحابه بخطّته ففهموها.

ونزل كعب متوشحاً رداءه، ورائحة الطيب تفوح منه، وتعجب محمد من نفاذ تلك الريح وقوته، فقال كعب مفتخراً: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب، فأخذ محمد وأصحابه يشمون رأسه، حتى إذا تمكّن محمد ابن مسلمة منه، هوت عليه السيوف، فأخمدت أنفاسه، وجعلته كالأمس الذاهب، وأراحت العباد والبلاد من شرّه، وطارت الأخبار إلى الرسول ﷺ بالبشرى، وجعلت تلك الواقعة كعباً عبرة لغيره.

* * *



تمهيد

ذهبت الأوس بمأثرة قتل كعب بن الأشرف عدو الله وعدو رسوله، فلما رأت الخزرج ذلك آلمهم أن لا تكون لهم مأثرة كمأثرتهم، فاستأذنوا الرسول ﷺ في قتل عدو لله ورسوله يسامي كعباً في عدائه للإسلام وأهله، فأذِنَ لهم في قتل أبي رافع بن أبي الحقيق أحد الذين كانوا يثيرون حرباً شعواء على الإسلام والمسلمين، فألحقوه بكعب.

نص الحديث

١- عن البَراءِ بن عازب قال: «بَعثَ رسولُ الله ﷺ إلى أبي رافع اليهوديِّ رجالاً منَ الأنصار، فأمَّرَ عليهم عبدَاللهِ بنَ عَتِيك، وكان أبو رافع يُؤْذي رسولَ الله ﷺ ويُعينُ عليه، وكان في حصن له بأرض الْحِجاز، فلما دَنَوا منه - وقد غَرَبَت الشمسُ وراحَ الناسُ بسَرحِهم.

فقال عبدُاللهِ لأصحابه: اجلسوا مَكانكم، فإني مُنطلِقٌ ومُتلطِّفٌ للبواب لَعلّي أن أدخلَ. فأقبل حتى دَنا منَ الباب، ثمَّ تقنَّعَ بثوبهِ كأنه يَقضي حاجةً، وقد دَخلَ الناسُ، فهتفَ بهِ البَوابُ: يا عبدَاللهِ إن كنتَ تُريدُ أن تَدخلَ فادخُل، فإني أريدُ أن أُغلِقَ الباب. فدخلتُ فكَمَنتُ، فلما دخلَ الناسُ أغلَقَ البابَ، ثم علقَ الأغاليقَ على وَدّ.

قال: فقمتُ إلى الأقاليدِ فأخذتها ففتحتُ البابَ، وكان أبو رافعٍ يُسمَرُ عندَه، وكان في عَلاليَّ لهُ، فلما ذهبَ عنه أهلُ سَمَرِه صَعِدتُ إليهِ، فجعلتُ كلما فتحت باباً أغلقتُ عليَّ من داخل. قلتُ: إنِ القومُ نَذِروا بي لم يَخلُصُوا إليَّ حتى أقتُلَه. فانتهيْتُ إليه، فإذا هو في بيتٍ مُظلم وَسْطَ عيالِه، لا أدرِي أينَ هوَ منَ البيت، فقلتُ: أبا رافع. قال: مَن هذا؟ فأهوَيتُ نحوَ الصَّوت، فأضرِبُه ضربةً بالسيفِ، وأنا دَهِشٌ فما أغنيتُ شيئاً.

وصاحَ، فخرَجتُ منَ البيت فأمكثُ غيرَ بعيدٍ، ثمَّ دخلتُ إليهِ: فقلتُ: ما هذا الصوتُ يا أبا رافع؟ فقال: لأمِّكَ الوَيلُ، إنَّ رجلاً في البيتِ ضربَني قبلُ بالسيفِ. قال فأضرِبُهُ ضربةً أثخنَتْه ولم أقتُله، ثمَّ وضعت ظُبَةَ السيف في بطنهِ حتى أخذَ في ظهره، فعرَفتُ أني قَتلتُه، فجعلتُ أفتح الأبوابَ باباً باباً، حتى انتهيت إلى درجةٍ له، فوضعتُ رِجلي وأنا أرَى أني قدِ انتهيتُ إلى الأرض فوقعت في ليلةٍ مُقْمِرةٍ، فانكسرَتْ ساقي، فعَصَبْتُها بعمامةٍ ثم انطلَقْتُ حتى جلَستُ على الباب، فقلتُ: لا أخرجُ الليلةَ حتى أعلم أقتَلْته.

فلمّا صاحَ الدِّيكُ قام الناعي عَلَى السُّور فقال: أنعَى أبا رافع تاجرَ أهلِ الحجاز، فانطلَقْتُ إلى أصحابي فقلتُ النَّجاءَ، فقد قَتلَ الله أبا رافع، فانتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ فحدَّثته، فقال لي: (ابسُطْ رِجلَك)، فبَسطْتُ رِجلي فمسحها، فكأنها لم أشتَكِها قطُّ».

٢- عن أبي إسحاقَ قال: سمعتُ البراءَ بنَ عازب ﷺ ، قال: «بَعثَ رسولُ الله ﷺ إلى أبي رافعٍ عبدَاللهِ بن عَتِيكٍ، وعبدَاللهِ بن عُتبةَ في ناس معَهم، فانطلقوا حتى دَنَوا من الحصن، فقال لهم عبدُالله بنُ عتيك: امكُثوا أنتم حتَّى أنطلقَ أنا فأنظُرَ، قال: فتَلَطَّفْتُ أنْ أدخُلَ الحصنَ، ففَقَدوا حِماراً

لهم، قال فخرَجُوا بقبَسٍ يَطلبونه قال: فخَشِيتُ أن أُعرَفَ، قال: فغطَّيت رأسي كأني أقضي حاجة. ثم نادى صاحبُ الباب: مَن أرادَ أن يَدخلَ فلْيَدْخُلْ قبلَ أن أُغلِقَه.

فدَخلتُ ثم اختبَأتُ في مَربطِ حِمارٍ عندَ بابِ الحصن، فتعَشَّوا عندَ أبي رافع، وتحدَّثوا حتى ذهبَتْ ساعةٌ منَ الليل، ثم رَجعوا إلى بيوتِهم.

فلما هَدَأتِ الأصواتُ ولا أسمعُ حركةً خرَجتُ، قال: ورأيتُ صاحبَ البابِ حيث وَضعَ مِفتاحَ الحصن في كَوَّة، فأخذتُه ففتَحتُ به بابَ الحصنِ، قال: قلتُ: إن نذِرَ بي القومُ انطلقتُ على مَهَلٍ، ثم عمَدتُ إلى أبوابِ بيُوتهم فغَلَّقتُها عليهم من ظاهرٍ، ثم صَعدت إلى أبي رافع في سُلَّمٍ، فإذا البيت مُظلم قد طُفِئَ سِراجُه، فلم أدرِ أينَ الرجل.

فقلت: يا أبا رافع. قال: مَنْ هذا؟ قال: فعَمدَتُ نحوَ الصوتِ فأضربُه، وصاحَ، فلم تُغنِ شيئاً. قال: ثم جئتُ كأني أُغيثُه، فقلتُ: ما لكَ يا أبا رافع؟ وغيرتُ صوتي. فقال: ألا أُعجِبُكَ لأُمِّكَ الوَيلُ، دخلَ عليَّ رجلٌ فضرَبني بالسيف. قال: فعَمدتُ له أيضاً فأضربُهُ أخرى، فلم تُغنِ شيئاً، فصاحَ، وقامَ أهلُه. قال: ثم جئتُ وغيَّرتُ صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مُستلقٍ على ظهرِهِ فأضعُ السيفَ في بطنهِ ثمَّ أنكَفِئُ عليه حتى سمعتُ صوتَ العظم، ثم خرجتُ دَهِشاً حتى أتيتُ السُّلَّم أُريد أن أنزلَ فأسقُطُ منه، فانخلعَتْ رِجْلي فعصَبْتُها، ثمَّ أتيتُ أصحابي أحجُلُ».

فقلت: انطلِقوا فبَشِّروا رسولَ الله ﷺ ، فإني لا أبرَحُ حتى أسمعَ الناعية. فلما كان في وجهِ الصُّبح صَعِدَ الناعيةُ فقال: أنعَى أبا رافعٍ. قال: فقمتُ أمشي ما بي قَلَبَةٌ، فأدركتُ أصحابي قبلَ أن يأتوا النبيَّ ﷺ ، فبشرّتهُ».

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في مواضع منه، أتمها الروايتان اللتان أوردهما في كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع عبدالله بن أبي الحقيق. [ورقمهما: ٤٠٣٩، ٤٠٤٠ وانظره أيضاً برقم: ٣٠٢٢].

غريب الحديث

سرحهم : المواشي، لأنها تسرح نهاراً.

فتقنع : غطى وجهه حتى لا يُعرف.

فهتف به : ناداه.

كمنت : اختفيت.

الأقاليد : المفاتيح.

ودّ : الود الوتد في لغة بني تميم.

يسمر : السمر الحديث في الليل.

فأهويت : أهويت إلى الشيء مددت يدي إليه.

نذروا : نذر القوم بفلان، أعلم بعضهم بعضاً به ليطلبوه.

انكفأ : رجع.

ظبة السيف : طرفه.

النجاء : الهرب من وجه العدو.

هدأت الأصوات : سكنت.

كُوة : بضم الكاف، الكوة الثقبة النافذة من الحائط، وهي بالفتح غير النافذة.

أحجل : الحجل نوع من المشي، تتقارب فيه الخطى.

النائحة : النادبة والنائحة.

وما به قَلَبَة : أي: ما به من ألم أو وجع.

برحت : برح به الأمر، أي: أضرّ به ولقي منه شدة.

شرح الحديث

كان كعب بن الأشرف اليهودي الذي قتله محمد بن مسلمة يسكن في المدينة بين ظهراني المسلمين، ولذلك طاله المسلمون، وقضوا عليه بيسر وسهولة.

أما أبو رافع اليهودي الذي كان لا يقل عن كعب في أذاه للمسلمين فكان بعيداً عنهم، يسكن في حصن منيع على أطراف مدينة خيبر، وقد جلب له بُعد دياره عن المسلمين ومناعة الحصن الذي هو فيه شيئاً من الأمن.

ولكن أنـّى تقف المسافات والحصون حائلاً بين الرجال وبين مقاصدهم، لقد تمكّن صحابة الرسول ﷺ من إتباع أبي رافع بكعب بن الأشرف مع بُعد الديار ومناعة الحصون.

لقد اختار الرسول ﷺ لهذه المهمة جمعاً من أصحابه، فيهم عبدالله بن عتيك وعبدالله بن عتبة، وأمّر عليهم عبدالله بن عتيك.

وصل الركب إلى موضع قريب من حصن أبي رافع، وكانت الشمس آذنت بمغيب، فطلب عبدالله بن عتيك من أصحابه أن ينتظروه حيث هم، وانطلق هو باتجاه الحصن لعله يتمكن من دخوله، وتنفيذ المهمة التي كُلّف بالقيام بها.

وأخذ يفكر بطريقة تمكّنه من دخول الحصن من غير أن يثير حوله الشبهات، وكان من توفيق الله ولطفه به، أن أهل الحصن فقدوا حماراً، فخرج طائفة منهم يحملون شعلة نار باحثين عن الحمار، فانتهزها عبدالله فرصة، فغطى رأسه حتى لا يُعرف، وأظهر كأنه يريد قضاء حاجة، فناداه البواب طالباً منه الإسراع بالدخول إن كان يريد الدخول، وإلا أغلق الباب، ظانّاً إياه من أهل الحصن.

دخل عبدالله الحصن، واختبأ في موضع خُصِّص لمبيت حمار، وراقب عبدالله حارس الحصن، وعلم الموضع الذي وضع فيه مفاتيح الحصن، وبقي عبدالله بن عتيك ساكناً في الموضع الذي اختبأ فيه، وكان جماعة من أهل الحصن يتعشون عند أبي رافع، وجلسوا يتسامرون حتى ذهبت ساعة من الليل، ثم خرجوا عائدين إلى منازلهم، وأخذ أبو رافع وأهل داره مضاجعهم، وهدأت حركة الناس داخل الحصن حتى لا تسمع فيه حركة.

عند ذلك تحرك عبدالله فأخذ مفاتيح الحصن، وأول عمل قام به هو فتح باب الحصن حتى إذا عرف أهل الحصن بأمره، وانطلقوا خلفه، وجد الباب مفتوحاً، فلم يحتج إلى وقت لفتح الباب، ثم أخذ مفاتيح دار أبي رافع، وأخذ يغلق أبواب غرفاتها واحدة واحدة على من فيها، حتى إذا أوقع بأبي رافع لم يستطع أهل الدار نجدته، لحبسه إياهم في تلك الغرفات، وكان أبو رافع ينام هو وعياله في غرفة عالية لا يوصل إليها إلا بسلم.

صعد عبدالله إلى العلية، فوجدها مظلمة، ليس فيها بصيص من نور يرشده إلى مكان الرجل، فناداه بكنيته ليعرف مكانه، فلما أجابه اتجه إلى جهة الصوت فضربه، فصاح، ولم تؤثر الضربة فيه.

وأظهر عبدالله أنه قادم من خارج الدار لإغاثته، قائلاً: ما لك يا أبا رافع، وغيَّر من صوته، ولما حدّد مكانه من صوته اتجه إليه ثانياً وضربه بسيفه، فأصابه، ولكن الضربة لم تقضِ عليه، فصاح أبو رافع وأيقظ أهله. واستعمل عبدالله الخطة نفسها ثالثةً، إذ جاء كأنه مغيث مستعلماً عما وقع، وهنا أبصر أبا رافع بوضوح، رآه مستلقياً على ظهره، فوضع السيف في بطنه حتى اخترقه، ووصل إلى عظام ظهره، فأيقن أنه قتله.

وخرج عبدالله دهشاً، ونزل درجات السلم الخشبي، وظنّ أنه قد أتم النزول، ولم يلتفت إلى أنه بقي بعض الدرج فسقط، وانخلعت ساقه، فعصبها، ورجع إلى أصابه يحجل، فأمرهم بأن ينطلقوا إلى رسول الله ﷺ فيبشروه، وأبى أن يغادر مكانه حتى يوقن أن أبا رافع قد قُتل، وفي الصباح سمع صوت الناعي ينعى أبا رافع، فانطلق عبدالله بن عتيك مسرعاً كأن ليس به وجع، فأدرك أصحابه، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ ، فأخبروه، فمسح الرسول ﷺ رجله فبرأت، كأن لم يكن بها كسر.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- يجوز لمن يتولى أمور المسلمين أن يأمر بقتل أمثال كعب وأبي رافع ممن آذى الله ورسوله، وأعان الكفار على المسلمين.
٢- جازَ قتل كعب بن الأشرف وأبي رافع لأنهما أحد رجلين إما أنهما محاربين لله ورسوله، أو معاهدين خانا عهدهما ونقضاه، وفي كلا الحالين يجوز قتلهما.
٣- كان لقتل المسلمين لهذين الرجلين أثر عظيم في فرض هيبة المسلمين، وتأديب من يريد أن يتأسى بهما في إيذاء المسلمين من السادة المطاعين في أقوامهم.

٤- أذِنَ الرسول ﷺ لمحمد بن مسلمة ومن معه أن يكذبوا ليخدعوا العدو وينالوا منه، ففي [صحيح البخاري ٣٠٢٩، ٣٠٣٠، ومسلم: ١٧٣٩] أن رسول الله ﷺ قال: (الحرب خَدْعة). وصرّح الرسول ﷺ بجواز الكذب في الحرب، في قوله: (لا يحل الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس) [سنن الترمذي: ١٩٣٩، وقال فيه: حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، دون قوله ليرضيها].

٥- في كلتا القصتين استعمل الصحابة التخطيط والتدبير والمكر للإيقاع بالعدو والنيل منه بأسهل طريقة وأحكم تدبير.

٦- دلّ الحديث الأول على عناية بعض العرب باستعمال الطيب والمسك والروائح العطرة.

٧- التنافس في فعل الخيرات مشروع مقبول، فعندما قتلت الأوس كعباً، قامت الخزرج بقتل أبي رافع.

٨- فطانة بعض النساء، فزوجة كعب عرفت من صوت من ناداه أنهم يريدون به شراً، وأخبرت بذلك زوجها خبراً لا تشك به.

٩- جواز رهن السلاح بالدَّين، فمحمد بن مسلمة عرض على كعب رهن السلاح في مقابل التمر.

١٠- لابد للمهمات القتالية من أمير أو مسؤول يتولاّها، ويكون الرجوع إليه في تنفيذها، فقد عيّن الرسول لكل واحد من المهمتين أميراً.

١١- إكرام الله رسوله ﷺ بإبرائه رِجْل عبدالله بن عتيك المخلوعة حين مسح عليها بيده.

١٢- التخطيط والتدبير للحصول على المطلوب، كما فعل في كلتا الواقعتين.

القصة السابعة عشرة

زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر

تمهيد

قائلة هذه العبارة التي عنونت بها لهذه القصة إحدى النساء الإحدى عشرة اللواتي اجتمعن، وتعاهدن فيما بينهن على أن يكشفن ما خفي من حديث أزواجهن، فوصفت إحداهن زوجها بليل تهامة في طيب هوائها واعتداله.

نص الحديث

عن عُروةَ عن عائشة: قالت: (جَلَسَ إحدَى عشرةَ امرأةً، فتعاهدنَ وَتَعاقدنَ أن لا يكتُمنَ من أخبار أزواجهنَّ شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحمُ جَمَلٍ غثّ، على رأس جَبَلٍ، لا سهلٍ فيُرتقَى، ولا سَمين فيُنتقَلُ.

قالت الثانية: زوجي لا أبثُّ خبرَه، إني أخاف أن لا أذرَه، إنْ أذكرْهُ أذكُرْ عُجَرَهُ وبُجَرَه.

قالت الثالثة: زوجي العَشَنَّقُ، إنْ أنطِقْ أُطَلَّقْ، وإن أسكُتْ أُعلَّقْ.

قالت الرابعة: زوجي كَلَيلِ تِهامَةَ، لا حَرٌّ ولا قُرٌّ، ولا مَخافَةَ ولا سَآمَةَ.

قالتِ الخامسة: زوجي إذا دَخَلَ فَهِدَ، وإن خَرَجَ أسِدَ، ولا يَسألُ عما عَهد.

قال السادسة: زوجي إنْ أكَل لَفَّ، وإن شرِبَ اشتفَّ، وإن اضطَجَعَ الْتفَّ، ولا يُولجُ الكفَّ ليعلم البثّ.

قالت السَّابعَةَ: زوجي غَيَاياءُ - أو عَيَاياءُ - طَباقاءُ، كلُّ داءٍ لهُ داءٌ، شَجَّكِ أو فلَّكِ أو جَمَعَ كلاًّ لكِ.

قالت الثامِنة: زوجي المسُّ مسُّ أرنبٍ، والرِّيحُ ريحُ زَرنَبٍ.

قالت التاسعةُ: زوْجي رَفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ، قريبُ البيتِ مِن النّادِ.

قالت العاشرةُ: زوجي مالِكٌ وما مالِكٌ، مالِكٌ خيرٌ من ذلك، له إبلٌ كثيراتُ المبارِك، قليلات المسارحِ، وإذا سَمعنَ صَوْتَ المِزْهرِ، أيقنَّ أنهُنَّ هَوَالِكُ.

قالت الحاديةَ عشرةَ: زوجي أبو زَرْع فما أبو زرع، أناسَ من حُليٍّ أذنيَّ، وملأ من شحمٍ عَضُدَيَّ، وبَجَّحَني فَبَجِحَتْ إليَّ نفسي، وَجَدَني في أهل غُنَيْمةٍ بشِقٍّ، فجعَلَني في أهلِ صَهيلٍ وأطِيطٍ، ودائسٍ ومُنَقٍّ، فعنْدَهُ أقول فلا أُقبَّحُ، وأرْقدُ فأتَصبَّحُ، وأشرَبُ فأتقنَّحُ.

أمُّ أبي زرع، فما أم أبي زرع، عُكُومُها رَدَاحٌ، وبيتُها فَسَاح. ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع، مَضجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ، ويُشْبعُهُ ذِراع الجَفرَةِ. بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع، طَوْعُ أبيها، وطَوْعُ أمِّها، ومِلْءُ كِسائها، وغيظُ جارَتها. جارِيةُ أبي زرعٍ، فما جاريةُ أبي زرعٍ، لا تُبثُّ حديثَنا تَبثيثاً ولا تنَقِّثُ مِيرتَنا تنقيثاً، ولا تملأُ بَيْتَنا تَعشيشاً.

قالت: خرَج أبو زرعٍ والأوْطابُ تُمْخَضُ، فَلقيَ امرأةً معها وَلَدانِ لها كالفَهْدَيْنِ يَلعبانِ مِن تحتِ خَصْرِها برُمّانتين، فَطلَّقَني ونكَحَها، فنَكَحْتُ بعدَهُ رجلاً سَرِيّاً رَكِبَ شَرِيّاً، وأخَذَ خَطّياً، وأراح عليَّ نَعَماً ثَرِيّاً، وأعطاني مِن كلِّ رائحةٍ زَوْجاً، وقال: كُلي أمَّ زرع، وميري أهلكِ، قالت: فلو جمعتُ كلَّ شيءٍ أعطانيهِ ما بلغ أصْغَر آنيةِ أبي زرع).

قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ : (كنتُ لكِ كأبي زرع لأمِّ زرع).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب النكاح، باب «حسن المعاشرة مع الأهل» ورقمه: [٥١٨٩]. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة، باب «ذكر حديث أم زرع» ورقمه: [٢٤٤٨][1].

غريب الحديث

تعاهدن وتعاقدن : أي: ألزمن أنفسهن عهداً وعقداً على الصدق.

جمل غث : أي: مهزول.

يرتقى : ارتقى الجبل صعده.

---

(١) وهذا الحديث إما من تحديث عائشة الرسول ﷺ بهذه القصة، فقال لها بعد سماعه منها «كنت لك كأبي زرع لأم زرع» وإما أنه هو الذي حدّثها به، وهذا ما رجّحه ابن حجر في [الفتح: ٣١٨/٩] فإنه قال: «جاء خارج الصحيح مرفوعاً كله، من رواية عباد بن منصور عند النسائي، وساقه بسياق لا يقبل التأويل، ولفظه: «قال لي رسول الله ﷺ : (كنت لك كأبي زرع لأم زرع، قالت عائشة: بأبي وأمي يا رسول الله، ومن كان أبو زرع؟ قال: (اجتمع نساء) وساق الحديث كله».

يتقل	: أي: لفساد ذلك اللحم لا يرغب الناس في نقله وجلبه لمنازلهم.
لا أبث خبره	: أي: أنشره، ولا أظهره وأتحدث به.
إني أخاف أن لا أذره	: أخاف إن شرعت في الحديث عن عيوبه أن يطول بي الحديث عنه.
عجره وبجره	: عيوبه الظاهرة والخفية، وأصل العجر والبجر عُقَد ناتئة، تكون في الجسد في الأعصاب والبطن.
العَشَنَّق	: الطويل طولاً مفرطاً.
ليل تهامة	: ليل تهامة ليل معتدل لا حَرٌّ فيه ولا برد.
لا مخافة ولا سآمه	: لا أخاف شرَّه، ولا يسأم صحبتي.
إن دخل فهد وإن خرج أسد	: شبَّهته في لينه وغفلته بالنمر، وفي هيبته واقتداره بين الناس بالأسد.
إن أكل لف	: هذه الكلمة: (إن أكل لف) كلمة تقولها العرب لمن يأكل الكثير من ألوان الطعام.
وإذا شرب اشتف	: يشرب ما في الإناء ولا يبقي فيه شيئاً.
وإذا اضطجع التف	: إذا رقد تلفف بكسائه.
ولا يولج الكف ليعلم البث	: ينام وحده بعيداً عن زوجته، فلا يضاجعها ولا يقاربها، ولا يتحسسها كما يفعل الأزواج.

غياياء عياياء طابقاء	: الغياياء ثقيل الظل، وعياياء: عاجز عن معاشرة النساء، وطابقاء: أحمق لا يستطيع الإجابة إذا وقع الخصام.
كل داء له داء	: اجتمع فيه ما تفرق من عيوب الناس.
شجك أو فلك أو جمع كلاً لك	: أي: هو ضروب للنساء، سرعان ما يثور فيوقع الضرب، وقد يحدث شجاجاً، أي: جروحاً في الرأس، أو يكسر يداً أو رجلاً، أو يوقع آفة في الجسد، وقد يجمع ذلك كله في المرة الواحدة.
زرنب	: شجر أو نبات طيب الريح.
رفيع العماد طويل النجاد كثير الرماد	: كَنَّتْ بذلك عن رفعة شرفه وقدره، وطول نجاده كناية عن طوله، وكثرة الرماد كناية عن كرمه وجوده.
المبارك	: جمع مبرك، وهي المواضع التي تبيت فيها الإبل.
النادي	: المكان الذي يجتمع فيه القوم للحديث في أمورهم.
والمزهر	: آلة من آلات الطرب.
أناس من حلي أذني	: ألبسني الحلي في أذني، وهي الأقراط التي تتحرك على صفحة الوجه فتُكسبه جمالاً.

وملأ من شحم عضدي	: أي: سمنني بإحسانه وطيب طعامه، وإذا سمن العضد سمن البدن.
غنيمة بشق	: أي: أن أهلها كانوا يقتاتون في معاشهم على قليل من الأغنام، ويقيمون في مغارة أو ما أشبهها.
صهيل وأطيط ودائس ومنق	: أي: أن أهل زوجها أصحاب خيل وجمال وأصحاب زرع يدرسونه وينقّونه.
أقول فلا أقبح	: أي: هي محترمة مقدرة عند زوجها وأهله، تقول القول، فلا يصفه أحد بالقبح.
وأرقد فأتصبح	: أي: لا تقوم في الصباح الباكر، وإنما تنام طويلاً، لأن غيرها يكفيها أعمال المنزل.
وأشرب فأتقنح	: تشرب الماء واللبن ونحوهما شرب المستمتع المتأنق، لا شرب العطش المحتاج.
عكومها رداح	: العكوم ما يوضع فيه أثاث المنزل والمتاع والثياب، وهي الأعدال والأوعية، ورداح: ثقيلة، فإذا كانت الأوعية ثقيلة فهذا يعني كثرة ما عندها من متاع.
وبيتها فساح	: أي: فسيح واسع.

كمسل شَطَبَة	: أي: كالسيف المسلول، والمسل: المسلول من غمده، والشَّطبة: السيف.
ذراع جفرة	: الجفرة الأنثى الصغيرة من أولاد الغنم التي قاربت الأربعة أشهر.
ملء كسائها	: أي: ذات لحم، فهي تملأ كساءَها.
غيظ جارتها	: أي: لجمالها وكمالها تغيظ جارتها لحسدها إياها.
لا تبث حديثنا	: أي: لا تفشِ أسرارنا.
ولا تُنقث ميرتنا تنقيثاً	: لا تفسد قوتنا الذي نعدّه للطعام، ولا تنقله إلى غيرنا.
ولا تملأ بيتنا تعشيشاً	: أي: تنظف البيت وتكنسه، ولا تدعه وسخاً قذراً كعش الطائر.
الأوطاب تمخص	: الأوطاب جمع وطب، وهو الإناء الذي يُمخض فيه اللبن، أي: يحرك سريعاً حتى يُستخرج منه الزبد.
برمّانتين	: أرادت ثدييها مشبِّهة إياهما بالرمّانتين في جمالهما وحسنهما.
سريّا	: السيد الجواد الكريم.
شريا	: الفرس القوي السريع.
أخذ خطيا	: الخطي نوع من الرماح منسوب إلى موضع في البحرين أو عُمان يسمى بالخط.

نعماً ثرياً : أي: جمالاً وأبقاراً وأغناماً كثيرةً.

رائحة : ما يروح ويغدو من العبيد والخيل والجمال ونحوها.

شرح الحديث

اجتمع إحدى عشرة امرأة من نساء الجاهلية في بيت إحداهن، وتعاقدن وتعاهدن فيما بينهن على أن تكشف كل واحدة عن أسرار زوجها التي لا يعرفها أحد كما تعرفها، بحيث لا تكتم من أخباره شيئاً، والنساء يطيب لهن الحديث في مثل هذا الموضوع، والإصغاء فيه إلى الآخرين.

ويبدو أن هؤلاء النسوة كنّ من مجتمعات المدينة الراقية في عصرهن، يحسنَّ الحديث، ويتأنقنَّ فيه، وعندهنَّ من ثقافة عصرهنّ ما يجعلهن مؤهلات بأن تبدي كل واحدة مقصدها، وترسم صورة زوجها على حقيقتها، وليس كل الناس يجيد هذا الفن.

لقد رسمت كل واحدة في حديثها عن زوجها أنموذجاً لنوع من الرجال لا زلنا نراه في كل عصر ومصر، فلو اجتمع جمع من النساء اليوم وتعاهدن فيما بينهن أن يقلن الصدق في أزواجهن، وعرضت عليهن النماذج التي ذكرتها تلك النساء لوجدت في نساء اليوم من تقول: هذا نموذج زوجي، وتقول الأخرى: هذه صفة زوجي، وهكذا.

إن في حديث هؤلاء النسوة المتعاهدات ذكر ما تحبّه النساء في الرجال، وما تبغضه فيهم، وفيه ذكر بعض النماذج الهابطة في الأزواج، وبعض النماذج الراقية التي تحب النساء أن يتصف بها الأزواج.

إن بعض النماذج الراقية التي رسمتها بعض النسوة المتعاقدات تصور المثال الأرقى في تلك المجتمعات، والتي يسعى بعض أفذاذ الرجال لبلوغها، فيسودون في أقوامهم، ويصبحون الأسوة والقدوة لغيرهم.

وفيها ذكر النماذج الهابطة التي همُّ صاحبها أن يأكل ويشرب وينام.

تحدثت الأولى عن زوجها فذمّته، إنه صنف سيئ من الأزواج، ومثله - في نظرها - مثل لحم جمل ضعيف مهزول، هذا اللحم موضوع على قمة جبل يصعب الوصول إليه، لكونها طريق صاعدة وعرة، لا يوصل إليها إلا بصعوبة ومشقة شديدة.

وهذا النوع من الرجال نوع سيئ في نظر الزوجات، فهو صعب في خلقه كالجبل الوعر الذي يصعب الوصول إلى قمّته، ولا يوجد لدى المُرْتقي دافع لتحمّل العناء والتعب في ارتقائه، فالحصيلة ذلك اللحم السيئ من ذلك الجمل المهزول، ولو كان اللحم المطلوب سميناً لبذل الناس جهداً في الوصول إليه.

وذمّت المرأة الثانية زوجها ذمّاً قبيحاً، فهي لا تريد الحديث عنه، ولا تريد بثّ أخباره، فهي تخاف إن بدأت في الحديث عن عيوبه أن لا ينتهي حديثها عنها لكثرتها، وكنَّت بعجره وبجره عن العيوب التي يتصف بها ذلك الزوج، وأصلها عقد تكون في الأعصاب والعروق، وتريد العرب بالعجر والبجر العيوب الظاهرة والخفية.

ووصفت الثالثة زوجها فذمّته بأنه العشنَّق، وهو الطويل طولاً غير معتاد، وذلك عيب في الرجال وهو مع ذلك يسيء معاملتها، ولا يحتمل منها أي تقصير، فإن سمع أنها تحدثت عنه بسوء سارع إلى تطليقها، وإن

سكتت عنه وأخفت أسراره فلا تسلم، فهي عنده في أحسن أحوالها كالمعلقة، والمعلقة هي المرأة التي لا يُطلقها زوجها فتذهب إلى حال سبيلها، وقد تجد زوجاً صالحاً غيره، ولا يعاملها معاملة طيبة، فلا معاملة بإحسان، ولا مفارقة بمعروف، وتلك معاملة جاهلية ذمّها الإسلام، وحدّد الطلاق بثلاث مرات حتى يقضي على هذا النوع من سوء المعاملة.

ومدحت الرابعة زوجها مدحاً بليغاً، فهو كليل تهامة، ولابد للقارئ أو السامع أن يستحضر المعاني التي في ليل تهامة، ليعلم مرادها من تشبيهه بذلك الليل، إن ليل تهامة يُضرب به المثل في الاعتدال وطيب الهواء، وأطيب الليل المعتدل، فليس فيه الحر الذي يضيّق النفس، ويتعب الجسد، وليس فيه البرد المفرط، إن العيش في جو معتدل غاية ما يطمح إليه الإنسان، ولذا كان معيش أهل الجنة كذلك ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٣].

إن هذه المرأة تعيش مع زوجها حياة طيبة، راحة بال، ولذاذة عيش، ولين جانب، وجميل عشرة، لا يملّ صحبتها، ولا يسأم عشرتها.

ومَدْحُ الخامسة لزوجها لا يقل في بلاغته عن مدح الرابعة لزوجها، إنه إن دخل داره كان كالفهد، وإن خرج كان كالأسد، ولا يسأل أهله عما عهد به إليهم، وحتى تفقه عنها قولها تحتاج أن تعرف صفات الفهد، وصفات الأسد.

إنه كالفهد يتخذ من منزله مكاناً للراحة والاستجمام، فالفهد كثير النوم، وهو كالفهد في معاملة زوجته وحُسْن معاشرتها، فالفهد عُرف عنه

الخفة في الحركة، والسرعة في ذلك، وهو كسوب لأولاده وبني جنسه، فهو كالفهد في ذلك كله.

وإذا خرج إلى الناس فهو كالأسد، والأسد ملك الحيوانات، وهو محل توقيرها واحترامها وتقديرها، وزوجها لا يدقق عليها فيما عهد إليها بحفظه ورعايته، فبعض الأزواج يعتنون أزواجهم في ذلك، ويدققون ويحققون في المال الذي يطلبونه أو الذي أعطاهم إياه، وكذلك هو فيما أمرهم بعمله، يحاسب ويعاقب، ولا يترك من ذلك شيئاً، وهذا يعنت الزوجات، ويعكر عليهن مزاجهنّ.

وزوج السادسة «إذا أكل لف، وإذا شرب اشتف، وإن اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البث».

وإذا أنت فقهت عن هذه المرأة قولها رأيت زوجها، يجمع أصناف الطعام، ويحضّرها ثم يقصد إليها، فلا يبقي منها ولا يذر، ثم يعبُّ الماء عبّاً شديداً، فلا يبقي في الإناء شيئاً، ثم يميل إلى ناحية من نواحي منزله، فيلتف بردائه بعيداً عن زوجته، فلا يقربها، ولا يضاجعها، ولا يلاعبها.

إنه يعنى بطعامه وشرابه، ويأخذ منهما أكثر من حاجته، وصلته بزوجته صلة باهتة، فلا رعاية ولا عناية، ولا ملاطفة، ولا حُسْن عشرة.

وصوّرت السابعة زوجها أبشع صورة، وذمّته أعظم ذم، ولم تبلغ امرأة من المتحدثات بزوجها ما بلغته هذه المرأة، فزوجها غياياء أو عياياء طباقاء، إنه عَياياء، أي: مظلم النفس، ثقيل الظلّ، وهو لإظلام نفسه لا يهتدي في أموره إلى صلاحه ورشده، سادر في غيّه. وهو عياياء، أي: عاجز عن إتيان زوجته ومعاشرتها، وهو طَبَاقاء، أي: عيي أحمق، إذا حضره ما يوجب عليه البيان انطبقت شفتاه، فلم يحر جواباً، ولم يحسن خطاباً.

لقد اجتمعت في زوج هذه المرأة كل العيوب والآفات، ولذلك قالت فيه: «كل داء له داء» أي أن كل عيوب الناس اجتمعت فيه، فهو كتلة من العيوب.

أما عن معاملته لها فهي أسوأ معاملة، فهو كما تقول: «شجّك أو فَلَّك، أو جمع كلاً لك» إنه رجل غضوب شرود، لا يحسن محادثة زوجته، ولا يني عن ضربها وإساءة التصرف معها، لا يحتمل المباسطة مع زوجته، فما أسرع أن يرفع عليها العصا، فيشج رأسها، أو يكسر يدها أو رجلها، وقد يفلها بطردها من المنزل وإخراجها منه، أو يجمع كل ذلك لها، قال القاضي عياض فيما نقله عنه ابن حجر: «وصفته بالحمق، والتناهي في سوء العشرة، وجمع النقائص بأن يعجز عن قضاء وطرها مع الأذى، فإذا حدثته سبّها، وإذا مازحته شجّها، وإذا أغضبته كسر عضواً من أعضائها أو شق جلدها، أو أغار على مالها، أو جمع كل ذلك من الضرب والجرح وكسر العضو وموجع الكلام وأخذ المال» [فتح الباري: ٩/ ٣٢٨].

والمرأة الثامنة رسمت لزوجها صورة طيبة، يكثر أمثالها في الرجال، فرائحته رائحة طيبة عطرة، مثل رائحة الشجرة المسماة بزَرْنَب، وهو ناعم الجسد كنعومة جلد الأرنب.

ووصفته أيضاً في غير رواية البخاري ومسلم بقولها: «وأنا أغلبه والناس يغلب» وهذا يعني أن لها دالة عليه، يلبي مطالبها، ويلين لها، لا عن ضعف وقلّة حيلة، فهو إذا خرج إلى الناس غلبهم بالمنطق والحجة والبرهان والمخاصمة.

إن الزوج الذي وصفته نموذج للزوج المحبوب، المرضيّ عنه عند الزوجة، طيب الخلق، ليِّن العريكة، لطيف المعشر، يعنى بنفسه ولباسه، تفوح منه الريح الطيبة، يرضي زوجه، ويحترمه الناس ويقدّرونه.

وزوج التاسعة سيد من سادات قومه، فهو «رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد».

هذه هي صفات السادة عند العرب، فقد «كنَّت عن ارتفاع بيته في الحسب برفعة عماده، وكنّت عن طول قامته بطول نجاده، والنجاد حمائل سيفه، فإنها إذا طالت دلّت على طول قامته، وكنّت عن إكثاره القِرى بكثرة رماده وعظمه، لأن من كثر طعامه كثرت ناره، ومن كثرت ناره كثر رماده» [جامع الأصول: ٦/ ٥١٣].

أما زوج المرأة العاشرة فهو أنموذج للرجل الثري الكريم الجواد، وهي الوحيدة التي صرحت باسم زوجها بين النساء المتحدثات، إنه مالك، ثم عظّمت أمره وشأنه بقولها: «وما مالك» كقوله تعالى في شأن تعظيم الحاقة، وهي القيامة: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:١-٣]. وزادت في تعظيمه بتصريحها بأن زوجها خير من ذلك، أي: خير من زوج المرأة التي تحدثت قبلها، ووصفت زوجها بأنه رفيع العماد، طويل النجاد.

وتحدثت عن جوده بإخبارها أن «له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك». أي: أن له «إبلاً كثيرات البروك بفنائه، معدّة لورود الأضياف، فإن نزل به ضيف لم تكن غائبة عنه، بل قريبة منه، فلذلك قالت: «قليلات المسارح» أي لا يسرحن نهاراً إلا قليلاً، فيبادر إلى ما ينزل به من الضيفان بألبانها ولحومها» [جامع الأصول: ٦/ ٥١٣].

ومن عادة ذلك الزوج أنه كان يقدم لضيفانه قبل الطعام ومعه ما يشنف به آذانهم من الغناء المصحوب بالموسيقا، وكانت الإبل إذا سمعن

صوت آلات الطرب كالمزاهر، والمزهر العود، أيقن بورود الضيفان الذي يقضي بذبحهن وهلاكهن لتقريبهن طعاماً للضيفان.

وجاء دور المرأة الحادية عشرة والأخيرة، وهي أم زرع في حديثها عن زوجها، وقد تحدثت فأطالت التحديث، تحدثت عن زوجها وصفاته النبيلة، ومكانتها عنده، وتحدثت عن والدة زوجها، كما تحدثت عن ابن زوجها وابنته وخادمته، وعن السبب في تطليقه إياها، ونكاحه غيرها، وتحدثت عن زوجها الذي تزوجته بعد الأول، وما عنده من الخير والثراء، وعما وهبه لها من النعم والمال، ومع كل ذلك فإن المديح والثناء للزوج الأول.

إن أم زرع رسمت صورة واضحة المعالم للأسرة المثالية في ذلك الزمان، الزوج والزوجة، وأم الزوج، والابن والبنت والخادمة، ووصفت كل واحد من هؤلاء بالصفات المحببة التي يطمع الآخرون في بلوغها.

بدأت أم زرع حديثها عن زوجها معرِّفة بكنيته: «زوجي أبو زرع» ثم تسأل فتقول تعظيماً له وتمجيداً «وما أبو زرع»؟

ثم تذكر ما حباها به من تكريم، وما قدَّم لها من خير، وكيف ارتفعت بزواجها منه من بيت فقير وقبيلة فقيرة ضعيفة الحال إلى أهل عز وجاه ومال وثراء.

لقد صبّ عليها المال صبّاً، فقدّم لها الحلي الذي تطلبه النساء للتزيّن به، ومن ذلك أنه أناس أذنيها بأقراط الذهب واللؤلؤ، فكانت تلك الأقراط الثمينة الغالية تنساب متأرجحة ذات اليمين وذات الشمال من أذنيها، فتزيد جمالها جمالاً وحُسْناً، وقدّم لها من أطايب الطعام ما ملأ عضديها شحماً، وامتلاء العضدين يعطي المرأة جمالاً وصحة، وأعطاها منه

احتراماً وتقديراً وتبجيلاً، فظهر هذا في تصرفاتها وحركاتها، فأخذت تتصرف بشيء من الاختيال والتبختر.

وكان قد تزوجها من قبيلة فقيرة ضعيفة قليلة العدد، يعيشون على ألبان أغنام قليلة، فنقلها إلى قبيلة عزيزة كريمة، أهل خيل وإبل ومال كثير، وهم أهل حرث وزراعة.

وأصبحت عند زوجها سيدة مترفة منعمة، تقول القول فلا يملك أحد أن يقبح قولها، ويسخر منه، ويطلع النهار فلا يوقظها أحد من نومها، فالخدم يكفونها مؤونة العمل في المنزل، وتتناول فطورها بعد أن تشبع نوماً، وتشرب الماء أو اللبن أو غيرهما من الشراب، فتتقنح، والتقنح طريقة في الشرب يتعاطاه من كان في مثل دلعها وترفها ومكانتها، وهي بذلك تجسّد ما هي عليه من الترفع والتعالي والعجب والنعمة. هذه أم أبي زرع في بيت أبي زرع.

وتتحدث أم زرع عن أم زوجها، فتعظّم أمرها «أم أبي زرع فما أم أبي زرع، عكومها رداح، وبيتها فساح» إنها امرأة ثرية، والعكوم الأعدال والأحمال التي تجمع فيها الأمتعة، والرداح الثقيلة، وإذا كانت الصناديق التي تنقل فيها الأمتعة كثيرة ثقيلة فإن هذ يعني أن لديها من الحلي والثياب والفرش الشيء الكثير، كما أن بيتها بيت واسع كبير فسيح، وذلك مما يفخر به الناس، ويمدحون به.

وتتحدث أم زرع عن ابن أبي زرع الشاب الأنموذج لشباب ذلك اليوم، إنه شاب نحيف طويل، وسيم، جميل المنظر، كامل الخلقة، يدلك على ذلك أنها شبّهته بالسيف المسلول، وقد جرت العرب على تشبيه الرجل الجميل القوي المهاب الحسن المنظر بالسيف.

ومرادها بقولها: «ويشبعه ذارع الجفرة» أنه ليس بنهم أكول، فطعامه قليل، فيكفيه في طعامه ذراع الشاة الصغيرة، والجفرة هي الصغيرة من الغنم التي بلغت من العمر أربعة أشهر. وبنت أبي زرع فتاة مثالية أيضاً، فهي فتاة مطيعة لأبيها وأمها، وملْءُ كسائها، أي: أنها مكتنزة لحماً، حتى تملأ ثوبها، وهي جميلة حسنة المنظر، إذا رأتها من تحسدها من جاراتها أو ضراتها امتلأت قلوبهن غيظاً، بسبب ما يرين فيها من حُسْن وجمال وأدب وحُسْن خُلُق. وجارية أبي زرع جارية مثالية أيضاً، فهي تحتفظ بما تسمعه من أسرار المنزل، ولا تذيعه، وتبثه هنا وهناك، فيعلمه القاصي والداني، وكثير من الناس يغيظه أن يكشف الناس سرّه، وينشر في المشارق والمغارب خبره، وكثير من الأسرار يعرف طريقه إلى الآخرين عن طريق الخدم.

وهناك صفتان أخريان تجعل من خادم أبي زرع خادماً مثالياً:

أولهما: درايتها وخبرتها بحفظ طعامه، وهو الميرة التي يمتارونها من ديار بعيدة لحاجتهم وطعامهم، فهي ترعاها من الفساد، وتحفظها من العاديات، ولا تبذلها للآخرين من غير أمر أو إذن.

وثانيهما: أنها تبذل جهدها في تنظيف المنزل وقمه وكنسه، ولا تتركه كعش الطائر قذراً وسخاً لعدم قيامها عليه.

إن وصف أم زرع لحالها في بيت أبي زرع وحال من فيه على هذا النحو يدل على أنها كانت تحيا حياة أسرية هانئة ناعمة، ولذلك كان مصابها جللاً عندما فاجأها زوجها بطلاقه إياها.

خرج أبو زرع يوماً من أيام الربيع في الوقت الذي كانت الأوطاب تمخض، والأوطاب جمع وَطَب، وهو الإناء الذي يخضّ فيه اللبن كالقربة مثلاً، ثمّ يمخض أي يحرك بقوة وسرعة لاستخراج الزبد منه.

خرج أبو زرع في ذلك اليوم الرائق الجميل، فلقي امرأة حسناء شابة، ومعها ولدان لها كأنهما فهدان، أي: في قوتهما وصحّتهما وسرعة حركتهما، وكانا عند خصرها يعبثان بنهديها، وقد شبهت نهديها اللذين يعبث بهما ولديها بالرمّانتين في جمالهما وحسنهما، وقد أعجب أبو زرع بها وبولديها، فتزوّج بها، وطلّق أم زرع.

لم تتوقف حياة أم زرع، ولم تحبس نفسها في زاوية من زوايا المنزل الذي تسكنه حزناً على الحبيب المفارق، والزوج المطلّق، فقد تزوجت بعد أبي زرع زوجاً آخر، فمثلها طالبوها والراغبون في الاقتران بها كثير.

لقد تزوجت بعده رجلاً مقبولاً عند كثير من النساء، لقد وصفته وصفاً نكاد نستطيع أن نرسم له صورة واضحة المعالم، إنه سيد شريف، صاحب مال، وله خيل وإبل وغنم، يمتطي صهوة فرس شري، وهو الفرس القوي ذو الصفات الفائقة في سرعة عدوه، وحمل وهو على ظهر فرسه خطِيّاً، أي: رمحاً خَطياً، سمي بالخطي، لأن هذا النوع من الرماح يأتي من قِبَل ناحية تسمى بـ (الخط) في البحرين أو عُمان.

وأكرم هذا الزوج أم زرع أيما إكرام، فقد أراح عليها النعم الكثيرة من الإبل والبقر والغنم، وأعطاها من كل ما يروح ويغدو كالعبيد والإماء والخيل والإبل والبقر والغنم والحمير ونحوه زوجين، وقال لها: كلي يا أم زرع وميري أهلك، وهذا غاية اللطف والإكرام، ومع كل ذلك فإنها حين تقارن بينه وبين أبي زرع تجد أن كل ما أعطاها ووهبها على كثرته لا يساوي أصغر آنية أبي زرع.

لقد تعلق قلبها بأبي زرع، فهي لا تزال تحنّ إليه، فمهما جاءَها من خير بعده، فإنه لا يساوي شيئاً مما كان عند أبي زرع.

حدّث الرسول ﷺ عائشة بهذه القصة أو حدّثته بها، ثم قال لها: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع».

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- ورد في بعض روايات الحديث أن الرسول ﷺ قصّ هذه القصة تأديباً وتعليماً لعائشة عندما افتخرت بمال أبيها، أو عندما لاسنت فاطمة بنت الرسول ﷺ ، حدّثها به حتى تعلم أن حُسْن العشرة من الزوج أحسن ما تناله المرأة [فتح الباري: ٩/ ٣٢٠].

٢- آنس الرسول ﷺ زوجه عائشة ومن معها من النسوة بذكر هذه القصة مما يدل على مشروعية ذلك وأمثاله.

٣- أخبر الرسول ﷺ عائشة بعد تمام القصة مباسطاً وممازحاً أنه لها كأبي زرع لأم زرع، وهذا يدل على مشروعية إخبار الرجل زوجته عما يكنّه لها من مودة.

٤- توجيه الناس إلى عدم الفخر بالمال، بل بالدين والصلاح، وردع الرجل أهل بيته عن الانحراف في هذا المسار.

٥- جواز تحديث العالِم عن قصص الماضين، وضرب العبر والأمثال، للاعتبار بأحاديثهم، واستخلاص العبر والفوائد منها.

٦- ما قالته النسوة مما يخالف الأحكام الشرعية لا يجوز الأخذ به، فالنساء المتحدثات كنّ من أهل الجاهلية، ولا حاجة للاعتذار عنهن في مخالفتهن لبعض الأحكام، لعدم انضباطهن بأحكام الشرع. ومن المخالفات فضحهنّ للخافي من أمور أزواجهن، وذكر مثالبهم، وافتخار بعضهن بالثراء وكثرة المال.

٧- اهتمام النساء بسماع أخبار الأزواج، وكيف يكون تعاملهم فيما بينهم.

٨- استحباب التزوج بالبكر التي لم يسبق لها الزواج، فالثيب قد تبقى متعلقة بالزوج الأول، كما حدثت أم زرع عن تعلّقها بأبي زرع، وأن كل ما أعطاها الزوج الثاني على كثرته لا يساوي أصغر آنية أبي زرع.

٩- كانت كثير من النساء العربيات في غاية الفصاحة والبلاغة، فإنهن انتقين الألفاظ انتقاءً، وصغنها صياغة واضحة المعالم، وأظهرن مقاصدهن بأوجز عبارة، وبيّنّ مرادهن أحسن بيان، وفي كلامهن الكثير «من فنون التشبيه والاستعارة والكناية والإشارة والموازنة والترصيع والمناسبة والتوسع والمبالغة والتشجيع والتوليد وضرب المثل، وأنواع المجانسة، وإلزام ما لم يلزم، والإيغال والمقابلة والمطابقة والاحتراس وحُسْن الترديد وغرابة التقسيم، وغير ذلك أشياء ظاهرة لمن تأملها» [فتح الباري: ٩/ ٣٤٤].

١٠- ذكر بعض المقاييس والموازين والقيم الإنسانية في عصر تلك النسوة، فالرجل صاحب المكانة في قومه هو الفارس الطويل، صاحب المنزل المرتفع، الذي يرد عليه الضيوف ويحلّون بساحه، الذي يرد نادي قومه، ويجلس في مقدمهم «زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد». والفتى المثالي هو الشاب الطويل النحيف، القليل الطعام «ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع، مضجعه كمسلٍّ شَطْبة، ويشبعه ذِراع الجفرة» والفتاة المثالية هي الفتاة الممتلئة شحماً، ذات الحُسْن والجمال، المطيعة لأبيها وأمها، «بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع، طوع أبيها وأمها، وملء كسائها، وغيظ جارتها».

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



القصة الثامنة عشرة
حملك النوى على رأسك أشد من ركوبك معه

تمهيد

عنوان هذه القصة كلمة قالها الزبير بن العوام لزوجته أسماء، ينكر عليها حملها النوى على رأسها من مكان بعيد ليكون علفاً للجمل الذي ملكه، وهي في ذلك تقصّ علينا خبرها في منزل زوجها، وما كانت تقوم به من أعمال.

نص الحديث

١- عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «تَزَوَّجَني الزُّبَير وما له في الأرض من مالٍ ولا مَمْلوكٍ ولا شيءٍ غيرِ ناضحٍ وغيرِ فَرَسِه، فكنتُ أعلِفُ فرسَهُ، وأستقي الماءَ، وأخرزُ غَربَهُ وأعجِن، ولم أكن أُحسِنُ أخبزُ، وكان يخبزُ جاراتٌ لي من الأنصار، وكن نسوةَ صِدق، وكنتُ أنقل النَّوَى من أرض الزُّبير - التي أقطَعَهُ رسولُ الله ﷺ - على رأسي وهي مني على ثُلثَي فَرسَخ، فجئتُ يوماً والنَّوَى على رأسي، فلقيتُ رسولَ الله ﷺ ومعهُ نَفَرٌ من الأنصار، فدَعاني، ثم قال: إخْ إخ، ليحمِلَني خَلفَه، فاستحيَيتُ أن أسيرَ معَ الرِّجال، وذكرتُ الزُّبيرَ وغيرَتَه، وكان أغيَرَ الناس، فَعَرَفَ رسولُ الله ﷺ أني قد استحييتُ، فمضى، فجئتُ الزُّبيرَ فقلتُ: لَقيَني رسولُ الله ﷺ وعلى رأسي النَّوَى ومعهُ نفرٌ من أصحابه، فأناخَ لأركبَ،

فاستَحييتُ منه وعرَفتُ غيرتَك، فقال: واللهِ لَحملُكِ النَّوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معَه». قالت: حتى أرسلَ إليَّ أبو بكرٍ بعدَ ذلك بخادمٍ تكفيني سياسةَ الفَرَس، فكأنما أعتَقَني».

٢- قالت أسماءَ: «كُنْتُ أخدُمُ الزُّبَيْرَ خِدْمَةَ البيتِ، وكان له فَرَسٌ، وكنتُ أسُوسُهُ، فلم يكن مِنَ الخِدمةِ شيءٌ أشدَّ عليَّ من سياسةِ الفرسِ، كنت أحتشُّ له، وأقومُ عليه، وأسوسُهُ. قال: ثمَّ إنها أصابت خادماً، جاء النبيَّ ﷺ سَبْيٌ فأعطاها خادماً. قالت: كَفَتْني سياسةَ الفرس. فألقت عني مؤنته.

فجاءني رجلٌ فقال: يا أُمَّ عبدالله! إني رجلٌ فقير، أردتُ أن أبيع في ظلِّ دارِكِ، قالت: إني إن رخَّصْتُ لك أبى ذاك الزبير. فتعالَ فاطلُبْ إليَّ، والزبير شاهِدٌ. فجاءَ، فقال: يا أمَّ عبدالله، إني رجلٌ فقيرٌ أردتُ أن أبيع في ظلِّ دارِكِ، فقالت: ما لَكَ بالمدينةِ إلا داري؟ فقالَ لها الزبير: ما لَكِ أنْ تمْنَعي رجلاً فقيراً يبيعُ؟ فكان يبيع إلى أن كَسَبَ، فبعْتُهُ الجاريةَ، فدخل عليَّ الزبير وثمنُها في حجري، فقال: هبيها لي. قالت: إني قد تَصَدَّقْتُ بها».

تخريج الحديث

رواه البخاري في كتاب النكاح، باب الغيرة، [٥٢٢٤] ورواه مسلم في صحيحه في كتاب السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، [٢١٨٢].

والرواية الثانية هي لمسلم، أوردها في الباب السابق، بالرقم السابق.

غريب الحديث

الناضح : الجمل الذي يستقى عليه الماء.

وأخْرِزْ غَرْبه	: الغَرْب: الدلو الكبير، وخَرْزُه: خياطته ابتداءً بصنعه، أو عند انفراط خيوطه.
كن نسوة صدق	: أضافتهن إلى الصدق، مبالغة في تلبسهن به في حُسْن العشرة والوفاء بالعهد.
إخْ إخْ	: كلمة تقال للبعير لمن أراد أن ينيخه.
أقطعه	: أعطاه قطعة من الأرض.
أرسل إليّ بخادم	: أي جارية تخدمني، يقال للذكر والأنثى بلفظ واحد.

شرح الحديث

المحدِّثة بهذه القصة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها، من بيت عريق في الحسب والنسب، فأبوها أبو بكر أفضل رجل في الأمة الإسلامية بعد الرسول ﷺ ، وكان في قريش وجيهاً وتاجراً، وأختها عائشة زوجة رسول الله ﷺ ، زوَّجها والدها في مكة من الزبير بن العوام، وكان فقير الحال، ليس له من الدنيا غير فرس يركبه، وجمل يستقي عليه، ولم يكن عندها ما يكفيها مؤونة العمل في المنزل، فكانت تقوم بذلك بنفسها، فكانت تكنس داره، وتعجن.

ولم تكن تحسن الخبز، فكانت تستعين بجارات أنصاريات لها صالحات يخبزن لها، وكانت تخرز الدلو الذي يستقون به الماء من البئر إذا انفرطت خيوطه، وأشق ما كانت تواجهه سياسة فرس الزبير، فكانت تعلف ذلك الفرس، وتحشّ له العشب لأكله، وتقم الأرض حوله، وتكفيه مؤونته، وكانت تدق النوى لجمله، وكانت تذهب بجمله فتحمل عليه الماء الذي يحتاجونه في منزلهم للشرب والطبخ والاغتسال ونحو ذلك. ولما أقطع

الرسول ﷺ الزبير أرضاً، كانت تذهب إلى تلك الأرض، وهي على مسافة ثلثا فرسخ، فتجلب من هناك النوى تحمله على رأسها، وتذكر أسماء أنها جاءت يوماً من أرض الزبير وهي تحمل النوى على رأسها، فلقيت الرسول ﷺ عائداً إلى المدينة مع نفر من صحابته من الأنصار، فرأى ما أصابها من العناء فيما تحمله، فأراد الرسول ﷺ أن يخفف عنها بحملها وحِمْلها خلفه على بعيره، فأناخ بعيره ولكن حياءَها منعها من تلبية عرض الرسول الذي عرضه عليها، بالإضافة إلى خشيتها من غيرة زوجها الزبير، فقد كان فيه غيرة شديدة.

فلما أخبرت الزبير بما كان منها، قال لها: «والله لحملك النوى كان أشدّ عليّ من ركوبك معه». ثم خفف الرسول ﷺ عنها بعض معاناتها، فأرسل إلى أبي بكر بخادم، فأرسله أبو بكر إليها، فقالت: «فكأنما أعتقني» كأنما خدمة الفرس لشدتها وملازمتها لها كان بمثابة الرق، فلما تخلصت من ذلك فكأنما أعتُقت، لأن هذه الخادمة قامت عنها بكل ما يحتاج إليه الفرس من خدمة.

وتذكر أسماء قصة طريفة تدل على حُسْن تلطّفها في الحصول على ما تريده من الزبير من غير أن تستثير غيرته، فقد جاء رجل فقير يطلب منها أن تأذن له أن يبيع ويشتري في ظل دارها، ويبدو أن موقع دارها كان موقعاً صالحاً لمثل هذا، فهويت ما عرض عليها الرجل، وخشيت إن أذنت له أن يرفض الزبير، وكانت تعلم طبيعته وغيرته، فطلبت من الرجل أن يعود ليطلب ذلك منها في وجود الزبير بعد عودته.

فلما رجع الرجل مكرراً طلبه بحضور الزبير قالت له: ما لك بالمدينة إلا داري؟

فلما سمع الزبير جوابها الذي يوحي برفضها، تنبّه فيه الجانب الخير، فقال لها: ما لك أن تمنعي رجلاً فقيراً يبيع؟ وكان هذا الذي تريده، وقد حصلت عليه.

وكان من أمر الرجل أنه باع واكتسب، حتى كان من أمرها أنها باعته جاريتها، فدخل عليها الزبير وثمن الجارية في حجرها، فطلب منها أن تهبه ذلك المال، فأخبرته أنها تصدقت به.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- مشروعية تزويج الفقير، كما فعل أبو بكر في تزويج ابنته أسماء بالزبير مع فقره، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور:٣٢].

٢- كانت بنات البيوتات الثرية الراقية يعملن في بيوت أزواجهن، وقد يكون العمل مضنياً، كما هو الحال فيما تقوم به أسماء من القيام بكل أعمال المنزل، وسياسة الفرس، والقيام على جملهم وعلفه، وسقي الماء، وجلب النوى والعشب من مكان بعيد.

٣- وهذا الذي ثبت في أكثر من حديث يرد على من زعم من أهل العلم أن المرأة لا يجب عليها في منزل زوجها شيء من أعمال المنزل.

٤- من خصوصيات الرسول ﷺ جواز إرداف المرأة الأجنبية خلفه على الدابة، أما غيره فلا يجوز له ذلك، ولكن لا حرج على من نزل عن

دابته فأركب امرأة أجنبية عنه إن أمنت الفتنة، وانتفت الشبهة، وبهذه الشروط يمكن للرجل إركاب المرأة الأجنبية سيارته لحاجتها إلى ذلك.

٥- حياء أسماء في الركوب مع الرسول ﷺ صحبة الرجال، والحياء خلق كريم كله خير.

٦- حرص المرأة الصالحة على اجتناب كل ما من شأنه أن يعكّر الحياة الزوجية، ويوقع الخلاف والنزاع بينها وبين زوجها، فقد كان مما منع أسماء من الركوب خلف الرسول ﷺ صحبة الرجال بالإضافة إلى الحياء أن الزبير كان فيه غيرة، ولا يرضى منها مثل ذلك.

٧- القدرات التي كانت تتمتع بها أسماء، فليس كل النساء لهن مثل هذه القدرات، ومع ما كانت تقدر عليه وتحسنه، فكانت لا تحسن ما يحسن كثير من النساء غيرها من الخبز، فلا يجوز أن يفترض الرجل في زوجته أن تحسن كل شيء.

٨- الاعتراف بالفضل لأهله، فقد أثنت أسماء على جاراتها الأنصاريات اللواتي كنّ يخبزن لها بأنهن كن نساء صدق.

٩- لا يجوز لأحد أن يقيم بجانب دارك أو أمامها مصلحة بغير إذنك، فقد يسبب لك الإزعاج والأذى، ولذلك استأذن ذلك الرجل أسماء في المتاجرة في ظل دارها.

١٠-أعان أبو بكر ابنته بإهدائها خادمة، تخفف عنها بعض الأعباء التي أرهقتها، وهذا يدل على استحباب هذا الفعل إذا وجد سعة من المال.

١١-باعت أسماء بعد زمن الخادمة التي أرسل بها أبوها، وهذا يدل على مشروعية بيع الهدية أو إهدائها، فالمهدى إليه مَلَكَ الهدية، ومن حقه التصرف بها، خلافاً للشائع عند العوام أن الهدية لا تُهدى، ولا تُباع.

١٢-يجوز للرجل أن يطلب من زوجته أن تهبه ما لا تملكه، كما طلب الزبير من زوجته أسماء أن تهب له ثمن الجارية التي باعتها، ويجوز للزوجة أن ترفض طلبه، فقد اعتذرت أسماء أنها تريد الصدقة بها.

١٣-كان يوجد عند الصحابة المقاييس التي يعرفون بها المسافات، ومن ذلك الفرسخ المذكور في الحديث، والفرسخ كما يقول النووي ثلاثة أميال، والميل ستة آلاف ذراع، والذراع أربع وعشرون إصبعاً معترضة معتدلة، والإصبع ست شعيرات معترضات معتدلات [شرح النووي على مسلم: ١٣-١٥/ ٣٣٨].

١٤-معرفة كيفية رفع التعارض الذي يظن وجوده في الأحاديث، ففي بعض الروايات أن المرسل بالخادم لأسماء الرسول ﷺ ، وفي أخرى هو أبو بكر، ووجه الجمع أن الرسول ﷺ أرسل بالخادم لأبي بكر، وأبو بكر أرسل بها إلى أسماء.

١٥-اتباع الحكمة في الحصول على المطلوب، كما فعلت أسماء في احتيالها على السماح للرجل أن يبيع في ظل دارها، فلو رضيت بذلك عندما استأذنها لرفض الزبير ذلك، ولكنها احتالت لموافقته بما ذكرته في القصة.

* * *

القصة التاسعة عشرة
والله لا يعطيكم وأعطانيها

تمهيد

هذه العبارة التي عنونت بها لهذه القصة من كلام أم أيمن أم أسامة ابن زيد، تقولها بحضرة الرسول ﷺ لأنس بن مالك، عندما أراد أن يرد الرسول ﷺ على والدة أنس ما منحته للرسول ﷺ من نخل طيلة حاجته إليه، فمنحه بدوره إلى أم أيمن.

نص الحديث

عن أنس ﷺ قال: «كان الرجلُ يجعل للنبيِّ ﷺ النخلات حتى افتتحَ قُرَيظةَ والنَّضير. وإنَّ أهلي أمروني أن آتيَ النبيَّ ﷺ فأسأله الذي كانوا أعطَوْه أو بعضَه، وكان النبيُّ ﷺ قد أعطاهُ أمَّ أيمنَ، فجاءت أمُّ أيمنَ فجعَلتِ الثوبَ في عُنقي تقول: كلاّ والذي لا إله إلا هو، لا يُعطيكم وقد أعطانيها - أو كما قالت - والنبيُّ ﷺ يقول: لكِ كذا، وتقول: كلا والله، حتى أعطاها - حسِبتُ أنه قال - عشرةَ أمثاله. أو كما قال».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ورقمه: (٤١٢٠).

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم، ورقمه: (١٧٧١).

شرح الحديث

قَدِمَ أكثر المهاجرين المدينة من مكة، وقد تركوا أموالهم من خلفهم، فعرض عليهم الأنصار أن يقاسموهم أرضهم وبساتينهم، فأبى الرسول ﷺ ذلك، وتم الاتفاق على أن يحصل المهاجرون على نصف ثمار تلك البساتين، مقابل أن يقوموا عليها، فيكفون الأنصار العمل مقابل ما يحصلون عليه من الثمرة.

وبعض الأنصار أعطوا بعض إخوانهم ما يملكونه من نخل منيحة، والمنيحة أن تهب أخاك أو من توده منافعَ الدار أو البستان من غير أن يمتلكه، وكانت أم سليم أعطت رسول الله ﷺ عذاقاً، أي بعض نخلات، فأعطاها الرسول ﷺ أمَّ أيمن، والدة أسامة بن زيد [راجع: البخاري: ٢٦٣٠، ومسلم: ١٧٧١]. وأم أيمن صحابية لها صلة خاصة بالرسول ﷺ، فقد كانت وصيفة لأبيه عبدالله، وكانت من الحبشة، فلما مات أبوه عبدالله، وولدته أمُّه آمنة احتضنته أم أيمن ورعته حتى كبر، فعرف لها رسول الله ﷺ فضلها، فحررها من رقّ العبودية بإعتاقه إياها، وزوّجها من رجل هو من أحب الناس إليه، وهو زيد بن حارثة، فجاءته بابن سمّته أيمن، وقد استُشهد في بعض الغزوات، ثم رزقت منه بأسامة حِبِّ رسول الله ﷺ.

وقد كانت تُدِلُّ على رسول الله ﷺ بما لها من مكانة عنده، وكان يحتمل منها ما قد لا يحتمله من غيرها، ومن ذلك أنه آثَـرَها بثمار النخلات التي وهبتها له أم سليم عند مقدمه المدينة، فلما وسَّع الله على رسوله ﷺ وعلى

فقراء المهاجرين بما أفاء عليه من نخل قريظة والنضير، ثم بما ناله وأصحابه بعد فتح خيبر رد هو والمهاجرون إلى الأنصار منائحهم من النخل، وكان مما ردّه ما منحته إياه أم سليم، وكانت أم سليم أرسلت ابنها أنساً تطلب منه إعادة تلك النخلات أو إعادة بعضها.

فلما علمت أم أيمن بردّ رسول الله ﷺ تلك النخلات على أم سليم، جاءت غاضبة ثائرة، فأخذت ثوباً طوقت به عنق أنس، وهي تقسم وتقول: «كلا والله الذي لا إله إلا هو، لا يعطيكم وقد أعطانيها».

لقد ظنت أم أيمن أن الرسول ﷺ قد مَلَّكَ تلك النخلات، وأنه حين أعطاها إياها قد وهبها إياها هبة مُلْك.

لم يغلظ لها رسول الله ﷺ القول، ولم يرفع يده ويلطمها، ولم يؤدبها كما يؤدب السيد عبده، بل لم يقل لها: أنا رسول الله ﷺ ، وعليك طاعتي وإلا أهلكك الله، كل ما قاله لها وهي ملببة أنساً بردائها تخنقه به، وتطوح به هنا وهناك: «لك كذا وكذا» فتجيبه قائلة: «كلا، والذي لا إله إلا هو» فزادها من نصيبه الذي خلص إليه من الفيء، وما زال يزيدها حتى ضاعفها لها عشرة أضعاف أو قريباً من ذلك، فرضيت، وتخلص أنس من قبضتها، ونجا من بأسها.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- تفيد هذه القصة كيف كان هدي الرسول ﷺ في معالجة المشكلات التي تواجهه.

٢- الصحابة والصحابيات بشر، يثورون كما يثور الناس، فقد غضبت أم أيمن وثارت، وحلفت أن لا ترد تلك النخلات المهداة، وحلفت على

ذلك حلفاً مغلظاً، ولم تنقد سريعاً لما أمرها به رسول الله ﷺ ، وزادت على ذلك ما فعلته بأنس.

٣- فضل الأنصار في مواساتهم إخوانهم المهاجرين بمالهم وبساتينهم مقدمهم المدينة المنورة.

٤- دلَّ الرسول ﷺ الأنصار على طريقة يحتفظون فيها بنخلهم وبساتينهم، ويواسون بها إخوانهم من المهاجرين، فقد كانوا يمنحون إخوانهم منافع تلك الأشجار من الثمار وما يتبعها، ويحتفظون بأصولها.

وقد جاءت الأحاديث دالة على فضل هذا النوع من العمل، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (نعم المنيحة اللِّقحة الصفي منحة، والشاة الصفيُّ، تغدو بإناء وتروح بإناء) [البخاري: ٢٦٢٩].

واللقحة: الناقة الوالد ذات الدر، يختارها الرجل من أحسن نوقه، والشاة الصفي، التي يصطفيها من أجود شياهه، يُحلَب منها حليب كثير في الصباح والمساء.

وعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : (أربعون خصلة، أعلاهن منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها، وتصديق موعودها، إلا أدخله الله بها الجنة) [البخاري: ٢٦٣١].

لم يذكر الرسول ﷺ هذه الخصال، وتتبعها بعض أهل العلم فذكروا طائفة منها [انظر: فتح الباري: ٥/ ٣٠٢] والمذكور في الحديث أن المنيحة واحدة من تلك الخصال، وأنها أعلاها، وهي منيحة العنز، وبيان ما فيها من الأجر والثواب.

٥- الاعتراف لأصحاب الفضل بفضلهم السابق، وردّ الجميل بالتي هي أحسن، كما عرف الرسول ﷺ لأم أيمن فضلها.

٦- الصورة الرائعة التي حققها المهاجرون والأنصار فيما بينهم، فقد جاء المهاجرون إلى المدينة مخلفين وراءهم أرضهم وديارهم وأموالهم، لا يملكون من الدنيا شيئاً كما وصفهم ربهم ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [الحشر:٨] فقابلهم إخوانهم الأنصار أحسن استقبال، وأحبّوهم من قلوبهم، وآثروهم على أنفسهم، وعندما خصّ الرسول ﷺ الفقراء بما أفاءه الله عليهم من بني قريظة والنضير، وزع الغالبية العظمى منه على المهاجرين، فلم يجد الأنصار في أنفسهم شيئاً على ما خصهم به، ومدحهم ربهم بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

٧- يجوز للمسلم أن يرجع عما حلف عليه، كما تراجعت أم أيمن عن حلفها، وقد شرع في مثل هذه الحال الكفارة في حق الحالف.

* * *



تمهيد

عنوان القصة كلمة قالتها أسماء بنت أبي بكر للحجاج الطاغية، وقد جاءها غاضباً غبّ قتله لابنها عبدالله، يريد تعنيفها وإذلالها، فقالت له في هذا الحديث كلاماً ألجمه وأفحمه.

نص الحديث

عَنْ أبي نوفَلٍ، قال: رأيْتُ عبدَاللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى عقَبَةِ الْمَدِينَةِ، قَالَ فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تَمُرُّ عَلَيْهِ وَالنَّاسُ، حَتَّى مَرَّ عَلَيْهِ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ، السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ، السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ، أمَا وَاللهِ! لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذا. أمَا وَاللهِ! لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذا. أمَا وَاللهِ! لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذا. أمَا وَاللهِ! إنْ كُنْتَ، مَا عَلِمْتُ، صَوّاماً. قوّاماً. وَصُولاً لِلرَّحِمِ. أمَا وَاللهِ! لأُمَّةٌ أنتَ أشَرُّهَا لأُمَّةُ خَيْرٍ.

ثُمَّ نَفَذَ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ، فَبَلَغَ الْحَجَّاجَ مَوْقِفُ عَبْدِاللهِ وَقَوْلُهُ، فَأَرْسلَ إِلَيْهِ، فَأُنْزِلَ عَنْ جِذْعِهِ، فَأُلْقِيَ في قُبُورِ الْيَهُودِ، ثُمَّ أرْسَلَ إلَى أُمِّهِ أسْمَاءَ بِنْتِ أبِي بَكْرٍ، فَأَبَتْ أنْ تَأْتِيَهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهَا الرَّسُولَ: لَتَأْتِيَنِّي أوْ لأَبْعَثَنَّ إلَيْكِ مَنْ يَسْحَبُكِ بقُرُونِكِ، قَالَ: فَأَبَتْ وَقَالَتْ: وَاللهِ! لاَ آتِيكَ حَتَّى تَبْعَثَ إليَّ مَنْ يَسْحَبُنِي بقُرُوني.

قالَ فقَالَ: أرُونِي سِبْتَيَّ، فَأَخَذَ نـعْلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَتَوَذفُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا، فقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتِنِي صَنَعْتُ بعَدُوِّ الله ؟ قالَتْ: رَأَيْتُكَ أفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، وَأفْسَدَ علَيْكَ آخِرَتَكَ. بَلَغَنِي أنَّكَ تَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ ذاتِ النِّطَاقَيْنِ! أنا، وَالله! ذاتُ النِّطَاقَيْن، أمَّا أحَدُهُمَا فَكُنْتُ أرْفَعُ بِهِ طَعَامَ رَسُولِ الله ﷺ ، وطَعَامَ أبي بَكْرٍ مِنَ الدَّوَابِّ. وَأمَّا الآخرُ فِنِطَاقُ الْمَرْأَةِ الَّتِي لاَ تَسْتَغْنِي عَنْهُ، أمَا إنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَدَّثَنَا (أنَّ في ثقِيفٍ كَذَّاباً وَمُبِيراً) فأمَّا الكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ، وَأمَّا الْمُبِيرُ فَلاَ إخَالُكَ إلاَّ إيَّاهُ. قَالَ فَقَامَ عَنْهَا وَلَمْ يُرَاجِعْهَا.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر كذاب ثقف ومبيرها، ورقمه: [٢٥٤٥].

غريب الحديث

أبو خبيب : كنية عبدالله بن الزبير، فخبيب أكبر أولاده.

القرون : قرون المرأة: ضفائرها وجدائلها.

سَبْتَيَّ : أي: نعلي، أصله من السبت، وهي جلود البقر المدبوغة.

يتوذف : التوذف نوع من السير، فيه تبختر وإسراع.

ذات النطاقين : النطاق ما تشدُّ به المرأة وسطها، سميت بذلك لأنها شقّت نطاقها نصفين، شدت بواحد منهما وسطها، والثاني شدّت به زاد الرسول ﷺ وأبي بكر عند الهجرة، إذ لم تجد غيره.

كذاباً : هو المختار بن أبي عبيد الثقفي، كان كثير الكذب.
مبيراً : أي: مهلكاً.
إخالك : لا أظنك.

شرح الحديث

جرت خطوب وأهوال في أيام الدولة الأموية، أدت إلى قصف مكة بالمنجنيق، وهدم الكعبة، وقتل عبدالله بن الزبير على يد الحجاج، وصلب الحجاج ابن الزبير على الطريق الذاهب إلى المدينة.

وأخذ الناس يمرون به لا يقفون ولا يتكلمون، فزبانية الحجاج ينقلون تصرفات الناس وأقوالهم إلى الحجاج، حتى مرّ عبدالله بن عمر بن الخطاب، فوقف عليه، وسلّم عليه ثلاثاً، مُكْنيه في كل مرة بكنيته، قائلاً في كلِّ مرة: السلام عليك أبا خبيب، ثم قال له: أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، وكرر مقالته هذه ثلاثاً، ثم أثنى على عبدالله بن الزبير بما يعلمه منه، فقد كان - كما قال ابن عمر فيه - صواماً قواماً وصولاً للرحم، وختم كلامه هذا بقوله: «أما والله لأمة أنت أشرها لأمةُ خيرٍ».

لقد كان ابن عمر ﷺ في هذا الوقت الذي وقعت فيه تلك الفتن، والتي أدت إلى سفك دماء كثيرة زاكية، ومنها دم عبدالله ابن حواري رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، وأمه أسماء بنت أبي بكر. كان عبدالله بن عمر من أشهر علماء الصحابة الذين لا يزالون على قيد الحياة، ولم يكن يسعه أن يمرّ بعبدالله بن الزبير مروراً عابراً كما يفعل غيره من الناس، ولم يكن ليقبل الناس منه ذلك، لابد أن يبين رأيه فيما يجري، وأن يقول كلمة حق.

وقد حدّد موقفه تماماً من الحجاج القاتل الصالب، ومن المقتول المصلوب، ومن تلك الفتنة.

لقد كان الحجاج جباراً طاغية، قتل ابن الزبير وصلبه، وأشاع عنه أنه ظالم عدو لله ولرسوله ﷺ ، فرد ابن عمر بكلامه هذا السوء عن عبدالله، لقد سلَّم عليه ثلاثاً مخاطباً إياه بكنيته، وأنت تدرك مدى اللطف والحبّ والتوقير والتقدير الذي يحمله سلامه: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب.

إن هذا التكرار يؤكد المعاني الجميلة الموحية، وفيه مزيد تكريم واحترام، وهو سلام المتأني المتمهل، وليس بسلام العجل الذي يريد أن يمضي سريعاً، ولا يكتفي بالسلام الذي يخاطبه به، بل زاد عليه التصريح بالثناء عليه بجميل الصفات، معدِّداً أعماله الطيبة الخيّرة، رادّاً عنه ما يشيعه الحجاج من الصفات السيئة، فيقول حالفاً بالله: «أما والله إن كنت ما علمت صوّاماً قوّاماً وصولاً للرحم».

ولم يمنعه تسليمه عليه والثناء عليه أن يخطئه فيما أخطأ به، فقد أعلن في مقامه ذاك، أنه كان ينهاه عن الثورة التي قام بها «أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا».

قد يقول بعض الناس: أما كان يسع ابن عمر أن لا يعلن موقفه من ثورة ابن الزبير في مثل هذا الموقف، خشية أن يؤول بأن هذا الكلام مجاملة للحكام، والجواب: أن ابن عمر يجب أن يبين كل ما يتعلق بالأمر، فالبيان واجب للتعريف بالحق الذي يعتقده.

ثم قال كلمة تبقي للناس أملاً، فمع الخطوب المدلهمة، والمصائب المتلاحقة، تبقى هذه الأمة أمة خير، بل إن أمة يعدّ ابن الزبير هو شرّها خير أمة.

لقد كان موقف عبدالله بن عمر رسالة إلى الحجاج، ورسالة إلى الأمة الإسلامية، بيّن فيها موقفه من الحجاج ومن ابن الزبير، من غير أن يقوم بثورة، ومن غير أن يماري ويداهن.

وفقِه الحجاج الرسالة سريعاً، فأرسل إلى عبدالله فأنزل عن الجذع الذي صلبه عليه، وألقى به في قبور اليهود، وبئس ما فعل.

ولم يكن موقف أسماء بنت أبي بكر أم عبدالله بأقل من موقف ابن عمر، بل اتسم موقفها بالحدّة والجرأة مع الطاغية، لقد أرسل الحجاج إليها من يأمرها بالتوجه إليه، فأبت ذلك، فأعاد إليها القول آمراً إياها بالمجيء إليه، أو يرسل إليها من يجرّها بقرونها إليه، فأبت ذلك، وقالت للرسول: «والله لا آتيك حتى تبعث إليّ من يسحبني بقروني».

لم يكن الحجاج يقبل أن يتحداه أحد، ولم يكن يرضى أن يغلبه أحد، حتى في الكلام والخصام، فأخذ نعليه ولبسهما، وعَمِدَ إليها متبختراً في مشيته.

ولا أظنه إلا لامَ نفسه، فإن أسماء امرأة ليست كبقية النساء، إنها شجاعة لا تهاب، وهي امرأة الفارس الصنديد الزبير بن العوام، وابنة أبي بكر الصديق الصاحب الأول لرسول الله ﷺ ، وشقيقة عائشة زوج الرسول ﷺ ، وصاحبة اللسان الطلق، والبديهة الحاضرة، فما كاد يصل إليها، سائلاً إياها عن رأيها بصنيعه بعدو الله - حسب قوله - ابنها؟ حتى جاءه منها سيل هادر، أخذ عليه مجامع نفسه، فلم يستطع أن يحير جواباً.

قالت له: رأيتك أفسدت عليه دنياه بقتلك إياه، وأفسد عليك آخرتك، لم تبكِ، ولم تولول، ولم تصرخ، ولم تقل: بل أنت عدو الله، أقرت بالحقيقة، لقد أفسدت عليه دنياه، وهذا أمر واقع، ولكنه أفسد عليك آخرتك، لأن عبدالله رجل صالح من صحابة رسول الله ﷺ ، ففي يوم القيامة، سيفسد عليك آخرتك، عندما يقفان في يوم الدين بين يدي ربّ العالمين، فيحكم ربّ العزة بين العباد.

ولم تنتظر منه جواباً، ولكنها ترد عليه سبابه لها، فقد بلغها أنه قال لعبدالله ابنها: يا ابن ذات النطاقين، فلم تستعرّ من هذا اللقب، بل افتخرت به، نعم أنا ذات النطاقين، سميت بذلك لأنها عندما أرادت ربط زوادة رسول الله ﷺ وأبيها أبي بكر لم تجد إلا نطاقها، فشقّته نصفين، شدّت وسطها بنصفه، وبالنصف الآخر رفعت به طعامهما.

ووجهت إلى ذلك الطاغية صفعة ثالثة أخذتها من حديث رسول الله ﷺ فقد أخبرته بما حدّث به الرسول ﷺ أنه سيكون في قبيلة الحجاج، وهي قبيلة ثقيف كذاب ومبير، أما الكذاب فكان قد ظهر، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي ادّعى النبوة، وقالت له: وأما المبير، فلا إخالك إلا إياه، ومعنى المبير: المهلك المدمر السافك للدماء.

لم يملك الحجاج وقد سمع ما سمع جواباً، ولم يكن منه إلا أن انصرف خائباً خاسئاً، وكم امرأة وقفت موقفاً يعجز عنه أفذاذ الرجال.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١ - شجاعة عبدالله بن عمر بن الخطاب التي تبدّت في وقوفه على ابن الزبير وهو مصلوب، وبلاغته، فقد قال كلمات أغنت عن خُطَب طويلة.

٢- استحباب السلام على الأموات، لا فرق في ذلك بين من دُفن وبين من لم يُدفن، فقد سلّم ابن عمر على ابن الزبير، وهو لم يُدفن بعد.

٣- استحباب الثناء على الموتى بما يعلم المرء من صلاحهم وتُقاهم وفضلهم.

٤- على الرجل العالم القدوة أن يظهر الحق في القضايا التي تواجه الأمة، إن كان يستطيع بيان الحق وإظهاره، ولا يؤاخذ المرء بما لا يستطيعه، فلم ينزل ابن عمر ابن الزبير عن موضع صلبه، ولم يدفنه، فليس لديه القدرة على ذلك.

٥- فضل ابن الزبير، وشهادة ابن عمر فيه، وشهادة أمّه له، فقد جزمت بأن قتل الحجاج له أفسد عليه آخرته.

٦- طغيان الحجاج وظلمه، وسفكه للدماء، وعدوانه على الأخيار وفيهم صحابة رسول الله ﷺ.

٧- فضل أسماء، وجرأتها في مواجهة الطاغية، وقدرتها على الاحتجاج في مواجهة الخصوم، وصبرها على البلاء، وتجلّدها، فقد كانت فاقدة لابنها، عندما جاءها الحجاج معنفاً، فوقفت أمامه كالطود الشامخ، وأرجعته خاسئاً مدحوراً.

٨- فوائد العلم بالأحاديث النبوية المخبرة عن الغيب الآتي، فقد استعملت أسماء ما علمته منها في مواجهة الحجاج، وإذلال كبريائه.

❋ ❋ ❋

القِصَّةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُونَ

لله علي نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبدًا

تمهيد

القائل لهذه العبارة المعنون بها لهذه القصة أم المؤمنين عائشة خالة عبدالله بن الزبير عندما بلغها عنه أنه يريد أن يمنعها من التصرف في مالها، فلقي من وراء ذلك ابن الزبير عنتاً وشدة كما هو مفصل في هذه القصة.

نص الحديث

عن عوفُ بن مالك بن الطفيل هو ابن الحارث وهو ابن أخي عائشةَ زوج النبيِّ ﷺ لأمِّها – «أن عائشةَ حُدِّثَتْ أن عبدَالله بن الزبيرِ قال في بيعٍ أو عَطاءٍ أعطَتْهُ عائشة: والله لتنتهينَّ عائشةُ أو لأحجُرَنَّ عليها، فقالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، قالت: هو لله عليَّ نذر أن لا أُكلمَ ابنَ الزبيرِ أبداً. فاستَشفعَ ابنُ الزبير إليها حين طالتِ الهجرة، فقالت: لا والله، لا أُشفِّعُ فيه أبداً، ولا أتحنَّثُ إلى نذري.

فلما طال ذلك على ابن الزبير كلمَ المِسْوَرَ بن مَخرمةَ، وعبدَالرحمن ابنَ الأسودِ بن عبدِ يَغوثَ – وهم من بني زُهرةَ – وقال لهما: أنشدُكما باللهِ لما أدخلتماني على عائشة، فإنها لا يحلُّ لها أن تَنذُرَ قَطيعتي. فأقبلَ به المِسورُ وعبدُالرحمن مُشتملَين بأردِيَتهما حتى استأذنا على عائشةَ، فقالا: السلامُ عليك ورحمة الله وبركاته، أندخُلُ؟ قالت عائشة: ادخلوا. قالوا: كلنا؟

قالت: نعم ادخُلوا كلكم – ولا تعلمُ أنَّ معهما ابنَ الزبير – فلما دَخلوا دخلَ ابن الزبير الحجابَ، فاعتنقَ عائشةَ، وطَفِقَ يُناشِدُها ويبكي، وطَفقَ المسوَرُ وعبدُالرحمنُ يُناشدانها إلا ما كلمته وقبلت منه، ويقولان: إن النبي ﷺ نهى عما قد علمتِ من الهجرة، فإنه لا يَحل لمسلم أن يَهجُرَ أخاه فوقَ ثلاثِ ليالٍ.

فلما أكثروا على عائشة من التذكرة والتحريج طفِقت تذكِّرُهما وتبكي، وتقول: إني نذرتُ، والنَّذرُ شديد. فلم يَزالا بها حتى كلمت ابنَ الزبير. وأعتقَتْ في نَذرِها ذلك أربعينَ رقبةً. وكانت تذكرُ نَذرَها بعدَ ذلك فتبكي حتى تَبُلَّ دموعُها خِمارَها».

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، باب الهجرة، ورقمه: (٦٠٧٣، ٦٠٧٤، ٦٠٧٥) وانظره أيضاً تحت رقم (٣٥٠٥).

غريب الحديث

لأحجرنْ : الحجر: المنع، ومنه حَجْرُ القاضي على السفيه إذا منعه من التصرف في ماله.

أنشدكما بالله : أسألكما بالله.

مشتملين بأرديتهما : يلبس كل منهما رداءَه.

قطيعتي : أي: هجراني، وعدم محادثتي.

التحريج : أي: شدَّدوا عليها بالقول مأثمين لها إن لم تكلمه، والتحريج التضييق والتأثيم.

شرح الحديث

كان عبدالله بن الزبير حبيباً إلى خالته عائشة أثيراً عندها، وكانت منزلته عندها في المحبة تأتي بعد رسول الله ﷺ وأبيها أبي بكر، وكان عبدالله باراً بها عطوفاً عليها.

ففي البخاري عن عروة بن الزبير قال: «كان عبدالله بن الزبير أحبَّ البشر إلى عائشة بعد النبي ﷺ وأبي بكر، وكان أبرَّ الناس بها» [البخاري: ٣٥٠٥].

ثم وقع ما عكّر العلاقة بينهما حتى إنها نذرت ألا تكلمه، والسبب في ذلك أنها كانت تتصدق بكل ما يأتيها من مال، بل بلغ الحال بها أن تبيع بعض ما عندها فتتصدّق به، فلما بلغ ابن الزبير كثرة إنفاقها، وعدم إمساكها لشيء مما يصلها، رأى أنه ينبغي أن يحجر عليها في مالها، حتى لا تستطيع التصرف في شيء منه، فلما بلغها مقالته نذرت أن لا تكلمه أبداً، وقالت: «هو لله عليّ نذر أن لا أكلم ابن الزبير أبداً». ولابد أن ابن الزبير أدرك الخطأ الذي وقع فيه، فحاول أن يرأب الصدع، ويستدرك ما وقع منه، فأرسل إليها من يستشفع إليها من كبار الصحابة وعلماء التابعين، ولكنها أصرت على موقفها، وأبت أن تقبل شفاعة أحد فيه، محتجة أنها لا تريد أن تحنث بنذرها.

لقد كانت عائشة كثيرة المحبة لعبدالله كما سبق بيانه، وفي مثل هذا الحال يكون الخطأ من المحبوب عظيماً كبيراً، وتكون ردّة الفعل عظيمة جداً، وهذا ما وقع من أم المؤمنين.

وعظمت تلك القطيعة على ابن الزبير أيضاً، فاحتال على الأمر بأن دخل مع بعض الذين لهم مكانة كبيرة عند عائشة عندما استأذنوا بالدخول هم ومن معهم، ولم تكن تعلم أن الذي معهم هو ابن الزبير، فدخل إليها مبتدراً الحجاب من غير إذن، وأخذ يعتنقها ويقبلها ويناشدها إلا ما صفحت عنه، وهو في ذلك يبكي، وأخذ صاحباه اللذان جاءا معه يناشدانها بالله أن تكلمه، وتقبل عذره، ويذكرانها بنهي الرسول ﷺ عن أن يهجر المسلم أخاه فوق ثلاث، فكانت تذكِّرهما بنذرها الذي كان منها، وتبين لهم صعوبة الحنث بذلك النذر.

ولكنها في النهاية استجابت للمناشدة الشديدة التي كانت من ابن الزبير وصاحبيه، فكلمته، وأعتقت في ذلك النذر أربعين رقبة، ذلك أنها لم تحدّد مقدار النذر الذي تخرجه فيما لو حنثت بذلك النذر، وكانت فيما بعد تأسف على عدم تحديدها لمقداره، لأنها لو فعلت لأخرجت المقدار المحدد، وبذلك تكون ذمّتها برأت يقيناً، وقد أعانها ابن الزبير على الوفاء بنذرها، فأرسل إليها بعشر رقاب أعتقتها فيما أعتقته في ذلك النذر.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- على المسلم أن يضبط لسانه، حتى لا يورده المهالك، فقد أوقعت كلمة قالها ابن الزبير لم يلقَ لها بالاً القطيعة بينه وبين عائشة خالته، وقد أضناه طويلاً معالجة آثار تلك الكلمة.

٢- قد يقع بين الأخيار من هذه الأمة ما يعكر صفو العلاقة بينهم، وتحدث القطيعة التي تحتاج إلى جهود كبيرة، حتى تعود المياه إلى مجاريها، كما وقع بين الزبير وخالته عائشة.

٣- أثر النميمة المتمثلة في نقل مقالة السوء لمن قيلت فيهم، فلو لم تنقل تلك الكلمة إلى عائشة لما كان منها ما كان، وكان الواجب على الناقل، أن ينصح ابن الزبير كي يعود عما قاله، بدل نقله كلامه الذي استثار عائشة.

٤- يستحب للمخطئ أن يعود عن خطئه، وأن يعتذر عما بدر منه، وأن يسعى لإصلاح ما أفسده، وأن يستعين على ذلك بأهل الفضل والصلاح، كما فعل ابن الزبير في معالجة المشكلة التي تسبب في إيجادها.

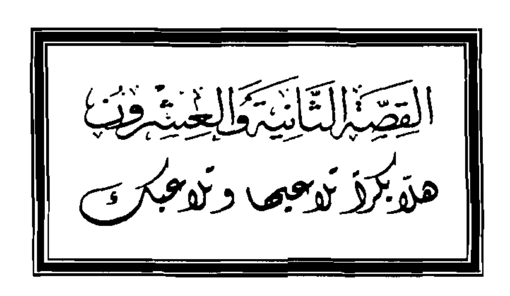
٥- طريقة الاستئذان عند المسلمين، فقد قال صاحبا ابن الزبير عند استئذانهما على عائشة: «السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟».

٦- مشروعية الدخول على النساء إذا روعيت الضوابط الشرعية، وكان ذلك لغرض مشروع، كما كان يدخل على أمهات المؤمنين، فيكلمن الداخلين من وراء حجاب، وكنّ يحدثن الداخلين، ويفقهنهم ويفتين.

٧- احتجاج صاحبا ابن الزبير على عائشة بما تحفظه من الحديث، فقد احتجّا عليها بالحديث الذي تحفظه، وفيه النهي عن القطيعة بعد ثلاثة أيام.

٨- يجوز الإلحاح في تحقيق ما تطلبه من الآخرين إذا كان خيراً، فقد ألحّ صاحبا ابن الزبير كما ألحّ هو على عائشة إلحاحاً شديداً حتى استجابت لمطلبهم.

٩- نذرت عائشة نذراً مجهول المقدار إن هي كلّمت ابن الزبير، ورأت أنه يجب أن تبلغ بالنذر أعظم ما تقدر عليه، فأعتقت أربعين رقبة في وفائها بنذرها. وفعلها لا يطيقه كثير من الناس، فلو اكتفى من وقع منه هذا بما يفي بكفارة اليمين كفاه، والله أعلم بالصواب.



تمهيد

عنوان هذه القصة سؤال وجهه الرسول ﷺ إلى الصحابي جابر بن عبدالله، عندما كان يحادثه وهما عائدان من غزوة غزاها الرسول ﷺ ، وكان من حديث جابر للرسول ﷺ أنه تزوج قبل خروجه في تلك الغزوة، فسأله الرسول ﷺ عن زوجته؟ فلما أخبره أنه تزوجها ثيباً مع كونه شاباً، قال له: (هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك)؟ فأجابه جابر بما جعله يصوّب فعله.

نص الحديث

أولاً: عن جابرِ بنِ عبدِالله رضيَ الله عنهما قال: «كنتُ مع النبيِّ ﷺ في سَفَرٍ، فكنتُ على جملٍ ثَفالٍ، إنما هو في آخرِ القومِ، فمرَّ بي النبيُّ ﷺ فقال: (مَن هذا؟) قلتُ: جابرُ بنُ عبدِالله، قال: (ما لكَ؟) قلتُ: إني على جملٍ ثَفالٍ. قال: (أمَعَكَ قضيبٌ؟) قلتُ: نعم. قال: (أعطِنيهِ)، فأعطيتهُ فضربَهُ فزجرَهُ، فكان مِن ذلك المكانِ مِن أوّل القوم.

قال: (بعْنيهِ)، فقلتُ: بل هوَ لكَ يا رسول الله، قال: (بل بعْنيهِ، قد أخذتُهُ بأربعةِ دَنانيرَ، ولكَ ظَهرُهُ إلى المدينة). فلما دَنونا منَ المدينةِ أخذتُ أرتحلُ، قال: (أينَ تُريدُ؟) قلتُ: تزوَّجتُ امرأةً قد خَلا منها. قال: (فهلاّ جاريةً تُلاعِبُها وتُلاعبُك؟) قلتُ: إنَّ أبي تُوُفِّيَ، وترَكَ بَناتٍ، فأردتُ أن أنكِحَ

امرأةً قد جرَّبَتْ خَلا منها، قال: فذلكَ. فلما قدِمْنا المدينة قال: يا بلالُ اقضِهِ وزِدْهُ. فأعطاهُ أربعةَ دنانيرَ، وزادَهُ قيراطاً. قال جابرٌ: لا تُفارِقُني زيادةُ رسولِ الله ﷺ ، فلم يَكُنِ القيراطُ يُفارقُ جِرابَ جابرِ بنِ عبدِالله».

ثانياً: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «كنت مع النبي ﷺ في غزاة فأبطأ بي جَمَلي وأعْيا، فأتى عليَّ النبيُّ ﷺ فقال: جابرٌ؟ فقلت: نعم، قال: ما شأنُكَ؟ قلتُ: أبطأ عليَّ جَمَلي، وأعْيا، فتخلَّفتُ. فنزَلَ يَحجُنُه بمحجَنِه. ثمَّ قال: اركبْ، فركِبْتهُ، فلقد رأيتهُ أكفُّهُ عن رسولِ الله ﷺ . قال: تَزوَّجتَ؟ قلت: نعم. قال: بكراً أم ثيِّباً؟ قلت: بل ثيِّباً.

قال: (أفلا جاريةً تُلاعِبُها وتُلاعِبُك؟) قلت:إنَّ لي أخَواتٍ، فأحببتُ أن أتزوَّجَ امرأةً تجمعُهنَّ، وتَمشُطُهنَّ، وتقومُ عليهنَّ. قال: أما إنَّكَ قادمٌ، فإذا قدمتَ فالكَيسَ الكَيسَ. ثم قال: أتبيعُ جَمَلَكَ؟ قلتُ: نعم. فاشتراهُ منِّي بأوقيَّةٍ. ثمَّ قدِمَ رسولُ الله ﷺ قَبْلي، وقدمتُ بالغَداةِ، فجِئْنا إلى المسجدِ، فوَجَدْتهُ على بابِ المسجدِ، قال: الآنَ قدِمتَ؟ قلت: نعم. قال: فدَعْ جَمَلكَ، فادخُلْ فصلِّ رَكعتَينِ، فدخلتُ فصلَّيت. فأمرَ بلالاً أن يَزِنَ لهُ أوقيَّةً، فوزَنَ لي بلالٌ فأرجَحَ في الميزانِ. فانطلَقتُ حتى ولَّيتُ. فقال: ادْعوا لي جابراً. قلتُ: الآنَ يَرُدُّ عليَّ الجملَ، ولم يكنْ شيءٌ أبغضَ إليَّ منه، قال: خُذْ جَمَلكَ، ولكَ ثمنُه».

تخريج الحديث

رواه البخاري في مواضع كثيرة من كتابه، أتمّها الروايتان اللتان أوردتهما في هذه القصة، الأولى منهما أوردها في كتاب الوكالة، باب «إذا وكّل رجلاً أن يعطي شيئاً» ورقمه: (٢٣٠٩).

والرواية الثانية في كتاب البيوع، باب «شراء الدواب والحمير». ورقمه (٢٠٩٧)، ورواه مسلم في مواضع من صحيحه، فقد رواه مختصراً في كتاب الصلاة، باب «استحباب تحية المسجد» ورقمه: (٧١٥). وفي كتاب الرضاع، باب «استحباب نكاح البكر» بعد الحديث رقم (١٤٦٦). وانظره بعد حديث رقم (١٥٩٩) وبعد رقم (١٩٢٨).

غريب الحديث

الناضح : الجمل الذي يسقى عليه الماء.

جمل ثَفال : ثَفال بفتح الثاء الجمل البطيء السير، وأما الثِّفال بكسر الثاء: جلد أو نحوه يوضع تحت الرحى يقع عليه الدقيق.

قضيب : القضيب: العصا.

زجره : أي: صاح به.

يحجنه بمحجنه : أي: يضربه بعصاه، والمحجن: العصا المعقوفة.

أكفه : أي: أمنعه أن يتقدم على رسول الله ﷺ لما أصبح فيه من النشاط والقوة.

جَرَّبت خلا منها: جربت: سبق لها الزواج، خلا منها: أي طلقها زوجها أو مات عنها.

أعيا : عجز عن السير، وضعف عنه.

الكيس الكيس : الكَيْس: العقل، وهو هنا كناية عن الأمر بالجماع طلباً للولد، فجعل طلب الولد عقلاً.

شرح الحديث

كان جابر بن عبدالله الأنصاري عائداً مع رسول الله ﷺ من غزاة غزاها، واقترب الجيش العائد من المدينة، وقد كان من عادة الصحابة فيما أدّبهم به رسول الله ﷺ أن لا يسبقوه في أسفاره خروجاً من المدينة، ولا دخولاً فيها. ولكن الرسول ﷺ في ذلك السفر أذن للعائدين أن يتعجل من شاء منهم بالعودة إلى الديار والأهل. (انظر إذنه بالتعجل في البخاري: ٢٨٦١) وكان جابر يودُّ لو أن جمله أسرع به حتى يكون أول الداخلين، فإنه كان عروساً عندما خرج مع رسول الله ﷺ في تلك الغزوة، ومثله يكون حنينه إلى الأهل والديار أعظم من غيره (انظر كونه حديثاً بعرس في البخاري: ٥٠٧٩].

ولكن حالَ بينه وبين تحقيق الرغبات والأماني اعتلال جمله الذي يركبه، فقد مرض وخارت قواه، وأصبح في مؤخرة الجيش حتى لقد همّ جابر بالاستغناء عن ذلك الجمل الضعيف، والرجوع ماشياً مع الماشين، ولعله لم يفعل لكونه يرجو أن يشفى جمله وتعود إليه قواه، خاصة وأنه وأهله لم يكن لهم ناضح سواه.

وفي هذه الأثناء التي كان جابر فيها على هذه الحال من الألم والحسرة مرّ به الرسول ﷺ ، فاستخبر منه عن حاله، فشكا إليه مصابه في جمله، فما كان منه ﷺ إلا أن زجره، ثم ضربه، ونخسه، ودعا له، فتغيرت أحواله، لقد غيّر الله ضعفه قوة، وبطأه إسراعاً، ومن ذلك الوقت الذي فعل به الرسول ﷺ هذا الفعل أصبح في مقدمة الجيش، اسمع جابر يصف حال جمله بعد

فعل الرسول ﷺ به ما فعل: «فانطلق بعيري كأجود ما أنت راءٍ من الإبل، فقال الرسول ﷺ لجابر: (كيف ترى بعيرك؟) فقال: «بخير، قد أصابته بركتك». (انظر هذه الرواية في صحيح مسلم في كتاب الرضاع، بعد الحديث رقم: ١٤٦٦).

وفي رواية عند مسلم في هذا الموضع: «فنخس بعيري بعنزة كانت معه، (العنزة: الحربة) فانطلق بعيري كأجود ما أنتَ راءٍ من الإبل».

لقد كان جابر ابن الصحابي عبدالله أحد الأبطال في الإسلام وأول من قُتل في معركة أُحُد، وقد مثل به المشركون بعد قتله، وقد تحمل جابر عن والده ديوناً عليه قضاؤها، كما خلف له عدداً كبيراً من الأخوات عليه رعايتهن، ولم يكن يخفى عن رسول الله ﷺ العبء الذي ينوء به جابر، فأراد الرسول ﷺ أن يعينه من غير أن يحرجه.

ليس سهلاً على مثل جابر أن يقبل المال من غير سبب، وقد يرى أن قبول ذلك فيه عليه غضاضة، فأراد الرسول ﷺ إفادته المال بطريقة مُرْضية.

عرض الرسول ﷺ على جابر أن يشتري منه جمله، وكان جابر نبيهاً حصيفاً، فسارع إلى هبة الجمل إلى رسول الله ﷺ ، مرة بعد مرة، والرسول ﷺ يرفض الهبة ويصرّ على الشراء. وأعطاه الرسول ﷺ فيه ثمناً، ثم أخذ يزيده، ويقول له وهو يرفع في قيمته مرة بعد أخرى: (والله يغفر لك)، حتى استقرّ الثمن الذي عرضه الرسول ﷺ على جابر أربعة دنانير، وهي تساوي في ذلك الوقت أوقية من الفضة.

واشترط جابر على الرسول ﷺ أن لا يسلّمه الجمل إلا بعد الوصول إلى المدينة، حتى يستفيد من ركوبه إلى أن يصل الديار، وإلا كان عليه أن يعود إلى المدينة ماشياً، وهذا يعنته، ويشق عليه.

وبعد تمام الصفقة استعلم الرسول ﷺ عن السبب الذي يدعوه إلى التعجّل بالعودة إلى المدينة، فأخبره أنه حديث عهد بعرس، فسأله عن العروس قائلاً: (أبكراً تزوّجتها أم ثيبا؟) فلما أخبره أنها ثيب، قال: (فهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك؟).

فبيّن له جابر أنه - وهو الشاب - لم يغب عنه ذلك، ولكنه ترك حظ نفسه في الزواج من البكر إلى الزواج من ثيب مسنّة وفي ذلك يقول جابر: «إن أباه توفي وترك له بنات، فأردت أن أتزوج امرأة قد جرّبت، وخلا منها، قال: (فذاك)».

وفي رواية قال: «يا رسول الله توفي والدي أو استُشهد، ولي أخوات صغار، فكرهت أن أتزوج مثلهنّ، فلا تؤدبهن، ولا تقوم عليهن، فتزوجت ثيباً لتقوم عليهن، وتؤدبهن».

وقد أوصى الرسول ﷺ أن يُحسن معاشرة زوجه إذا عاد إلى منزله، فقال له: (فإذا قدمت فالكيس الكيس) والكيس معاشرة الزوجة في الفراش.

ولما اقترب الجيش من دخول المدينة، أمرهم بالتمهل في الدخول حتى يكون دخولهم ليلاً في وقت العشاء، وقال لهم آمراً ومعللاً: (أمهلوا حتى ندخل ليلاً، أي: عشاءً، كي تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة) أي: تستعد النساء لاستقبال أزواجهن، ويتزينّ لهم، فتمشط الشعثة شعرها، والمراد بالاستحداد إزالة شعر العانة بالموسَى.

وبعد الوصول إلى المدينة جاء جابر بجمله إلى رسول الله ﷺ ليسلمه الجمل، ويقبض منه الثمن، وقال للرسول ﷺ : «هذا جملك». فخرج الرسول ﷺ فجعل يطيف به ويقول: (الجمل جملنا). وهذه الرواية في البخاري رقم: [٢٨٦١].

ودعا الرسول ﷺ بلالاً، وكان هو القائم على أمر المال عنده، وأمره أن يقبضه ثمنه ويزيده، فأعطاه أربعة دنانير، وزاده قيراطاً. ووقعت هذه الزيادة عند جابر موقعاً عظيماً، فقال: «لا تفارقني زيادة رسول الله ﷺ » وبقي هذا القيراط مصاحباً لجابر، يحتفظ به في جرابه، حتى كانت موقعة الحرة، ففقد فيها» انظر هذه الرواية في مسلم، كتاب المساقاة، بعد الحديث رقم [١٥٩٩].

قبض جابر ثمن جمله وانطلق عائداً إلى منزله حاملاً ثمنه مخلّفاً إياه وراءه عند رسول الله ﷺ ، وما فاجأه وهو كذلك إلا بلال يعدو خلفه يدعوه إلى إجابة رسول الله ﷺ .

وقام في نفس جابر أن الرسول ﷺ يريد أن يسترجع الثمن، ويرد إليه الجمل، قال جابر: «الآن يرد عليَّ الجمل، ولم يكن شيء أبغض إليَّ منه». ولكن الذي لم يتوقعه جابر أن الرسول ﷺ قال له: (خذ جملك، ولك ثمنه).

لقد عاد جابر إلى منزله، وقد أكرمه الله بمعافاة جمله بدعوة رسوله ﷺ ، كما أكرمه الرسول ﷺ بمنحه ثمنه، ثم زيادته في الثمن، ثم ردّ عليه جمله، فعاد بالجمل صالحاً، وبثمنه وافياً، وبزيادة طيبة، فكيف لا يكون الرسول ﷺ حبيباً إلى جابر وبقية الصحابة ذلك الحبّ الذي ناف على حبّهم أبناءَهم وآباءهم وأزواجهم وأنفسهم!! .

سأسلك في هذا الحديث طريقاً غير الذي سلكته في الأحاديث التي قبله والتي تأتي بعده، فسأذكر ما استخلصه البخاري رحمه الله من فقه هذا الحديث، فقد فرّق البخاري رحمه الله روايات الحديث الواحد على كتب صحيحه وأبوابها، وعقد تلك الأبواب للدلالة على ما يؤخذ من تلك الأحاديث، وما يُستدل به منها على تلك المسائل، بينما كان المنهج العام الأغلب هو جمع روايات الحديث في باب واحد.

وإنما فعلت هذا تنبيهاً لطلبة العلم كي يهتموا بفقه البخاري رحمه الله ومن سارَ مساره في دراسة الأحاديث، واستخلاص ما فيها من العلم والعمل والتوجيهات، وهذا ما التزمته في جميع الأحاديث التي ذكرتها في صحيح القصص النبوي.

١- أورد البخاري هذا الحديث في كتاب الصلاة مبوباً عليه بقوله: «الصلاة إذا قَدِمَ من سفر» يريد أنه يستحب لمن قدم من سفر أن يبدأ بالصلاة عند بلوغه موطنه، وأورد فيه من حديث جابر ما يدل على ذلك، فقد أمره الرسول ﷺ عندما دخل عليه في مسجده أن يدخل المسجد فيركع ركعتين [حديث رقم: ٤٤٣].

٢- وأورده في كتاب العمرة، بألا يطرق أهله ليلاً، أي: يكره للمسافر أن يأتي أهله في الليل، وأورد فيه قطعة من حديث جابر قال: «نهي النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله من الليل» [رقمه: ١٨٠١].

٣- وأورده في كتاب الاستقراض، باب من اشترى بالدَّيْن، وليس عنده ثمنه، وأورد من حديث جابر تحت هذا الباب، بيع جابر جمله للرسول

ﷺ بطلب منه، ولم يكن ثمنه حاضراً مع الرسول ﷺ ، وأنه نقده الثمن بعد وصوله المدينة [رقمه: ٢٣٨٥].

٤- وأورده أيضاً في الكتاب السابق، باب «حُسْن القضاء» وأورد فيه قطعة من حديث جابر، فيه أن الرسول ﷺ قضى جابراً ثمن جمله، وزاده بعض المال، وهذا من حُسْن القضاء [ورقمه: ٢٣٩٤].

٥- وأورده مرة في الكتاب السابق، وبوّب عليه بقوله: «باب الشفاعة في وضع الدَّيْن» وهذه القطعة (٢٤٠٦) تابعة للحديث (٢٤٠٥)، ولكن الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي وضع لها رقماً مستقلاً، وفي هذا الباب ذكر حديث جابر في دين أبيه، وفيه حديثه في قصة بيع الجمل جمعهما راوي الحديث في سياق واحد، والمقصود في هذا الباب ما ورد في القطعة الأولى (٢٤٠٥) وهو قوله: فاستشفعت بالنبي ﷺ عليهم. انظر «فتح الباري» ٥/ ٨٤.

٦- وأورده في كتاب الشروط، «باب إذا اشترط البائع ظهر الدابة» [ورقمه: ٢٧١٨] وذكر فيه موضع الاستدلال به على مسألة الباب، وهو اشتراط جابر على الرسول ﷺ ركوبه الجمل إلى أن يبلغ المدينة.

٧- وأورده في كتاب الجهاد والسير، وبوّب عليه بقوله: (باب من ضرب دابة غيره في الغرر، وأورد فيه من حديث جابر، ضرب الرسول ﷺ لجمله [ورقمه: ٢٨٦١].

٨- وأورده في كتاب الجهاد والسير أيضاً، باب «استئذان الرجل الإمام» وأورد فيه من حديث جابر الموضع الذي استأذن فيه جابر الرسول ﷺ أن يسبق الناس إلى المدينة، لكونه حديث عهد بعرس فأذن له [ورقمه: ٢٩٦٧].

٩- وأورده ثالثاً في كتاب الجهاد والسير، وبوّب عليه بباب «الصلاة إذا قَدِمَ من سفر» وأورد من الحديث قول جابر: «كنت مع النبي ﷺ في سفر، فلما قدمنا المدينة قال لي: ادخل المسجد، فصلِّ ركعتين» [ورقمه: ٣٠٨٧]، ونلاحظ أنه بوّب هنا بمثل ما بوّب عليه في رقم (١).

١٠- وأورده رابعاً في الكتاب السابق، وبوّب عليه بقوله: «باب الطعام عند القدوم» [ورقمه: ٣٠٨٩] وذكر فيه من حديث جابر: «أن الرسول ﷺ لما قَدِمَ المدينة نحر جزوراً أو بقرة».

١١- وأورده في كتاب المغازي، باب ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ [آل عمران:١٢٢] وأورد فيه روايتين من حديث جابر، وكل ما فيهما الإشارة إلى أن عبدالله والد جابر كان ممن استشهد في معركة أُحُد، وهذا هوالغرض من إيرادهما هنا في هذا الباب، معركة أحد [رقم: ٤٠٥١، ٤٠٥٢].

١٢- وأورده في كتاب النكاح، باب تزويج الثيّبات، وأورد فيه روايتين من روايات الحديث، وفيهما إخبار جابر الرسول ﷺ أنه تزوج ثيّباً [ورقمهما: ٥٠٧٩، ٥٠٨٠].

١٣- وأورده في كتاب النكاح أيضاً، وبوّب عليه بقول: «باب لا يطرق أهله ليلاً إذا أطال الغيبة» وأورد فيه قول جابر: «كان النبي ﷺ يكره أن يأتي الرجل أهله طروقاً» [ورقمهما: ٥٢٤٣، ٥٢٤٤] وقد بوّب بقريب من ذلك فيما سبق ذكره في رقم: (٢).

١٤- وأورده في الكتاب السابق، وبوّب عليه بقوله: «باب طلب الولد» وقد استفاد البخاري هذا الحكم من قول الرسول ﷺ لجابر لما حدّثه بزواجه:

«الكَيْسَ الكَيْس يا جابر». [ورقمه: ٥٢٤٥، ٥٢٤٦] وهذا فقه دقيق لا يكاد يتنبه له إلا المدقق في النظر، فقد فقه البخاري من دعوة الرسول ﷺ إلى معاشرة زوجه أن مقصوده ابتغاء ما وراء الجماع وهو الولد.

١٥- وأورده في الكتاب السابق، وبوّب عليه بقوله: «باب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة» وذكر فيه أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يتمهلوا في دخول المدينة إلى العشاء حتى تمتشط الشعثة، أي: تمشط شعرها، وتستحد المغيبة، وهو إزالة ما حول الفرج بالموسى، أي أمرهم بالتمهل حتى تتزين النساء لاستقبال الأزواج الغائبين، وفي ضمن ذلك هو أمر للنساء بفعل ذلك [ورقمه: ٥٢٤٧].

١٦- وأورده في كتاب النفقات «باب عون المرأة زوجها في ولده»، وقد استدل على مسألة الباب بقول جابر: «إن عبدالله هلك وترك بنات، فتزوجت امرأة تقوم عليهن، وتصلحهن، فقال: (بارك الله لك، أو قال: خيراً) [ورقمه: ٥٣٦٧] وإذا كان الرسول ﷺ قد أقرَّ جابراً على قيام زوجته على أخواته، فمن باب أولى أن تقوم على رعاية أولاده.

١٧- وأورده في كتاب الدعوات، «باب الدعاء للمتزوج» وأورد فيه أن الرسول ﷺ قال لجابر بعد أن أخبره أنه قد تزوج: «فبارك الله عليك».

١٨- وأورده في كتاب البيوع، بإثر الحديث (٢٠٩٥) «باب شراء الإمام الحوائج بنفسه» تعليقاً من غير إسناد، فقال: «واشترى من جابر بعيراً». والاستدلال على المسألة واضح، ولكن لم يورد له إسناداً لأنه سيذكر القصة تامة في مواضع ستأتي منها الحديث (٢٠٩٧) بعد بضع أسطر من ذكره هذا التعليق.

فوائد أخرى غير ما ذكره البخاري:

وهناك جملة من فوائد الحديث وعبره وأحكامه غير ما ذكره البخاري، وهي:

١- فيه مدى عناية الرسول ﷺ بأصحابه وأفراد جيشه والاستخبار عن أحوالهم وما ينوبهم، ومعالجة مشكلاتهم.

٢- إجابة دعوة الرسول ﷺ التي دعاها في جمل جابر، فأصلح الله بفعل رسوله ﷺ لجابر جمله، وأذهب عنه مرضه، وأعاد إليه قوته.

٣- لم يكتفِ الرسول ﷺ بالدعاء لجمل جابر، بل فعل أفعالاً أخرى، من زجره ونخسه وضربه.

٤- حصافة جابر ﷺ في تزوّجه امرأة ثيّباً مسنّة لترعى أخواته، وتكون لهن بمثابة الأم المربية الراعية، وكان هذا من برّه بأبيه الذي أوصاه عشية استشهاده في أُحُد بأخواته خيراً كما سبق بيانه.

٥- ترغيب الرسول ﷺ الشباب بالزواج من الأبكار، وليس هذا دائماً، فأكثر من تزوج بهن الرسول ﷺ من النساء من غير الأبكار، وقد أقر الرسول ﷺ جابراً في تزوّجه الثيّب للغرض الذي ذكره.

٦- جواز زيادة المشتري البائع في الثمن برضاه من غير التزام سابق.

٧- الهبة لا تُلزَم إلا بالقبض، فجابر وهب جمله الرسول ﷺ ، فلم يقبله منه وأصرّ على شرائه بالثمن.

٨- يفيد الحديث وجود الدنانير والدراهم في عصر النبي ﷺ ، وبهما كان التبايع في عصره.

٩- يجوز لمن أراد شراء سلعة أو بيعها أن يساوم في شرائها خفضاً أو رفعاً لثمنها، فقد عرض الرسول ﷺ مبلغاً، فلم يرضَ جابر في البداية، ثم قَبِلَ.

١٠-جواز ضرب الدابة إن كان في ذلك مصلحة، كما فعل الرسول ﷺ في جمل جابر، فإن كان الضرب مبرحاً أو بقصد الإيذاء فلا يجوز.

١١-يجوز أن يوكِّل الرجل غيره في وفاء ديونه، كما وكّل الرسول ﷺ بلالاً بقضاء حق جابر عنده.

١٢-التلطف بإيصال النفع إلى الغير برفق، فقد أراد الرسول ﷺ أن يوصل لجابر بعض المال فاشترى منه جمله، ثم وهبه إياه، وكان شاقّاً على جابر أن يقبل المال مباشرة.

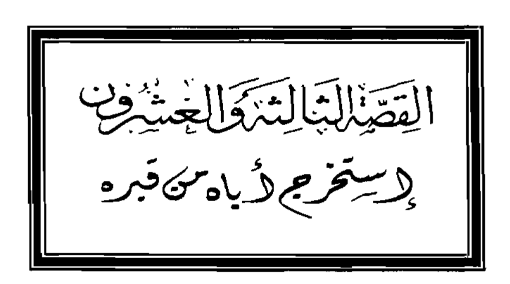
١٣-مشروعية ملاعبة الرجل زوجه، وملاعبتها إياه، فقد قال الرسول ﷺ : (هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك).

١٤-كان الرسول ﷺ يفاوض جابراً في ثمن جمله، ويقول له: (أتبيعنيه بكذا وكذا والله يغفر لك) (مسلم، كتاب الرضاع، بعد الحديث رقم: [١٤٦٦])، فاتخذها المسلمون ديدنهم إذا طلبوا من أحد أمراً، قال أبو نضرة أحد رواة الحديث: «كانت كلمة يقولها المسلمون، افعل كذا وكذا والله يغفر لك» مسلم في صحيحه، (كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح البكر» بعد الحديث (١٤٦٦) بإثر الرقم (٥٨).

١٥-يجوز للرجل إذا اشترى من أحد طعاماً أو شراباً أو غنماً ونحو ذلك أن يهديه أو يهدي منه لمن اشتراه منه، كما أهدى الرسول ﷺ جابراً جمله الذي اشتراه منه.

١٦-عدَّ جابر الزيادة التي زاده الرسول ﷺ في ثمن الجمل بركة، وقد استبشر بها، فبقي محتفظاً بها دهراً طويلاً، راجياً أن يبارك له في ماله، حتى فُقدت منه في موقعة الحرة.

* * *



تمهيد

هذا الذي استخرج أباه من قبره بعد دفنه بستة أشهر هو الصحابي جابر بن عبدالله، وأبوه من شهداء غزوة أُحُد، واستخرجه من قبره لأنه لم يُدفن في قبر وحده، بل شاركه غيره في ذلك القبر.

نص الحديث

عن جابرٍ ﷺ قال: «لمَّا حَضرَ أُحُدٌ دعاني أبي مِنَ الليلِ فقال: ما أُراني إلاَّ مَقتولاً في أوَّلِ مَنْ يُقتل مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ ، وإني لا أتْرُكُ بَعدِي أعَزَّ عليَّ مِنك، غيرَ نَفْسِ رسولِ الله ﷺ . وإنَّ عليَّ دَيناً، فاقضِ، واستوْصِ بأخَواتِكَ خيراً. فأصبَحْنا، فكان أوَّلَ قتيلٍ، ودُفِنَ مَعَهُ آخَرُ في قبرٍ، ثمَّ لم تَطِبْ نفسي أنْ أترُكَهُ معَ الآخَرِ، فاستخرجتُه بعدَ ستةِ أشهر، فإذا هوَ كيومِ وضَعْتُهُ هُنَيَّةً، غيرَ أُذنِهِ».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز، باب هل يخرج الميت من قبره لِعِلَّةٍ، ورقمه: [١٣٥١، ١٣٥٢].

ورواه أبو داود في سننه في كتاب الجنائز، باب «في تحويل الميت من موضعه للأمر يحدث» ورقمه: [٣٢٣٢].

غريب الحديث

ما أراني : لا أظنُّ.

على حدة : أي: منفرداً.

هُنَيَّة غير أذنه : الهنية الشيء اليسير، تصغير هَنَة، أي: شيء، ورجّح ابن حجر رواية «غير هنية عند إذنه» [فتح الباري: ٣/ ٣٧٦].

شرح الحديث

دعا الصحابي عبدالله بن عمرو الأنصاري ابنه جابر في الليلة التي كانت وقعة أحد في صبيحتها، وأفضى إليه بما يشغل باله، فإنه يظن أنه ستدور رحا معركة حامية الوطيس، وسيقع فيها عدد كبير من القتلى، وأنه سيكون في أول القتلى.

وإنما ظن هذا الظن، لأنه يعلم بالعدد الذي حشدته قريش للمعركة، وهو عدد كبير، جاؤوا وقد أخذوا عدّتهم، على أحسن حال يمكنهم أن يكونوا عليه، وقد حفّزهم للمواجهة في أعلى صورها أنهم يريدون أن يأخذوا بثأرهم في معركة أحد.

وهو يعلم مدى شجاعة صحابة رسول الله ﷺ واستبسالهم في القتال والمواجهة، وأنهم طُلاّب شهادة، ليفوزوا بجنات تجري من تحتها الأنهار، في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، وعبدالله والد جابر يعرف من نفسه أنه من هذا الفريق، وأنه سيخوض غمار الوغى غير هيّاب ولا وَجِل، وعلى ذلك فإنه سيكون من أوّل من ينال مبتغاه، وقد صدق ظنه، فكان أوّل قتيل في المعركة.

وهذا الذي كان يفكر فيه هو الذي جعله يوصي ابنه عبدالله، والذي يظن أنه سيفارق الدنيا من المسلمين يطيب له أن يوصي من بعده بالأمور التي لم يقدر له أن يستكملها في حياته، وخاصة تلك الحقوق التي تتعلق بالعباد.

وقد بدأ وصيته بإخباره بمكانته في نفسه، وأنه أعزّ الناس عنده، خلا رسول الله ﷺ ، وإخبار الموصي المفارق ابنه بهذا الذي في قلبه، يجعله مقبلاً على سماع الوصية، حريصاً على حفظها وتنفيذها.

وقد أوصاه بأمرين اثنين:

الأول: سداد دينه، فقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه أن الشهيد يُغفر له بأول دفقة من دمه كل ذنوبه، إلا الدَّيْن، وأعلمهم أيضاً أن كل إنسان مأسور في قبره بدَيْنه، وأن سداد من خلفه لما عليه من دَيْن يفكّ أسره.

الثاني: أن يَرْعى أخواته، فجابر بن عبدالله وحيد أبيه، فلم يكن له أشقاء ذكور، وكان له أخوات كثيرات، فأوصاه بأخواته خيراً، وقد أوردت في قصة أخرى في قصة كيف حفظ وصية أبيه، ومن ذلك زواجه بامرأة ثيّب أكبر منه، لتكون لأخواته بمثابة الأم تقوم عليهن وتراعهن.

وبعد انجلاء المعركة حمل بعض الصحابة قتلاهم ليدفنوهم في مقابرهم في المدينة، وحملت عمّة جابر أخاها عبدالله والد جابر لتدفنه في مقابرهم، فجاءهم منادي رسول الله ﷺ آمراً لهم أن يردوا القتلى ليُدفنوا في مصارعهم [عزا ابن الأثير في جامع الأصول: [١٣٨/١١] الأحاديث التي أمرت برد قتلى أحد إلى مصارعهم إلى الترمذي والنسائي وأبي داود].

وكان عدد شهداء أُحُد من الصحابة كثيراً، فقد نافوا على السبعين، وكان بقية الأحياء من الصحابة قد أصابهم القَرْحُ والجهد بعد انقضاء

المعركة، وشكوا ذلك إلى الرسول ﷺ ، فقال لهم: (أوسعوا القبر، وأعمقوا، واجعلوا الرجلين والثلاثة في قبر» رواه أبو داود، والترمذي والنسائي بنحوه. انظر رواياته في جامع الأصول: ١١/ ١٣٤].

وكان عبدالله بن عمرو والد جابر قد دُفن مع رجل آخر من الصحابة، [هو عمرو بن الجموح كما في رواية الموطأ، ص ٤١٠، ورقمه: ٨٦٣٦ وفي إسناده في الموطأ انقطاع، ونقل محقق جامع الأصول عن ابن عبد البر قوله فيه: «لم تختلف الرواية في قطعه، ويتصل معناه من وجوه صحاح» جامع الأصول: ١١/ ١٣٨].

ويخبر جابر عن نفسه أنه لم تطب نفسه بمشاركة أحد والده في قبره، فنبش قبره بعد ستة أشهر من دفنه، ووضعه في قبر آخر وحده. [انظر صحيح البخاري: ١٣٥٢].

وقد حدّثنا جابر عما أكرم الله به أباه حيث وجده بعد مضي ستة أشهر على دفنه لم يتغير منه شيء إلا شيئاً من إذنه كما في رواية البخاري، وجاء في رواية أبي داود: «فما أنكرت منه إلا شعيرات كنّ في لحيته مما يلي الأرض» [سنن أبي داود: ٣٢٣٢].

وليست هذه الفضيلة خاصة بعبدالله والد جابر، بل كل شهداء أُحُد نالوا كرامة الله بحفظ أجسادهم، فقد جرف السيل الموضع الذي دُفنوا فيه بعد ستة وأربعين سنة من دفنهم، فظهرت بعض أجساد الشهداء، فاحتفروا عليهم، ونقلوهم من الموضع المنخفض الذي كانوا فيه، إلى موضع مرتفع يأمنون عليهم فيه من السيل، ووجدوهم عند نقلهم على حالتهم يوم دفنهم. ويبدو أن هذا الذي أكرم الله به شهداء أُحُد عامٌ في الشهداء كلهم

فلم يزل يعثر المسلمون على أجساد دُفنت منذ عشرات السنين ومئات السنين، لم يتغير منها شيء، أو تغير منها شيء قليل، وهذا مقتضى ما أخبر به الله من كونهم أحياء ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- يستحب لمن ظنّ أن أجله قد حضره أن يوصي من يلي أمره من بعده بما يهمّه من مصالحه ومصالح من تهمه أمورهم، كما فعل والد جابر رضي الله عنهما.

٢- مدى رجاحة عقل الصحابي عبدالله بن عمرو، فقد ظن ظناً، وقدّر تقديراً، وقع كما ظنه وقدّره، وهو أنه سيكون أول قتيل في المعركة.

٣- جُودُ صحابة رسول الله ﷺ بأنفسهم في سبيل الله، وتوطينهم أنفسهم على الموت، وعدم تهرّبهم منه.

٤- التخفيف عن المسلمين عندما يصيبهم القرح والجهد، فقد أذِنَ الرسول ﷺ للمسلمين أن يدفنوا قتلاهم الاثنين أو الثلاثة في القبر الواحد، تخفيفاً عنهم لما بهم من العناء غبّ المعركة.

٥- فضل الشهداء بحفظ الله أجسادهم بعد موتهم.

٦- لا يجوز نقل الذين قُتلوا في سبيل الله لدفنهم في مواقع أخرى، بل يُدفنون في مصارعهم.

٧- يجوز نبش القبور بعد الدفن إذا كان في ذلك مصلحة للمدفون، كما فعل جابر بنقل جثة أبيه إلى قبر خاص به، وكان ذلك في حياة الرسول ﷺ ، ولو كان محذوراً لنهى عنه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القصة الرابعة والعشرون
ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر

تمهيد

كان إسلام عمر إعزازاً للإسلام والمسلمين، وقد دعا الرسول ﷺ ربّه بأن يعزّه بأحب الرجلين إليه عمر بن الخطاب أو أبي الحكم ابن هشام الذي دُعِيَ بعد ذلك بأبي جهل.

نص الحديث

عن عمرُ بن محمد، قال: أخبرَني جَدِّي زيدُ بن عبدالله بن عمرَ، عن أبيهِ، قال: «بينما هو في الدارِ خائفاً إذ جاءَهُ العاصِ بنُ وائلِ السَّهميُّ أبو عمرو عليه حلَّةُ حِبَرٍ، وقميصٌ مكفوفٌ بحرير، وهو من بني سَهم، وهم حُلَفاؤنا في الجاهلية، فقال: ما بالُكَ؟ قال: زعمَ قومُكَ أنهم سيقتُلونني إن أسلمتُ. قال: لا سبيلَ إليك. بعد أن قالها أمِنتُ. فخرجَ العاصِ فلقِيَ الناس قد سالَ بهمُ الوادي، فقال: أينَ تريدون؟ فقالوا: نريدُ هذا ابنَ الخطابِ الذي صَبَأ. قال لا سبيلَ إليه. فكرّ الناسُ».

تخريج الحديث

أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار، باب «إسلام عمر بن الخطاب ﵁ ، ورقمه: [٣٨٦٤ وانظره برقم: ٣٨٦٥].

غريب الحديث

حلة حبرة : برد يماني مخطط بالوشي.

سال بهم الوادي : أي: كأنهم سيل لكثرتهم.

صبأ : كانت قريش تسمي من ترك عبادة الأصنام إلى دين آخر بالصابئ.

الحلفاء : جمع حليف، وهو الذي تعاهده، فيحلف لك، وتحلف له.

شرح الحديث

«كان عمر بن الخطاب ﷺ من أشراف قريش، وإليه كانت السفارة في الجاهلية، وذلك أن قريشاً كانت إذا وقعت بينهم حرب، أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيراً، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخِرٌ رضوا به، وبعثوه منافراً ومفاخراً» [الاستيعاب لابن عبدالبر بهامش الإصابة: ٢/ ٤٥٩].

وجاءه شرفه من كونه من قريش من بطن من أشرف بطونها هم بنو عدي، يلتقي نسبه مع الرسول ﷺ في جدّه الثامن وهو كعب، فهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عيد بن كعب بن غالب العدوي [الإصابة: ٢/ ٥١٨].

وكان عمره عند بعثة النبي ثلاثين سنة، فقد وُلد بعد حرب الفجار الأعظم بأربع سنين، وبعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة [الإصابة: ٢/ ٥١٨].

وكان قويّاً في نفسه، قويّاً في جسده، طويل القامة، مهيباً، «أخرج ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن أبي رجاء العطاردي، قال: «كان عمر طويلاً

جسيماً أصلع، أشعر شديد الحمرة، كثير السبلة، في أطرافها صهوبة، وفي عارضيه خفة»، وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند جيد إلى زر بن حبيش، قال: رأيت عمر أعسر أصلع آدم، قد فرع الناس، كأنه على دابة» [الإصابة: ٢/ ٥١٨].

لم يسارع عمر إلى الإسلام عند مبعث الرسول ﷺ ، بل عاداه أشد العداء، ولقي المسلمون منه بلاءً عظيماً، فقد بلغ به الأمر أن يحبس سعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل وهو من أقربائه من بني عدي وزوج أخته فاطمة، لإسلامه، فعن قيس، قال: سمعت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في مسجد الكوفة، يقول: «والله رأيتني، وإنَّ عمر لموثقي على الإسلام، قبل أن يسلم عمر» [البخاري: ٣٨٦٢].

فلما اشتد بلاء قريش بالمؤمنين، دعا الرسول ﷺ ربّه أن يعزّ دينه بأحبّ الرجلين إليه أبو جهل ابن هشام أو عمر بن الخطاب، لقد كان هذان الرجلان نظيرين في الجاهلية، في مكانتهما في قومهما، وفيما يملكانه من القوة الجسدية، والقدرات العقلية، وكلاهما في مرحلة الفتوة والشباب، وكلاهما شديد في نفسه، مهيب في طلعته.

وقد اختار الله لرسوله ﷺ أحبَّ الرجلين إليه، وأزكاهما عنده، لقد أراد الله الخير لعمر بن الخطاب، فآمن وأعزَّ الله به الإسلام، فعن ابن عمر ﷺ وعن أبيه «أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل [ابن هشام] أو بعمر بن الخطاب) قال: وكان أحبهما إليه عمر» [رواه الترمذي: ٣٦٨١. وقال: حديث حسن صحيح غريب].

لقد آمن قبل عمر أربعون رجلاً، وإحدى عشرة امرأة [الاستيعاب: ٢/ ٤٥٩] لقد دعا الرسول ﷺ أن يعزّ الدين بأحب الرجلين، فاستجاب الله لرسوله ﷺ فأعز الدين بإسلام عمر، قال ابن مسعود ﷺ : «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر» [البخاري: ٣٨٦٣].

ولم يقتصر إعزازه الدين على تلك الفترة التي أعقبت إسلامه، بل تجاوزت ذلك، فقد كان ناصراً ومعيناً للرسول ﷺ في حياته، فقد وقف بجانبه بمكة، وهاجر إلى المدينة، وشهد معه المشاهد كلها، بدر، وأُحُد، والخندق وغيرها، وكان نِعْمَ الوزير والمعين لخليفته أبي بكر، وتولى الخلافة، فجيّش الجيوش، وفتح الله به الفتوح، وأدال الله على يديه، دولة الفرس، ودولة الروم، وتفتّقت عبقريته عن نظرات كبار في إدارة الدولة الإسلامية، وقياداتها، فدوّن الدواوين، وراقب الولاة، وعدل في الرعية، وقسّم بالسويّة.

لقد دخل عمر بن الخطاب بكليته في الإسلام، فلم يبقَ في نفسه من الجاهلية شيء، وسبق كثيراً ممن أسلموا قبله، فاحتل المكان الثاني، فكانت مرتبته بعد مرتبة أبي بكر الصديق في الصحابة رضي الله عنهم جميعاً.

وقد أدركت قريش مدى المصاب الجلل الذي حلَّ بها بإسلام عمر، لقد هدَّ عمر ركناً من أركانها في مواجهتها للرسول ﷺ بإسلامه، ولقد أحدث إسلامه ثورة في مكة، وقد أعلن إسلامه إعلاناً يتناسب مع شخصيته الفذة، فقد خرج من منزله بعد إسلامه، فقال: «أيُّ أهل مكة أفشى للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي» قال ابن عمر « فخرج إليه، وأنا معه أتبع أثره، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه، فقال: يا جميل، إني أسلم، قال: فوالله ما ردَّ عليه كلمة، حتى قام عامداً إلى المسجد فنادى أندية قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن الخطاب قد صبأ.

فقال عمر: كذب، ولكني أسلمت، وآمنت بالله ، وصدقت رسوله، فثاوروه، فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم، حتى فتر عمر وجلس، [فقاموا على رأسه] فقال [عمر]: افعلوا ما بدا لكم، فوالله لو كنا ثلاثمائة رجل، لقد تركتموها [لنا] أو تركناها لكم».

هكذا أسلم عمر، فمن اللحظة الأولى أعلن إسلامه على الملأ، ودخل في معركة حامية الوطيس مع قريش كلها في مجامعها، ولم يبالِ بما ينالون منه، وقد خارت قواه، وأعلن لهم أن لو بلغ المسلمون الثلاثمائة لنازلوهم حتى تصبح مكة لأحد الفريقين.

قال ابن عمر: «فبينما هم كذلك قيام [عليه] إذ جاء رجل عليه حلّة حرير، وقميص قومسي، فقال: ما [بالكم]؟ فقالوا: إن ابن الخطاب صبأ.

فقال: فمه؟ امرؤ اختار ديناً لنفسه، أفتظنون أن بني عدي تسلم إليكم صاحبهم؟ قال: فكأنما كانوا ثوباً انكشف عنه.

فقلت له بعد بالمدينة: يا أبه، من الرجل الذي ردّ عنك القوم يومئذ؟ قال: يا بني ذلك العاص بن وائل» [صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للألباني: ٢/ ٣٤٠ ورقمه: ١٨٢٩، ٢١٨١]. وقال فيه: حسن. وانظر التعليقات الحسان [٩/ ١٦/ ٦٨٤٠].

وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر: أن العاص بن وائل جاء عمر بعد إسلامه وهو في داره، وعليه حلّة حبرة، وقميص مكفوف بحرير، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم يقتلونني إن أسلمت، فقال: لا سبيل إليك، فخرج العاص،

فلقي الناس زاحفين إلى منزل عمر كأنهم السيل الهادر، فردّهم العاص، وأخبرهم بتأمينه وحمايته لعمر بن الخطاب [البخاري: ٣٨٦٣].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا ملك الإسلام عليهم نفوسهم، وفقهوه، وهكذا كان حال عمر.

٢- معرفة ما كان عليه عمر من قدرات وإمكانات ومواهب.

٣- قبول رواية الصغار الذين عقلوا ما سمعوه ورأوه، فقد شاهد عبدالله ابن عمر هذه القصة، وسمع ما قيل فيها، وهو ابن خمس سنين، ورواها في كِبَره، فقُبلت منه ورُويت عنه.

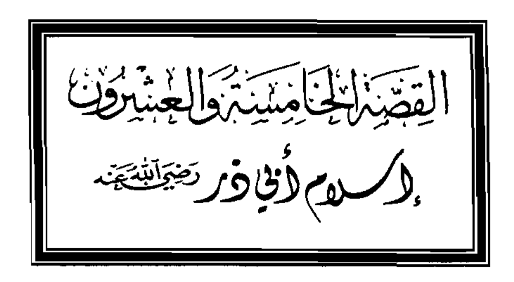
٤- روى هذا الحديث سلسلة كريمة من الرواة من ذرية عمر بن الخطاب، حدث بهذا الحديث عمر بن محمد، عن جدّه زيد بن عبدالله بن عمر، وحدّث به زيد عن عبدالله بن عمر.

٥- معرفة ما كان عليه أهل الجاهلية من احترام وتوقير لأهل المكانة فيهم، فالعاص بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص فرّق الناس من حول منزل عمر، ورد الجموع التي أحاطت بعمر لتنال منه بكلمة واحدة، فقد قال لهم: «وأنا له جار» [البخاري: ٣٨٦٥].

٦- إجابة دعوة الرسول ﷺ ، فقد هدى الله عمر إلى الإسلام، وأعزّ الدين به، وقد بلغ من يأس المسلمين من إسلامه لما رأوه من شدة عداوته

للإسلام وأهله، أن قال عامر بن ربيعة لزوجته ليلى، وكان تركها على ظهر بعيرها، وذهب يطلب حاجة، وهما يريدان الخروج من مكة مهاجرين إلى الحبشة، فرآها عمر بن الخطاب فقال لها قولاً ليّناً، فلما عاد زوجها أخبرته، فقالها: (ترجين أن يسلم؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب) [عزاه الهيثمي إلى الطبراي: ٦/ ٢٤. وفيه ابن إسحاق، وقد صرّح بالسماع فإسناده صحيح].

* * *



تمهيد

هُدِيَ أبو ذر إلى توحيد الله تبارك وتعالى، فلما أن قابل الرسول ﷺ فيما بعد كان إسلامه نوراً على نور، وقد هدى الله قومه به، فكان له مثل أجرهم.

نص الحديث

١- عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ أَبُو ذرٌّ: خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ، وَكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الحَرَامَ، فَخَرَجْتُ أنا وَأَخِي أُنَيْسٌ وَأُمُّنَا، فَنَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا، فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا، فَحَسَدَنا قَوْمُهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ إذا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أُنيسٌ. فَجَاءَ خَالُنَا فَنَثَا عَلَيْنَا الَّذِي قِيلَ لَهُ. فَقُلْتُ: أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَهُ، وَلاَ جِمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدُ. فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا. فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا. وَتَغَطَّى خَالُنَا ثَوْبَهُ فَجَعَلَ يَبْكِي. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ. فَنافَرَ أُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا. فَأَتَيَا الْكَاهِنَ. فَخَيَّرَ أُنيساً، فَأَتَانا أُنيسٌ بِصِرْمَتِنَا ومِثْلِهَا مَعَهَا.

قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ، يَا ابْنَ أَخِي! قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِثَلاَثِ سِنِينَ. قُلْتُ: لِمَنْ؟ قَالَ: للهِ. قُلْتُ: فَأَيْنَ تَوَجَّهُ؟ قَالَ: أَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّي، أُصَلِّي عِشَاءً حَتَّى إذا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُلْقِيتُ كَأَنِّي خِفَاءٌ، حَتَّى تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ.

فَقَالَ أُنَيسٌ: إنَّ لِي حَاجَةً بمَكَّةَ فَاكْفِنِي، فَانْطَلَقَ أُنَيسٌ حتَّى أتَى مَكَّةَ، فَرَاثَ عَلَيَّ، ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلاً بمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ، يَزْعُمُ أنَّ الله أرْسَلَهُ. قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ. وَكَانَ أُنَيسٌ أَحَدَ الشُّعَراءِ.

قَالَ أُنَيسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، فَمَا هُوَ بقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أقْرَاءِ الشِّعْرِ. فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي؛ أنَّهُ شِعْرٌ. وَالله! إنَّهُ لَصَادِقٌ، وَإنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

قَالَ: قُلْتُ: فَاكْفِنِي حَتَّى أذهَبَ فَأنْظُرَ. قَالَ فَأتَيْتُ مَكَّةَ، فَتَضَعَّفْتُ رَجُلاً مِنهُمْ، فَقُلْتُ: أيْنَ هَذا الَّذِي تَدْعُونَهُ الصَّابِئَ؟ فَأشَارَ إلَيَّ، فَقَالَ: الصَّابِئَ. فَمَالَ عَلَيَّ أهْلُ الْوَادِي بكُلِّ مَدَرَةٍ وَعَظْمٍ، حَتَّى خَرَرْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، قَالَ: فَارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ، كَأنِّي نُصُبٌ أحْمَرُ، قَالَ: فَأتَيْتُ زَمْزَمَ فَغَسَلْتُ عَنِّي الدِّمَاءَ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا، وَلَقَدْ لَبِثْتُ، يَا ابْنَ أخِي! ثلاَثِينَ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ، مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إلاَّ مَاءُ زَمْزَمَ. فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي، وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبدِي سَخْفَةَ جُوعٍ.

قَالَ فَبَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ إضْحِيَان، إذ ضُرِبَ عَلَى أسْمِخَتِهِمْ، فَمَا يَطُوفُ بالْبَيْتِ أحَدٌ، وامرأتَيْنِ مِنْهُمْ تَدْعُوَانِ إسَافاً وَنائِلَةَ. قَالَ: فَأتَتَا عَلَيَّ فِي طَوَافِهِمَا، فَقُلْتُ: أنْكِحَا أَحَدَهُمَا الأُخْرَى. قَالَ: فَمَا تَنَاهَتَا عَنْ قَوْلِهِمَا، قالَ: فأتَتَا عَلَيَّ، فَقُلْتُ: هَنٌ مِثْلُ الْخَشَبَةِ، غَيْرَ أنِّي لاَ أكْنِي. فَانْطَلَقَتَا تُوَلْوِلاَنِ، وَتَقُولاَنِ: لَوْ كَانَ هَهُنَا أَحَدٌ مِنْ أنْفَارِنَا! قَالَ: فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ وَأبو بَكْرٍ، وَهُمَا هَابطَانِ.

قَالَ: (مَا لَكُمَا؟) قَالَتَا: الصَّابِئُ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا. قَالَ: (مَا قَالَ لَكُمَا؟) قَالَتَا: إِنَّهُ قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَمْلأُ الْفَمَ. وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى اسْتَلَمَ الْحَجَرَ، وَطَافَ بِالْبَيْتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ، ثُمَّ صَلَّى، فَلَمَّا قَضَى صَلاَتَهُ (قَالَ أَبُو ذَرٍّ) فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلُ مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الإِسْلاَمِ.

قَالَ: فَقُلْتُ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَقَالَ: (وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ). ثُمَّ قَالَ: (مَنْ أَنْتَ؟) قَالَ: قُلْتُ: مِنْ غِفَارٍ، قَالَ: فَأَهْوَى بِيَدِهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: كَرِهَ أَنِ انْتَمَيْتُ إِلى غِفَارٍ، فَذَهَبْتُ آخُذُ بِيَدِهِ، فَقَدَعَنِي صَاحِبُهُ، وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: (مَتَى كُنْتَ هَهُنَا؟) قَالَ: قُلْتُ: قَدْ كُنْتُ هَهُنَا مُنْذُ ثَلاَثِينَ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ. قَالَ: (فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟) قَالَ قُلْتُ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلاَّ مَاءُ زَمْزَمَ. فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي، وَمَا أَجِدُ عَلَى كَبِدِي سَخْفَةَ جُوعٍ. قَالَ: (إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ. إِنَّها طَعَامُ طُعْمٍ).

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ! ائْذَنْ لِي فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَاباً، فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَبِيبِ الطَّائِفِ، وَكَانَ ذلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا، ثُمَّ غَبَرْتُ مَا غَبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ، لاَ أُرَاهَا إِلاَّ يَثْرِبَ، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ؟ عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ).

فَأَتَيْتُ أُنَيساً، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، قَالَ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَأَتَيْنَا أُمَّنَا، فَقَالَتْ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَاحْتَمَلْنَا

حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَاراً، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ. وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ أَيْمَاءُ بْنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ، وَكَانَ سَيِّدَهُمْ.

وَقَالَ نِصْفُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا، فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي، وَجَاءَتْ أَسْلَمُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِخْوَتُنَا. نُسْلِمُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، فَأَسْلَمُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ».

٢- عن أبي جمرةَ قال: «قال لنا ابن عبّاسٍ: ألا أخبرُكم بإسلام أبي ذرٍّ؟ قال: قلنا: بَلى. قال: قال أبو ذرٍّ: كنتُ رجلاً من غِفارٍ، فبلَغنا أنَّ رجلاً قد خرجَ بمكة يَزعُمُ أنَّهُ نبيّ، فقلتُ لأخي: انطلِقْ إلى هذا الرجلِ، كَلِّمْهُ وَائتِنِي بخبره، فانطَلَقَ فلَقِيَه ثمَّ رَجعَ، فقلت: ما عندَك؟ فقال: والله لقد رأيتُ رجلاً يأمُرُ بالخير، وينهى عنِ الشر. فقلت له: لم تَشفِنِي مِنَ الخبر، فأخذتُ جِراباً وعَصاً، ثمَّ أقبلتُ إلى مكةَ فجعلت لا أعرفهُ، وأكرَهُ أن أسألَ عنه، وأشرَبُ من ماءِ زمزَمَ، وأكونُ في المسجدِ، قال: فمرَّ بي عليٌّ فقال: كأنَّ الرجُلَ غريب؟ قال: قلت: نعم. قال: فانطَلِقْ إلى المنزلِ. قال: فانطلَقْتُ معهُ لا يَسألُني عن شيء ولا أُخبرُه.

فلما أصبَحتُ غَدَوتُ إلى المسجدِ لأسأل عنهُ، وليس أحدٌ يخبرُني عنه بشيء، قال: فمرَّ بي عليٌّ فقال: أما نالَ للرجُلِ يعرِفُ منزلَه بعد؟ قال: قلت: لا. قال: انطلِقْ معي، قال: فقال: ما أمرُك، وما أقدَمَكَ هذِه البلدةَ؟ قال: قلتُ له: إن كتمتَ عليَّ أخبرتُك. قال: فإني أفعلُ. قال: قلتُ له: بلَغَنا أنه قد خرَجَ هاهنا رجل يزعُمُ أنهُ نبيّ، فأرسلتُ أخي ليكلمَهُ، فرجعَ ولم يَشفِنِي منَ الخبرِ، فأردتُ أن ألقاهُ.

فقال له: أما إنكَ قد رَشدْتَ، هذا وَجهي إليه، فاتّبعْني، ادخُلْ حيثُ أدْخُلُ، فإني إن رأيتُ أحداً أخافهُ عليكَ قمتُ إلى الحائط كأني أُصلِحُ نَعلي، وامضِ أنتَ. فمَضى ومَضَيتُ معه، حتى دَخَلَ ودَخلتُ معه على النبيِّ ﷺ ، فقلتُ له: اعرِضْ عليَّ الإسلامَ، فعَرَضَهُ، فأسلمتُ مَكاني. فقال لي: (يا أبا ذرّ، اكتُمْ هذا الأمر، وارجِعْ إلى بلَدِكَ، فإذا بَلَغَكَ ظهورُنا فأقبِلْ) فقلتُ: والذي بعثكَ بالحقّ لأصرُخَنَّ بها بينَ أظهُرِهم.

فجاءَ إلى المسجدِ وقرَيشٌ فيهِ فقال: يا مَعشرَ قرَيش، إني أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فقاموا فضُرِبتُ لأموتَ، فأدرَكني العباسُ فأكبَّ عليَّ، ثمَّ أقبلَ عليهم فقال: وَيلَكم، تقتلون رجلاً من غِفارَ، ومَتْجَركُم ومَمرُّكم على غِفار؟ فأقلَعوا عني. فلما أن أصبَحتُ الغدَ رَجعتُ فقلت مثلَ ما قلتُ بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصُنع بي مثل ما صُنِعَ بالأمس، وأدركَني العباسِ فأكبَّ عليَّ، وقال مثلَ مقالته بالأمس. قال: فكان هذا أوَّلَ إسلامِ أبي ذرٍّ رحمه الله)).

تخريج الحديث

الحديث الأول رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن الصامت عن أبي ذر في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي ذر،ورقمه [٢٤٧٣].

والحديث الثاني رواه البخاري عن ابن عباس في كتاب المناقب، باب قصة إسلام أبي ذر، [ورقمه: ٣٥٢٢، ٣٨٦١].

غريب الحديث

نثا : الحديث ينثوه نثواً أظهره.

لا جماع	: أي: لا مجامعة لنا معك، ولا لقاء.
الصِرْمَة	: القطعة من الإبل تبلغ الثلاثين، وتُطلق على القطعة من الغنم أيضاً.
المنافرة	: المفاخرة والمحاكمة.
خيَّر أنَيْساً	: فضله.
كأني خِفاء	: أي: كأني كساء.
راث عليَّ	: أبطأ علي.
أقْراء الشعر	: طرقه وأنواعه.
مدرة	: المدَرَة الطينة المستحجرة.
تضعفت رجلاً	: نظرت إلى أضعفهم.
كأني نصب أحمر	: النصب: الحجر أو الصنم، كان ينصبه أهل الجاهلية، ويذبحون عنده، فيحمر بالدم، قال تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ [المائدة:٣].
حتى تكسرت عكن بطني	: انثنت لكثرة السمن وانطوت.
سخفة جوع	: رقة الجوع وضعفه وهزاله.
قمراء إضحيان	: قمرها طالع، وإضحيان: مضيئة لا غيم فيها.
على أسمِخَتِهِم	: على آذانهم، أي: ناموا نوماً مفرطاً.
فما تناهتا	: ما انتهيتا عن قولهما، بل دامتا عليه.
هَنٌ مثلُ الخشبة	: كناية عن الفرج والذكر.
الولولة	: الدعاء بالويل.
أنفارنا	: رجالنا الذين ينتصرون لنا.
كلمة تملأ الفم	: كلمة قبيحة لا يمكن ذكرها وحكايتها لقبحها.

قَدَعني	: كفني.
طعام طعم	: أي: تشبع صاحبها.
غبرت ما غبرت	: غبت ما غبت.
شَنِفوا له وتجهموا	: أبغضوه، وقابلوه بوجوه غليظة.

شرح الحديث

أبو ذر الغفاري ﷺ من قبيلة غفار، وأصحّ ما قيل في اسمه جندب بن جنادة [الإصابة: ٧/ ١٢٥] أسلم قديماً قبل الهجرة، وكان أبو ذر قد هدي في الجاهلية إلى الكفر بالأصنام وعبادة الرحيم الرحمن، وفي ذلك يقول: «وقد صليت - يا ابن أخي - قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين» فسأله عبدالله بن الصامت قائلاً: «لمن؟ قال: لله، قلت: فأين تُوَجَّهُ؟ قال: أتوجه حيث يوجهني ربي، أصلي عشاءً حتى إذا كان من آخر الليل أُلْقِيتُ كأني خِفَاء، حتى تعلوني الشمس».

فكان يصلي ليله من العشاء إلى آخر الليل، فعند ذلك يلقي نفسه على الأرض كما يُلْقى الكساء لشدة ما يصيبه من تعب وإرهاق.

وكان يعيب أصنام الجاهلية، ويسخر بها، ولا يكنّ لها شيئاً من الاحترام والتوقير، يدلك على ذلك حديثه عن تلك الليلة القمراء المضيئة التي كان فيها بجوار الكعبة، ولم يكن يوجد فيها من يطوف بالكعبة أحد من أهله، ولم يكن إلا امرأتان من أهل مكة تدعوان صنمين منصوبين قرب الكعبة يدعيان إسافاً ونائلة، وهما تطوفان بالكعبة، فأخذ يهزأ بالصنمين اللذين تدعوانهما، وقال لهما فيما قال: أنكحا أحدهما الأخرى، وقال أيضاً: هَنٌ مثل الخشبة، ولكنه لم يكني، وهي كلمة قبيحة، ولذلك أغاظهما

ما سمعاه منه، وخرجتا تولولان، متأسفتين أن لا يوجد في ذلك الوقت في ذلك المكان من رجال أهل مكة من يردع ذلك الصابئ الذي أسمعهما في آلهتهما ما يكرهانه، فقد قال فيهما كلمة تملأ الفم لقبحها وشناعتها.

وهذا الموقف يدلك على ما كان في أبي ذر من غلظة وجفاء، وقد لازمه ذلك حتى بعد إسلامه، فقد كان صادقاً في حديثه، ولم يكن يغلف ذلك الحديث بشيء من اللطف والنعومة، وهذا الذي جلب له المتاعب حتى مع الصحابة فيما بعد.

وقد عرف الرسول ﷺ ذلك فيه، وفيه يقول: (ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء أصدق من أبي ذر) [الترمذي عن ابن عمر ٣٨٠١، وقال فيه هذا حديث حسن] وفي أخرى عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ : (ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق، ولا أوفى من أبي ذر، شبه عيسى ابن مريم عليه السلام) [قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، ٣٨٠٢].

وبسبب طبيعة أبي ذر لم يستطع مساكنة قومه لما يراه فيهم من النقائص، فقد كانوا يحلون الشهر الحرام، فخرج من دياره هو وأخوه أنيس وأمهما في الجاهلية، حتى نزلا على خال لهما، فأكرمهم، وأحسن إليهم، ولكن الوشاة النمامين أفسدوا ما بينهم وبين خالهم حسداً منهم لهم، فقد أغروه بهم إذ زعموا أن أنيساً عندما يخرج من داره يخالف إلى أهله، فيفجر بهم، ولم يكن ذلك الخال حصيفاً، فيتحقق من مدى صدقهم قبل أن يواجههم، ولذلك غضب أبو ذر عندما أعلمهم خاله بما قيل له فيهم، فقال له أبو ذر مبكتاً ومعنّفاً: أمّا ما مضى من معروفك فقد كدّرته، ولا جماع

لك فيما بعد، أي: لا نستطيع أن نبقى معك بعد أن قلت ما قلت، وكان عندهم صِرْمة من الإبل عددها ثلاثون، فركبوها وحملوا متاعهم، ورحلوا وخالهم يبكي بعد أن أدرك خطأه، فقد تسرع فيما رمى أنيْساً به.

فانطلقوا حتى نزلوا بحاضرة أهل الحجاز، مكة المكرمة، فنافر أُنَـيس رجلاً بصِرمتهم على صرمته، فكسب أنيس صرمته، وهذه عادة جاهلية أبطلها الإسلام، وهي مزيج من المفاخرة والمراهنة، يفخر كل واحد من الرجلين على الآخر أمام حكم يختارانه، وقد تحاكما إلى كاهن ليحكم أيهما اجود شعراً، فحكم لأنيس بالفضل وجودة الشعر، فأخذ الصرمتين، وذهب بهما. وأقام أبو ذر هو وأخوه وأمه في موضع قريب من مكة، ونما إلى علمهما أن رجلاً بُعث في مكة يقول: إنه رسول الله، وأنه يأتيه الوحي من السماء، فطلب أبو ذر من أخيه أن يأتيه بخبره، ويعلم له علمه.

وعاد أنيس يحمل الأخبار لأبي ذر «لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله» وكان أنيس رجلاً فطناً نبيهاً يحسن النظر فيما يُعرض له وقد استطاع بما عنده من علم أن يعلم أن الرسول ﷺ صادق فيما جاء به، فأهل مكة كانوا يقولون فيه: كاهن، شاعر، ساحر، وكان قد استمع إلى قول الكُهّان، فأجرى في نفسه مقارنة بين ما سمعه من أقوال الكُهّان وقول الرسول ﷺ، فلم يجد قوله كقولهم، ووجد أن بينهما بوناً شاسعاً.

وقارن أنيس مرة أخرى بين القرآن وشعر العرب، فلم يجده يوافق أشعار العرب لا في أوزانها ولا طرائقها، وقد اهتدى بما لديه من عقل، وفِقهٍ لكلام العرب إلى أنه صادق فيما جاء به، وأنهم كاذبون فيما رموه به.

ونظر أنيس فيما يدعو إليه، فوجده يأمر بمكارم الأخلاق، والسحرة لا تدعو إلى مثل ذلك.

لقد شوّق أنيس أبا ذر لمقابلة الرسول ﷺ ، فتزوّد من الطعام، وحمل معه قربة ماء، وانطلق إلى مكة، وقد حذّره أخوه عند انطلاقته من أهل مكة، وكل من يقربه ويلوذ به، فإنه يلقى من أذاهم الكثير، ولم يتّعظ أبو ذر بما وعظه به أخوه، فما أن وصل مكة حتى قصد رجلاً ضعيفاً فسأله عن ذلك الذي يدعونه الصابئ، فما سمع ذلك منه حتى صاح بأعلى صوته مهيّجاً أهل مكة عليه، زاعماً وهو يشير إليه أنه صابئ، فمالَ عليه الناس يضربونه بما وصلت أيديهم إليه من عظم، أو عصي، أو مَدَر، حتى سقط مغشياً عليه، فلما أفاق وجد نفسه مسربلاً بالدماء، كأنه النصب الذي ينحر عليه أهل الجاهلية ذبائحهم، فيغرقونه بدمائها، فتحامل على نفسه حتى جاء زمزم، فغسل عنه دماءه، وشرب منها حتى ارتوى.

ووعى أبو ذر الدرس بعد ذلك، فلم يسأل أحداً خشية أن يورده ذلك السؤال المهالك، وبقي ثلاثين ما بين ليلة ويوم، ليس له ما يأكله، ولم يدخل بطنه إلا ماء زمزم، ووجد أبو ذر بركة ذلك الماء، فقد كان يشربه، فيجد أنه قد شبع، ولا يحسُّ بألم الجوع، وظهر فيه السمن، حتى تكسرت عكن بطنه.

ولابد أنه كان يراقب طيلة المدة التي قضاها في المسجد، فهناك كانت مجامع قريش، وتلك مجالسهم، وفيها تكون أحاديثهم، ولا شك أن خبر رسول الله ﷺ كان أحد الموضوعات الرئيسة التي كانت تدور في مجالسهم، ولا شك أنه قد استطاع أن يتعرف على الرسول ﷺ عبر ذلك كله، ولذلك

فإن الرسول ﷺ عندما جاء المسجد هو وأبو بكر في تلك الليلة القمراء المنيرة التي سخر فيها من عبادة تلك المرأتين وأصنامهما، جاء أبو ذر إلى الرسول ﷺ وأبي بكر بعد أن فرغا من طوافهما وصلاتهما، فسلّم على الرسول ﷺ بتحية الإسلام، وقال له: «السلام عليك يا رسول الله، فقال: (وعليك السلام ورحمة الله) فبادره الرسول ﷺ بالسؤال عن نفسه، فقال: من غفار، قال: فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته، والرجل إنما يفعل ذلك إذا كان الكلام الذي ألقي فيه ما يستدعي النظر والتأمل، وقد ظن أبو ذر أن الرسول ﷺ فعل ذلك لأنه كره انتمائه إلى غفار، فذهب أبو ذر ليأخذ يد الرسول ﷺ ، ولكن أبا بكر منعه من ذلك، فقد كان أعلم منه بالرسول ﷺ ، ولا يليق به أن يفعل ذلك برسوله.

والذي أظنه - والله أعلم بالصواب - أن الرسول ﷺ إنما وضع يده على رأسه، لأنه كان قد رأى أبا ذر في المسجد منذ أيام طويلة، ولم يلتفت إليه، ولم يكن يظن أنه قد ورد مكة قاصداً إليه، فلما أعلمه أبو ذر أنه من غفار، فعل ما فعله، يدلك على صحة ذلك أنه ﷺ رفع رأسه، وسأله عن مقدار مكثه، ثم سأله عمن كان يطعمه، مما يدل على أن وضع الرسول ﷺ يده على رأسه كونه لم يبحث عن حاله عندما رآه مرة بعد مرة في الحرم.

وطلب أبو بكر من الرسول ﷺ أن يأذن له باستضافة أبي ذر في داره تلك الليلة، وضيَّف أبو بكر الرسول ﷺ وأبا ذرٍّ من زبيب الطائف، وكان هذا الطعام أول طعام أكله أبو ذر بعد تلك الأيام الطويلة.

ثم غاب أبو ذر عن الرسول ﷺ مدة من الزمان، ثم جاءه أخرى، فأخبره الرسول ﷺ أنه قد وجّه إلى يثرب لتكون دار هجرة، فقد ثبت في الأحاديث أنه وُجِّه إلى أرض ذات نخل، وقال هنا: (ما أراها إلا يثرب).

وطلب منه أن يبلغ قومه عنه، لعل الله أن يهديهم به، فينال أجر هدايتهم، ورجع أبو ذر إلى أخيه وأمه، فأسلما بإسلامه، ثم ارتحلوا إلى قومهم فأسلم نصفهم، وكان يؤمهم في الصلاة سيدهم أيْماء بن رحضة الغفاري، وقال النصف الثاني: إذا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا، وكذلك وقع الأمر، وجاءت أسلم الرسول ﷺ فأسلموا على مثل ما أسلمت غفار عليه، فقال الرسول ﷺ (غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله).

وروى البخاري ومسلم قصة إسلام أبي ذر عن ابن عباس، وفيها اختلاف بين ما رواه عبدالله بن الصامت، وفي حديث ابن عباس: أن أبا ذر عندما بلغ المسجد الحرام، تحرّز من السؤال عن الرسول ﷺ أشد التحرّز، فلم يسأل عنه أحداً، وبقي في المسجد إلى الليل، فمرّ به علي بن أبي طالب، فعرف أنه غريب، فذهب به إلى منزله، ولم يسأل أحدهما الآخر عن شيء حتى أصبح، فذهب إلى المسجد يلتمس رسول الله ﷺ ، وبقي فيه حتى الليل، ومرَّ به علي في الليلة الثانية، وفعلا كما فعلا بالأمس، وفي الليلة الثالثة سأله عليٌّ عن حاجته، فطلب منه أبو ذر العهد والميثاق حتى يخبره، فلما أعطاه أخبره بأمره، فأخبره عليٌّ أن محمداً حق، وأنه رسول الله ﷺ ، وأوصله إلى الرسول ﷺ ، بطريقة فيها حذر شديد، مما يدل على مدى معاناة الرسول ﷺ وأصحابه في تلك الفترة، ولما قابل الرسول ﷺ ، لم يتردد، ولم يتلكأ وأسلم مكانه، وطلب منه الرسول ﷺ أن يرجع إلى قومه، فيدعوهم، حتى يأتيه أمره، فأصر أبو ذر أن يعلن إسلامه في مجامع قريش، فلما شهد الشهادتين، بأعلى صوته في المسجد، قاموا إليه فضربوه حتى ألقوه على الأرض، ولم ينقذه منهم إلا العباس عمّ الرسول ﷺ ، وعاد أبو ذر من الغدّ لمثلها، وعاد العباس لينقذه منهم مرة أخرى.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- في الحديث ذكر جملة من فضائل أبي ذر، منها:

أ- سبق أبي ذر إلى الإسلام، فقد أسلم بعد البعثة بقليل، أيام أن كان المسلمون يسرّون بدينهم.

ب- هداية الله له إلى التوحيد، وعبادة الله مخلصاً له الدين، وكفر بالأصنام.

ج- مفارقته قومه قبل الإسلام لأنهم يستحلّون الشهر الحرام.

د- حُسْن علاقته بأخيه وأمّه.

ه- حُسْن تصرفه في وصوله إلى الرسول ﷺ في بحثه عنه، وعدم تلكئه ولا تردده في الإسلام.

و- كان أول من سلَّم بتحية الإسلام، وهي السلام عليكم ورحمة الله.

ز- إعلانه إسلامه في مجامع قريش ومحافلها، وصبره على ما أصابه من أذى جراء ذلك.

ح- اهتداء قومه بدعوته لهم، ودخولهم جميعاً في دين الله.

٢- كانت العرب تغار من الاعتداء على الحرمات، كما فعل خال أبي ذر عندما ذكر له ما ذكر.

٣- صورة من صور أكل الجاهلية المال بالباطل عن طريق المفاخرة والمراهنة بالمال، فكان الحكم يحكم بالمال المراهَن عليه، فيفوز به كله الأفضل من المتفاخرين.

٤- شدة الأمر على الرسول ﷺ في الفترة السريّة، حيث كان يضرب ضرباً مبرحاً من كان يُتّهم بالإسلام، حتى يكاد يفضي به الضرب إلى الموت.

٥- كان في العرب من يحسن التدبر والتفكير، ويصل من هذا الطريق إلى الحق، فقد توصل أنيس من خلال علمه بكلام الكهان، ومعرفته بالشعر وأوزانه، ومعرفته بطبيعة السحر، أن القرآن شيء آخر غير ذلك كله.

٦- فضل ماء زمزم، وإخبار الرسول ﷺ أنه طعام طعم وشفاء سقم، وكيف اكتفى به أبو ذر تلك المدة الطويلة عن الطعام، حتى ظهر فيه السمن.

٧- ذكر ما كانت عليه قريش من الجهل وعبادة الأصنام، ودعائها من دون الله، فقد وقع من المرأتين دعاء الصنمين إسافاً ونائلة من دون الله.

٨- رؤيا الرسول ﷺ ، وعلم الرسول ﷺ بتأويل الرؤيا، فقد رأى أنه يهاجر إلى أرض بين حرتين، فأولها بيثرب، ووقع الأمر على ما أولها عليه.

٩- حُسْن تصرف علي بن أبي طالب في قيادته أبي ذر إلى منزل الرسول ﷺ من غير أن يلفت أنظار الخصوم إلى ما يقوم به.

١٠- حُسْن احتيال العباس في إنقاذ أبي ذر من بين أيدي المفترين.

* * *



تمهيد

عمرو بن عبسة شبيه أبي ذرٍّ، كان يبغض الأوثان في الجاهلية، آمن بالرسول ﷺ في مكة قديماً، وبقي كذلك حتى أظهر الله الدين الحقّ.

نص الحديث

عَنْ أَبي أُمَامَةَ قَالَ، قَالَ: عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ السُّلَمِي: كُنْتُ، وَأَنَا في الْجَاهِلِيَّةِ، أظنُّ أنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ برَجُلٍ بمَكَّةَ يُخبرُ أخْبَاراً، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإذا رَسُولُ الله ﷺ مُسْتَخفِياً، جُرَآءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بمَكَّةَ.

فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنتَ؟ قَالَ (أنا نَبِيٌّ). فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: (أَرْسَلَنِيَ الله) فَقُلْتُ: وَبأَيِّ شَيْءٍ أرسلَكَ؟ قَالَ: (أَرْسَلَنِي بصِلَةِ الأَرْحَامِ، وكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ الله لاَ يُشْرَكُ بهِ شَيْءٌ) قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذا؟ قَالَ: (حُرٌّ وَعَبْدٌ) «قَالَ: وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبلاَلٌ مِمَّنْ آمَنَ بهِ» .

فَقُلْتُ: إنِّي مُتَّبعُكَ. قَالَ: (إنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذلك يَوْمَكَ هَذا. ألاَ تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنِ ارْجِعْ إلَى أَهْلِكَ. فَإذا سَمِعْتَ بي قَدْ ظَهَرْتُ فأْتني)، قَالَ: فَذهَبْتُ إلَى أَهْلِي. وَقَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ. وَكُنْتُ في أَهْلِي.

فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الأَخْبَارَ وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ. حَتَّى قَدِمَ عَلَيَّ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مِنْ أَهْلِ المدِينةِ. فقلت: مَا فَعَلَ هَذا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ، قَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذلِكَ. فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: (نَعَمْ. أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ؟) قَالَ: فَقُلْتُ: بَلَى.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة، باب إسلام عمرو بن عبسة، ورقمه: [٨٣٢].

غريب الحديث

جُرَآء : جمع جريء من الجرأة، أي: أن قومه متسلطون عليه، جريئون عليه، لقلة من معه.

ما أنت : أي: ما صفتك، وما شانك.

إني متّبعك : أي: على إظهار الإسلام والإقامة معك.

شرح الحديث

الصحابي صاحب هذه القصة هو عمرو بن عبسة السلمي، وبين قصته وقصة أبي ذر شبه من وجوه، فكلاهما كان يبغض الأوثان، ويحرّم عبادتها، وكلاهما يرى أن الناس في ذلك الزمان على ضلالة، وكلاهما سمع بالرسول ﷺ بعد بعثته، فهب إلى مكة مستخفياً يريد معرفة ما يدعو إليه، وكلاهما أسلم في أوائل من أسلم بعد البعثة بقليل، وكلاهما أمره

الرسول ﷺ أن يعود إلى قومه حتى يعلم بظهوره، وكلاهما خرج إلى الرسول ﷺ بعد هجرته، واستعلان أمره، ونصر الله له على من ناوأه.

وذكر ابن حجر أنه يقال: إن عمراً هذا كان أخاً لأبي ذر لأمه، وأن اسم أمهما رملة بنت الوقيعة [الإصابة: ٢/ ٥] ولذلك فلا عجب من ذلك التشابه الكبير بين قصّتيهما، وهذا يرجح أنه كان يوجد بينهما تواصل وتشاور.

وذكر ابن حجر أيضاً في [الإصابة: ٢/ ٦] عن عمرو قوله: «رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية، ورأيت أنها لا تضر ولا تنفع، يعبدون الحجارة، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب، فسألته عن أفضل الدين، فقال: يخرج رجل من مكة، ويرغب عن آلهة قومه، ويدعو إلى غيرها، وهو يأتي بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه، فلم يكن لي همّة إلا مكة، أسأل هل حدث فيها أمر إلى أن لقيت راكباً فسألته، فأخبره ببعثة النبي ﷺ .

وفي هذا الحديث الذي رواه مسلم أنه لما سمع بخروج النبي ﷺ، رحّل ناقته، فقعد عليها، وتوجه إلى مكة، وهناك بقي يبحث بلطف حتى دخل على الرسول ﷺ ، فسأله عن شأنه، فأخبره أنه نبي، مبعوث من عند الله، وعندما سأله عما أرسله الله به، أخبره أنه أمره بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحّد الله لا يشرك به شيئاً، وسأله عمن استجاب له، فقال: حرٌّ وعبد، وهما أبو بكر وبلال رضي الله عنهما، ونصحه أن يرجع إلى قومه، حتى يعلم بظهوره، ولما علم بهجرته إلى المدينة وظهوره على من عاداه، خرج مهاجراً إلى الله ورسوله ﷺ والتقى بالرسول ﷺ ، وطلب منه أن يعلّمه مما علّمه الله، فعلّمه الصلاة وأوقاتها، والوضوء وفضله، وشهد بعد ذلك مع الرسول ﷺ المشاهد حتى توفاه الله.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- فضل عمرو فيما هداه الله إليه من توحيد الرحمن وبُغْض عبادة الأوثان، وانتظار بعثة نبي الهدى، حتى إذا علم بخروجه أسرع إليه وآمن به.

٢- فضل عمرو في أنه كان من الأولين السابقين إلى الإسلام، وفضله في هجرته إلى الرسول ﷺ بعد استقراره في المدينة، واستعلان أمره.

٣- طلب عمرو العلم من رسول الله ﷺ ، وأصبح هذا العلم الذي علمه من رسول الله ﷺ مما يتناقله رواة الحديث، ويعلّمه علماء المسلمين وأئمة الإسلام في مجالسهم العلمية عموم المسلمين.

٤- لم تكن الهجرة قصراً على أهل مكة، فعمرو بن عبسة صاحب هذه القصة لم يكن مكيّاً.

* * *



تمهيد

كان عديّ بن حاتم سيد قومه، وكان نصرانياً قبل إسلامه، وقد نظر في حال الرسول ﷺ فهداه نظره إلى أنه رسول الله حقاً، وهذا الحديث الذي استمددنا منه هذه القصة يعرفنا باللقاء الأول بين عدي ورسول ربّ العالمين، صلوات الله وسلامه عليه.

نص الحديث

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ فقَالَ الْقَوْمُ: «هَذا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، وَجِئْتُ بغَيْرِ أَمَانٍ وَلاَ كِتَابٍ، فَلَمَّا دُفِعْتُ إِلَيْهِ أَخَذَ بيَدِي، وَقَدْ كانَ قَالَ قَبْلَ ذلِكَ: إِنّـِي لأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ الله يَدَهُ فِي يَدِي، قَالَ: فقَامَ فَلَقِيَتهُ امْرَأَةٌ وصَبِيٌّ مَعَها، فقَالاَ: إِنَّ لَنَا إِلَيْكَ حَاجَةً، فقَامَ مَعَهُمَا حَتَّى قَضَى حَاجَتَهُمَا، ثُمَّ أَخَذَ بيَدِي حَتَّى أَتَى بي دَارَهُ، فَأَلْقَتْ له الْوَلِيدَةُ وِسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا، وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا يُفِرُّكَ أَنْ تَقولَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلهٍ سِوَى الله؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: ثُمَّ تَكَلَّمَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا تَفِرُّ أَنْ تَقُولَ: الله أَكْبَرُ، وتَعْلَمُ أَنَّ شَيْئاً أَكْبَرُ مِنَ الله؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَإِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلاَّلٌ. قَالَ: قُلْتُ: فَإِنِّي حَنِيفٌ مُسْلِمٌ، قَالَ: فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ تَبَسَّطَ فَرَحاً.

قَالَ: ثُمَّ أمَرَ بي فَأُنْزِلْتُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الأنْصَارِ جَعَلْتُ أغْشَاهُ آتِيهِ طَرَفَيِ النَّهارِ، قَالَ: فَبَيْنَا أنا عِنْدَهُ عَشِيَّةً إذْ جَاءَهُ قَوْمٌ في ثِيَابٍ مِنَ الصُّوفِ مِنْ هذِهِ النِّمارِ.

قَالَ: فَصَلّى وَقَامَ فَحَثَّ عَلَيْهِمْ، ثُمّ قَالَ: (وَلَوْ صَاعٌ، وَلَوْ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَلَوْ بِقَبْضَةٍ، وَلَوْ بِبَعْضِ قَبْضَةٍ، يَقِي أحَدُكُمْ وَجْهَهُ حَرّ جَهَنَّمَ، أوِ النَّارِ، وَلَوْ بِتَمْرَةٍ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فإنَّ أَحَدَكُمْ لاَقِي الله، وَقَائِلٌ لَهُ مَا أقُولُ لَكُمْ: ألَمْ أجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وَبَصَراً؟ فيقولُ: بَلَى، فَيقُولُ: ألَمْ أجْعَلْ لَكَ مَالاً وَوَلَداً؟ فَيقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمالِهِ، ثُمَّ لاَ يَجِدُ شَيْئاً يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ، لِيَقِ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فإنِّي لاَ أخَافُ عَلَيْكُمُ الْفَاقَةَ، فَإنَّ الله نَاصِرُكُم، وَمُعْطِيكُمْ حَتَّى تَسيرَ الظَّعِينَةُ فيما بَيْنَ يَثْرِبَ وَالحِيرَةِ أكْثَرَ مَا تَخَافُ عَلَى مَطِيَّتِهَا السَّرَقَ) قَالَ: فَجَعَلْتُ أقُولُ في نَفْسِي: فَأَيْنَ لُصُوصُ طَيِّئٍ.

قَالَ أبُو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إلاّ مِنْ حَدِيثِ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ. وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عَبَادِ بْنِ حُبَيْش، عَنْ عدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْحَدِيثَ بِطُولِهِ.

تخريج الحديث

رواه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة الفاتحة، ورقمه: [٢٩٥٣].

غريب الحديث

ما يُفِرُّك : أي: ما الذي يجعلك تَفِرُّ وتهرب من الإسلام.

الحنيف : المائل عن الشرك، المستقيم على الإسلام.

شرح الحديث

صاحب هذه القصة هو عدي بن حاتم الطائي، أبوه أحد الأجواد في الجاهلية، أسلم في سنة تسع، وقيل: سنة عشر، وكان نصرانياً قبل ذلك، قال حاتم: «لما بُعِث النبي ﷺ كرهته كراهية شديدة، فانطلقت حتى كنت في أقصى الأرض، مما يلي الروم، فكرهت مكاني أشدّ من كراهته، فقلت: لو أتيته، فإن كان كاذباً لم يخف عليّ، وإن كان صادقاً اتبعته، فأقبلت، فلما قدمت المدينة استشرفني الناس، فقالوا: عدي بن حاتم» [الإصابة: ٢/ ٤٦٨].

وقد حدثنا عدي بن حاتم في حديث الترمذي أنه أتى الرسول ﷺ وهو جالس في المسجد، وكان عدي رئيس قومه وقبيلته، وكان مشهوراً معروفاً، فلما رآه الناس، قالوا: هذا عدي بن حاتم، وكان قد جاء من غير أن يرسل له الرسول ﷺ خطاباً، ولم يأخذ له أحد من الرسول ﷺ الأمان، فلما دخل مجلس رسول الله ﷺ أخذ الرسول ﷺ بيده، وكان الرسول ﷺ قال قبل ذلك: إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي، ثم قام الرسول ﷺ منطلقاً إلى منزله، ويد عدي في يد الرسول ﷺ ، فلقيته امرأة وصبي، فقالا للرسول ﷺ : إن لنا إليك حاجة، ثم أخذ بيد حاتم فانطلق حتى جاء به داره، فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها وجلس حاتم بين يديه.

ورد عدي المدينة يريد أن يتعرف إلى الرسول ﷺ وأنه صادق فيما جاء به، ولا شك أنه كان يلحظ كل ما يجري أمامه، لقد رأى الرسول ﷺ جالساً على أرض المسجد بكل تواضع غير متميز عن أصحابه بشيء، لم توضع له

الفرش والنمارق التي يتخذها الملوك والأمراء، وكان أصحابه يحيطون به، وهم على النمط الذي هو عليه، في لباسهم وجلوسهم وهيئتهم، وخرج من مسجده كما يخرج أي رجل من المسجد، لم تهيأ له المراكب، ولم يحط به الحرس من أمامه، ولا من خلفه، وأخذ بيده كما يأخذ الصديق بيد صديقه، وقابلته امرأة وصبي، لهما إليه حاجة، فلم يتعالَ عن الوقوف معهما، وتنحى بهما إلى طريق جانبي حتى قضى لهما مطلبهما، ودخل عدي دار الرسول ﷺ فوجد غرفة متواضعة، يستقبل بها ضيوفه، ليس فيها من متاع الدنيا شيء تقتحمه العين، وألقت له الخادمة وسادة جلس عليها، وجلس عدي أمامه.

لاشك أن عدياً وهو اللبيب الفطن أدرك بحسن ملاحظته أن محمداً ﷺ رسول الله حقاً، فكل شيء فيه ينطق بذلك ويدلّ عليه، ولذلك كان مستغرباً من مثل عدي أن يفر من الإسلام، ويهرب منه.

ولذلك فإن الرسول ﷺ بعد وصوله داره، وقعود عدي بين يديه أخذ يحمد الله وأثنى عليه، وأخذ يسأله عن السبب الذي يفره عن الإسلام حتى يصل إلى أقصى الأرض، فقال له: (ما يفرك أن تقول: لا إله إلا الله، فهل تعلم من إله سوى الله؟) قال: قلت: لا، ثم قال: (إنما تفر أن تقول: الله أكبر، وتعلم أن شيئاً أكبر من الله؟) قال: قلت: لا، قال: (فإن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال)، قال: «فإني جئت مسلماً، قال: فرأيت وجهه تبسط فرحاً».

لم يحتج عدي إلى جولات كثيرة حتى يدخل في الإسلام، ويصبح من صحابة رسول الله ﷺ ، وقد كان الرسول ﷺ يعرف أقدار الرجال

ومنازلهم، فعدي سيد في قومه، وكان مرفهاً منعماً، فلم يضعه مع فقراء المسلمين الذين ينزلون الصفة، بل أمر به، فأنزل عند رجل من الأنصار، وأخذ يغشى رسول الله ﷺ صباحاً مساء، ويؤخذ عنه العلم، وقد حدّثنا في بقية هذا الحديث وأحاديث أخرى عما استفاده من الرسول ﷺ وعما شاهده من وقائع.

وقد ثبت عدي على الإسلام حتى أتاه الموت بعد عمر مديد، وهو على ما تركه عليه الرسول ﷺ ، وقد شهد له عمر بن الخطاب في خلافته، عندما قال له: «والله إني لأعرفك، آمنت إذ كفروا، وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وإن أول صدقة بيَّضت وجه رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه صدقةُ طيِّئ، جئت بها إلى النبي ﷺ » [عزاها محقق جامع الأصول إلى أحمد في مسنده برقم: ٣١٦. وأخرج البخاري قطعة منها برقم (٤٣٩٤)، ووهم ابن الأثير فعزا ما رواه البخاري لمسلم، وما رواه أحمد للبخاري. وذكر أن مسلماً ذكر جزءاً من هذا الحديث برقم (٢٥٢٣). راجع: جامع الأصول: ٩/ ١١٤ ومسند الإمام أحمد: ١/ ٤٠٤-٤٠٥ (٣١٦)].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

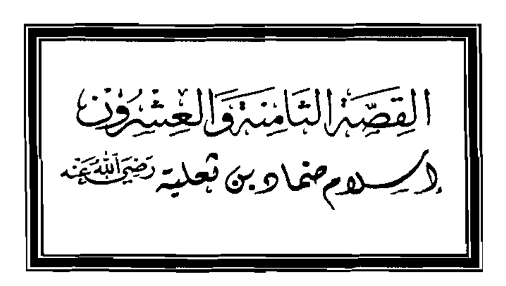
١- ذكر أنموذج من نماذج الهداية إلى الإسلام، تمثل في طريقة إسلام عدي ابن حاتم الطائي.

٢- ذكر الطريقة التي استقبل الرسول ﷺ عدياً بها، وكيف عرّفه بالإسلام، وشرحه له، فدخل فيه من غير اعتراض، ولا تأخير.

٣- لم يحابِ الرسول ﷺ عدياً ولم يجامله في دينه، بل صرّح له بأن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال، فالتصريح بذلك ضروري لمن نريد تعريفه الهداية.

٤- اليسر في تعامل الرسول ﷺ مع أصحابه، والوفود الذين يقدمون عليه من الرجال والنساء والصبيان.

* * *



تمهيد

كان ضماد بن ثعلبة يرقي من الجن، وقد ظن أن النبي أصابه شيءٌ من ذلك، فلما سمع كلام الرسول ﷺ ، وجده بعيداً عن الجنّ فأسلم.

نص الحديث

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «أنَّ ضِمَاداً قَدِمَ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ. فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إنَّ مُحَمَّداً مَجْنُونٌ. فقَالَ: لَوْ أنِّي رَأَيْتُ هَذا الرَّجُلَ لَعَلَّ الله يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ. فقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإنَّ الله يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : (إنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ الله فلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إلَهَ إلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لهُ، وَأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أمَّا بَعْدُ:).

قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ، ثلاَثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلاَءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ قاموسَ الْبَحْرِ، قَالَ:

فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أبايعْكَ عَلَى الإسْلاَمِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (وَعَلَى قَوْمِكَ) قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي.

قَالَ: فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ سَرِيَّةً فمَرُّوا بقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ شَيْئاً؟ فَقَالَ رَجَلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً. فَقَالَ: رُدُّوهَا. فَإِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ».

تخريج الحديث

روه مسلم في صحيحه في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ورقمه: [٨٦٨].

غريب الحديث

قاموس البحر : أي: وسطه ومعظمه.

سرية : السرية الطائفة من الجيش الذي يسيرون إلى العدو ليلاً، كيلا يعرف أمرهم.

مطهرة : المطهرة والإداوة: السطيحة.

شرح الحديث

كان ضماد بن ثعلبة الأزدي صديقاً للرسول ﷺ في الجاهلية، وكان يتعاطى الطب، [الإصابة: ٢/ ٢١٠] فجاء مكة بعد مبعث النبي ﷺ، وسمع سفهاء أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون، فهيّجه قولهم على إتيان الرسول ﷺ لعلاجه، ورفع ما به من بلاء.

فجاءه وأخبره أنه يرقي من مسّ الجن، وأنه جرّب ذلك، فشفى الله على يديه من شاء من عباده، وكان ردُّ الرسول ﷺ أن كَلَّمَه بكلام لا يتكلمه إلا من كان في الذروة من العقل وإحسان القول، فكان ذلك أبلغ من قوله: إنني لست بمجنون، لأن هذا الرد ليس فيه الدليل على عدم الجنون، بخلاف ما قاله أولاً، ففيه تكذيب من قال: إنه مجنون، وهو في الوقت نفسه دليل على أنه في غاية العقل، وأنه صادق فيما يدّعيه من النبوة.

والكلمات التي أسمعها ضماداً ليست بقرآن، ولكنها كلمات قليلة العدد، قوية السبك، مترابطة المعاني، حوتْ من ذكر الله وتمجيده، والشهادة لله بالوحدانية، ولمحمد بالرسالة ما لا يوجد مثله لا عند ضماد ولا غيره، وهذه الكلمات هي المعروفة بخطبة الحاجة، كان الرسول ﷺ يبدأ بها خطبة الجمعة وغيرها من الخطب، وقد أخذت هذه الكلمات على ضماد مجامع نفسه، وشدّته إليها بقوة، حتى إنها لقوّتها وحلاوتها وبلاغتها جعلته يطلب من الرسول ﷺ أن يعيدها عليه ثلاث مرات، واسمعْ أثر هذه الكلمات في نفس ضماد، فقد قال للرسول ﷺ: «لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، وقد بلغن قاموس البحر».

وقد انزاحت عنه الشبهة التي تتقوّلها قريش على الرسول ﷺ، وعلم أنها باطل، وقال للرسول ﷺ: «هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه» فقال الرسول ﷺ: (وعلى قومك) فقال: «وعلى قومي».

وعرف الصحابة لضماد وقومه المبايعة التي بايعه بها الرسول ﷺ فقد مرت سرية بعث بها الرسول ﷺ إلى موضع قبيلة ضماد، فقال أمير السرية: «هل أصبتم من هؤلاء القوم شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة، فقال: ردّوها فإن هؤلاء قوم ضماد».

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- معرفة طريقة من الطرائق التي كان بها إسلام بعض الصحابة، فضماد ذهب إلى الرسول ﷺ ليعالجه من الداء الذي يرميه به قومه، فتبيّن له أنه هو المريض، وأن شفاءَه عند الرسول ﷺ.

٢- نباهة الرسول ﷺ وإحسانه الجواب، فعندما عرض عليه ضماد أن يعالجه، قرأ عليه كلمات في غاية القوة والبلاغة، لا يوجد عنده مثلها، فاستدل مما تلاه عليه، أن هذا الرجل صادق في دعواه النبوة، وأن ما يرميه به قومه محض كذب وافتراء.

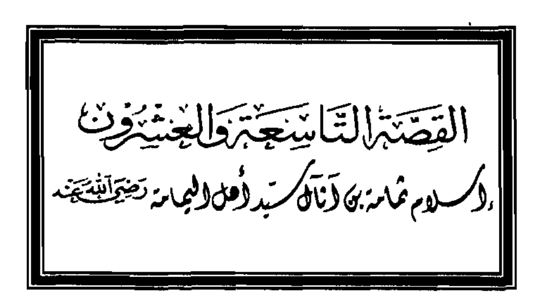
٣- فضل الكلمات التي قالها الرسول ﷺ والتي تدعى بخطبة الحاجة، وأن على طالب العلم أن يفقه ما حوته من معاني، وأن على العلماء تفقيه الناس بما حوته من علم.

٤- في القرآن وكلام الرسول ﷺ الردود الواضحة على الشبه والافتراءات التي يُرمَى بها الكتاب والسنّة، ولو أحسن العلماء عرض الكتاب والسنّة على أهل الكفر لأدخلوا في الإسلام من يريد الله هدايته.

٥- الآثار السيئة التي يُحدثها الإعلام المضلل، ومن ذلك تلك الشبهات التي نشرها أهل مكة عن القرآن والرسول ﷺ والصحابة.

٦- الأكاذيب لا تثبت في وجه الحق، كما أثّرت كلمات الرسول ﷺ على ضماد، فأزال ما كان بنفسه من الشبهة، التي نشرتها قريش.

٧- كان أهل الجاهلية يعرفون الرقية من الجن، وكان الراقون يشفون برقاهم من تلك الأدواء.



تمهيد

كان ثمامةُ سيداً في قومه، ودخل في الإسلام وهو على ذلك وشاء الله له الهداية فاهتدى، وقطع عن أهل مكة الطعام، حتى أذن الرسول ﷺ به.

نص الحديث

عن سعيد بن أبي سعيد أنهُ سمعَ أبا هريرة ﷺ قال: «بَعث النبيُّ ﷺ خيلاً قِبَلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفةَ، يقال له ثُمامة بن أُثال، فرَبطوهُ بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبيُّ ﷺ فقال: (ماذا عندَك يا ثمامة؟).

فقال: عندي خيرٌ، يا محمدُ، إن تَقتلني تَقتلْ ذا دم، وإن تُنعِم تنعم على شاكر، وإن كنت تريدُ المالَ فسلْ منه ما شئت، فتُرِك حتى كان الغَد. ثم قال لهُ: (ما عندَك يا ثمامة؟) فقال: ما قلتُ لك: إن تُنعِم تنعمُ على شاكر. فتركه حتى كان بعدَ الغدِ فقال: (ما عندك يا ثمامة؟) فقال: عندي ما قلت لك. قال: (أطلقوا ثمامة)، فانطلَقَ إلى نخلٍ قريبٍ من المسجدِ فاغتسلَ، ثم دخل المسجدَ فقال:

أشهد أن لا إلهَ إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وَجهك، فقد أصبح وَجهكَ أحبَّ

الوجوهِ إليّ، والله ما كان من دِينٍ أبغضَ إليَّ من دِينك، فأصبح دينك أحبَّ الدِّينِ إليَّ، والله ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبحَ بلدكَ أحبَّ البلاد إليّ، وإن خَيلَكَ أخذتني، وأنا أُريد العمرةَ، فماذا ترى؟

فبشَّره رسول الله ﷺ ، وأمَرَه أن يَعتمر. فلما قدِمَ مكة قال له قائل: صَبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامَةِ حَبةُ حِنطة حتى يأذن فيها النبيُّ ﷺ » .

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في مواضع منه، وأتمها في كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، رقم: (٤٣٧٢) وانظره في: (٤٦٢، ٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣، ٤٣٧٢) ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير، ورقمه: (١٧٦٤).

غريب الحديث

بعث خيلاً : أي: فرساناً، أطلق الخيل وأراد راكبيها.

بنو حنيفة : قبيلة كبيرة كانت تسكن اليمامة منها مسيلمة الكذاب.

ذا دم : أي: رجل وراءه من يطالب بدمه.

صَبَوْتَ : كانت قريش تطلق على المسلمين الذين فارقوا دين الأوثان، واتَّبعوا الإسلام اسم الصابئة.

شرح الحديث

أسرت سريّة من سرايا الرسول ﷺ التي وجهها قبل نجد رجلاً من قبيلة بني حنيفة، وكان سيد قومه في ذلك الوقت، اسمه ثمامة بن أثال،

فربطه الصحابة في سارية من سواري المسجد، وكان بإمكانهم أن يحبسوه في بيت من البيوت، أو خيمة من الخيم، ولكنّ الرسول ﷺ أحبّ أن يعرّفه على الإسلام من غير أن يدعوه إليه، ففي المسجد تقام الصلوات، ويُقرأ القرآن، وفيه يلقي الرسول ﷺ مواعظه وخطبه، وفيه يجلس المسلمون بعضهم إلى بعض، يتحدثون، وفيه أهل الصفة الذين يلازمونه ملازمة أصحاب البيوت بيوتهم، إذ لا مأوى لهم سواه، وقد كان الأسير على مدى ثلاثة أيام، يرى ويسمع ويراقب ويتفكر، وفي كل يوم من الأيام الثلاثة كان الرسول ﷺ يمرّ به، ويسأله: كيف تجدك يا ثمامة؟ فيجيب إجابة السيد المؤدب، لا يستخذي ولا يستجدي، ولكنه لا يستعلي، ولا يستكبر، إنك إن تقتلني تقتل رجلاً وراءه من يطالب بدمه، وإن كنت تريد أن تمنّ عليّ وتطلق سراحي، فإنك تمنن على رجل يعرف المعروف لأهله، وسأشكر لك معروفك عليّ، وإن كنت تريد الفداء فاطلب ما شئت، فعندي من المال الكثير.

لقد مكث ثمامة في مجمع المسلمين الذي يلتقي فيه الرسول ﷺ وأصحابه ما يكفي لأن يفقه عاقل لبيب مثله الإسلام، ولابد أن رسول الله ﷺ رأى منه دلائل هذا الفقه وعلاماته، فقال في اليوم الثالث: أطلقوا ثمامة، هكذا من غير شروط ولا قيود، ولا فداء، ومن غير امتنان عليه، ومن غير تأنيب ولا تحذير.

لقد كان الرسول ﷺ خبيراً بالرجال ومعادنهم، ولم يخب ظنه، فقد انطلق ثمامة نحو بستان من بساتين المدينة، فاغتسل وعاد وقد ألقى عنه أوساخ جسده، وقاذورات الكفر والشرك، وأعلن أمام الرسول ﷺ إسلامه، ونطق بكلمة الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

إن الإسلام ليس مجرد كلمة تقال، ثم تبقى حياة الإنسان سائرة على الوتيرة السابقة، والمنهج السابق من غير تغيير، اسمع إلى ثمامة وهو يبين للرسول ﷺ ما فعل الإسلام به، «يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ».

هكذا الإسلام عندما يتسلل إلى النفوس، ويسكن فيها، يحدث فيها انقلاباً، فالبغض للإسلام، ولنبي الإسلام، وأهل الإسلام، وديار الإسلام يتحول إلى حب ووئام، ومثل ثمامة مثل سحرة فرعون، كانوا عبيداً لفرعون، فلما ألقى موسى عصاه، وأيقنوا أن الذي جاء به الحق، فخرّوا ساجدين لله ربّ العالمين ربّ موسى وهارون، ولم ينفع فيهم التهديد والوعيد، إنه الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يرجع صاحبه عنه، ولو قطعت من صاحبه الأيدي والأرجل من خلاف، ولو صلبه الطغاة على جذوع النخل، إن من يعرف الله حقاً وصدقاً، لا يُؤثِر على الله غيرَه، فالله خيرٌ وأبقى.

لقد خرج ثمامة من دياره عندما أسره صحابة رسول الله ﷺ معتمراً، ولكن الله أراد به خيراً، وبعد إطلاق الرسول ﷺ له انطلق يريد العمرة، وكان للعمرة بعد الإسلام طعم جديد، لم يكن يعرفه من قبل، وتهدَّده أهل مكة لخروجه عن دينهم، فأغلظ لهم القول، وتهدَّدهم أن لا يأتيهم حبّة حنطة، فقد كانت اليمامة مصدر قوتهم من القمح، ونفّذ ثمامة وعيده، حتى أرسلت قريش إلى الرسول ﷺ يناشدونه أن يرسل لثمامة كي يأذن لتجارهم بجلب القوت من تلك الديار، وعندما جاءه الأمر من الرسول ﷺ استجاب.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- حكمة الرسول ﷺ في ربط الأسير في المسجد حتى يتعرّف إلى الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، وصحابة الرسول ﷺ عن قرب.

٢- جواز ربط الأسير الكافر في المسجد إن كان في ذلك مصلحة.

٣- الإمام مخيّر بين إطلاق الأسير من غير فداء، أو مفاداته بمال، أو قتله، وهو يتصرف في ذلك وفق ما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين.

٤- اغتسال الكافر عندما يريد الإسلام على خلاف بين العلماء أهو واجب أو مستحب، ولا خلاف في وجوب الغسل إذا كان جنباً.

٥- القبائل والأسر يخرج منها خير الناس، وشرّ الناس، فثمامة بن أثال من بني حنيفة، ومنهم أيضاً مسيلمة الكذاب.

٦- الإسلام الحقّ هو الذي يغير صاحبه على النحو الذي وقع لثمامة.

٧- بلاد نجد التي هي اليمامة كانت تنتج من القمح ما يكفي أهل تلك البلاد، ويفيض عنها حتى تصدره إلى بلاد أخرى. فأهل مكة كانوا يعتمدون على اليمامة في قوتهم من القمح.

٨- من العقوبات المعروفة في العهد النبوي الحبس، ولكن لم تكن هناك سجون معدّة لذلك، بل يُحبس الأسرى بربطهم في المسجد أو في بعض البيوت، كما فعل بأسرى بدر.

٩- كانت العرب في الجاهلية يعتمرون، فثمامة أخذته خيل الرسول ﷺ، وهو قاصد العمرة.

١٠-لم يلزم الرسول ﷺ ثمامة بالهجرة إلى المدينة، فبقاؤه في عشيرته فيه نفع كبير للمسلمين، فقد كان سيداً فيهم، وقد استطاع أن يمنع تصدير القمح إلى أهل مكة حتى أمره الرسول ﷺ بالإذن لأهل مكة بشرائه.

* * *



تمهيد

كان صفوان بن أمية سيداً من سادات قريش في الجاهلية، وكان أبوه قبله كذلك، وبعد فتح مكة أخذ الرسول ﷺ يعطي صفوان، والمؤلفة قلوبهم مما فتح الله عليه من أموال ثقيف، حتى أصبح الرسول ﷺ أحبَّ الناس إلى صفوان.

نص الحديث

عن يونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قالَ: «غَزَا رَسُولُ الله ﷺ غَزْوَةَ الْفَتْحِ، فَتْحِ مَكَّةَ. ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ، فَنَصَرَ الله دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَعْطَى رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مائَةً مِنَ النَّعَمِ، ثُمَّ مائَةً، ثُمَّ مَائَةً.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ؛ أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: وَالله! لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ الله ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ».

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، «باب ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً قط، فقال: لا، وكثرة عطائه»، ورقمه: [٢٣١٣].

غريب الحديث

النعم : الإبل

شرح الحديث

قال ابن حجر في ترجمة صفوان: «صفوان بن أمية بن خلف بن وهب ابن حذافة بن جمح أبو وهب الجمحي، قُتِلَ أبوه في بدر كافراً، وحكى الزبير أنه كان إليه أمر الأزلام في الجاهلية، وهرب يوم فتح مكة، وأسلمت امرأته، وأحضر له ابن عمّه عمير بن وهب أماناً من النبي ﷺ ، فحضر، وحضر وقعة حنين قبل أن يُسلم، ثم أسلم» [الإصابة: ٢/ ١٨٧].

وحديث القصة يخبر أن الرسول ﷺ أعطى صفوان من غنائم حنين مائة من الإبل، ثم أعطاه مائة أخرى، ثم مائة ثالثة، ولقد أثر هذا العطاء الكثير، الذي ليس له نظير في نفس صفوان تأثيراً عظيماً، فأذهب ما في قلبه من شحناء وبغضاء وكره، وحلّ محلها التقدير والإجلال والمحبة، يقول صفوان: «لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ».

لقد كان صفوان موتوراً، فقد قتل المسلمون أباه في بدر، فعمل الرسول ﷺ بما علّمه ربّه في قوله: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

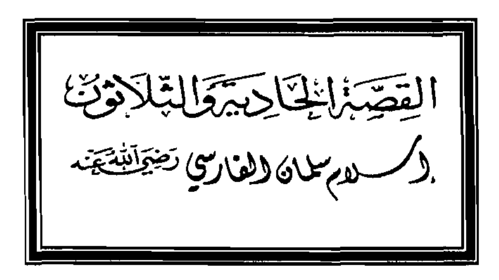
نعم، لقد حوّل العطاء الكثير بغض صفوان للرسول ﷺ حبّاً، وأصبح له وليّاً حميماً.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- فيه بيان طريقة من الطرائق التي كانت بها الهداية للإسلام، فقد أعطى الرسول ﷺ صفوان العطاء الكثير، فاستلّ ما في قلبه من السخيمة، وأسلم.

٢- جود الرسول ﷺ وكرمه، حيث أعطى صفوان ثلاثمائة من الإبل، وأعطى لكل من أبي سفيان وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وعباس بن مرداس مائة مائة [مسلم: ١٠٦٠].

* * *



تمهيد

هذه قصة بديعة، صاحبها سلمان الفارسي، وكان يقال له: سلمان ابن الإسلام، كما أطلق عليه: سلمان الخير، عاش دهوراً طويلة، قضاها في البحث عن البقية الباقية على الحق من أتباع عيسى عليه السلام ، وبعد أن لم يجد واحداً منهم يصحبه، رحل إلى جزيرة العرب، علّه يلقى نبي آخر الزمان الذي بشَّرت به الكتب السماوية، وتحقق لسلمان ما أراد بعد عناء طويل، فلقي الرسول ﷺ وآمن به، واتّبعه، وجاهد معه ومع خلفائه في سبيل الله [انظر سيرته في الإصابة: ٢/ ١٢].

نص الحديث

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: حدّثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن ابن إسحاقَ، حدثني عاصمُ بن عمر بن قتادةَ الأنصاريُّ، عن محمود بن لَبيد، عن عبدالله بن عبَّاس، قال:

«حدَّثني سلمانُ الفارسيُّ حديثَه من فِيهِ، قال: كنتُ رجلاً فارسيّاً من أهل أصبهانَ من أهل قريةٍ منها يقال لها: جَيٌّ، وكان أبي دِهْقانَ قريته، وكنتُ أحبَّ خَلْقِ الله إليه، فلم يَزَلْ به حبُّه إيَّايَ حتى حَبَسَني في بيته، كما

تُحبَسُ الجاريةُ، واجتَهدْتُ في المَجُوسيَّةِ حتى كنتُ قَطِنَ النار الذي يُوقدُها لا يتركها تخْبُو ساعةً.

قال: وكانت لأبي ضَيْعةٌ عظيمةٌ، قال: فشُغِلَ في بُنيانٍ له يوماً، فقال لي: يا بنيَّ، إنّي قد شُغِلتُ في بُنْيانٍ هذا اليومَ عن ضَيْعتي، فاذهب فاطَّلِعْها، وأمَرني فيها ببعض ما يريدُ، فخرجتُ أريد ضَيْعتَه، فمَرَرْتُ بكنيسةٍ من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يُصلُّون.

وكنتُ لا أدري ما أمرُ الناس لحَبْسِ أبي إيَّايَ في بيته، فلما مَررتُ بهم، وسمعتُ أصواتهم، دخلتُ عليهم أنظُرُ ما يَصنَعُون، قال: فلما رأيتُهم أعجَبَني صلاتُهم، ورَغِبتُ في أمرهم، وقلتُ: هذا والله خيرٌ من الدِّينِ الذي نحنُ عليه. فوالله ما تركتُهم حتى غَرَبَتِ الشمسُ، وتركتُ ضَيْعةَ أبي ولم آتِها، فقلتُ لهم: أين أَصْلُ هذا الدِّين؟ قالوا: بالشام.

قال: ثم رجعتُ إلى أبي، وقد بَعَثَ في طَلَبي وشَغَلْتُه عن عمله كلِّه، قال: فلما جئتُه قال: أيْ بنيَّ، أين كنتَ؟ ألم أكُنْ عَهِدتُ إليك ما عَهِدتُ؟ قال: قلت: يا أبَتِ، مَرَرتُ بناسٍ يصلُّون في كنيسةٍ لهم، فأعجَبَني ما رأيتُ من دِينهم، فوالله ما زِلتُ عندهم حتى غَرَبَت الشمس. قال: أيْ بنيَّ، ليس في ذلك الدِّينِ خيرٌ، دِينُك ودِين آبائك خيرٌ منه. قال: قلت: كلاَّ والله إنه لَخيرٌ من دِينِنا. قال: فخافني، فجَعَل في رِجْلي قيداً، ثم حَبَسَني في بيته.

قال: وبَعَثتُ إلى النصارى، فقلت لهم: إذا قَدِمَ عليكم رَكْبٌ من الشام تُجَّارٌ من النصارى فأخبرُوني بهم. قال: فقَدِمَ عليهم ركبٌ من الشام تُجَّارٌ من النصارى، قال: فأخبَرُوني بهم، قال: فقلتُ لهم: إذا قَضَوْا حوائجهم، وأرادوا الرَّجعةَ إلى بلادهم فآذِنوني بهم. قال: فلما أرادوا الرَّجْعةَ إلى

بلادهم أخبَرُوني بهم، فألقَيتُ الحديدَ من رِجْلي، ثم خرجتُ معهم حتى قَدِمتُ الشام.

فلما قدمتُها، قلت: مَن أفضلُ أهل هذا الدِّين؟ قالوا: الأُسقُفُّ في الكنيسة. قال: فجئتُه، فقلتُ: إني قد رَغِبتُ في هذا الدِّين، وأحببتُ أن أكون معك أخدِمُك في كنيستك، وأتعلَّمُ منك وأصلِّي معك. قال: فادخُلْ. فدخلتُ معه، قال: فكان رجلَ سَوْءٍ، يأمُرُهم بالصدقة ويُرغِّبُهم فيها، فإذا جَمَعُوا إليه منها أشياءَ، اكتنَزَه لنفسه، ولم يُعطِه المساكين، حتى جَمَعَ سبعَ قِلاَلٍ من ذهب ووَرِقٍ، قال: وأبغضتُه بُغضاً شديداً لِما رأيتُه يَصنَعُ، ثم مات.

فاجتَمَعَت إليه النصارى ليَدفِنُوه، فقلتُ لهم: إنَّ هذا كان رجلَ سَوْءٍ، يأمُرُكم بالصدقة ويُرغِّبُكم فيها، فإذا جئتُموه بها اكتنَزَها لنفسه، ولم يُعْطِ المساكين منها شيئاً. قالوا: وما عِلمُك بذلك؟ قال: قلتُ: أنا أدُلُّكم على كَنْزِه. قالوا: فدُلَّنا عليه. قال: فأريتُهم موضعَه، قال: فاستَخرَجُوا منه سبعَ قِلالٍ مملوءَةً ذهباً ووَرِقاً، قال: فلما رأَوْها قالوا: والله لا نَدفِنُه أبداً. فصَلَبُوه ثم رَجَمُوه بالحجارة.

ثم جاؤوا برجلٍ آخر، فجعلوه بمكانه، قال: يقولُ سَلْمان: فما رأيتُ رجلاً لا يُصلِّي الخمسَ، أرَى أنه أفضلُ منه، أزهدُ في الدنيا، ولا أرغَبُ في الآخرة، ولا أدأبُ ليلاً ونهاراً منه. قال: فأحببتُه حبّاً لم أُحبَّه من قبله، فأقمتُ معه زماناً، ثم حَضَرَتْه الوفاةُ، فقلت له: يا فلانُ، إني كنت معك وأحببتُك حبّاً لم أُحِبَّه من قبلِك، وقد حَضَرَك ما ترى من أمْرِ الله، فإلى من تُوصِي بي، وما تأمُرُني؟ قال: أي بنيَّ، والله ما أعلَمُ أحداً اليومَ على ما كنتُ عليه، لقد هَلَكَ الناس وبدَّلُوا وتركوا أكثرَ ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالمَوصِلِ، وهو فلانٌ، فهو على ما كنتُ عليه، فالْحَقْ به.

قال: فلمَّا مات وغُيِّب، لَحِقتُ بصاحبِ الموصل فقلتُ له: يا فلانُ، إنَّ فلاناً أوصاني عند موته أن ألْحَقَ بك، وأخبرَني أنك على أمْرِه. قال: فقال لي: أقِمْ عندي فأقمتُ عنده، فوجدتُه خيرَ رجل على أمْرِ صاحبه، فلم يَلبَثْ أن ماتَ، فلما حَضَرَتْه الوفاةُ، قلت له: يا فلانُ، إن فلاناً أوصَى بي إليك، وأمَرني باللُّحُوق بك، وقد حَضَرَكَ من الله عز وجلَّ ما تَرَى، فإلى مَن تُوصي بي، وما تَأمُرُني؟ قال: أيْ بنيَّ، والله ما أعلَمُ رجلاً على مثلِ ما كنَّا عليه إلا رجلاً بنصيبينَ، وهو فلانٌ، فالْحَقْ به.

قال: فلمَّا مات وغُيِّبَ لَحِقتُ بصاحب نصيبينَ، فجئتُه فأخبرتُه خَبَري، وما أمَرني به صاحِبي، قال: فأقِمْ عندي. فأقمتُ عنده، فوجدتُه على أمْر صاحبَيهِ، فأقمتُ مع خير رجلٍ، فوالله ما لَبثَ أن نَزَلَ به الموتُ، فلما حُضِرَ، قلت له: يا فلانُ، إن فلاناً كان أوصَى بي إلى فلانٍ، ثم أوصَى بي فلانٌ إليك، فإلى مَن تُوصِي بي، وما تأمُرُني؟ قال: أيْ بنِيَّ، والله ما نعلمُ أحداً بقي على أمرِنا آمُرُكَ أن تأتيَه إلاَّ رجلاً بعَمُّورِيَّة، فإنه على مثلِ ما نحن عليه، فإن أحبَبْتَ فأتِهِ، قال: فإنَّه على أمرِنا.

قال: فلما مات وغُيِّبَ لَحِقتُ بصاحب عَمُّورِيَّة، وأخبرتُه خَبري، فقال: أقِمْ عندي، فأقمتُ مع رجل على هَدْيِ أصحابه وأمْرِهم، قال: واكتَسبتُ حتى كان لي بَقَراتٌ وغُنَيْمة، قال: ثم نَزَل به أمرُ الله، فلما حُضِرَ قلت له: يا فلانُ، إني كنتُ مع فلانٍ، فأوصَى بي فلانٌ إلى فلانٍ، وأوصَى بي فلانٌ إلى فلانٍ، ثم أوصَى بي فلانٌ إليك، فإلى من تُوصِي بي، وما تأمُرُني؟ قال: أيْ بنِيَّ، والله ما أعلَمُه أصبحَ على ما كنَّا عليه أحدٌ من الناس آمُرُك أن تأتِيَه، ولكنه قد أظلَّكَ زمانُ نبيٍّ هو مبعوثٌ بدينِ إبراهيمَ، يَخرُجُ بأرض العرب، مُهاجِراً إلى أرضٍ بين حَرَّتَينِ بينهما نخلٌ، به علاماتٌ

لا تَخفَى: يأكلُ الهديَّةَ، ولا يأكلُ الصَّدقةَ، بين كَتِفَيهِ خاتَمُ النُّبوَّة، فإنِ استطعتَ أن تَلْحَقَ بتلك البلاد فافعَلْ.

قال: ثم مات وغُيِّبَ، فمَكَثْتُ بعمُّوريَّة ما شاءَ الله أن أمكُثَ، ثم مرَّ بي نفَرٌ من كَلْبٍ تُجَّاراً، فقلتُ لهم: تَحمِلُوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بَقَراتي هذه وغُنَيْمَتي هذه؟ قالوا: نَعَم، فأعطيتُهمُوها وحَمَلُوني، حتى إذا قَدِمُوا بي واديَ القُرى، ظَلَمُوني فباعوني من رجلٍ من يهودَ عبداً، فكنتُ عنده، ورأيتُ النخلَ، ورَجَوْتُ أن تكون البلدَ الذي وَصَفَ لي صاحبي، ولم يَحِقَّ لي في نفْسي.

فبينما أنا عنده، قَدِمَ عليه ابنُ عمٍّ له من المدينة من بني قُرَيظةَ فابتاعني منه، فاحتَمَلَني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُها بصِفَةِ صاحبي، فأقمتُ بها وبَعَثَ الله رسولَه، فأقام بمكَّة ما أقام لا أسمَعُ له بذِكْرٍ مع ما أنا فيه من شُغْلِ الرِّقِّ، ثم هاجَرَ إلى المدينة، فوالله إني لَفِي رأس عَذقٍ لسيِّدي أعملُ فيه بعضَ العمل، وسيِّدي جالسٌ، إذ أقبَلَ ابنُ عمٍّ له حتى وَقَفَ عليه، فقال: فلانُ، قاتَلَ الله بني قَيْلَةَ، والله إنهم الآن لَمجتمِعُونَ بقُباءٍ على رجلٍ قَدِمَ عليهم من مكَّة اليوم، يَزعُمون أنه نبيٌّ. قال: لما سمعتُها أخذَتْني العُرَوَاءُ، حتى ظَنَنتُ ساسقُطُ على سيِّدي.

قال: ونزلتُ عن النَّخلة، فجعلتُ أقول لابن عمِّه ذلك: ماذا تقولُ؟ ماذا تقولُ؟ قال: فغَضِبَ سيِّدي فلَكَمَني لَكْمةً شديدةً، ثم قال: ما لك ولهذا! أقبِـلْ على عملِك. قال: قلتُ: لا شيءَ، إنما أرَدْتُ أن أستثبتَه عما قال.

وقد كان عندي شيءٌ قد جمَعتُه، فلما أمسيتُ أخذتُه ثم ذهبتُ به إلى رسول الله ﷺ وهو بقُباءٍ، فدخلتُ عليه، فقلتُ له: إنه قد بَلَغني أنك رجلٌ

صالحٌ، ومعك أصحابٌ لك غرباءُ ذوُو حاجَةٍ، وهذا شيءٌ كان عندي للصَّدَقةِ، فرأيتُكم أحقَّ به من غيركم. قال: فقَرَّبتُه إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: (كُلُوا) وأمسَكَ يده فلم يَأكُل.

قال: فقلتُ في نـَفْسي: هذه واحدةٌ، ثم انصرفتُ عنه فجَمَعتُ شيئاً، وتَحوَّلَ رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئتُه به، فقلت: إنِّي رأيتُك لا تأكلُ الصَّدقةَ، وهذه هديةٌ أكرَمتُك بها. قال: فأكَلَ رسولُ الله ﷺ منها، وأمَرَ أصحابه فأكلُوا معه، قال: فقلتُ في نَفْسي: هاتانِ اثنتانِ.

قال: ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ وهو ببَقِيعِ الغَرْقَد، قال: وقد تَبعَ جنازةً من أصحابه، عليه شَمْلَتانِ له، وهو جالسٌ في أصحابه، فسَلَّمتُ عليه، ثم استَدَرتُ أنظُرُ إلى ظهره، هل أرَى الخاتَمَ الذي وَصَفَ لي صاحِبي؟ فلمَّا رآني رسولُ الله ﷺ استَدبَرْتُه، عَرَفَ أني أستثبتُ في شيءٍ وُصِفَ لي، قال: فألْقَى رداءَه عن ظَهْرِهِ، فَنَظَرتُ إلى الخاتَمِ فعرفتُه، فانكَبَبْتُ عليه أُقبِّلُه وأبكِي، فقال لي رسول الله ﷺ : «تَحوَّلْ» فتَحوَّلْتُ، فقَصَصْتُ عليه حديثي كما حدَّثتُك يا ابن عبَّاس، قال: فأعجَبَ رسولَ الله ﷺ أن يَسمَعَ ذلك أصحابُه.

ثم شَغَلَ سلمانَ الرِّقُّ حتى فاتَه مع رسول الله ﷺ بَدْرٌ وأُحُد، قال: ثم قال لي رسولَ الله ﷺ : «كاتِبْ يا سَلْمانُ» فكاتَبْتُ صاحِبي على ثلاثِ مئةِ نَخلةٍ أُحْيِيها له بالفَقِير وبأربعين أوقِيَّةً، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أعِينُوا أخاكُمْ» فأعانُوني بالنَّخل: الرجلُ بثلاثين وَدِيَّةً، والرجلُ بعشرين، والرجلُ بخمسَ عشرةَ، والرجلُ بعشرٍ - يعني: الرجل بقَدْر ما عنده - حتى اجتَمَعَت لي ثلاثُ مئةِ وَدِيَّةٍ، فقال لي رسول الله ﷺ : (اذهَبْ يا سَلْمانُ ففَقِّرْ لها، فإذا فَرَغْتَ فأتِني أكونُ أنا أضَعُها بيَدِي) قال: ففَقَّرْتُ لها، وأعانني

أصحابي، حتى إذا فَرَغتُ منها جئتُه فأخبرتُه، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها فجَعَلْنا نُقرِّبُ له الوَدِيَّ ويَضَعُه رسول الله ﷺ بيدِه، فوالذي نفسُ سَلْمان بيدِه، ما ماتت منها وَدِيَّةٌ واحدةٌ، فأدَّيتُ النخل، وبَقِيَ عليَّ المالُ.

فأُتِيَ رسولُ الله ﷺ بمثل بَيْضةِ الدَّجاجة من ذهبٍ من بعض المَغازِي، فقال: «ما فَعَلَ الفارِسيُّ المُكاتَبُ» قال: فدُعِيتُ له، فقال: «خُذْ هذِه فأدِّ بها ما عليكَ يا سَلْمانُ» فقتل: وأين تَقَعُ هذه يا رسولَ الله ممَّا عليَّ؟ قال: «خُذْها، فإنَّ الله سيُؤَدِّي بها عنكَ» قال: فأخذتُها فوَزَنْتُ لهم منه، والَّذِي نفسُ سلمان بيدِه أربعينَ أوقِيَّةً، فأوفيتُهم حقَّهم وعَتَقْتُ، فشَهِدتُ مع رسول الله ﷺ الخَندقَ، ثم لم يَفُتْني معه مَشهَدٌ.

تخريج الحديث

رواه أحمد في مسنده [٣٩/ ١٤٠-١٤٧. ورقمه: ٢٣٧٣٧] وقال محققو المسند في تخريجه:

[إسناده حسن، محمد بن إسحاق صدوق حسن الحديث، وقد صرّح بالتحديث، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح.

وأخرجه ابن الجوزي في «الحدائق» [١/ ٤١٣-٤١٨] والذهبي في «السِّيَر» [١/ ٥٠٦] من طريق عبدالله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، بهذا الإسناد.

وأخرجه تامّاً ومقطَّعاً ابن هشام في «السيرة النبوية» [١/ ٢٢٨-٢٣٥]، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» [٤/ ٧٥-٨٠] والبزار في «مسنده» (٢٤٩٩) و (٢٥٠٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٧٧٢)، وابن حبان في «الثقات» [١/ ٢٤٩-٢٥٧]. والطبراني في «الكبير» (٦٠٦٥)،

وأبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان»: (٩)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٤٩ و ٤٩-٥٠). والبيهقي في «السنن» [١٠/ ٣٢٢ و ٣٤٠] وفي «دلائل النبوة» ٢/ ٩٢، والخطيب في «تاريخ بغداد»: [١/ ١٦٥]. وابن الأثير في «أسد الغابة» [٢/ ٤١٧-٤١٩]. والذهبي في «سير أعلام النبلاء» ١/ ٥٠٦ من طرق عن محمد بن إسحاق، به].

غريب الحديث

دَهْقان قريته : أي: رئيسها، الذي يرجع إليه في إدارة شؤونها، وعلم ما يصلح الشجر والنبات ونحو ذلك.

قَطِن النار : خازنها وخادمها، الذي يوقد لها حتى تبقى نارها مشتعلة حتى لا تخمد.

الأسْقُفّ : مرتبة من مراتب علماء النصارى المتقدمة.

أدأب : أحرص.

الحرة : أرض ذات حجارة سوداء.

رأس عَذق : أي: رأس النخلة.

بنو قيلة : الأوس والخزرج، ينسبون إلى أمهم قيلة بنت كاهل بن عذرة.

العُرَواء : الرعدة، وأصله برد الحمى.

الودية : النخلة الصغيرة.

أحييها : أي: أسلمها إياه حيّة لم تمت.

بالفقير : هي الحفرة التي تحفر لغرس النخل.

شرح الحديث

قصة سلمان الفارسي هذه قصة فريدة بين قصص الباحثين عن الهدى، وهي تؤرخ لفترة طويلة قبل مبعث النبي ﷺ خاصة، وتبين ما كان عليه العلماء، فلم يكن منهم على الحق إلا بقايا مِنْ أهل الكتاب، يعدّون على أصابع اليدين. لقد حبب إلى سلمان البحث عن الحق، وبسهولة ويسر من غير تردد هجر أهله ودياره، وهو الشاب المترف المرفّه، وحلّ بديار غريبة، ورضي أن يكون خادماً في الكنيسة لعالم النصارى في دمشق، وفاجأ سلمان أن الذي يخدمه لم يكن صادقاً في دينه، فكان من الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة:٣٤].

لقد كان يأمرهم بالصدقة، ويخزّن ما يجمعه من الناس، ويكنزه ولا يعطي الفقراء منه شيئاً، ولم يشع سلمان سرّه في حياته، خشية أن لا يستطيع كشف أمره لقوة سلطانه، فلما مات فضح أمره، وكشف سرّه، وأرى الناس كنزه الذي جمعه، فصلبوه، ورموه بالحجارة.

ثم نصّبوا مكانه رجلاً صالحاً، عابداً، مصلياً، زاهداً في الدنيا فأقام عنده، حتى جاءه الموت، أوصاه برجل صالح موجود في الموصل، كان على مثل ما هو عليه في التُّقى والصلاح والاستقامة، فلما حضره الموت أوصاه أن يأتي رجل في مدينة نصيبين، هو على مثل ما كان عليه الرجلين اللذين صحبهما، فلما حضرته الوفاة أوصاه باللحوق برابع كان على منهج الثلاثة

الصالحين، وسكناه مدينة عمورية، فلما حضرته الوفاة أنبأه أنه لا يعلم أحداً بقي حيّاً على النهج الذي كانوا عليه، ولكنه أنبأه بما علمه من علم الكتاب الذي كان يعلمه، أعني التوراة والإنجيل، أن هذا الزمان زمان نبي يُبعث بالحنيفية دين إبراهيم يخرج بأرض العرب، ويهاجر إلى أرض بين حرتين، ودلّه على ثلاث علامات يعرفه بها، أنه لا يأكل الصدقة، ويقبل الهدية، وأن بين كتفيه خاتم النبوة.

فلما مات صاحبه ترك تلك الديار، وبعد رحلة طويلة وصل إلى يثرب، وعلم أنها مهاجَر الرسول ﷺ بالصفة التي وصفت له، وعمل في المدينة عبداً لدى رجل يهودي، فقد باعه الذين استأجرهم ليحملوه إلى أرض العرب ظلماً وعدواناً، فأصبح عبداً.

وشغله الرق والتكاليف التي يقوم بها عن البحث عن أخبار النبي المبعوث، وكانت له مفاجأة كبيرة عندما سمع من قريب سيّده يحدث سيده باجتماع أهل المدينة في قباء على رجل هاجر إليهم يقولون: إنه نبي.

وقام سلمان بزيارات ثلاث تحقق من خلالها وجود العلامات الثلاث التي تدل على نبوة من يتصف بها، التي أخبر بها آخر مَن صَاحَبَه من الصالحين، فقد اختبره فوجده لا يأكل الصدقة، ويأكل الهدية، ورأى بعينيه خاتم النبوة بين كتفيه، فلم يملك سلمان إلا أن أكبَّ على الرسول ﷺ يقبِّله ويبكي، لقد فاضَ به الكيل، فقد عانى طويلاً، حتى وصل إلى منبع الحقيقة، ومصدر الهداية، وصل في بحثه عن الهدى والنور بعد تلك الرحلة المضنية الشاقة إلى ما كان يبحث عنه.

وأمره الرسول ﷺ أن يحدّثه بأمره، فحدّثه وحدّث أصحابه بقصته، وعكر على سلمان فرحته وبهجته عدم قدرته على مصاحبة الرسول ﷺ لكونه عبداً، وطلب سيده اليهودي مالاً كثيراً لتحريره، طلب أن يزرع له ثلاثمائة غرسة نخل، وأربعين أوقية من الفضة، وأعانه الصحابة بإمداده بغراس النخل، وأعانوه في الحفر لها، ووضعها الرسول ﷺ في الحفر التي أعدِّت كلها، فأحياها الله، ولم تمت واحدة.

ودفع الرسول ﷺ إلى سلمان قطعة من الفضة، أوفت بما فرض عليه سيّده، فنال حريته، وشهد مع الرسول ﷺ الخندق، وما بعده من مشاهد ولازم الرسول ﷺ في حِلِّه، وترحاله، وعاش بعده عمراً مديداً، ويذكر في قصته أن سنوات عمره كانت مائتين وخمسين سنة، وأكثر ما قيل في ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة [البداية والنهاية، لابن كثير: ٢/ ٣١٤].

وقال الذهبي في «السير» ١/ ٥٥٥-٥٥٦: ومجموع أمره وأحواله، وغزوه، وهمته، وتصرفه، وسَفّه - أي: نسجه - للجريد، وأشياء مما تقدم ينبئ بأنه ليس بمعمَّر ولا هرم. فقد فارق وطنه وهو حدث، ولعله قدم الحجاز وله أربعون سنة أو أقل، فلم ينشب أن سمع بمبعث النبي ﷺ ثم هاجر، فلعله عاش بضعاً وسبعين سنة، وما أراه بلغ المئة فمن كان عنده علم، فليفدنا. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» [١/ ٥٠٥-٥٥٨].

وقد كان سلمان في طليعة المجاهدين في سبيل الله في فتوحات المسلمين، وشارك في فتح البلاد التي خرج منها في صغره، وبقي كذلك حتى أتاه اليقين من ربّه، [راجع في قصّته وأخبار ما جمعه ابن كثير في البداية والنهاية عنه: ٢/ ٣١٤]. وحفظ لنا سلمان جملةً مما سمعه من رسول الله ﷺ [انظر مسنده في مسند أحمد: ٣٩/ ١٠٧].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- فيه معرفة نمط من أنماط الهداية إلى الإسلام، فقد اهتدى سلمان إلى الحق بعد معاناة مريرة، وبحث طويل.

٢- قلة الذين كانوا على الحق قبيل البعثة النبوية، وهذه القلة كانت على الدين الخالص، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً.

٣- النصارى كان لهم وجود وانتشار في كثير من أقطار الأرض في عهد سلمان، وكان مركزهم الرئيس في الشام.

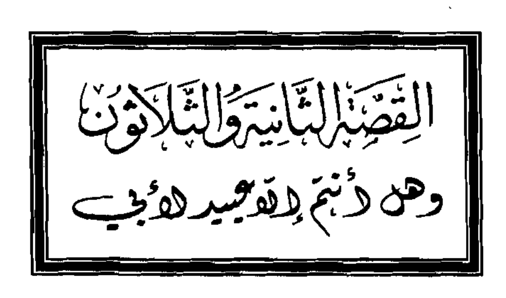
٤- من عبّاد النصارى من يأكل أموال الناس بالباطل، ويكنز الذهب والفضة، ولا ينفقها في سبيل الله، كما أن هذا الداء يوجد في أهل الإسلام.

٥- اهتداء بعض أهل الكتاب إلى الإسلام ومتابعة الرسول ﷺ بما وجد في التوراة والإنجيل من المبشرات بالرسول ﷺ والحديث عن صفاته والعلامات التي تُعرف به، وقد دلّت هذه العلامات سلمان على الرسول ﷺ وعرّفته به.

٦- تريّث سلمان في اختبار تلك العلامات، وتحققه من وجودها في الرسول ﷺ ، والتّأني في مثل ذلك خلق كريم طيب.

٧- إعانة الرسول ﷺ وأصحابه سلمان على التحرر من رقّ العبودية، وهكذا ينبغي أن يبقى المسلمون سنداً لإخوانهم من المسلمين الذين يفدون إليهم من أطراف الأرض.

* * *



تمهيد

هذه العبارة قالها حمزة بن عبدالمطلب وكان ثملاً قبل أن تُحرَّم الخمر موجِّهاً كلامه إلى الرسول ﷺ عندما أخذ يلومه على ما كان منه بقتله لجملي ابن أخيه علي بن أبي طالب، فلما وجده الرسول ﷺ ثملاً لا يعقل تركه ورجع.

نص الحديث

عن عليِّ بن حسينٍ أن حسينَ بن عليٍّ عليهم السلامُ أخبرَهُ أنَّ علياً قال: «كانت لي شارِفٌ من نصيبي منَ المغنم يومَ بدرٍ، وكان النبيُّ ﷺ أعطاني مما أفاءَ الله عليهِ منَ الخمسِ يومَئذٍ؛ فلما أردت أن أبتني بفاطمةَ عليها السلامُ بنتِ النبيِّ ﷺ واعدتُ رجلاً صَوَّاغاً في بني قَينقاعَ أن يَرتحِلَ معي فنأتي بإذخِرٍ فأردتُ أن أبيعَهُ منَ الصوَّاغينَ فنستعينَ به في وَليمةِ عُرسي.

فبينا أنا أجمعُ لشارِفي من الأقتابِ والغرائر والحِبَالِ، وشارفايَ مُناخان إلى جنبِ حُجرةِ رجلٍ منَ الأنصار، حتى جمعتُ ما جمعت، فإذا أنا بشارِفيَّ قد أُجِبَّتْ أسنِمَتُهُما، وبُقِرَت خَواصِرُهما، وأُخِذَ من أكبادِهما، فلم أملكْ عَينيَّ حينَ رأيتُ المنظرَ قلتُ: مَن فَعل هذا؟ قالوا: فعلهُ حمزة بن عبدِالمطلبِ، وهو في هذا البيتِ في شَرْبٍ منَ الأنصار، وعندَهُ قَيْنَةٌ

وأصحابهُ، فقالت في غِنائها: «ألا يا حمز للشُّرُفِ النَّواء» فوثبَ حمزةُ إلى السيف فأجَبَّ أسْنِمَتُهما، وبقَرَ خَواصِرَهما، وأخذَ من أكبادِهِما.

قال عليٌّ: فانطلقْتُ حتَّى أدخلَ على النبيِّ ﷺ، وعندَهُ زيدُ بنُ حارثةَ، وعرَف النبيُّ ﷺ الذي لَقيتُ، فقال: ما لَكَ؟ قلتُ: يا رسولَ الله ما رأيتُ كاليوم، عَدا حمزةُ على ناقَتيَّ، فأجَبَّ أسْنِمَتَهُما، وبَقَرَ خَواصِرَهما، وهاهو ذا في بيتٍ معهُ شَرْبٌ.

فدعا النبيُّ ﷺ بردائه فارتدى، ثمَّ انطلقَ يَمشي، واتَّبَعتُه أنا وزيدُ بنُ حارثةَ حتى جاءَ البيتَ الذي فيه حمزةُ، فاستأذنَ عليه، فأذِنَ له، فطفِقَ النبيُّ ﷺ يَلومُ حمزةَ فيما فعلَ، فإذا حمزةُ ثَـمِلٌ مُحَمرَّةٌ عيناهُ، فنظَرَ حمزةُ إلى النبيِّ ﷺ ثمَّ صَعَّدَ النظرَ: فنظرَ إلى رُكبتهِ، ثمَّ صَعَّدَ النظرَ فنظرَ إلى وجههِ، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلاّ عَبيدٌ لأبي؟ فعرفَ النبيُّ ﷺ أنه ثَـمِلٌ، فنكصَ رسولُ الله ﷺ على عَقِبيهِ القهقَرَى، فخرَجَ وَخرَجْنا معه».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، الباب الثاني عشر، ورقمه: (٤٠٠٣) وفي كتاب فرض الخمس، باب فرض الخمس، ورقمه: (٣٠٩١) ورواه في مواضع أخرى، انظر الأرقام: (٢٠٨٩، ٢٣٧٥، ٤٠٠٣).

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، ورقمه (١٩٧٩).

غريب الحديث

الصواغ : الذي يقوم بصناعة الحلي من الذهب والفضة ونحوهما.

الشارف : الناقة المسنّة، وجمعها، شُرُف.
أبْتني بفاطمة : أي: أدخل بها.
بنو قينقاع : قبيلة من اليهود كانت تسكن المدينة.
الأقتاب والغرائر : الأقتاب: جمع قتب، وهو رَحْل صغير على قدر السنام، والغرائر: جمع غرارة، وهي الجوالق.
شَرْب : جمع شارب، وهم الجماعة المجتمعون على شرب الخمر.
قينة : القينة: الجارية المغنية.
للشُرُفِ النواء : الشُّرُفُ: جمع شارفةٍ، وهي الناقة المسنة، والنُّواء: جمع ناوية، وهي الناقة السمينة.
فأجب أسنمتهما : أي: قطعهما وجزّهما.
وبقر خواصرهما : شقّها.
ثمل : سكران.
القهقرى : نوع من السير، حيث يمشي الرجل إلى الوراء، ووجه إليك.

شرح الحديث

كان علي بن أبي طالب ﷺ شابّاً في ريعان الشباب عندما كان يحضّر ليوم عرسه على فاطمة ابنة رسول الله ﷺ ، وقد حصل على ما أفاء الله عليه بناقة قيّمة من غنائم معركة بدر، ووهب له الرسول ﷺ من نصيبه من الخمس ناقة أخرى، وكان فرحاً بهما، فمن يملكهما في ذلك الوقت يملك ثروة.

وأراد أن يستغل ناقتيه بتحصيل بعض المال ينفقه في صنع وليمة لذلك العرس، ولكنه وقع له ما عكّر عليه فرحه، وجلب له الحزن والغم، وجعل الدمع يفيض من عينيه، فبعد أن حضَّر ناقتيه للانطلاق بهما صحبه رجل يهودي من بني قينقاع إلى موضع الكلأ ليأتي بحِمْلِ ناقَتَيْهِ من نبات الإذخر ليبيعه للصاغة، ويحصل على ثمنه، إذا به يمر على ناقتيه فيجدهما قد قطعت سناميهما، وبقرت خواصرهما، وامتدت يد القاطع الباقر إلى أكبادهما فأخذ منهما.

لقد هزّ المشهد علياً، وهو البطل الشجاع، الذي لا تخيفه منازلة الأبطال، ولا تبكيه الجروح من ضربات السيوف ووقع النبال، ولكنه الموقف الذي سرق منه سروره وفرحه، وقد أشرف على الاكتمال، وزاد من غمّه أن الذي فعل هذا بناقتيه هو عمّه حمزة بن عبدالمطلب، فما كان منه إلا أن انطلق وهو في هذه الحال إلى رسول الله ﷺ ، يبثه شكاته، ويخبره بمصابه، وكان النبي دائماً الموئل لأصحابه وآله في الملمات، ولم يكن الرسول ﷺ ليعلم أنه أصاب علياً كرب شديد، فاستعلمه عن سببه، فأخبره الخبر، وما فعل حمزة بشارفيه.

كان حمزة ؓ مجتمعاً في بيت أحد الأنصار مع جمع من أصحابه يعاقرون الخمر قبل أن ينزل القرآن بتحريمها، وشربوا حتى سكروا، وأخذت منهم كل مأخذ، وكان بعض الحاضرين وهو عبدالله بن السائب بن أبي السائب المخزومي على ما حكاه المرزباني في معجم الشعراء فيما نقله ابن حجر عنه [الفتح: ٦/ ٢٤٠] قال شعراً غنت به قينة كانت تغنيهم، قال فيه:

ألا يا حَمْزُ للشُّرُفِ النّواءِ — وهُنَّ مُعَقَّلاتٌ بالفناء
ضع السكين في اللبات منها — وضرجهن حمزةُ بالدماء
وعجِّل من أطايبها لشَرْبٍ — قديداً من طبيخ أو شواء

وقوله: «يا حمز» يريد حمزة، هو ترخيم من الشاعر بحذف الحرف الأخير من الاسم، والشُّرُف جمع شارفة، وهي الناقة المسنة، والنواء: السمان، واللبات: موضع النحر من الناقة، والقديد: اللحم، مطبوخاً كان أو مشوياً.

لقد كان حمزة سيداً ابن سيد، كريماً جواداً فارساً شجاعاً، وقد استثار الشاعر فيه طبيعته في حال سكره، وذهاب عقله، ليعقر الناقتين، ويأكل من لحمهما.

لقد استثير حمزة فثار، ونودي فأجاب، فاستلّ سيفه، ونحر الناقتين، وفعل ما كان يفعله السادة في الجاهلية، اقتطع شيئاً من السنام، وبقر الخواصر وأخذ الأكباد، وترك لبقية الأصحاب أن يفعلوا بالناقتين ما يريدون.

قاتل الله الخمر، كيف تذهب بلبّ صاحبها وعقله، فترى الرجل الحليم الوقور مثل حمزة يفعل من غير وعيٍ منه ما يذمّ عليه، وقد يؤذي أحب الناس إليه كما فعل حمزة بناقتي ابن أخيه، وأعظم من ذلك، فإن النبي ﷺ لما جاءَه يلومه على ما فعله، نظر إلى الرسول ﷺ نظرة ما كان له أن ينظرها لو كان في وعيه، وقال له كلاماً ما يمكنه قوله لو ذهب عنه سكره.

نظر حمزة إلى الرسول ﷺ مبتدئاً بالمكان الذي يقف فيه، ثم صعَّد النظر حتى نظر إلى ركبتيه، ثم صعّد النظر حتى نظر إلى وجهه، ثم قال له ولعلي وزيد بن حارثة وكانا صحبا النبي ﷺ ، ويا لعِظَم ما قال: «وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبي؟».

لقد أدرك الرسول ﷺ أن حمزة فاقد لعقله تماماً، فتصرف الرسول ﷺ بالتصرف المناسب، لقد انسحب من المكان مرجئاً معالجة الموقف إلى أن

يعود إلى حمزة عقله، ويذهب عنه سكره، وماذا تفيد العقوبة في مثل هذا الحال، كان الرسول ﷺ أقوى من حمزة على قوته، وكان يستطيع أن يصرعه، وكان قادراً على أن يستدعي من يقيّده ويجلده، ولكن ما الفائدة التي تُجنى في مثل ذلك.

إن حمزة كان محبّاً لرسول الله ﷺ ، وما كان له أن يرفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ ، ولا أن ينظر إليه تلك النظرة، ولا يقول له تلك المقالة، ولكنه ذاهب العقل، يتصرف بغير وعي، ويقول بغير ضابط.

لقد رأى الرسول ﷺ أن ينسحب، ولكنه خشي أن يصدر عن حمزة ما لا تُحمد عقباه، فاحتاط لذلك برجوعه القهقرى، فأخذ يمشي إلى الخلف ووجه إلى حمزة، حتى خرج من الباب.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- في الحديث صورة قبيحة لما يمكن أن تفعله الخمر بشاربها، حيث يؤذي نفسه، ويعتدي على مال غيره، ويعامل مخاطِبه من غير توقير، حتى لو كان رسول ربّ العالمين.

٢- لا إثم على حمزة فيما فعله، لأن شرب الخمر كان مباحاً في الوقت الذي شرب فيه، وما فعله، فعله في حال لم يكن عقله فيه معه، فزال عنه التكليف، وهذا لا يُسقط عنه ما أهلكه من حقوق للعباد.

٣- في الحديث صورة من صور ما كان يفعله أهل الجاهلية من الاجتماع على شرب الخمر، وتعاطيهم إياها حتى يثملوا، وهم في ذلك يطعمون ويأكلون، ويقول لهم الشعراء، وتغني لهم بذلك القينات، وقد أذهب الله عن هذه الأمة مساوئ الجاهلية وأرجاسها.

٤- لا يؤاخذ من ذهب عقله بسبب مباح على ما صدر منه من قبائح، كالذي يزول عقله بسبب ضربة أصابته، أو دواء شربه لا يدري أنه يُذهب العقل، أو شرب رجل خمراً يظنه خلاً، أو شربه كُرْهاً، أما حقوق العباد فواجب على من أتلفها أن يضمنها لأصحابها.

٥- لا حرج على الإنسان إذا أحزنه ما فاته من مصالحه ومنافعه، كما أسف عليٌّ وحزن على ما أصابه.

٦- قد يصيب الرجال العظام ما يسقط الدمعة، وليس بذلك بمذموم في مثل هذه المواقف، فكم بكى الرسول ﷺ عندما كان يفقد عزيزاً غالياً عليه، ولكنه لم يكن يقول إلا ما يرضي الربّ.

٧- لا حرج على المظلوم أن يستنصر على ظالمه بمن لديه القدرة على رد الظلم، كما فعل عليٌّ حين ذهب إلى رسول الله ﷺ وأخبره.

٨- استحباب وليمة العرس، والتكّلف لها، كما فعل علي حين كان يعدّ العدة لجمع ما يمكنه من إقامة الوليمة.

٩- جواز جمع الحطب والكلأ من الأرض غير المملوكة والانتفاع به استعمالاً وبيعاً، كما كان عليّ يريد أن يفعل، وقد عقد البخاري على هذا الحديث باباً عنون له بقوله: «باب بيع الحطب والكلأ» [البخاري: ٢٣٧٤].

١٠- يجوز استئجار المشرك في العمل المباح، كما استأجر عليٌّ ذلك اليهودي يستعين به على جمع الحطب والكلأ، وبيعه.

١١- كانت صناعة الحلي موجودة عند أهل الصدر الأول، وكان الصنّاع يسمون بالصوّاغين.

١٢- يجوز لمالك الناقة أن يستخدمها بالحمل عليها بمقدار ما تطيقه، كما أراد علي أن يفعل، وفِعْل ذلك كان مشهوراً معروفاً في العهد النبوي.

١٣-يجوز أن يوقف الرجل دابّته أو سيارته أمام بيوت الآخرين أو بجوارها إذا كان في المكان سعة، ولم يتضرر أصحاب البيوت من ذلك، فقد أناخ عليّ ناقتيه إلى جنب حجرة رجل من الأنصار.

١٤-يشرع للإمام أن يتفقد المواضع التي يقع فيها المنكر ليغيره، كما ذهب الرسول ﷺ إلى الموقع الذي وقع فيه العدوان على ناقتي علي بن أبي طالب.

١٥-تحديد الوقت الذي تزوج فيه عليّ بفاطمة، وأنه كان بعد موقعة بدر، ومن ذكر وقتاً قبل ذلك من أهل العلم فهو محمول على العقد، لا الدخول.

١٦-عندما أراد الرسول ﷺ الخروج بعدما أخبره علي بالواقعة، تجمّل بثياب غير الثياب التي كان يلبسها في منزله، فقد أخذ رداءً وارتدى به، فليس من المروءة والأدب أن يخرج المرء بلباس النوم أو الثياب المعدّة للمنزل إلى المساجد والأسواق ومواضع اجتماع الناس.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القصة الثالثة والثلاثون
قتل بحربته خير الناس وشر الناس

تمهيد

الذي قتل بحربته خير الناس وشر الناس هو وحشي، وخير الناس حمزة بن عبدالمطلب، وشر الناس مسيلمة الكذاب، وهذا الحديث يرويه وحشي مبيناً قصته في قتل كلٍّ واحد من الرجلين.

نص الحديث

عن جعفرِ بن عمرو بن أميةَ الضَّمْري قال: «خرجتُ معَ عُبَيدِ الله بن عَديٍّ بن الخيار، فلما قَدِمنا حمصَ قال لي عبيدُ الله بن عَديّ: هل لكَ في وَحشيٍّ نسألهُ عن قتلِ حمزةَ؟ قلتُ: نعم، وكان وَحشيٌّ يَسكنُ حمصَ، فسألْنا عنه، فقيلَ لنا: هو ذاكَ في ظلِّ قَصرهِ كأنه حَميت. قال: فجِئنا حتى وَقفْنا عليه بيَسِير، فسلمنا، فردَّ السلام، قال وعبيدُ الله مُعتجِرٌ بعمامَتِه ما يرَى وَحشيٌّ إلا عينيه ورجليه.

فقال عُبَيدُ الله: يا وَحشيُّ أتعرفني؟ قال: فنظَرَ إليه ثمَّ قال: لا والله، إلا أني أعلمُ أنَّ عَدِيَّ بن الخِيارِ تزوجَ امرأةً يقالُ لها أم قِتالٍ بنتُ أبي العِيص، فوَلَدَت له غلاماً بمكة، فكنتُ أسترضِعُ له، فحملتُ ذلكَ الغلامَ معَ أمِّهِ فناولَتها إيّاهُ، فلكأني نظرتُ إلى قدَمَيك. قال: فكشفَ عُبَيدُ الله عن وَجههِ ثم قال: ألا تخبرُنا بقتل حمزةَ؟

قال: نعم، إن حمزةَ قَتل طعَيمةَ بن عديّ بن الخيارِ ببدر، فقال لي مَولاي جُبَير بن مُطعِم: إن قتلتَ حمزةَ بعمّي فأنت حرّ، قال: فلما أن خَرَجَ الناسُ عام عَينين – وعينَين جبلٌ بحيال أحد، بينَه وبينه واد – خرجتُ مع الناس إلى القتال، فلما اصطَفّوا للقِتال خرجَ سِباعٌ فقال: هل من مُبارِز؟ قال: فخرجَ إليه حمزة بن عبدِ المطلب فقال: يا سِباعُ، يا ابنَ أمّ أنمارٍ مُقطّعةِ البُظور، أتحادُّ الله ورسولَه ﷺ ؟ قال: ثمّ شدَّ عليه، فكان كأمسِ الذاهب.

قال: وكمنْتُ لحمزةَ تحتَ صخرةٍ، فلما دَنا مني رمَيته بحَرْبتي فأضَعُها في ثُنّتِهِ حتى خرَجَتْ من بينِ وَرِكيه، قال: فكان ذاكَ العهدَ به. فلما رجَعَ الناسُ رجَعتُ معَهم، فأقمتُ بمكةَ حتى فَشا فيها الإسلامُ. ثم خرَجتُ إلى الطائفِ، فأرسَلوا إلى رسولِ الله ﷺ رُسلاً، فقيلَ لي: إنه لا يهيج الرُّسلَ، قال: فخرجتُ معهم حتى قدِمتُ على رسولِ الله ﷺ ، فلما رآني قال: آنتَ وَحشيّ، قلت: نعم. قال: أنت قتلت حمزة؟ قلتُ: قد كان منَ الأمر ما بلَغك. قال: فهل تستطيعُ أن تُغيّبَ وَجهَكَ عني؟ قال: فخرجتُ.

فلما قُبض رسولُ الله ﷺ فخرَجَ مُسَيلمةُ الكذّابُ، قلت: لأخرُجَنَّ إلى مُسَيلمةَ لعلّي أقتُله فأُكافِئَ به حمزةَ. قال: فخرَجت مع الناس فكان من أمرِهِ ما كان، قال: فإذا رجلٌ قائمٌ في ثلمةِ جِدارٍ كأنهُ جملٌ أورقُ ثائر الرأس، قال: فرمَيتُه بحربتي، فأضَعها بين ثدييهِ حتى خرَجت من بين كَتفَيْه. قال: ووَثبَ رجلٌ منَ الأنصار فضربَه بالسيف على هامَتِه».

قال: قال عبدُاللهِ بن الفضل: فأخبرَني سليمانُ بن يَسارٍ أنه سمعَ عبدَاللهِ بن عمرَ يقول: «فقالت جاريةٌ على ظهرِ بيتٍ: وا أميرَ المؤمنين، قتلَه العبدُ الأسود».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب قتل حمزة، ورقمه: [٤٠٧٢].

غريب الحديث

وحشي	: رجل من الحبشة، اسم أبيه حرب، وكان مولى لجبير بن مطعم [فتح الباري: ٧/ ٤٦٠].
كأنه حَميت	: على وزن رَغيف، والحميت: الزق الكبير الذي لا شعر عليه، تجعله العرب للسمن.
معتجراً بعمامته	: لافاً عمامته على رأسه من غير تحنيك.
جبل عَيْنَيْن	: هو جبل قريب من جبل أُحُد، نزلت قريش عنده قبل معركة أُحُد.
حيال أحد	: مقابله.
يا ابن أمِّ أنمار مقطعة البُظور	: أم أنمار هي أمُّ سباع، الذي خرج حمزة لمبارزته، كانت تمتهن ختانة النساء في مكة، والعرب تذم من تقوم بمثل هذا الفعل.
أتحادُّ الله ورسولَه	: أتعاند الله ، وتعاند رسوله ﷺ .
كأمس الذاهب	: أي: صيره عَدَماً كأن لم يكن، وذهب كما ذهب الأمس.

كمنت	: اختفيت.
في ثِنّته	: هي العانة تكون أسفل البطن.
يهيج الرسل	: أي: لا يزعجهم، ولا يفزعهم.
فأكافئ به حمزة	: أي: أساويه به.
جمل أورق	: الوُرْقَةُ في ألوان الإبل، كالسمرة في ألوان البشر.
ثلمة جدار	: الثلمة فتحة في الجدار.
الهامة	: وسط الرأس.

شرح الحديث

خرج راوي الحديث جعفر بن عمرو بن أمية الضمري مع صاحبه عبيد الله بن عدي بن الخيار غازيين في سبيل الله، فمرّا في طريقهما إلى مقصدهما بمدينة حمص إحدى مدائن الشام، فعرض عبيد الله على جعفر أن يحصلا فائدة من غير كبير عناء في سفرهما ذاك، عرض عليه أن يزورا وحشي بن حرب قاتل حمزة بن عبدالمطلب في معركة أحد، ليسمعا منه قصة قتله إياه، وقد أحسنا صنعاً بسماعهما منه، فقد بقيت القصة التي سمعاها منه رواية تحكى، وتتفقه عليها الأجيال على مرّ العصور والدهور.

دخل الصاحبان حمصَ، ولم يطل بهما البحث كثيراً، فما أسرع أن دُلاّ على وحشي، وهذا يدل على أنه كان معروفاً لأهل حمص مشهوراً فيهم، خاصة وأنه أصبح غنياً في تلك الأيام، دلّنا على ذلك أنهم وجدوه قاعداً في ظل قصر له، يحتمي بظله من حرّ الشمس.

وقد وصفه الدليل الذي دلّهم عليه، فقال لهما: «هو ذاك في ظل قصره كأنه حَميت» أي كأنه الزِّقّ، وقفا وسلّما عليه، فردّ عليهما

السلام، وأرادا قبل أن يسمعا منه قصة قتله حمزة أن يختبرا حافظته وقوة الذاكرة عنده، كأنما خشيا أن يكون لكِبَره قد فقد ذاكرته، فلا نفع لهما في الاستماع إليه في هذه الحال.

كان عبيد الله بن عدي عندما وقف على وحشي مخفياً نفسه، فقد لفّ عمامته على رأسه ووجهه، فلا يُرى من وجهه إلا عيناه، ولا يُرى من بقية جسده إلا رجلاه، فقال عبيد الله لوحشي مختبراً له ممتحناً إياه: يا وحشي أتعرفني؟

لقد كان وحشي قديماً وثيق الصلة بأسرة عبيد الله بن عدي، إذ كان عبداً لابن أخيه جبير بن مطعم بن عدي بن الخيار، فقال وحشي: لا والله، ثم استدرك قائلاً: إنه في تلك الفترة التي كان فيها عبداً لجبير بن مطعم تزوج عم المطعم وهو عدي بن الخيار امرأة، فرزق منها ولداً، ونظر وحشي إلى ذلك الطفل الرضيع مرة واحدة، ولم يره كله، بل رأى قدميه فحسب، لقد نظر وحشي إلى قدمي عبيد الله فعرف فيهما قدمي ذلك الطفل الرضيع، فقال مجيباً عبيد الله عن سؤاله: «لا والله إلا أني أعلم أن عدي بن الخيار (والد عبيد الله) تزوج امرأة يقال لها أمُّ قتال بنت أبي العيص، فولدت له غلاماً بمكة، فكنت أسترضع له، (أي أطلب له امرأة ترضعه) فحملت ذلك الغلام مع أمه، فناولتها إياه، فكأني نظرت إلى قدميك».

إنها ذاكرة فذة، وفراسة ما بعدها فراسة، لقد حفرت تلك النظرة العابرة صورة قدمي ذلك الطفل في ذاكرة وحشي، حتى إذا رآه بعد ذلك وهو رجل كبير رأى في قدمي الرجل قدمي ذلك الطفل الصغير.

عند ذلك كشف عبيد الله عن وجهه بعد نجاح وحشي في الاختبار، طالباً منه أن يحدثهما عن قصة قتله حمزة.

فأخبرهما أنه لم يكن خرج في جيش قريش مقاتلاً معهم، وإنما خرج يريد شراء حريته بقتل حمزة، فقد وعده سيده جبير (ابن أخي عبيد الله) أن يحرره إن هو قتل حمزة، ذلك أن حمزة قتل عمّه طعيمة بن عدي (أخو عبيد الله لأبيه).

فلما خرجت قريش إلى عَيْنين، وعينين جبل قرب جبل أُحُد بينه وبين أُحُد وادٍ، وكانت قريش نزلت عنده عند وصولها المدينة، وحدّثنا عما كان من حمزة في بداية معركة أحد، ففي رواية الطيالسي قال وحشي في وصف حمزة في المعركة: «فإذا حمزة كأنه جمل أورق ما يرفع له أحد إلا قمعه بالسيف» [فتح الباري: ٧/ ٤٦١].

وحدّثنا وحشي كيف أنه لما خرج فارس من فرسان قريش يدعو إلى المبارزة يدعى سباع، خرج إليه حمزة صائحاً به مبكتاً إياه، قائلاً له: «يا سباع، يا ابن أمّ أنمار مقطعة البظور، أتحادُّ الله ورسولَه؟» ناداه باسمه، معيراً إياه بأمه التي تدعى أمّ أنمار، لأنها كانت تختن النساء في مكة، وهذا ما عناه بقوله: «مقطعة البظور»، وتلك مهنة مذمومة عند العرب، ثم قال له مبكتاً ذامّاً له: «أتحادُّ الله ورسولَه؟».

لقد كان حمزة فارساً وأي فارس، وكان لا يكتفي بالحرب بسيفه ورمحه، فقد كان يخلع قلب من يريده قبل أن يُعمل فيه سيفه، فكأني بسباع وقد رأى حمزة مقبلاً إليه كالجمل الأورق بضخامة منظره، وعِظَم هيبته وشدة بأسه قد أخذته الرهبة، وتملكه الخوف، وازداد خوفه ورهبته وكلام

حمزة يسري في كيانه ذامّاً وموبخاً.. يا سباعُ.. يا ابن أمِّ أنمار.. مقطعة البظور.. أتحاد الله ورسولَه؟!! .

لم يحتج حمزة إلى جولة ليردي خصمه، فما إن توجه إليه، وشدّ عليه، حتى جعله كأمس الذاهب، فقد كان فيما مضى رجل يقال له: سباع.

لقد راقب وحشي حمزة وهو «يهد الناس بسيفه» (ابن إسحاق) فقال في نفسه: «فرأيت رجلاً إذا حمل لا يرجع حتى يهزمنا» [فتح الباري: ٤/ ٤٦١].

لقد كان وحشي رجلاً مرعوباً من حمزة، ولم يكن باستطاعته أن ينازله في الميدان مواجهة، فليس هو من أكفائه.

كَمَنَ وحشي لحمزة وراء صخرة، يتّقي بها حتى لا تقع عينا حمزة عليه، فلما اقترب منه، وأصبح في مرمى حربته، انتهز انحسار درع حمزة عن بطنه، فهز حربته، ورمى بها باتجاه الموضع الذي قصده من حمزة فخرجت كالقذيفة، فوقعت في أسفل بطنه، وهو المكان الذي انحسرت عنه الدرع، فخرّ صريعاً، ولم يستطع القيام.

عاد وحشي إلى مكة مبشِّراً جبيراً سيده بمقتل حمزة، ونالَ حريته، وأقام بمكة إلى أن فشا الإسلام، ففرّ من وجه الجيش الإسلامي في الفتح، وانتقل إلى الطائف، وأصبح لا يدري إلى من يقصد، وأين يتجه، فالإسلام يزحف إلى كل مكان في الجزيرة العربية، حتى همّ بأن يرحل إلى الشام أو اليمن أو غيرهما كما روى ذلك ابن إسحاق عنه [فتح الباري: ٦/ ٤٦٢].

ثم دلّه من يعلم حال رسول الله ﷺ على التوجه إلى الرسول ﷺ والوقوف بين يديه ونطقه بالشهادتين، واستغل إرسال ثقيف وفداً إلى

الرسول ﷺ يفاوضه بعد هزيمتهم في حنين، فاندسّ وحشي فيهم، وما شعر الرسول ﷺ إلا ووحشي قائماً على رأسه يتشهد شهادة الحق. لقد أسلم وحشيّ فأحرز نفسه وماله، فلا يستطيع أحد أن يناله بأذى، مع كونه قاتل حمزة عمّ رسول الله ﷺ ، وأسد الله وأسد رسوله، وكل ما طلبه الرسول ﷺ منه أن يغيب عن ناظريه، حتى لا تقع عيناه على وجه قاتل عمّه، ونصحه الرسول ﷺ كما في رواية الطبراني فقال له: «يا وحشي، اخرج فقاتل في سبيل الله كما كنت تصدّ عن سبيل الله» [فتح الباري: ٧/ ٣٦٣].

فلما ارتدت العرب عن الإسلام، وخرج مسيلمة الكذاب في أهل اليمامة مدّعياً النبوة، وأرسل أبو بكر إليه جيشاً، للقضاء على فتنته، خرج وحشيّ مع الجيش مصمماً على قتل مسيلمة لعله يكافئ بقتله حمزة، واستمعْ إلى ما كان من وحشي في تلك المعركة: «فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان، فإذا رجل قائم في ثلمة جدار، كأنه جمل أورق ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي، فأضعها بين ثدييه، حتى خرجت من بين كتفيه، ووثب رجل من الأنصار، فضربه بالسيف على هامته» وقال عبدالله ابن عمر: «فقالت جارية على ظهر بيت: وا أمير المؤمنين، قتله العبد الأسود» [صحيح البخاري: ٤٠٧٢].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- في الحديث ذكر ما كان عليه شباب الإسلام في العهود الأولى للإسلام من العناية بأمر الجهاد، فجعفر بن عمرو راوي الحديث وعبيد الله بن عدي عندما قابلا وحشيّاً كانا خارجين في زمن معاوية مع الجيش الإسلامي الذي يخرج في الصيف للحرب والجهاد، وكان يدعى بالصائفة.

٢- التثبت في رواية الأخبار، فمع أن راوي الحديث وصاحبه كانا يعلمان بقصة مقتل حمزة، إلا أنهما أحبّا أن يسمعاها من قاتله، فهو أخبر الناس بقصة قتله.

٣- في الحديث مناقب حمزة ﷺ ، وما كان عليه من القوة والفتوة، والذود عن حياض الإسلام، والجهاد في سبيل الله.

٤- قد يفعل الرجل الذي لا يؤبه له الأمر العظيم، كما فعل وحشي في قتله كلاً من حمزة ومسيلمة.

٥- مدى ما كان يتمتع به وحشي من ذكاء وفراسة وقوة ذاكرة، فقد عرف رجلاً لم يرَ منه إلا قدميه عندما كان رضيعاً.

٦- توثق المسلم من مُحدّثه للتعرف على مدى حفظه قبل السماع منه، فقد توثق عبيد الله أن حفظ وحشي كان في غاية الدقّة والقوة. فإذا عرفه وحشي بنظرة نظرها إلى قدميه رضيعاً، فمن باب أولى أن تكون حافظته أكثر دقة في الحادثات العظام التي جرت معه.

٧- تشوق كثير من الذين كانوا يرزحون تحت نير العبودية إلى الحرية، وإتيانهم بالأعمال الكبار للحصول عليها، كما فعل وحشي بقتله لحمزة، وكان يمكن أن يفقد حياته في سبيل ذلك.

٨- تحول أهل الجاهلية إلى مسلمين يدافعون عن الإسلام، ويجاهدون في سبيله، فوحشي الذي قتل حمزة، يقتل أعظم المرتدين مسيلمة، وعبيد الله بن عدي بن الخيار، الذي دفع ابنُ أخيه وحشياً إلى قتل حمزة يخرج مجاهداً في سبيل الله، وهو في ذلك متبرأ من عمّه الذي دفع على قتل حمزة محباً لحمزة أسد الله وأسد رسوله.

٩- فيه معرفة نوع من أنواع القتال كان يتقنه بعض الناس في تلك الأيام، وهو الضرب بالحربة، وهو فن قتالي تعلمه العرب من أهل الحبشة، وكان الرسول ﷺ يتقنه.

١٠-إحراز الكافر دمه وماله إذا أسلم، مهما كَبُرَ ذنبه، وعظُمَت جريمته، كما فعل وحشي فقد أحرز نفسه وماله بإسلامه.

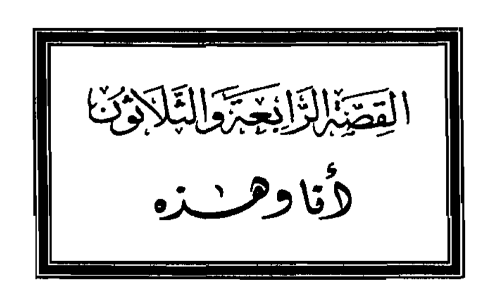
١١-من العلاقات الدولية التي أقرّها الإسلام إعطاء رسل العدو الأمان، وعدم التعرّض لهم بالأذى، ولو كان فيهم من آذى المسلمين كوحشي.

١٢-جواز الإغلاظ في القول في الحرب للرجل الكافر، كما فعل حمزة رضي الله عنه في مخاطبته لسباع بن أم أنمار.

١٣-لا حرج لمن كره مجالسة ومصاحبة من آذاه أو آذى أقربائه كما فعل الرسول ﷺ مع وحشي عندما طلب منه أن لا يريه وجهه، ولكنه لم يتعد حدود الله فيه، ولم يؤذه بقول أو فعل.

١٤-كان المسلمون من أهل الجاهلية حريصين على فعل الخيرات ليكفّروا عن أفعالهم السيئة، كما وقع من وحشي في قتله مسيلمة.

* * *



تمهيد

جاء الرسولَ ﷺ جارُه يدعوه، فاشترط أن تكون عائشة رفقته، فلما أبى أبى، وأعاد الدعوة ثلاث مرات، فلما وافق في الثالثة على شرط رسول الله ﷺ خرجا يتدافعان.

نص الحديث

عَنْ أنسٍ: أنَّ جَاراً، لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَارِسِيّاً، كَانَ طَيِّبَ الْمَرَقِ، فَصَنَعَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ: (وَهذِهِ؟) لِعَائِشَةَ. فَقَالَ: لاَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لا). فَعَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (وَهَذِهِ؟) قَالَ: لاَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لاَ). ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (وَهَذِهِ؟) قَالَ: نَـعَمْ فِي الثَّالِثَةِ. فَقَامَا يَتَدَافَعَانِ حَتَّى أَتَيَا مَنْزِلَهُ.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الأشربة، باب «جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك» ورقمه: [٢٠٢٧]. ورواه النسائي في كتاب الطلاق، باب الطلاق بالإشارة المفهومة، ورقمه: [٣٤٣٦].

غريب الحديث

يتدافعان : أي: يمشي كل واحد منهما في إثر صاحبه.

شرح الحديث

كان لرسول الله ﷺ جار فارسي، معروف بإجادته للطبخ، فكان يصنع مرقاً طيباً، فصنع طعاماً لرسول الله ﷺ ، ثم جاء يدعوه إلى طعامه، وكانت عائشة جالسة بحضرته، ويبدو أن ذلك كان قبل نزول الحجاب، فاشترط الرسول ﷺ أن يصحب عائشة معه، فأبى الداعي، ثم عاد مرة أخرى إلى دعوته له، فاشترط عليه مثل ما اشترطه أولاً، فأبى مرة أخرى، ثم عاد إلى دعوته ثالثة، ووافق على ما اشترطه الرسول ﷺ ، فخرج الرسول ﷺ وزوجته عائشة فرحين جذلين، يتدافعان، منطلقين إلى منزل الجار الداعي.

إنها صورة رائعة للأسرة السعيدة، فالجار الداعي دعا الرسول ﷺ إلى طعامه في الحال، وليس بعد فترة من الزمن، وكانت عائشة حاضرة، فلم يكن لائقاً أن يقوم من عندها ليأكل ثم يعود إليها، ثم إن الداعي جار قريبة داره، ولن تتعب عائشة في الوصول إلى المكان، ثم في اشتراط دعوتها إكرام لها، وتحبب إليها، ولابد أن عائشة كانت مسرورة أيما سرور برفض الدعوة من غير مرافقتها له، وعندما استجاب الداعي لشرط رسول الله ﷺ ظهر السرور عند الرسول ﷺ وعندها فخرجا يتدافعان.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- لا حرج على المدعو إن اشترط شرطاً على من دعاه، كمن اشترط صحبة آخر، أو اشترط لوناً من الطعام، ولا حرج على الداعي إن رفض الشرط.

٢- الحياة الطيبة التي كان يعيشها الرسول ﷺ مع زوجاته، وهذه الواقعة تمثل صورة من الصور لهذه الحياة السعيدة، قال النووي رحمه الله تعالى:

«كره الرسول ﷺ الاختصاص بالطعام دونها، وهذا من جميل المعاشرة، وحقوق الصحبة، وآداب المجالسة المؤكدة» [النووي على مسلم: ١٣-١٥/ ١٨١].

٣- كان الرسول ﷺ يلبي دعوة من دعاه، وإن كان على طعام قليل.

٤- جواز أكل المرق والطيبات، فقد دُعِيَ الرسول ﷺ إلى طعام فارسي طيب المرق، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف:٣٢].

* * *

القِصَّةُ الخَامِسَةُ والثَّلاثُونَ
واللهِ ما لي بالطِّيبِ من حاجةٍ

تمهيد

دخلت زينت بنت أبي سلمة مرتين على ثنتين من أمهات المؤمنين، هذه توفي أبوها، وتلك توفي أخوها، وكلاهما قالتا: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً».

نص الحديث

عن زينبَ ابنة أبي سلمة قالت: «دخلتُ على أمِّ حَبيبةَ زوج النبيِّ ﷺ حينَ تُوفيَ أبوها أبو سُفيانَ بنُ حرب، فدَعتْ أمُّ حبيبةَ بطيبٍ فيه صُفرة – خَلوقٌ أو غيرُهُ – فدهنَت منه جاريةً ثم مَسَّت بعارضيها، ثم قالت: والله ما لي بالطيب من حاجة، غير أني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (لا يَحلُّ لامرأةٍ تُؤمنُ بالله واليوم الآخر أن تُحِدَّ على ميّتٍ فوق ثلاثِ ليالٍ، إلا على زوج أربعةَ أشهرٍ وعشراً).

وقالت زينبُ: «فدخلتُ على زينبَ ابنة جحشٍ حينَ توفيَ أخوها، فدَعت بطيب، فمست منه ثم قالت: أما والله ما لي بالطيب من حاجةٍ، غير أني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول على المنبر: (لا يحِلُّ لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخِرِ أن تُحِدَّ فوقَ ثلاثِ ليالٍ، إلا على زوج أربعةَ أشهرٍ وعشراً).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب الطلاق، باب «ما تحدّ المتوفى عنها أربعة أشهر وعشراً» ورقمهما: [٥٣٣٤، ٥٣٣٥].

غريب الحديث

الإحداد : منع المعتدة نفسها الزينة، وبدنها الطيب، ومنع الخطاب خطبتها والطمع فيها.

لا يحل : أي: يحرم.

شرح الحديث

حدثت زينب ابنة أبي سلمة أنها دخلت على اثنتين من أمهات المؤمنين في مناسبتين، وقد توفي لكل واحد منهما قريب شديد القرابة، فدعت كل واحدة منهما بطيب فتطيبت به، واحتجت كل منهما على ما فعلته، بأنها سمعت رسول الله ﷺ ، يقول: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليالٍ، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً).

والأولى من المرأتين اللتين دخلت عليهما زينب هي أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، دعت بطيب فيه صفرة، فدهنت منه جارية، ثم مست بعارضيها من ذلك الطيب.

وأما المرأة الثانية فهي زينب بنت جحش، فعلت ذلك حين توفي أخوها. وقد بيّنت كل واحدة منهما أنها ليست بحاجة إلى ذلك الطيب ولا

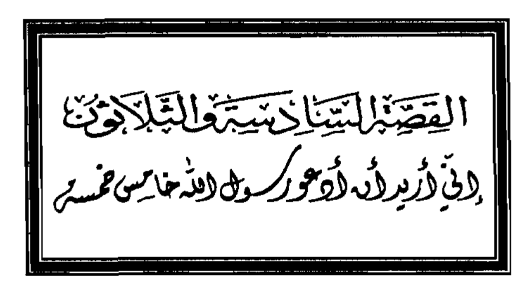
تريده، وإنما فعلته امتثالاً للحكم الذي قرره الحديث الذي سمعته من الرسول ﷺ ، والذي يحرّم على من مات لها قريب أن تحدّ عليه فوق ثلاث ليالٍ إلا إذا كان زوجاً.

وهذا الحكم الذي قرره هذا الحديث يبطل عادة جاهلية في الإحداد على الميت السنوات الطوال، تعرض فيها المرأة عن الزينة والطيب، وقد تعرض عن الزواج، وهي بذلك تشق على نفسها ومَن حولها، وتفرض الحزن على نفسها وزوجها وأهلها، وينافي الموقف السديد الذي ينبغي أن تقفه المسلمة من الرضا بما قدّره الله وقضاه.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- لا يجوز أن تحد المرأة على ميت غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام.
٢- يجب الإحداد على الزوج مدة أربعة أشهر وعشراً، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة:٢٣٤].
٣- مدى التزام الصحابيات وأمهات المؤمنين بتنفيذ ما قررته الآيات والأحاديث، وإن كره الناس.
٤- لا يشرع للمرأة أن تحد على الزوج غير الميت فوق ثلاث، كالتي يفسخ زواجها لطول غيبة زوجها.

* * *



تمهيد

دعا رجل من الأنصار الرسول ﷺ خامس خمسة، فتبعهم سادس، فأعْلَمَ الرسول ﷺ صاحب الوليمة بواقع الحال، فأذِنَ له.

نص الحديث

عن أبي مَسعودٍ قال: «جاءَ رجُلٌ منَ الأنصار يُكنى أبا شُعيبٍ، فقال لغُلامٍ له قَصّابٍ: اجعَلْ لي طَعاماً يَكفِي خَمسةً منَ الناسِ، فإني أريدُ أن أدْعوَ النبيَّ ﷺ خامسَ خمسةٍ، فإني قد عرَفتُ في وَجهه الجوعَ، فدعاهم، فجاء معَهم رجُلٌ، فقال النبيُّ ﷺ: (إنَّ هذا قد تَبعَنا، فإن شِئتَ أن تأذنَ لهُ فأذنْ له، وإن شِئتَ أن يَرْجِعَ رَجَعَ). فقال: لا، بل قد أذِنتُ له».

تخريج الحديث

رواه البخاري في كتاب البيوع، باب ما قيل في اللحام والجزّار، ورقمه: [٢٠٨١] وانظره أيضاً في [٢٤٥٦، ٥٤٣٤، ٥٤٦١].

غريب الحديث

لحام : هو الذي يبيع اللحم.

شرح الحديث

هذه قصة لطيفة، يحكي راويها أن أحد صحابة رسول الله ﷺ كان يدعى أبا شعيب، رأى في وجه الرسول ﷺ ما يدلّ على أنه جائع، فأمر غلاماً له يعمل لحاماً أن يصنع له وليمةً تكفي خمسة رجال، ليدعو الرسول ﷺ وأربعة من أصحابه، فصنع اللحام الطعام، وجاء أبو شعيب فدعاه خامس خمسة، واتّبعهم رجل، فلما بلغ الرسول ﷺ باب منزل المضيف، قال لصاحب الدار: (إن هذا اتّبعنا، فإن شئت أن تأذن له، وإن شئت رجع) فأذِنَ له، وشاركهم في طعامهم.

لم يمنع الرسول ﷺ الرجل من اتّباعهم، ولكنه لم يفرضه على صاحب المنزل، فصاحب المنزل دعا خمسة فقط، وليس للضيوف أن يزيدوا على العدد المحدد، وكان بوسع الرسول ﷺ أن يسكت، وما كان لصاحب الدار أن يطرد سادسهم، احتراماً وتوقيراً لرسول الله ﷺ ، ولكن الرسول ﷺ أراد أن يبين الحكم العام للناس في مثل هذه الواقعة، وأنه لا يجوز دخول منزل صاحب الوليمة إلا بإذن.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

قال ابن حجر العسقلاني [فتح الباري: ٩/ ٦٩٣] في هذا الحديث من الفوائد:

١- جواز الاكتساب بصنعة الجزارة، واستعمال العبد فيما يطيق من الصنائع وانتفاعه بكسبه منها.

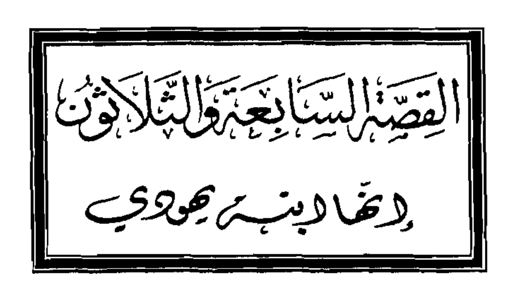
٢- مشروعية الضيافة، وتأكد استحبابها لمن غلبت حاجته لذلك.
٣- من صنع طعاماً لغيره، فهو بالخيار بين أن يرسله إليه، أو يدعوه إلى منزله.
٤- من دعا أحداً استحبّ أن يدعو معه من يرى من أخصائه وأهل مجالسته.
٥- في الحديث الحكم بالدليل، لقوله: «إني عرفت في وجهه الجوع».
٦- كان الصحابة يديمون النظر إلى وجه الرسول ﷺ تبركاً به، وكان منهم من لا يطيل النظر في وجهه حياءً منه، كما صرّح به عمرو بن العاص، أخرجه مسلم [برقم (١٢١) حيث يقول عمرو: وما كنت أطيق أن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت].
٧- في الحديث أن الرسول ﷺ كان يجوع أحياناً.
٨- فيه إجابة الإمام والشريف والكبير دعوة من دونهم.
٩- فيه أكل الرسول ﷺ وأصحابه طعام ذي الحرفة غير الرفيعة كالجزار.
١٠- فيه أن تعاطي مثل تلك الحرفة لا يضع قدر من يتوقى فيها ما يكره، ولا تسقط بمجرد تعاطيها شهادته.
١١- فيه أن من صنع طعاماً لجماعة فليكن على قدرهم، إن لم يقدر على أكثر، ولا ينقص من قدرهم مستنداً إلى أن طعام الواحد يكفي الاثنين.
١٢- وفيه أنه من دعا قوماً متّصفين بصفة، ثم طرأ عليهم من لم يكن معهم حينئذ أنه لا يدخل في عموم الدعوة.
١٣- فيه أن من تطفّل في الدعوة كان لصاحب الدعوة الاختيار في حرمانه، فإن دخل بغير إذنه كان له إخراجه، وأن من قصد التطفل لم يمنع

ابتداءً، لأن الرجل تبع النبي ﷺ ، فلم يردّه لاحتمال أن تطيب نفس صاحب الدعوة بالإذن له، وينبغي أن يكون هذا الحديث أصلاً في جواز التطفل، لكن يقيد بمن احتاج إليه. وقد جمع الخطيب من أخبار الطفيليين جزءاً فيه عدة فوائد: منها أن الطفيلي منسوب إلى رجل كان يقال له: طفيل من بني عبدالله بن غطفان، كثر منه الإتيان إلى الولائم بغير دعوة، فسمّي «طفيل العرائس» فسمي من اتّصف بعد بصفته طفيلياً، وكانت العرب تسميه «الوارش»، وتقول لمن يتّبع المدعو بغير دعوة: «ضيفن» بنون زائدة (باختصار).

١٤-فيه أن المدعو لا يمتنع من الإجابة إذا امتنع الداعي من الإذن لبعض صحبه.

١٥-فيه أنه ينبغي لمن استؤذن في مثل ذلك أن يأذن للطارئ كما فعل أبو شعيب، وذلك من مكارم الأخلاق.

* * *



تمهيد

أبكى صفية بنت حيي أنها ابنة يهودي، فأخبرها الرسول ﷺ أنها ابنة نبي، وعمّها نبي، وهي تحت نبي.

نص الحديث

عن أنسٍ، قال: بَلَغَ صفيَّةَ أن حَفْصةَ قالت: ابنةُ يَهُودِيٍّ، فبَكَتْ، فدَخَلَ عليها النبيُّ ﷺ وهي تَبْكي، فقال: (ما شَأْنُكِ؟) فقالت: قالت لي حَفْصةُ: إنّي ابنةُ يَهُوديٍّ! فقال النبيُّ ﷺ: (إنَّكِ ابنةُ نَبيٍّ، وإنَّ عَمَّكِ لَنَبيٌّ، وإنَّكِ لَتَحْتَ نَبيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عليك) فقال: (اتَّقي الله يا حَفْصَةُ).

تخريج الحديث

رواه أحمد في مسنده، ورقمه: [١٢٣٩٢] وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وأخرجه الضياء في «المختارة» (١٧٩٥) من طريق عبدالله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، بهذا الإسناد.

وهو في «مصنف عبدالرزاق» (٢٠٩٢١)، ومن طريقه أخرجه عبد ابن حميد (١٢٤٨)، والترمذي (٣٨٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٩١٩)،

وأبو يعلى (٣٤٣٧)، وابن حبان (٧٢١١)، والطبراني ٢٤/ (١٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» ٢/ ٥٥، والضياء (١٧٩٣) و (١٧٩٤) و(١٧٩٦) و(١٧٩٧). وقال الترمذي: حسن صحيح.

غريب الحديث

ما شأنك : ما خبرك؟ وما الذي جعلك تبكين.

تفخر عليك : تترفع وتتعالى عليك.

اتقي الله : خافيه، وأقلعي عما كان منك.

شرح الحديث

كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب من بني النضير، وهو من سبط لاوي بن يعقوب، ثم من ذريه هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام، كانت تحت سلام بن مشكم، ثم تزوجها بعد وفاته كنانة بن أبي الحقيق، فقتل كنانة يوم خيبر، فصارت صفية مع السبي، فأخذها دحية، ثم استعادها الرسول ﷺ ، فأعتقها وتزوجها، وثبت ذلك في الصحيحين من حديث أنس مطولاً ومختصراً [الإصابة: ٣٤٦].

وقد كان تزوج الرسول ﷺ بصفية عجباً، فقد قَتَلَ في وقعة خيبر أباها حيي بن أخطب وزوجها، كما أوقع بكثير من أهلها وأقاربها، فكيف يأمن مثلُه مثلَها؟!

إن المجتمع المسلم في المدينة قد عانى من اليهود وغدرهم ومكرهم، ولقد وقع بين المسلمين واليهود وقائع كثيرة، وكان المجتمع المسلم وبخاصة النساء يحملن على اليهود، فكيف يمكن ليهودية في الذروة من النسب فيهم

أن تحتل موقعاً متقدماً في المجتمع الإسلامي، فتصبح واحدة من أمهات المؤمنين، أي: في طليعة المسلمات.

لقد استطاع الرسول ﷺ بحكمته أن يستل السخيمة من قلبها، تجاهه، تقول صفية: «ما كان أبغض إليّ من رسول الله ﷺ قتل أبي وزوجي، فما زال يعتذر إليّ، وقال: يا صفية، إن أباك ألبّ عليّ العرب، وفعل، وفعل، وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي» [مجمع الزوائد للهيثمي: ٩/ ٢٥١، وعزاه إلى الطبراني، ورجاله رجال الصحيح].

ويبدو أن صفية كانت قبل إسلامها قد داخلها الإسلام وهفت إليه، بل وهفت إلى الزواج بالرسول ﷺ ، ففي الحديث السابق أن الرسول ﷺ رأى خضرة بعيني صفية بعد زواجه بها، فقالت: «قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع في حجري، فلطمني، وقال: تريدين ملك يثرب؟!!) لم تعرف صفية تأويل ما رأته، ولو عرفته ما سألته، لقد كان تأويل الرؤيا أنها تتوق إلى الزواج من الرسول ﷺ ، وأن ذلك كائن وواقع.

لقد كانت صفية ذات جمال باهر، وعقل وافر، فأغاظ ذلك ضرائرها، عائشة وزينب وغيرهما، بل غاظ كثيراً من النساء المسلمات، قال أبو عمر ابن عبدالبر «كانت صفية حليمة عاقلة فاضلة» [الاستيعاب: ٤/ ٣٤٨] ونقل ابن حجر عن أم سنان الأسلمية قالت: «كانت صفية من أضوأ ما يكون النساء» [الإصابة: ٤/ ٣٤٧].

لقد كان العلاج الأكبر الذي عالج نفس صفية الإسلام، فقد دخلت في الإسلام، وفقهته حق الفقه، كيف لا وهي زوجة الفقيه الأعظم، رسول رب العالمين، وقد عالج الرسول ﷺ الآثار الجانبية التي كانت تثور هنا

وهناك في حياة صفية، ففي هذه القصة دخل الرسول ﷺ على صفية وهي تبكي، فلما استعلم منها عن سبب بكائها، أخبرته أن حفصة قالت عنها: إنها ابنة يهودي، وقد عالج الرسول ﷺ هذا المشكل بإعلامها بطريقة الرد على حفصة، وتفقيهها بالطريقة التي تفاخر بها، فإن لها من الشرف ما لم يحزه غيرها من نساء الرسول ﷺ ، فأبوها نبي الله ورسوله هارون، فهي من ذريته ونسله، وعمّها الرسول العظيم كليم الرحمن موسى عليه السلام ، فهو أخو هارون، وزوجها رسول الله محمد ﷺ ، فبم يفخر عليها مفاخر!! .

وفي الوقت الذي أعطى الرسول ﷺ دفعة قوية حتى لا يؤثر فيها مثل هذا الكلام، قال لحفصة لما لقيها وعاتبها في شأن مقالتها لصفية: (اتقي الله يا حفصة).

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- مكانة صفية رضوان الله عليها، فهي ابنة نبي، وعمّها نبي، وزوجها نبي.

٢- وجود يهود في العهد النبوي يحتفظون بأنسابهم الصحيحة إلى هارون ونبي الله موسى عليهما السلام.

٣- ثقة الرسول ﷺ بربّه في تزوّجه بامرأة قتل أباها وزوجها وأثخن قتلاً وجرحاً في قومها.

٤- معرفة بعض المشكلات التي كانت تثور في بيوت الرسول ﷺ ، وكيف كان يعالجها، ويحلّها.

٥- مهما بلغ المرء من الفضل، فقد تقع منه الهنات التي لا يرضاها الله ورسوله ﷺ كما وقع من حفصة حين عيّرت صفية بأبيها.

القصة الثامنة والثلاثون

ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم

تمهيد

هذا العنوان كلمة قالها الرسول ﷺ لفاطمة وزوجها عندما نصحهما بأن يفعلا ما هو خير لهما من خادم

نص الحديث

عن عليٍّ «أنَّ فاطمةَ عليها السلامُ اشتكَتْ ما تلقى منَ الرَّحى مما تطحَنُه، فبَلغها أنَّ رسول الله ﷺ أُتِيَ بسَبْي، فأتَتْه تَسألُهُ خادِماً فلم تُوافِقْهُ، فذكرَت لعائشةَ، فجاءَ النبيُّ ﷺ فذكرَتْ ذلك عائشة له، فأتانا وقد أخذنا مَضاجعَنا، فَذهَبْنا لِنقومَ فقال: (على مكانكما)، حتى وَجدتُ بَردَ قدَمِه على صَدري، فقال: (ألا أدُلُّكما على خَيرٍ مّما سألتُماني؟ إذا أخذتما مَضاجِعَكما فكبِّرا الله أربعاً وثلاثينَ، واحْمدا ثلاثاً وثلاثين، وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين، فإن ذلك خيرٌ لكما ما سَألتُماه).

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب فرض الخمس، باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ والمساكين، [ورقمه: ٣١١٣] ورواه في مواضع من كتابه بالأرقام التالية: [٣٧٠٥، ٥٣٦١، ٥٣٦٢، ٦٣١٨].

ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، [ورقمه: ٢٧٢٧] ورواه أبو داود في سننه [٢٩٨٨، ٢٩٨٩].

شرح الحديث

لم تكن أسماء بنت أبي بكر وحدها التي أرهقها عمل منزلها، فهذه فاطمة بنت رسول الله ﷺ لم يكن عندها خادم يكفيها عمل المنزل، ولذلك «جَرَّت بالرحى حتى أثر في يدها، واستقت بالقربة حتى أثر في نحرها، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها» [سنن أبي داود، عن علي، ورقمه: ٢٩٨٨، ٢٩٨٩. وحكم عليه محقق جامع الأصول بالصحة، ٤/ ٢٥٤].

وبلغ فاطمة أن الرسول ﷺ جاءه بعض السبي، فانطلقت إليه مؤملة أن يهب لها خادماً يعينها على الأعباء التي تواجهها، فلم تجده في منزله، فأخبرت عائشة بالغرض الذي قدمت لأجله، فأخبرت عائشة الرسول ﷺ خبرها.

فانطلق إلى منزلها، فوجدها أخذت وزوجها أهبتهما للنوم، فذهبا ليقوما، فأمرهما بالبقاء حيث هما، وجلس بينهما حتى إن علياً وجد برد قدمي رسول الله ﷺ على صدره.

فلم يعطها الخادم الذي طلبته، وقال لها كما في رواية أبي داود السابقة: (اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك).

ثم دلّها وزوجها على ما هو خير لهما من خادم فقال: (ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا آويتما إلى فراشكما، أو أخذتما مضاجعكما، فكبِّرا أربعاً وثلاثين، وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، فذلك خير لكما من خادم) [البخاري: ٦٣١٨].

وقد عملا بوصية رسول الله ﷺ ، قال علي: «فما تركتها بعد، قيل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين» [البخاري: ٥٣٦٢].

والسبب في عدم إعطائهم حاجته إلى ثمن السبي لينفقه على أصحاب الحاجات، فقد جاء في رواية السائب أنه قال لهما: (والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم) [فتح الباري: ١١/ ١٤٥].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- يجب على المرأة أن تقوم بما تطيقه من عمل بيتها، ولو أرهقها ذلك، كما كانت تفعل فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأسماء بنت أبي بكر الصديق، ولقول الرسول ﷺ لابنته: (اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك). ولقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨].

٢- إيثار الرسول ﷺ أهل الصفة على بناته وأقاربه، وقد ترجم البخاري على هذا الحديث بقوله: «إيثار النبي ﷺ أهل الصفة والأرامل حين سألته فاطمة» [البخاري: ٣١١٣].

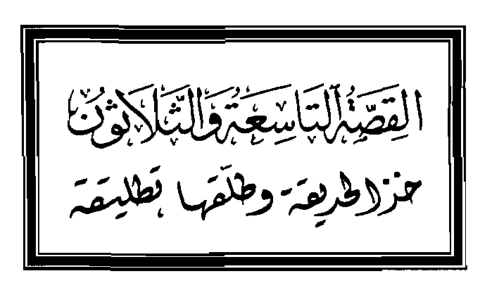
٣- ذِكْرُه الله بتسبيحه وتحميده وتكبيره على النحو المذكور في الحديث يمدُّ الإنسان بقوة في جسده يستغني بها عن معونة الخادم، وبذلك نصح الرسول ﷺ فاطمة وعلياً.

٤- عناية الرسول ﷺ بأهل بيته، فلما عَلِمَ بقدوم فاطمة، وما تريده منه، جاء إليها، ووعظها، وبيّن لها السبب الذي يمنعه من إعطائها الخادم، ودلّها على طريقة أخرى تعينها على القيام بمهامها.

٥- السبي الذي جاء للرسول ﷺ كان من الخمس، وكان الرسول ﷺ ينفق منه على نفسه وأهله، كما كان يصرفه على الفقراء والمساكين.

٦- أكثر الروايات على أن التكبير أربع وثلاثون وجاء في بعض الروايات أن التسبيح أربع وثلاثون، ونقل البخاري عن سفيان أن إحداهن أربع وثلاثون.

* * *



تمهيد

إذا استحكم في قلب الرجل بغض زوجته، فإنه يستطيع طلاقها، ولا يجوز له أن يضربها لتفتدي منه نفسها بالمال الذي أعطاها إياه، أما إذا كانت هي المبغضة الكارهة لزوجها، بحيث لا تطيق البقاء معه، ففي هذا الحديث بيان للطريق التي يكون به خلاصها منه.

نص الحديث

عن ابن عباس أنَّ امرأةَ ثابت بن قيس أتت النبيَّ ﷺ فقالَت: يا رسول الله، ثابتُ بن قيس ما أعتِبُ عليه في خُلقٍ ولا دِينٍ، ولكنِّي أكْرَهُ الكُفْرَ في الإسلام. فقال رسولُ الله ﷺ : (أتردِّينَ عليهِ حَديقَتَهُ؟) قالت: نعم. قال رسولُ الله ﷺ : (اقبلِ الحديقةَ وطلِّقها تطليقةً).

تخريج الحديث

روى هذا الحديث البخاري في صحيحه في كتاب الطلاق، باب الخلع، [ورقمه: ٥٢٧٣، وأطرافه في: ٢٥٧٤، ٢٥٧٥، ٢٥٧٦، ٢٥٧٧].

غريب الحديث

ما أعتب عليه : الإعتاب - في الأصل - الخطاب بالإدلال، وفي رواية ما أعيب عليه، وهي أليق بالمراد.

أكره الكفر في الإسلام : تريد بالكفر هنا كفران الزوج، بعدم استجابته لما يطلب منها لبغضها له.

حديقته : المراد بها البستان الذي أعطاها إياه مهراً.

شرح الحديث

كانت جميلة بنت عبدالله بن أبيّ ابن سلول ذات نسب وجمال، استشهد زوجها حنظلة بن عامر في معركة أُحُد، فخطبها ثابت بن قيس بن شماس خطيب رسول الله ﷺ ، ولم يكن مثلها لتقبل مثله، فقد كان دميماً في خلقته، ولكنه أغراها بالزواج منه بما دفعه لها مهراً، فقد أمهرها بستاناً من خير بساتين المدينة، فرضيت به، وبقيت عنده مدة ولدت له فيها ابنه محمداً [راجع: فتح الباري: ٩/ ٤٩٣].

ثم تبين لها خطأ ظنها الذي ظنته، لقد كانت تظن أن المال الكثير الذي منحه لها كافٍ ليجعلها ترضى به أبداً، ولكن الكره تعاظم في قلبها، ولم يزل بها حتى بلغ مداه، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ طالبةً فراقه.

لقد كانت صادقة في الدعوى التي رفعتها على زوجها، فقد ذكرت الحقيقة كما هي، ولم تتزيد فيها، ولم تلبسها لباساً غير لباسها كما يفعل كثير من الناس، فترى بعضهم عندما يريد الفراق ينسبون إلى من يريدون فراقه ما هو منه بريء، ليحملوه من المال والعناء ما لا يستحق حمله.

لم تتهم جميلة زوجها لا في خُلُقه ولا في دينه، وكل ما في الأمر أنها تبغضه، ولا تطيق البقاء معه، «يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام» وفي رواية قالت: «ولكني لا أطيقه».

هذه هي القضية، والمشكلة ناشئة منها، لا من زوجها، هو من خير الناس خُلُقاً وديناً، وإذا كان كذلك فمعاملته لها أحسن معاملة، ولكنها لا تطيقه، لأنه كان دميم الخِلْقة، ففي الحديث عند ابن ماجه: «كان رجلاً دميماً، فقالت: والله لولا مخافة الله إذا دخل عليّ لبصقت في وجهه» وأخرج عبدالرزاق عن معمر قال: «بلغني أنها قالت: يا رسول الله بي من الجمال ما ترى، وثابت رجل دميم» وفي رواية معتمر بن سليمان عن ابن عباس قال: قالت: «يا رسول الله، لا يجتمع رأسي ورأس ثابت أبداً، إني رفعت جانب الخباء، فرأيته أقبل في عِدّة، (أي جماعة) فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهاً» [فتح الباري: ٩/ ٤٩٥].

كيف يكون التصرف تجاه مثل هذه الواقعة، وقد بلغ البُغض مداه بالزوجة، أيليق بالمصلحين بين الزوجين، أو القضاة، أن يأمروا الزوجة بأن تبقى مع زوجها، وقد نزعت المودة والرحمة من قلبها تجاهه؟ ولماذا تبقى معه والتعاسة تعصر قلبها؟ إن مفارقتها له يوقف الألم الذي يغشاها كلما رأت الزوج البغيض عندها، لقد كان قرارها حاسماً، وطلبها جازماً، هي تريد الفراق، وليس هناك محل للصلح والاتفاق.

ولم يجادلها الرسول ﷺ فيما قررته وذهبت إليه، إن إلزام الزوج أو الزوجة بالإبقاء على الحياة الزوجية إذا تعاظم البُغض لهذه الدرجة لا يقره شرع ولا عقل، ولكن لإجابة طلبها في مفارقة زوجها يوجد مشكل لابد من حله.

لقد أعطاها ثابت عند زواجه بها بستاناً عظيماً مهراً، فهل من العدل أن يجزل الزوج العطاء للزوجة، ثم بعد الزواج تدّعي أنها تكره زوجها وتريد فراقه، فيذهب من الزوج ماله، وتذهب منه زوجته؟!! .

لو كان الرجل هو الذي أبغض زوجته هذا البغض فطلقها، فإنه لا يحل له أن يأخذ شيئاً مما أعطاها إياه، لأنه السبب في الفراق، أما إذا كانت هي السبب فعليها أن ترجع إلى الزوج ما دفعه لها مهراً، حتى لا نجمع عليه مصابين: إلزامه بفراق زوجته، وخسارته لماله الذي دفعه لها.

ولذلك قال لها الرسول ﷺ : (أتردّين عليه حديقته؟) أي: التي أعطاك إياها مهراً. قالت: «نعم».

عند ذلك دعا الرسول ﷺ زوجها وأمره بقبض المهر الذي دفعه، ثم تطليقها: (خذ الحديقة وطلقها تطليقة).

وهذا الحكم مستقى من قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٢٩].

والآية صريحة في تحريم أخذ الزوج شيئاً مما أعطاه لزوجته، إلا في حالة بغضها له، وطلبت هي الفراق، عند ذاك يحل له أخذ المال الذي دفعه لها ليطلقها، وهذا هو المسمى بالخُلع.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- إذا أبغضت المرأة زوجها بغضاً لم تطق البقاء معه جازَ لها أن تخالعه، وذلك بأن ترد إليه ما أعطاها إياه مهراً، ويطلقها بعد ذلك.

٢- الخلع يقع بالتراضي من غير أمر من القاضي، ففي صحيح البخاري تعليقاً «أن عمر أجاز الخلع دون سلطان» [كتاب الطلاق، باب الخلع].

٣- إن رفض الزوج مخالعة الزوجة، فإن القاضي إن اقتنع باستحكام بغضها لزوجها أن يأمرها بإعادة ما أعطاها مهراً، ويلزم الزوج بعد ذلك بالتطليق.

٤- لا يجوز أن يأخذ الزوج منها أكثر مما أعطاها، وأجاز عثمان ﷺ أن يأخذ الزوج منها ما دون عقاص شعرها [البخاري تعليقاً في باب الخلع].

٥- تزوجت جميلة ثابتاً من أجل ماله، فلم تطق العيش معه لدمامته، ولذلك قد يشقى من يتزوج من الرجال أو النساء من أجل المال.

٦- كانت جميلة صادقة في السبب الذي دعاها لطلب الفراق، فهي المبغضة للزوج، وقبلت أن تتحمل ما ترتب على طلبها من الطلاق، وكثير من الناس لا يصدقون، ليحمِّلوا الطرف الآخر الخسارة.

* * *



تمهيد

هذه القصة تبين الأثر العظيم الذي يبلغه القرآن بقارئه، حتى إنه لتصيبه السهام، سهماً بعد سهم، فلا ينفتل من صلاته، ولا يدعها، لحلاوة ما يقرؤه من كتاب الله.

نص الحديث

عن جابر قال: «خرجنا مع رَسُولِ الله ﷺ - يعني في غزوة ذات الرقاعِ فَأَصَابَ رَجُلٌ امرأةَ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِين، فَحَلَفَ: أنْ لاَ أَنْتَهِيَ حَتَّى أُهْرِيقَ دماً في أصْحَابِ مُحَمَّدٍ، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثرَ النَّبيِّ ﷺ ، فَنَزَلَ النبيُّ ﷺ مَنْزِلاً، فقال: (مَنْ رَجُلٌ يَكلَؤُنا؟) فانـتَدَبَ رَجَلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَرَجُلٌ مِنَ الأنْصَار، فقال: (كُونا بفَمِ الشِّعْبِ).

قَالَ: فَلَّما خَرَجَ الرَّجُلانِ، إلى فِمِ الشِّعْبِ اضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ، وَقَامَ الأَنْصَارِيُّ يُصَلي، وأتى الرَّجُلُ، فَلَما رَأى شَخصَهُ عَرَفَ أنَّه رَبِيئَةٌ لِلْقَوْمِ، فَرَمَاهُ بسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فيه، فَنَزَعَهُ، حَتَّى رَمَاهُ بثلاثَةِ أسْهُمٍ، ثمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثمَّ انْتَبَهَ صَاحِبُهُ، فَلَّما عَرَفَ أنَّهُمْ قَدْ نَـذِرُوا بهِ هَرَبَ، وَلَمَّا رَأى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بالأنْصَارِيِّ مِنْ الدِّمَاءِ قَالَ: سُبْحَانَ الله، ألاَ أنـبَهْتَنِي أوَّلَ مَا رَمَى، قَالَ: كُنتُ في سُورَةٍ أقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أنْ أقْطَعَهَا».

تخريج الحديث

رواه أبو داود في سننه في كتاب الطهارة، «باب الوضوء من الدم» [ورقمه: ١٩٨] وأورده الألباني في صحيح سنن أبي داود، [برقم: ١٨٢].

غريب الحديث

يكلَؤُنا : يحرسنا ويحفظنا.

فانتدب : الانتداب: الإجابة.

ربيئة القوم : حارسهم وحافظهم.

فم الشعب : أوله.

اضطجع : استلقى.

نذروا به : علموا به، وطلبوه.

شرح الحديث

من الأصول التي يجب مراعاتها في الحروب أن يقيم قائد الجيش على جيشه حراساً في ليلهم، حتى لا يؤخذوا على حين غرة، وكان هذا من هدي الرسول ﷺ في غزواته إذا هو وضع رأسه مع جيشه للنوم.

وقد ندب الرسول ﷺ أصحابه في إحدى لياليه في غزوة ذات الرقاع عندما أراد النزول هو وصحبه للنوم، فانتدب لهذه المهمة رجلان أنصاري ومهاجري، فقاما على أول الشعب الذي بات فيه الرسول ﷺ وجيشه. وكان قد تبع المسلمين رجل مشرك موتور، حلف أن لا يرجع حتى يريق دم بعض المسلمين، ذلك أن رجلاً مسلماً أصاب زوجته.

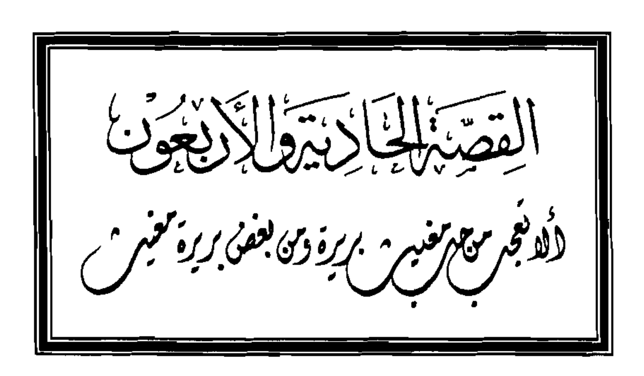
وفي هدأة الليل تقاسم الحارسان حراسة الجيش، كلٌّ منهما يحرس فترة، واختار الأنصاري أن يحرس أولاً، فقام يحرس ويصلي، وجاء ذلك المشرك الموتور، فرأى شخص الرجل الذي يصلي، فعلم أنه حارس القوم، فأخذ سهماً من كنانته، ووضعه في قوسه، ورمى الرجل المصلي فأصابه، ولكنه لم ينفتل من صلاته، فظنّ أنه لم يصبه، فرماه بسهم ثانٍ، ثم ثالث، عند ذلك، سجد المصلي، وتشهد، وسلّم، وأيقظ صاحبه، فلما علم المشرك أنهم عرفوا بأمره فرَّ هارباً.

لقد كان المصلي يتلو سورة من سور القرآن ملكت عليه نفسه، وأثرت في كيانه، فلم يكن لينفتل عن إتمامها بسبب تلك السهام التي أصبح لها غرضاً، ولولا خشيته على الجيش المسلم لاستمرّ في صلاته، غير مبالٍ بتلك السهام، وقد استعلم صاحبه منه، وقد رأى الدماء تثور من جسده، فقال له: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها.

إن هذه الصحبة لكتاب الله – تبارك وتعالى – التي تجعل الفرد منهم يصبر على آلام السهام التي تنغرس في جسده فلا يبالي بها، هي التي صنعت ذلك الجيل المتميز، الذي أقام دولة الإسلام على ذلك النحو الفريد.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- وضع الحرّاس على جيش المسلمين إذا هم أرادوا أن يبيّتوا ليلتهم.
٢- أثر القرآن في نفوس الصحابة، حتى إنهم لا يبالون بالسهام وهم يقرؤون القرآن.
٣- الاهتمام بأمر المسلمين، والخشية عليهم أن يغتالوا، ولولا ذلك لاستمر ذلك الصحابي في صلاته.



تمهيد

قصة مغيث وبريرة ينبغي أن تدخل في زمرة قصص المحبين، ومع طرافتها وصحة سندها فإن أحداً من الكاتبين في هذا الباب لم يتناولها بالدراسة والشرح والتحليل.

كان مغيث وبريرة عبدين، وكان مغيث متزوجاً من بريرة، فسعت في حريتها فنالتها، وإذا عَتَقَتْ الأَمَة تحت العبد كان لها الخيار في البقاء معه أو مفارقته، فاختارت فراقه، فأشجاه فراقها، وكان يسير وراءها في سكك المدينة، ودموعه تنحدر على لحيته، علَّها ترحمه، وترجع إليه.

نص الحديث

عن ابن عباس: «أنَّ زوجَ بريرةَ كان عبداً يُقال له: مُغيث، كأني أنظرُ إليه يَطوف خلْفَها يبكي ودُموعه تسيل على لِحيَتِه؛ فقال النبيُّ ﷺ لعباس: (يا عباسُ ألا تعجبُ من حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، ومن بُغضِ بريرةَ مُغيثاً). فقالَ النبيُّ ﷺ: (لو راجعتِهِ). قالت: يا رسولَ الله تأمُرُني؟ قال: (إنما أنا أشفع)، قالت: لا حاجة لي فيه».

تخريج الحديث

رواه البخاري في كتاب الطلاق، باب شفاعة الرسول ﷺ في زوج بريرة ورقمه: [٥٢٨٣] وانظره في الباب نفسه تحت الأرقام: [٥٢٨٠،

٥٢٨١، ٥٢٨٢]، ورواه أبو داود في كتاب الطلاق، باب المملوكة تُعتق وهي تحت حرٍّ أو عبد. ورقمه: [٢٢٣١، ٢٢٣٢].

وعزاه ابن الأثير بالإضافة إلى البخاري وأبي داود إلى الترمذي والنسائي [جامع الأصول: ٧/ ٦١٨].

شرح الحديث

كانت بريرة أمَة مملوكة، وكانت تتوق إلى الحرية، فطلبت من أهلها أن يكاتبوها ففعلوا، استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا ﴾ [النور:٣٣] والمكاتبة أن يشتري العبد نفسه على قدر معلوم من المال يدفعه لسيّده، ويبقى عبداً إلى أن يوفي سيّده المال الذي اتفق معه عليه، وعند ذلك يُعتق.

وقد اتفقت بريرة مع سيّدها على أن تدفع له تسع أواق على تسع سنوات، في كل سنة أوقية.

وطلبت بريرة من أم المؤمنين عائشة إعانتها على سداد ما ألزمت به نفسها، فجاءها الفرج بأسرع ما كانت تظن، لقد دفعت عائشة لسيد بريرة كامل المستحق عليها دفعة واحدة، وأعتقتها، فنالت حريتها بأسرع مما كانت تظنه [راجع البخاري: ٤٥٦، ٢٥٦١، ٢٥٦٥، ومسلم: ١٥٠٤] وإذا كانت بريرة قد سعدت بالحرية، بعد أن زال عنها رقّ العبودية، فإن زوجها وكان عبداً أسود يدعى مغيثاً شقي بنيلها حريتها؛ كان مغيث يحب بريرة حبّاً ملك عليه نفسه، وكان هانئاً مع زوجه، وكان بمقدار ما كان يحبها كانت تبغضه، والإسلام يُعطي الأمَة التي كانت تحت نير الرق أن تفارق زوجها

إذا كان عبداً في حال نيلها الحرية، ودعا الرسول ﷺ بريرة، وأعلمها بالحكم الشرعي، وأنها تملك مفارقة الزوج ما لم يعاشرها بعد تحريرها، فإن عاشرها ملك عليها أمرها، فاختارت فراقه.

علم مغيث بالأمر فوقع عليه وقوع الصاعقة، فرجاها أن ترجع عن قرارها، فأبت، فاستشفع برسول الله ﷺ فدعاها، وقال لها: (يا بريرة، اتقي الله، فإنه زوجك، وأبو ولدك) قالت له: «تأمرني بذلك» فإن كان أمراً، فليس من طاعة رسول الله بدّ، فقال لها الرسول ﷺ : (لا، إنما أنا شافع) فالرسول ﷺ لا يستطيع إلزامها بما جعل الله لها فيه فسحة، وإنما هو شافع.

لم تقبل شفاعة الرسول ﷺ ، فمن باب أولى أن لا تقبل شفاعة غيره، فكان مغيث لتعلقه بها يطوف وراءها في حارات المدينة وشوارعها ودموعه تسيل على خديه، وتقطر من لحيته، يقول ابن عباس راوي الحديث: «كأني أنظر إليه يطوف خلفها ودموعه تسيل على لحيته».

ولفت نظر الرسول ﷺ طرافة هذه الحالة المتناقضة بين حب وبغض، مغيث يلاحقها راجياً إياها أن تعود إليه، مما يدل على الحب العظيم الذي يكّنه لها، وهي معرضة أشد الإعراض، لا تقبل رجاءه، ولا تشفق على حاله، ولا ترضى بشفاعة الشافعين، ولو كانت شفاعة رسول ربّ العالمين. وقد عجَّب الرسول ﷺ عمّه العباس من طرافة حالهما، فقال له: (يا عباس، ألا تعجب من حبّ مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً).

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

هذا الحديث كما يقول النووي: «حديث عظيم كثير القواعد، وفيه مواضع تشعبت فيها المذاهب» (شرح النووي على مسلم: ١٠-١٢/١٠٨)

وسأقتصر فيما أورده من عبر وفوائد وأحكام على موضع القصة منه التي تذكر حب مغيث بريرة، وبغض بريرة مغيثاً فحسب.

١- الأَمَة إذا عتقت تحت عبد لها الخيار في فسخ نكاحها، فإن كان زوجها حرّاً فلا خيار لها على قول جمهور العلماء، وبه قال الأئمة الثلاثة، لأنه لو كان حرّاً ما خيرها كما قالت عائشة، والرواية التي اعتمد عليها أبو حنيفة فيما ذهب إليه من أنها تُعتق تحت الحر رواية «غلط وشاذة مردودة لمخالفتها المعروف في رواية الثقات» (شرح النووي على مسلم: ١٠-١٢/ ١١٠).

٢- فضل العتق وتحرير الرقيق، ففي الحديث الصحيح: (من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْبٍ منها إرباً منه من النار» (مسلم: ١٥٠٩) ولذلك تنافس فيه الرعيل الأول، وعندما كانت تتوقف الحروب كان الرقيق يتلاشى.

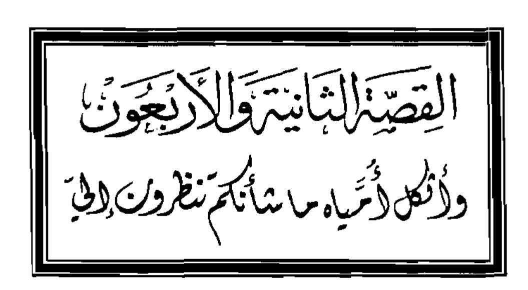
٣- فيه صورة من الصور التي تقع في المجتمعات الإنسانية، وهي صورة الرجل الذي يحب امرأة حباً شديداً، وهي تبغضه بغضاً شديداً.

٤- لا حرج على من أخذ بحقه الذي شرعه الله له، وإن كان في ذلك إيذاء الآخرين، فبريرة أخذت بحقها في مفارقة زوجها، وإن أدى ذلك إلى إيذائه وتعاسته.

٥- فيه صورة لبعض النماذج من الرجال، وهي صورة الرجل المحب الذي يأخذ عليه حبّه مجامع نفسه، فيبكي الحبيب المفارق، ويسعى وراءه في الطرقات، ودموعه تنحدر على خدّيه، وكم أذل الحب أعناق الرجال.

٦- هناك مشكلات ليس لها حلول، فالرسول ﷺ لم يجد حلاً لمشكلة مغيث، وترك حلها للسلوى والنسيان بتقادم الزمان ومرور الليالي والأيام.

٧- التفات الرسول ﷺ للنماذج البشرية، كما هو الحال في أمر بريرة ومغيث، ولفت نظر أصحابه للأمور المعجبة.



تمهيد

هذا العنوان صرح به الصحابي معاوية بن الحكم السُّلمي، عندما شَمَّت صحابياً عطس في الصلاة خلف رسول الله ﷺ ، فأخذ الصحابة ينظرون إليه بأبصارهم ليكف عن كلامه في الصلاة، فقال لهم: «واثكل أمِّياه ما شأنكم تنظرون إليّ؟».

نص الحديث

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ؛ قَالَ: بَيْنَا أنَا أُصلِّي مَعَ رَسُولِ الله إذ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقومِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله! فَرَمَانِي الْقَوْمُ بأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بأَيْدِيهِمْ عَلَى أفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ . فَبأبي هُوَ وَأُمِّي! مَا رَأَيْتُ مُعَلِّماً قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيماً مِنْهُ، فَوَ الله! مَا كَهَرَنِي، وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي. قالَ: (إنَّ هذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه مسلم في صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمي، في كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، [ورقمه: ٥٣٧] وعزاه

ابن الأثير في جامع الأصول إلى مسلم وأبي داود والنسائي [جامع الأصول: ٥/ ٤٨٧].

غريب الحديث

فرماني القوم بأبصارهم : نظروا إليه نظراً حديداً زجراً له عما كان منه من كلام.

واثكل أمياه : وافقد أمي إياي، كلمة يقولها المرء عندما يقع في أمر يحيّره.

ما شأنكم : ما حالكم وأمركم.

يصمتونني : يسكتونني.

ما كهرني : ما نهرني.

شرح الحديث

دخل معاوية بن الحكم السلمي الصلاة خلف رسول الله ﷺ ، وكان حديث عهد بجاهلية، فلم يعلم من أحكام الشريعة كثيراً، وكان قد علم أن العاطس يشمت إذا عطس، فيقال له: يرحمك الله، ولكنه لم يكن يعلم أن التشميت يكون في غير الصلاة، أما في الصلاة فلا يجوز، ولم يكن يعلم أن العاطس لا يشمت إلا إذا قال بعد ذلك: الحمد لله، فإن لم يحمد الله فلا يشمت.

وقد سمع معاوية رجلاً يعطس بعد دخولهم في الصلاة فبادر بتشميته، قائلاً له: يرحمك الله، فنظر إليه الصحابة نظراً حديداً منكرين عليه ما كان منه، ولكنه لم يدرِ السبب في تحديدهم النظر إليه، وما الذي أنكروه عليه، فما

كان منه إلا أن خاطبهم قائلاً: «واثكل أمِّياه، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟». فأخذ الصحابة يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فعلم أنهم يريدون تسكيته، فسكت مغلوباً على أمره من غير أن يعلم الأمر الذي أنكروه عليه.

فلما أتمّ الرسول ﷺ صلاته، علّمه ما لم يكن يعلم، وفقّهه فقهاً ليس عنده، وهكذا يكون المعلم والمربي، وهذا أحسن التعليم وخير التربية، فالجاهل لا يؤنب، ولا يوبخ بجهله، فلم يفعل الرسول ﷺ فعل العوام الذين لا علم عندهم إلا الصراخ والزعيق على من وقع في مثل هذه المخالفات.

استمع إلى معاوية وهو يحمد رسول الله ﷺ فيما كان منه تجاه خطئه: «فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله، ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني».

وكل الذي فعله أنه دلّه على خطئه بأيسر عبارة وأسهلها، فقد أعلمه أن الذي تكلم به هو من كلام الناس، وهو لا يجوز في الصلاة، (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن).

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- كان الصحابة عندما يدخلون الإسلام يتعلمون العلم شيئاً فشيئاً، ولا يطالبون بتحصيل كل العلم الذي فاتهم تعلُّمه، فهذا الصحابي، علم أن العاطس يشمت، ولكنه لم يعلم أنه لا يشمت في الصلاة، ولا يشمت إذا لم يحمد الله بعد عطاسه.

٢- لا يجوز للمصلي أن يتكلم بكلام الناس بعد دخوله في الصلاة، كتشميت العاطس، وردّ السلام، وأمر أهله أو أصحابه بالسكوت.

وكان الكلام في الصلاة في أول الأمر مباحاً، ثم نهي عنه (انظر الأحاديث الواردة في ذلك في [البخاري: ١٢٠٠، ٤٥٣٤، ومسلم: ٥٣٨، ٥٣٩].

٣- لم يكن عند الصحابة علم بالكيفية التي يتصرفون بها إذا ما نابهم أمر في الصلاة، فعندما أخطأ ذلك الرجل أخذوا ينظرون إليه، ثم ضربوا بأيديهم على أفخاذهم، فنهاهم الرسول ﷺ عن ذلك، وأمر الرجال إذ نابهم شيء في الصلاة أن يقولوا: سبحان الله ، وقال لهم: إنما التصفيق للنساء.

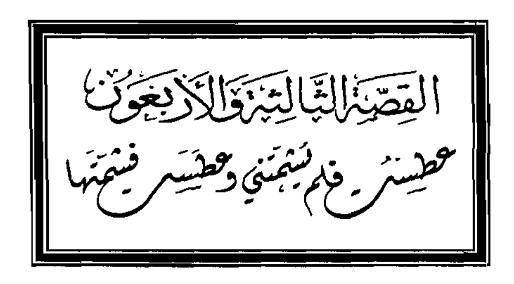
٤- الذي أخطأ في صلاته كما أخطأ معاوية، فلا إعادة عليه، ولو كان عليه إعادة، لأمره بذلك الرسول ﷺ ، وذلك أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

٥- لا يواجه الجاهل بالسبّ والضرب والتأنيب، وإنما يُعلّم ويفقّه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٥] فالمؤاخذة تكون بعد العلم.

٦- حُسْن تعليم الرسول ﷺ وتأديبه للمخطئ من أصحابه.

٧- السنّة تشميت العاطس إذا حمد الله، وكان في غير الصلاة.

* * *



تمهيد

دعا الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري بالرحمة لزوجته عندما عطست عنده، وعطس ابنه فلم يدعو له، فشكى الذي لم يشمت لأمّه ما كان من أبي موسى، فراجعت أم الغلام أبا موسى، فاعتذر لها بما سنبيّنه في هذا الحديث.

نص الحديث

عَنْ أبي بُرْدَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أبي مُوسَى، وَهُوَ فِي بَيْتِ بِنْتِ الْفضْلِ ابْنِ عبَّاسٍ، فَعَطَسْتُ فَلَمْ يُشَمِّتْنِي، وَعَطَسَتْ فَشَمَّتَها، فَرَجَعْتُ إلَى أُمِّي فأخْبَرْتُها، فَلَمَّا جَاءَهَا قَالَتْ: عَطَسَ عِنْدَكَ ابْنِي فَلَمْ تُشَمِّتْهُ، وَعَطَسَتْ فَشَمَّتَّهَا، فَقَالَ: إنَّ ابْنَكِ عَطَسَ، فَلَمْ يَحْمَدِ الله، فَلَمْ أُشَمِّتْهُ، وَعَطَسَتْ، فَحَمِدَتِ الله، فَشَمَّتُّهَا، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ «إذا عَطَسَ أحَدُكُمْ فَحَمِدَ الله، فَشَمِّتُوهُ. فَإنْ لَمْ يَحْمَدِ الله، فَلاَ تُشَمِّتُوهُ».

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق، باب تشميت العاطس [ورقمه: ٢٩٩٢].

غريب الحديث

تشمتني : التشميت لغة الدعاء للغير أن يذهب الله عنه الشماتة، وفي الشرع أن تقول لمن عطس: يرحمك الله.

شرح الحديث

حدث أبو بردة بن عبدالله بن قيس (أبي موسى الأشعري) أنه دخل على أبيه أبي موسى الأشعري وهو في بيت زوجته أم كلثوم بنت الفضل ابن عباس، فعطس أبو بردة في حضرة أبيه فلم يشمته، وعطست زوجته، فشمتها قائلاً لها: (يرحمك الله)، فآلم ذلك أبا بردة، وظن أنه حابا زوجته عليه، فلما رجع إلى المنزل اشتكى إلى أمه ما كان من محاباة أبيه أبي موسى زوجته عليه.

فلما جاء أبو موسى إلى زيارة أم الغلام عاتبته، فيما كان منه تجاه ابنه، لعدم تشميته له، فأعلمها أن فعله هذا ليس فيه محاباة لأحد على أحد، ولكن أم كلثوم عندما عطست حمدت الله تعالى، فشمتها، أما ابنه أبو بردة فلم يحمد الله عند عطاسه، فلم يشمته، ثم روى لها حديث رسول الله ﷺ الذي استند إليه في موقفه من كل واحد من العاطسين، والذي يقول فيه: (إذا عطس أحدكم فحمد الله، فشمتوه، فإن لم يحمد الله، فلا تشمتوه).

لقد فقَّه أبو موسى زوجه وابنه بهذه السنّة التي تضمنها الحديث، واستلّ بذلك ما وقع في صدورهما تجاهه، وأصبحت هذه القصة بتفاصيلها واقعة تروى، ويتحدث بها العلماء، ويفقهون بها الذين لا يعلمون هدي رسول الله ﷺ في تشميت العاطسين.

[راجع في ترجمة أبي بردة بن أبي موسى «تهذيب الكمال» (٣٣/ ٦٦)، وراجع الإصابة، لابن حجر (٤/ ٤٩٣) وفيه ترجمة أم كلثوم بنت الفضل ابن عباس، وأن أبا موسى ﷺ تزوّجها بعد مفارقة الحسن بن علي بن أبي طالب لها، وأنها ولدت لأبي موسى ابنه موسى، وتوفي أبو موسى عنها].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- التنافس في تحصيل الأجر والثواب كانت سمة الرعيل الأول من هذه الأمة، فأبو موسى كان من كبار صحابة الرسول ﷺ ، وكان من الصالحين، فرجا أبو بردة أن يفوز بدعوة صالحة من أبيه بدعائه له بالرحمة، كما فازت زوجته بتلك الدعوة.

٢- تفقيه الصحابة بعضهم بعضاً فيما لم يعلمه من سنّة رسول الله ﷺ ، كما فعل أبو موسى مع زوجته وابنه. وقد وقع مثل هذه الواقعة مع رسول الله ﷺ ، إذ عطس عنده رجلان، فشمت أحدهما، ولم يشمت الآخر، فلما استفسر من الرسول ﷺ عن عدم تشميته له، أخبره أنه لم يحمد الله بعد عطاسه، بينما حمد الآخر فشمته [راجع البخاري: ٦٢٢١، ٦٢٢٥، ومسلم: ٢٩٩١].

٣- بيّنت أحاديث أخرى ما الذي يقوله العاطس عندما يشمته سامعوه بقولهم: يرحمك الله فيقول: يهديكم الله ويصلح بالكم. «فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم) [البخاري: ٦٢٢٤] وقد اختلف العلماء في الصيغ

الثلاثة، ولا عطر بعد عروس، فما صحّ عن الرسول ﷺ أحق بأن يؤخذ به.

٤- لا حرج على المرأة إن هي عطست أن ترفع صوتها بالحمد لله، ولا حرج على من سمع حمدها أن يشمتها رجلاً كان أو امرأة، ولا حرج عليها أن تجيب من شمتها رافعة بذلك صوتها، كما وقع لأم كلثوم حين عطست في محضر أبي بردة ابن زوجها أبي موسى.

* * *



تمهيد

أم خالد طفلة صغيرة، دعا بها الرسول ﷺ من دار أهلها، فألبسها ثوباً جديداً بيده الشريفة، ودعا لها أن يطول عمرها، فأدخل البهجة والسرور عليها وعلى أهلها.

نص الحديث

عن إسحاق بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، قال: حدَّثني أبي قال: حدّثتني أمُّ خالد بنتُ خالد، قالت: «أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بثياب فيها خَميصة سوداء، قال: مَن ترَون نكسوها هذِه الخميصةَ؟ فأُسكتَ القومُ. قال: ائتوني بأم خالد، فأُتي بي النبيُّ ﷺ ، فألبَسنيها بيدِهِ، وقال: أبلي وأخلِقي - مرَّتين - فجعلَ ينظر إلى علم الخميصةِ ويُشيرُ بيدهِ إليَّ، ويقول: يا أمَّ خالد، هذا سنا. والسَّنا بلسان الحبشة الحسن. قال إسحاقُ: حدَّثتني امرأةٌ من أهلي أنها رأتهُ على أم خالد».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس، باب ما يدعى لمن لبس جديداً، رقم: [٥٨٤٥]. ورواه أيضاً في مواضع من كتابه، انظره تحت رقم:

[٣٠٧١، ٣٨٧٤، ٥٨٢٣، ٥٩٩٣] ورواه أبو داود في «كتاب اللباس، باب فيما يدعى لمن لبس ثوباً جديداً» [ورقمه: ٤٠٢٤].

غريب الحديث

خميصة : ثوب من خزّ أو صوف أسود معلم، ولا يكون الثوب خميصاً ما لم يكن أسود معلماً.

أبلي وأخلقي : دعاء لها بطول البقاء والحياة.

السنا أو السناه : الحسن في لغة الحبشة.

زبرني : نهرني، والزبر: الزجر والمنع.

شرح الحديث

أتي الرسول ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، لا تصلح إلا لطفلة صغيرة، فطلب الرسول ﷺ من أصحابه أن يدلُّوه على طفلة يكسوها تلك الخميصة، فسكتوا ولم يرشحوا له أحداً.

فقال الرسول ﷺ : (ائتوني بأم خالد). وأم خالد - كانت آن ذلك - طفلة صغيرة، وهي ابنة الصحابي الجليل خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، أسلم في أوائل من أسلم في مكة، وهاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة، وبقي هناك مع من هاجر إليها، حتى قدم هو والمهاجرون معه بعد غزوة خيبر، وهناك في الحبشة في أرض الغربة ولدت أم خالد التي دعا بها الرسول ﷺ ليلبسها ذلك الثوب، واسم أم خالد (أَمَةٌ) وأم خالد كنيتها، كناها بها أبوها عند ولادتها [فتح الباري: ٧/ ٢٣٩].

لم يختر الرسول ﷺ لهذا الثوب واحدة من حفيداته أو بنات قريباته، وإنما اختار لها ابنة صحابي هاجر الهجرتين، وفي الإهداء للطفلة الصغيرة تكريم لأبيها وأمها وأسرتها كلها، والذين هجروا الأهل والديار إلى أرض بعيدة، فارّين بدينهم من ظلم قريش وأذاها.

وزاد الرسول ﷺ في التكريم أنه دعا بالطفلة إليه ليلبسها الثوب بيده الشريفة، ولم يكتف بإرسال الثوب إليها ليلبسها إياه أهلها، فاهتم لذلك أهلها، وجاءت إليه صحبة والدها، فجيء بها وعليها قميص أصفر، فألبسها ذلك الثوب، ومع إلباسها الثوب دعاء من الرسول ﷺ بطول البقاء (أبلي وأخلقي، أبلي وأخلقي).

وانظر إلى الرسول ﷺ وهو ينظر إلى الصبية أم خالد، وقد لبست لباساً حسناً جميلاً يداعبها ويمازحها، ويمدح منظرها، وهو يقول لها: (يا أم خالد هذا سنا، هذا سنا) أو (هذا سناه سناه) كما تقول للصغيرة تلبسها ثوباً: هذا ثوب جميل أو حسن، أو تقول لها تفرحها: ما أجملك وأحسنك.

أي رجل هو رسول رب العالمين، إنه نمط فريد، لا يغفل أن يصنع حدثاً يرطب النفوس، ويألّف القلوب، ويبهج الصغار والكبار، وتبقى ذكرى هذه الواقعة في نفس أم خالد وأسرتها وفي نفوس الصحابة، وتبقى قصة تُروى وتُحكى، ليعرف الرجال كيف يكون التصرف حتى مع الصغار.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- كثرة مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه، فقد بلغ به الأمر أن طلب منهم أن يشيروا عليه فيمن يكسوه تلك الخميصة من البنات.

٢- مدى عناية الرسول ﷺ بأبناء أصحابه الذكور والإناث، وإدخال الفرحة على نفوسهم بالفعل والقول والدعاء.

٣- الدعاء الذي يقال لمن لبس جديداً، فقد قال ﷺ لأم خالد: (أبلي وأخلقي) ثلاثاً. وهناك أدعية أخرى قالها الرسول ﷺ لمن رأى عليه ثوباً جديداً، ومن ذلك قوله لعمر بن الخطاب: (البس جديداً، وعش حميداً، ومت شهيداً) أخرجه النسائي وابن ماجه وصححه ابن حبان وأعله النسائي [فتح الباري ١٠/ ٣٧٤] وقد ذكر ابن حجر في المصدر السابق عدداً من الأحاديث النبوية يقولها المرء إذا لبس ثوباً جديداً.

٤- ملاطفة الصغار من الأولاد والبنات، وعدم الحجر عليهم في مجالس الكبار، فقد جاء في بعض روايات الحديث [البخاري: ٣٠٧٠] بعد أن احتفل بإلباسها ذلك الثوب الجميل، دارت من خلف الرسول ﷺ ، وأخذت تعبث بخاتم النبوة في ظهره، بينما كان الرسول ﷺ يحادث أصحابه، ومنهم أبوها، فزجرها أبوها، وطلب منها الكفّ عن عبثها، فطلب منه الرسول ﷺ أن يدعها تمضي فيما هي فيه.

٥- مشروعية تكنية الصغار، فقد كنى الأب ابنته بأم خالد عند ولادتها، واشتهرت بهذه الكنية فكانت تنادى بها، وتزوجت أم خالد بالزبير ابن العوام، ورزقت بولد سمّته خالداً.

٦- كلمة: (السنا، أو السناه أو السنه) التي وردت في الأحاديث معناها الحسن في لغة الحبشة، واستدل العلماء بذلك على أنه لا حرج لمن تكلم بلغة الأمم الأخرى، وقد بوّب البخاري على هذا الحديث بقوله: (باب من تكلم بالفارسية والرطانة، كتاب الأدب [٣٠٧١]

(والرطانة الكلام بغير العربية) وأورد فيه هذا الحديث، وحديث جابر الذي ذكرناه في غير هذا الموضع، والذي قال فيه الرسول ﷺ لأصحابه: (إن جابراً صنع لكم سوراً) أي: طعاماً بلغة فارس.

٧- من ألبسة نساء العرب التي كانوا يلبسونها الخمائص، وهي ثياب من صوف أو خز سوداء معلمة، يلبسها الكبار والصغار.

٨- كانت أم خالد تروي هذا الحديث، ويرويه عنها التابعون، واستدل بهذا على جواز تحديث الصغير بما سمعه عن رسول الله ﷺ في صغره إذا عقله وفهمه، ولهذا نظائر كثيرة في رواية الصغار وتحديثهم بما حفظوه في صغرهم.

٩- ظن بعض أهل العلم أن هناك تعارضاً في الأحاديث الواردة، ففي بعض الأحاديث أنه كان عليها قميص أصفر فقال لها هذا سناه أو سنه [البخاري ٣٠٧١]. وسبب الوهم أن هذه الرواية مختصرة، وليس فيه أن الرسول ﷺ ألبسها الخميصة، وبعض الروايات التامة أوضحت المشكل، فقد جيء بها وعليها ثوب أصفر، فألبسها الرسول ﷺ خميصة.

١٠-اقتدى الخلفاء من بعد الرسول ﷺ بفعله، واهتدوا بسنّته، فقد صحّ في الأحاديث أن عمر بن الخطاب ﷺ آثر أمّ سليط بمِرْط جيد، وأم سليط صحابية من نساء الأنصار، وهي والدة أبي سعيد الخدري، وكانت في يوم أحد، تنقل القِرَب للمقاتلين على ظهرها فتسقيهم، وكان بعض الصحابة أشار عليه بأن يعطي ذلك المرط إلى زوجته أم كلثوم بنت علي، فقال عمر: «أم سليط أحق به» [انظر الحديث في صحيح البخاري: ٤٠٧١].



القصة الخامسة والأربعون
نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم

تمهيد

عنوان هذه القصة حُكْمٌ حكَمَ به الرسول ﷺ لمن أخذ عليه المشركون عهداً، أن لا يقاتلوا مع الرسول ﷺ ، فأمر الرسول ﷺ بالوفاء لهم، والاستعانة بالله عليهم.

نص الحديث

عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيمانِ. قَالَ: مَا مَنعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْراً إلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أنا وَأبي، حُسَيْلٌ، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تريدُونَ مُحَمَّداً؟ فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إلاَّ الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ الله وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ الله عَلَيْهِمْ».

تخريج الحديث

رواه مسلم في الجهاد، باب الوفاء بالعهد [١٧٨٧].

غريب الحديث

نفي لهم : وفى لهم بالعهد يفي، إذا وقف عنده، ولم يغدر به.

شرح الحديث

حذيفة بن اليمان ﷺ أحد الصحابة الكرام، أسلم ووالده قبل معركة بدر، واسم والده حُسَيْلٌ، ولقبه الذي اشتُهر به: اليمان.

ويحدثنا حذيفة أنه كان بإمكانه شهود معركة بدر هو ووالده، فقد خرجا من ديارهما مسلمين، والتقيا بالرسول ﷺ قبل أن ينطلق هو والصحابة إلى بدر، ولكن حالَ دون ذلك أن مشركي مكة اعترضوا طريقهما، ومنعوهما من السير إلى المدينة، بدعوى أنهما يريدان الرسول ﷺ لاتباعه ونصرته، ولم يطلقوا سراحهما، ويدعوهما يمضيان في طريقهما حتى أخذا منهما عهد الله وميثاقه أن ينصرفا إلى المدينة، ولا يقاتلا مع الرسول ﷺ.

ولا شك أنهما قد حارا في أمرهما، وقلبا وجوه النظر في العهد الذي عاهدا به قريش هل هو لازم لهما، فهو عهد وميثاق، والعهد عند الله مسؤول عنه، أو أنه لا يلزمهما، فهو مع أهل الكفر والشرك، وهو يحول بينهم وبين الجهاد مع الرسول ﷺ، والمسلمون بهم حاجة شديدة إليهما، لقلة عددهم.

وحسم الرسول ﷺ الأمر عندما عرضاه عليه بقوله لهما: (انصرفا، نفي لهم، ونستعين الله عليهم).

إنه حكم يفوق الخيال، وسلوا الدنيا هل عرف التاريخ قديماً وحديثاً مثل هذا الالتزام الذي حكم به الرسول ﷺ، يفي لأعدائه الذين أخرجوه وأصحابه من ديارهم واستولوا على أموالهم، وأرادوا سفك دمائهم، ومع

ذلك فالعهد والميثاق يجب احترامه، وتبقى كلمة المسلم كالذهب الإبريز الصافي، لا يمكن التشكيك فيها بحال.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

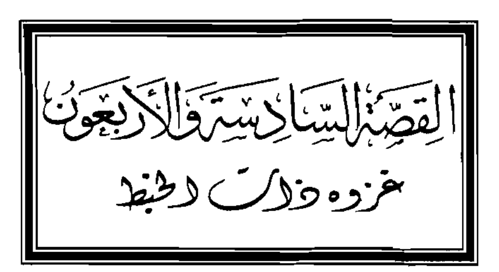
١- لم يكن الصحابي حذيفة بن اليمان ووالده ممن شهد بدراً، وكان لهما في ذلك عذر قَبِـله رسول الله ﷺ منهما.

٢- يجب الوفاء بالعهود والمواثيق التي تكون بيننا وبين أعدائنا، لا حبّاً في أعدائنا، ولكن طاعة لربنا، فالنصر لا يكون بزيادة عدد المقاتلين بضعة أشخاص، ولكن النصر من عند الله، فهو المستعان، وعليه التكلان ويرى النووي رحمه الله أن أمر الرسول ﷺ لهما بالوفاء ليس أمر إيجاب، فإنه لا يجب الوفاء بترك الجهاد مع الإمام ونائبه، ولكن أراد النبي ﷺ أن لا يشيع عن أصحابه نقض العهد [شرح النووي على مسلم: ١٠-١٢/ ٤٧٨] ولم يأت النووي رحمه الله بالدليل الذي يصرف النص عن الوجوب إلى الاستحباب.

٣- يجوز الكذب في الحرب كما كذب حذيفة ووالده على المشركين في دعواهم أنهم لا يريدون نصرة المسلمين في المدينة، وقد جاءت النصوص صريحة صحيحة في جواز الكذب في الحرب، وفي الإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته.

٤- كان أهل مكة مع كفرهم وشركهم يأخذون عهد الله وميثاقه فيما بينهم، وعلى غيرهم، في الأمور العظام.

* * *



تمهيد

هذه إحدى الغزوات التي بلغ عدد الجيش فيها ثلاثمائة رجل، زوّدهم الرسول ﷺ جميعاً جراباً من تمر، لم يجد عنده غيره، فرمى لهم البحر رزقاً من عند الله تعالى، لقد رمى لهم حوتاً ضخماً أكلوا منه حتى عادوا إلى المدينة.

نص الحديث

عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَتَلَقَّى عِيراً لِقُرَيْشٍ، وَزَوَّدَنَا جِرَاباً مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً.

قَالَ: فَقُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ، ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ.

قَالَ وَانْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَرُفِعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَثِيبِ الضَّخْمِ، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرَ. قَالَ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ. ثُمَّ قَالَ: لاَ، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَقَدِ اضْطَرِرْتُمْ فَكُلُوا. قَالَ: فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْراً، وَنَحْنُ ثَلاَثُ مِائَةٍ حَتَّى سَمِنَّا.

قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَغْتَرِفُ مِنْ وَقْبِ عَيْنِهِ، بِالْقِلاَلِ، الدُّهْنَ، وَنَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفِدَرَ كَالثَّوْرِ (أَوْ كَقَدْرِ الثَّوْرِ) فَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْبِ عَيْنِهِ، وَأَخَذَ ضِلْعاً مِنْ أَضْلاَعِهِ، فَأَقَامَهَا، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا، فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا، وَتَزَوَّدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: (هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ الله لَكُمْ. فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا؟) قَالَ: فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُول الله ﷺ مِنْهُ. فَأَكَلَهُ.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الصيد والذبائح، باب إباحة ميتات البحر، [ورقمه: ١٩٣٥].

ورواه البخاري في صحيحه، في كتاب الشركة باب الشركة في الطعام، ورقمه: [٢٤٨٣] وفي كتاب المغازي، باب غزوة سيف البحر، ورقمه [٤٣٦٠، ٤٣٦١، ٤٣٦٢] وفي كتاب الذبائح والصيد، ورقمه [٥٤٦٣، ٥٤٩٤] كلها من حديث جابر بن عبدالله.

غريب الحديث

عيراً : العير القافلة من الإبل تحمل الطعام والسلاح ونحو ذلك.

جِرَاباً : الجراب الوعاء من الجلد.

الخَبَط : ورق شجر السَّلَم.

الكثيب : الرمل المستطيل المحدودب.

العنبر : سمكة بحرية ضخمة، يُستخرج منها العطر المسمى بالعنبر، وتتخذ العرب من جلدها الترسة، التي كانوا يتّقون بها أعداءهم، وذلك لشدة جلدها ومتانته.

وقب عينه : داخل عينه ونقرتها.

بالقلال : جمع قلة، وهي الجرة الكبيرة التي يحملها الراكب بين يديه.

كقدر الثور : أي: بمقدار حجمه، وروي بلفظ (فدر الثور) جمع فدرة، وهي القطعة من اللحم بمقدار الثور.

رحل : أي: جعل عليه رحلاً.

وشائق : الوشائق اللحم يؤخذ فيغلى، ولا ينضج، وقيل: الوشيقة القديد.

شرح الحديث

أخبرنا جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ أرسل جماعة من أصحابه بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، يتلقون عيراً لقريش، وكان عدد الجيش الذي خرج لملاقاة العير ثلاثمائة راكب [البخاري: ٤٣٦١].

وزوّد الرسول ﷺ ذلك الجيش بجراب من تمر، وماذا يفعل الجراب مع ذلك العدد الكبير، ولكن هذا هو الطعام الذي كان موجوداً عند الرسول ﷺ ، ليس عنده غيره.

لقد فني التمر الذي زوّدهم به الرسول ﷺ قبل أن يصل الجيش إلى مقصده الذي يريده، هنا تصرّف أمير الجيش بما تقتضيه المصلحة، فقد أمر جنوده أن يجمعوا ما بأيديهم من خاص تمرهم، فجمعوه فبلغ مزودي تمر، [البخاري: ٤٣٦٠] فكان يقوتهم من ذلك التمر قليلاً قليلاً حتى فنِيَ،

فلما قلّ الزاد أخذ الأمير يعطي كل واحد من جنده تمرة واحدة في اليوم [البخاري: ٢٤٨٣]، وعندما عجب راوي الحديث عن جابر وقال له: «ما تغني عنكم تمرة؟» قال له جابر: «لقد وجدنا فقدها حين فنيت» [البخاري: ٤٣٦٠]، وهذا يفيدنا أنهم مع تقتيرهم الشديد على أنفسهم بالاقتصار على تمرة فإن تمرهم قد فني، ولم يبقَ منه شيء، فأسفوا على تلك التمرة التي كانت تقيتهم في الأيام السابقة، وكان الواحد منهم - حتى يحصل من التمرة على أوفر غذاء - لا يأكلها أكلاً، ولا يمضغها مضغاً، بل يضعها في فمه، ثمّ يمصها كما يمص الصبي، ثم يشرب عليها من الماء، قال جابر: «فتكفينا يومنا إلى الليل».

وبلغ بهم الجوع أن يخبطوا بعصيهم أوراق شجر السَّلَم، ثم يجمعونه، ويبلّونه بالماء، ثم يأكلونه، ولا يكادون يسيغون أكله، فلم يجعل هذا الورق طعمة للآدمي، ولكنه الجوع.

وقد كان في الجيش سعد بن قيس الأنصاري، وكان والده ميسور الحال، فلما رأى ما حلّ بالجيش من المخمصة، بادر فذبح لهم وأطعمهم، ففي رواية سفيان قال: سمع عمرو جابراً يقول: (إن رجلاً نحر ثلاث جزائر، ثم ثلاثاً، ثم ثلاثاً، ثم نهاه أبو عبيدة» [البخاري: ٤٣٦١، ومسلم: ١٩٣٥] وفي رواية البخاري أن سعداً حدّث أباه عن الجوع الذي بلغه الجيش، فقال له أبوه: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نحرت. قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نُهيت [البخاري: ٤٣٦١] وهو مرسل كما أفاده ابن حجر في الفتح [٨/ ١٠٢] ولكن أبا نعيم أورده من طريق الحميدي موصولاً.

فقيس الشاب بادر ثلاث مرات بالذبح للجيش، وفي كل مرة يذبح ثلاث جزائر، وكان يستطيع أن يخص نفسه بالطعام الفاخر الوافر، ولكنه ساوى نفسه بإخوانه، فجاع كما جاعوا، وأصابه ما أصابهم، فلما رأى مقدار الجوع الذي أصابهم بادر وأطعم الجيش كله، يفعل ذلك مراراً، ثم نهاه أمير الجيش خشية أن يشق على أبيه في ماله.

وعندما أخبر قيس أباه بجوع الجيش، توقع منه أن يبادر، فيذبح فيُطعم، فكلما أخبره عن جوعهم، يقول له: اذبح، ففي الرابعة أخبره أنه نهي ممن له حق الطاعة، وهو الأمير.

لم يغضب والده، ولم يقرعه ويؤنبه، مما يدل على أن قيساً كان يعلم نفسية أبيه وكرمه، وأن ما فعله يرضيه، ولا يغضبه.

وصل الجيش إلى الموقع الذي يقصده على ساحل البحر في مكان يقال له أرض جهينة، وقد هزلت أجسادهم وأثر الجوع على قواهم وأبصارهم وأسماعهم، ثم جاءهم الفرج من عند ربّ العباد كثيراً وافراً.

لقد ألقى البحر لهم حوتاً عظيماً كأنه لعِظَمِه الكثيب من الرمل، فأكلوا من لحمه، وادّهنوا من شحمه، حتى استردوا عافيتهم، وظهر فيهم السمن، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد وصف لنا الصحابة عِظَم الحوت الذي وجدوه بطريقة لا يزال كل من يقرأ القصة يدرك مدى عظمه، فمن ذلك:

١- أنهم أكلوا منه جميعاً أكل شبع، وكان تعدادهم ثلاثمائة مقاتل، طيلة مقامهم في الموقع الذي نزلوا فيه، وأقل ما ورد أنهم أقاموا هناك نصف شهر [البخاري: ٤٣٦١]، وأكثر ما ورد فيه أنه شهر [مسلم: ١٩٣٥]

[وفي البخاري أنهم مكثوا مقيمين عليه ثماني عشرة ليلة: ٤٣٦٠]، وحملوا من لحمه ما كفاهم في سفر العودة، وفضل منه ما وصل معهم المدينة، وأكل منه رسول الله ﷺ .

٢- كانوا يغترفون من جحر عينه الدهن بالقلال، ويقتطعون القطعة من لحمة بمقدار الثور.

٣- أجلس أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً في جحر واحد من جحور عينيه، فوسعهم.

٤- نصب الصحابة بأمر من أمير الجيش ضلعين متعامدين من أضلاع ذلك الحوت، ثم جيء بأعظم ناقة في الركب، فوضع عليها رحلها، ثم ركبها أطول رجل في الجيش، فمر تحت الضلعين منتصباً، من غير أن يمس شيئاً من الضلعين [رواية في مسلم: ١٩٣٥].

لقد وصلوا إلى المكان الذي كانوا يقصدونه جوعى مخمصين، وغادروه وهم شبعى، وصنعوا من لحمه وشائق، كانت لهم في عودتهم زاداً، وفضل منه معهم ما أهدوه إلى أهاليهم، وأتوا الرسول ﷺ فذكروا له ذلك، فقال مقراً إياهم على ما فعلوه (هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟) قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- لابد لكل جيش من أمير يقوده، كما فعل الرسول ﷺ بتأمير أبي عبيدة على جيش الخبط، وكان هذا هَدْيَه في كل الجيوش التي يبعثها، فإذا خرج بنفسه فهو الأمير والقائد.

٢- العلم بالمعاناة الشديدة التي كانوا يتحملونها، وهم يقومون بالمهمات العِظام في نصرة هذا الدين.

٣- كان الصحابة يفعلون أحسن ما يستطيعون في المهمات التي يقومون بها من تجهيز الطعام، وإعداد السلاح، ونحو ذلك، ويتوكلون على ربهم فيما لا يستطيعونه.

٤- كان الصحابة مثالاً يُحتذى في الانضباط والجندية، لم يعترضوا على الرسول ﷺ عندما أمرهم بالخروج لتلقي العير، مع أنهم لا يجدون القوت لسفرهم، ولم يعترضوا على أميرهم عندما أمرهم بجمع ما بحوزة كلٍّ منهم من التمر، وقسمته عليهم بعد ذلك بالسويّة.

٥- صَبْر الصحابة على شظف العيش، فاكتفى الواحد منهم بالتمرة في اليوم بطوله، وأكلوا من أوراق الشجر ما لا يُستساغ أكله، وتفاقم الأمر عندما نفد التمر كله، فلم يبقَ منه شيء.

٦- إكرام الله صحابة رسوله ﷺ بأن أخرج لهم من البحر ذلك الحوت العظيم الذي كفاهم في مقامهم، وتزوّدوا منه في العودة إلى ديارهم، وأهدوا منه لأهاليهم وإخوانهم بعد عودتهم.

٧- جواز اشتراك الرفقة فيما معهم من الطعام، كما فعل أبو عبيدة حين جمع من الصحابة أقواتهم، ثم وزّعها عليهم بالسوية، وقد حدّثتنا كتب السنّة أن هذا كان هدي الأشعريين، قوم أبي موسى الأشعري وهم من أهل اليمن، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: (إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم) [صحيح البخاري: ٢٤٨٥].

٨- ظن أبو عبيدة ﷺ أن حيوان البحر الذي لم يكن لهم فعل في صيده، غير داخل في الصيد الذي أحلّه الله لنا بقوله: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ [المائدة:٩٦]. لأنه مات حتف أنفه، ولا فعل لهم فيه، وإنما أجاز لجنوده أن يأكلوا منه مع كونه ميتة في نظره، لأنهم كانوا مضطرين، ففي رواية أن أبا عبيدة لما رأى الحوت قال: «ميتة، ثم قال: بل نحن رسل رسول الله ﷺ ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا».

ولكن ما ذهب إليه أبو عبيدة ظَنٌّ تبين خطؤه، فإنهم لما عادوا إلى المدينة، وأخبروا رسول الله ﷺ خبر الحوت، وما كان منهم فيه، قال: (رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا) قال: «فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله». وما كان يحل لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه أن يأكلوا منه في المدينة لو كان ما رآه أبو عبيدة صحيح، فقد زال الاضطرار بوصولهم إلى الديار[1].

(١) ويدل لصحة قول جمهور أهل العلم الذين أباحوا حيوان البحر سواءً اصطيد صيداً أو وجدناه ميتاً آية المائدة ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ ﴾ [المائدة:٩٦] فالصيد ما صدناه بأيدينا، والطعام كما صح عن ابن عباس ما قُذف به [راجع النووي على مسلم ج ١٣-١٥ ص٧٦] ويدلّ لصحة قول جمهور أهل العلم الذين يرون جواز أكل حيوان البحر سواء أصيد صيداً أو وجدناه ميتاً من غير سبب نعرفه آية المائدة ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ ﴾ [المائدة:٩٦]. وقد أورد البخاري في كتاب الذبائح والصيد باباً ترجم له بالآية السابقة، وأورد في ترجمته قول عمر بن الخطاب ﷺ «صيده ما اصطيد، وطعامه ما رمى به» وأورد قول أبي بكر الصديق ﷺ «الطافي حلال» أي: الميت الطافي من السمك على وجه الماء. وأورد قول ابن عباس: «طعامه ميتته، إلا ما قذرت منها» [فتح الباري: ٩/ ٧٦٠] وأورد فيه حديث أبي عبيدة وفيه ذكر الحوت الذي قذفه البحر ميتاً [صحيح البخاري: ٥٤٩٣، ٥٤٩٤] ويدل لصحة هذا التوجه المنقول عن الصحابة رضوان الله عليهم قول الرسول ﷺ عن البحر: (هو =

٩- قد يقال: كيف أكل الصحابة من ذلك الحوت تلك المدة الطويلة التي قد تزيد على شهر، وقلما يبقى اللحم أياماً إلا وينتن ويفسد، وقد نهى الرسول ﷺ عن الصيد الذي يجده صاحبه بعد ثلاثة أيام إذا أنتن، ونصه: (كله ما لم ينتن) [مسلم: ٩٣١] والجواب: أن الصحابة عندهم من العلم والمعرفة ما يعرفهم بطريقة حفظه، فقد صحّ عنهم أنهم صنعوا منه وشائق، ولا يكون ذلك إلا باستعمال طريقة يحفظون بها اللحم، وقد كان العرب تصنع القديد، وذلك بتجفيف اللحم، حتى يبقى صالحاً للانتفاع به مدة طويلة.

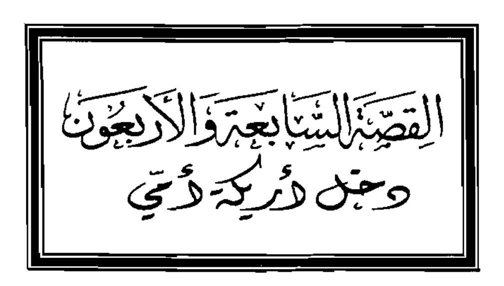
١٠-جود أصحاب الأموال من الصحابة، فقد نحر قيس بن سعد للجيش ثلاث مرات، في كل مرة ثلاث جزائر، ولولا أن أبا عبيدة نهاه، لاستمر في النحر، والمجتمعات التي تزخر بمثل هذه المبادرات مجتمعات حيّة، وقد كان في المسلمين منها كثير، خاصة في مجتمع الصحابة، فمنهم الذي كان يجود بماله كله كما فعل أبو بكر، ومنهم الذي كان يجهّز جيشاً كاملاً وحده، كما فعل عثمان في تجهيزه جيش العسرة، ومنهم من كان يتحمل الحمالات العظيمة، للإصلاح بين المتخاصمين.

= الطهور ماؤه الحل ميتته). قال فيه ابن حجر: «أخرجه مالك وأصحاب السنن وصححه ابن خزيمة وابن حبان وغيرهم» [فتح الباري: ٩/ ٧٦٦].

والصواب من القول أن صيد البحر وطعامه الذي يباح أكله من غير ذبح حيوان البحر الذي لا يعيش إلا في البحر كالأسماك، أما الذي يعيش في البر والبحر، والتي تسمى اليوم بالبرمائيات كالضفدع والسلحفاة فلا يجوز أكلها، وحكمها حكم حيوانات البر، أما الحيوانات التي لا تعيش إلا في البر فإن وقعت في البحر بفعلنا أو بغير فعلنا فماتت فيه، فهي ميتة لا يجوز أكلها بحال.

١١-بساطة مقاييس الصحابة، وسهولة معرفة الناس لها في العصور المختلفة، فقد أخبرونا عن عِظَم الحوت الذي رمى به البحر، بمرور راكب الجمل من تحت ضلعين من أضلاعه بعد نصبهما، وبجلوس ثلاثة عشر رجلاً في جحر واحد من جحري عينيه.

* * *



تمهيد

جاء الصحابي الجليل أبو اليسر منزل رجل يقتضيه دينه، فاختفى الرجل في منزله، وكتم أهله أمره عن أبي اليسر، فخرج ابن صغير لصاحب المنزل، فكشف سر أبيه، وأخبر أبا اليسر بالموضع الذي اختفى فيه أبوه. فناداه أبو اليسر، وسنعلم من خلال القصة كيف تصرف أبو اليسر مع غريمه، والسبب الذي دعاه لذلك التصرف.

نص الحديث

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي نطْلُبُ الْعِلْمَ فِي هَذا الْحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ، قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَقِينَا أَبا الْيَسَرِ، صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ . ومَعَهُ غُلاَمٌ لَهُ، مَعَهُ ضِمَامَةٌ مِنْ صُحُفٍ، وَعَلَى أَبي الْيَسَر بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ، وَعَلَى غُلاَمِهِ بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ.

فَقَالَ لَهُ أَبي: يَا عَمِّ! إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِكَ سَفْعَةً مِنْ غَضَبٍ. قَالَ: أَجَلْ، كَانَ لِي عَلَى فُلاَنِ بْنِ فُلاَنَ الْحَرَامِيِّ مَالٌ. فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ فَسَلَّمْتُ، فَقُلْتُ: ثَمَّ هُوَ؟ قَالُوا: لاَ. فَخَرَجَ عَلَيَّ ابْنٌ لَهُ جفْرٌ، فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ أَبُوكَ؟ قَالَ: سَمِعَ صَوْتَكَ فَدَخَلَ أَرِيكَةَ أُمِّي، فَقُلْتُ: اخْرُجْ إِلَيَّ، فَقَدْ عَلِمْتُ أَيْنَ أَنْتَ، فَخَرَجَ.

فَقُلْتُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى اَنِ اخْتَبَأْتَ مِنِّي؟ قَال: أنَا، وَالله! أُحَدِّثُك، ثُمَّ لاَ أَكْذِبُكَ، خَشِيتُ، وَالله! اَنْ أُحَدِّثَكَ فَأَكْذِبَكَ، وَأَنْ أَعِدَكَ فَأُخْلِفَ، وَكُنْتَ صَاحِبَ رسُولِ الله ﷺ ، وَكُنْتُ، وَالله! مُعْسِراً، قَالَ: قُلْتُ: آللهِ! قَالَ: الله! قُلْتُ: آللهِ! قالَ: الله. قُلْتُ: آللهِ! قَالَ: الله.

قَالَ فَأتَى بصَحِيفَتِهِ فَمَحَاهَا بيَدِهِ، فَقَالَ: إنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضِنِي، وَإلاَّ، أنْتَ فِي حِلٍّ، فَأَشْهَدُ بَصَرُ عَيْنَيَّ هَاتَيْنِ (وَوَضَعَ إصْبَعَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ) وَسَمْعُ أُذُنَيَّ هَاتَيْنِ، وَوَعَاهُ قَلْبِي هَذا (وَأَشَارَ إلى مَنَاطِ قَلْبِهِ) رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: (مَنْ اَنْظَرَ مُعْسِراً، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، اَظَلَّهُ الله في ظِلِّهِ).

قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ اَنَا: يَا عَمِّ! لَوْ اَنَّكَ أَخَذْتَ بُرْدَةَ غُلاَمِكَ وَأَعْطَيْتَهُ مَعَافِرِيَّكَ، وَأَخَذْتَ مَعَافِرِيَّهُ وَأَعْطَيْتَهُ بُرْدَتَك، فَكَانَتْ عَلَيْكَ حُلَّةٌ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، فَمَسَحَ رَأْسِي وَقَال: اللهُمَّ! بارِكْ فيه، يَا ابْنَ أَخِي! بَصَرُ عَيْنَيَّ هَاتَيْنِ، وَسَمْعُ أُذنَيَّ هَاتَيْنِ، وَوَعَاهُ قَلْبِي هَذا (وَأَشَارَ إلى مَنَاطِ قَلْبِهِ) رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: (أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ). وَكَانَ اَنْ أَعْطَيْتُهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ اَنْ يَأْخُذَ مِنْ حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، ورقمه: [٣٠٠٦، ٣٠٠٧].

غريب الحديث

أبو اليسر : هو كعب بن عمرو شهد العقبة، وشهد بدراً وعمره عشرون سنة، وهو آخر من توفي من أهل بدر.

ضِمامةٌ من صحف : بكسر الضاد، أي: رزمة يضم بعضها إلى بعض، صحفاً كانت أو كتباً أو غيرها.

معافري : ثوب منسوب إلى موضع باليمن، يقال له: معافر.

البردة : الشملة المخططة.

الحرامي : نسبة إلى بني حرام.

سُفْعَة من غضب : أراد أن لون وجهه متغير بسبب غضبه.

جَفْر : الجفر الغلام الصغير، مشبّه بالجفر من ولد الشاءِ.

الأريكة : السرير من دونه ستر.

أنظر : الإنظار التأخير.

نياط قلبه : النياط عرق معلق بالقلب، ومناط ونياط معناهما واحد.

الحلّة : ثوبان من جنس واحد، سميت بذلك، لأن أحدهما يحل على الآخر. أراد إذا أخذت المعافري، وأعطيته البردة، صار عليك معافريان، وعليه بردتان، أو بالعكس.

آلله : الهمزة هنا ممدودة للاستفهام.

شرح الحديث

يحدِّث عبادة بن الوليد حفيد الصحابي الجليل عبادة بن الصامت أنه خرج هو وأبوه يطلبان العلم عند أهل العلم من الأنصار، فأول من التقوا به الصحابي كعب بن مالك والمكنّى بأبي اليسر، وكان يصحب غلاماً له، وكان أبو اليسر أو غلامه يحمل رزمة من صحف، والذي يظهر أن هذه الصحف كانت تحوي معاملات مالية، كوثيقة الدَّيْن التي تحدثت عنها القصة.

وكان الصحابي أبو اليسر وغلامه يلبسان لباسين متفقين تماماً، فكل منهما يلبس بردة، وهي الشملة المخططة، ومعافري وهو نوع من الثياب مصنوع باليمن.

وقد لاحظ والد عبادة أن وجه أبي اليسر متغير معكَّر، تظهر عليه أمارات الغضب، فسأله عن ذلك.

فأخبره أنه كان في طلب دَيْن له، فلما ذهب إلى منزل المدين أخفى أهله عنه أمره، وادّعوا أنه غير موجود، ولكن ابناً له صغير دلّ عليه، وأعلمه أنه مختبئ في سرير أمه، فلما خرج المدين، اعتذر له بأنه معسر، فخشى أن يخرج إليه، فيكذب عليه، أو يعده، فلا يستطيع أن يفي له، فآثر الاختفاء عنه.

فحلفه ثلاثة أيمان على أنه معسر، فحلف له بذلك، فما كان منه إلا أن دفع إليه وثيقة الدَّيْن، وطلب منه أن يمحوها بيده، وأنظره في سداد دَيْنه إلى ميسرة، فإن لم يجد ما يسدّه به فهو في حل من ذلك الدين، وإنما محى الوثيقة حتى يريح نفس المدين، ولا يطالب إن لم يجد السداد أبداً.

وأخبرهما أبو اليسر أن الدافع الذي دفعه إلى فعل ذلك ما سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «من أنظر معسراً، أو وضع عنه أظله الله في ظلّه». فهو يريد أن ينال بإنظاره ذلك المعسر إن وجد سداداً، فإن لم يجد فإنه يسقط عنه دَيْنه، ويضعه عنه كي ينال ذلك الأجر الذي بشّر به الرسول ﷺ من فعل هذا الفعل.

وأنت تلحظ مدى دقة الصحابي الجليل وهو يحدث بحديث رسول الله ﷺ ، ومدى تعظيمه له، تأمل في كلامه وهو يقول: (فأشهد بصر عيني

هاتين، ووضع إصبعيه على عينيه، وسمع أذني هاتين، ووعاه قلبي هذا، وأشار إلى نياط قلبه».

لقد نجح أبو اليسر بكلماته القوية الصادقة في تصوير مدى اهتمامه بحديث رسول الله ﷺ، فقد شارك في ذلك كله سمعه وبصره وقلبه، سماعاً وإبصاراً وفقهاً، وكان من ثمار ذلك أن بادر إلى فعل ما يقتضيه الحديث.

وقد لحظ الفتى الشاب راوي الحديث أنه لا يوجد انسجام وتوافق في لباس كل من أبي اليسر وغلامه، فكل منهما يلبس ثوباً معافرياً وبردة، فلو تبادلا نوعاً من الاثنين، فيكون على كل منهما نوعٌ واحد، أي يكون على كل منهما حلة، وهذا أجمل وأحسن.

لقد نظر عبادة إلى المظهر والجمال والذوق، ولكن أبا اليسر لم ينظر إلى ذلك كله، لقد سمع حديثاً من رسول الله ﷺ يأمر فيه السادة أن يطعموا من كان تحت أيديهم من غلمانهم مما يأكلون، ويلبسونهم مما يلبسون، وقد فقه أبو اليسر أن الحديث يقضي بالمماثلة الكاملة، وخشي على نفسه إن لم يفعل أن يأخذ غلامه من حسناته يوم القيامة.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- اهتمام الأخيار من هذه الأمة بطلب العلم عند أهله، لا فرق بين أن يكون الطالب أباً أو ابناً، فقد خرج الوالد والولد في طلبه معاً.

٢- صورة انتقال العلم من الصحابة إلى التابعين، فلم يجلس أبو اليسر في مجلس العلم، وإنما التقياه على قارعة الطريق، فسألاه عن حاله، وعن لبسه ولبس غلامه، فأفادهما بما هو وغلامه عليه، مدللاً على صحة ذلك بالتوافق مع النصوص الحديثية النبوية.

٣- كان الصحابة يوثقون الديون استجابة لأمر الله الآمر بكتابة الدَّين.

٤- كانت صناعة الصحف موجودة في آخر عهد الصحابة.

٥- فضل إنظار المعسر والوضع عنه.

٦- كانت صناعة الملابس موجودة في الجزيرة العربية، ومنه هذا النوع من الثياب المسمى بالمعافري، فهو صناعة يمنية.

٧- لا ينبغي المسارعة إلى اتهام الآخرين، فقد تبين أن المدين المختفي كان لا يستطيع سداداً، ويخشى إن قابل صاحب الحق أن يكذب أو يخلف.

٨- تعظيم عوام الناس لصاحبة رسول الله ﷺ ، فالرجل المدين يقول: «وكنت قد صحبت رسول الله» ، كأنه يقول: فلك مكانة خاصة تجعلني في حرج شديد من الكذب عليك، أو إخلاف الوعد معك.

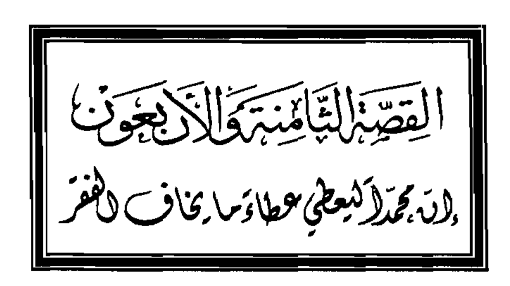
٩- صور المخاطبات الاجتماعية في العصر الأول، فالوليد بن عبادة وابنه عبادة يخاطب كل منهما أبا اليسر بقوله: «يا عم» . وأبو اليسر يخاطب الشاب الصغير عبادة بقوله: «يا ابن أخي» .

١٠-مشروعية القسم وتكراره عندما يشك المقسم بكلام من يقسم عليه، كما أقسم أبو اليسر على ذلك ثلاثة أقسام.

١١-عدم اهتمام الصحابة بالتقاليد وما يسمى بالذوق العام عندما يرون أنها لا تتفق مع ما أرشدت إليه الأحاديث، فأبو اليسر لم يرع اتساق اللباس في لباسه ولباس غلامه، لأنه فقه من الأحاديث خلاف ذلك.

١٢-الإحسان على الذين يكونون في خدمة المرء، ورعايتهم واللطف بهم، وقد بلغ الصحابة في ذلك أن ساووهم بأنفسهم.

* * *



تمهيد

كان الرسول ﷺ يعطي فيجزل العطاء، ويكرر ذلك مرة بعد مرة، فهو يعطي عطاءً ما يخاف الفقر.

نص الحديث

عَنْ أنسٍ؛ أنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ غَنماً بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأعْطَاهُ إياهُ. فَأتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أيْ قَوْمِ! أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ! إنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخافُ الْفَقْرَ.

فَقَالَ أنسٌ: إنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إلاَّ الدُّنْيا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإِسْلاَمُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، باب «ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط، فقال: لا» ورقمه: (٢٣١٢).

غريب الحديث

أعطاه غنماً بين جبلين : أعطاه غنماً كثيرة قد ملأت ما بين جبلين.

شرح الحديث

هذا الحديث يبين الأثر الذي يحدثه العطاء الكثير في نفوس آخذيه، فقد جاء إلى الرسول ﷺ رجل، فرأى مع الرسول ﷺ غنماً كثيراً يُرعَى بين جبلين، فسأله أن يعطيه إياه، فلم يتردد، ولم يعطه بعضاً منها، بل أعطاه إياها كله، وأذهلت العطية العظيمة التي حصل عليها الرجل، فما عرف عن العرب في جودهم وكرمهم مثل هذا، لا من حاتم الطائي، ولا من غيره، ثم هو حصل عليها من غير مديح ولا ثناء، فقد كان الشعراء يدبجون الخطب والقصائد لمن يرجون جودهم ونداهم، وهو إنما حصل على ما حصل عليه بالسؤال فحسب، لا بالمديح والثناء، ولا بمركزه الاجتماعي الذي يجعل الناس يتقربون منه، ولكن تحقق مقصد الرسول ﷺ من وراء العطاء، فقد دخل الرجل في الإسلام، وليس ذلك فحسب، بل أثر ذلك العطاء الكبير في قومه، فدخلوا الإسلام من غير كدٍّ، ولا عناء.

وقد جعل الله في كتابه سهماً من أموال الزكاة، للمؤلفة قلوبهم، وأعطى الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم في حنين الأموال الطائلة.

وقد فقه راوي الحديث أثر العطاء في نفوس آخذيه، فهم في بداية الأمر يريدون تحصيل متاع الدنيا، فعندما يدخلون في دين الله يصبح الإسلام أحبّ إليهم من الدنيا.

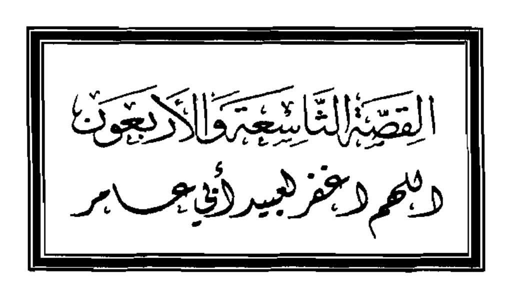
عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- التعرف على خلق من أخلاق الرسول ﷺ العظيمة، وهو أنه لم يكن يُسأل شيئاً يرى الرسول ﷺ أن للإسلام فيه خير إلا أعطاه، قلّ أو كثُر، إذا كان عنده، كما وقع في هذه القصة.

٢- بيان أثر العطاء في الآخذين، فهو يحبّبهم في الإسلام ورسول الإسلام، فقد آمن بعضهم بعد كفره كما وقع لهذا الرجل وقومه، وثبت بعضهم على دينه، كما وقع للمؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم من غنائم حنين.

٣- لا حرج على المسلمين إن هم تألفوا الناس على الإسلام بالأعطيات.

* * *



تمهيد

نصر الله رسوله ﷺ في معركة حنين، وأرسل الرسول ﷺ أبا عامر الأشعري قائداً مع بعض جيشه إلى أوطاس، فوجد جمعاً من ثقيف بقيادة دريد بن الصمة، فقاتلهم عامر، فقُتل دريد، وانهزم أصحابه، وأصاب أبا عامر سهم في ركبته أدى إلى وفاته، فانتصر أبو موسى الأشعري لعمّه أبي عامر، وقتل قاتله، وقاد الجيش، وعاد به منصوراً.

نصّ الحديث

عن أبي موسى ﷺ قال: «لما فَرَغَ النبيُّ ﷺ من حُنَين بَعثَ أبا عامرٍ على جيشٍ إلى أوطاس، فلقيَ دُرَيدَ بن الصِّمَّة، فقُتِلَ دُرَيدٌ، وهَزَمَ الله أصحابه.

قال أبو موسى: وبَعثني مَعَ أبي عامر، فرُميَ أبو عامرٍ في ركبتِهِ، رَمَاه جُشَميٌّ بسهمٍ فأثبَتَهُ في رُكبتِهِ. فانتهيتُ إليهِ فقلتُ: يا عمِّ مَن رماكَ؟ فأشارَ إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني.

فَقَصدتُ له، فلحِقته، فلما رآني ولى، فاتَّبَعتُه وجعلت أقولُ له: ألا تَستحي، ألا تثبت، فكفَّ. فاختَلفنا ضربتَين بالسيف فقتلُهُ، ثم قلتُ لأبي عامر: قَتَل الله صاحبَك. قال: فانزع هذا السهمَ، فنزَعتُه فنزا منهُ الماء.

قال: يا ابنَ أخي، أقرئِ النبيَّ ﷺ السلامَ وقل له: استغفِرْ لي. واستَخلَفني أبو عامرٍ على الناس، فمكثَ يسيراً ثم مات.

فرجَعتُ فدخلت على النبيِّ ﷺ في بيتِهِ على سريرِ مُرمَلٍ، وعليه فِراشٌ قد أثَّرَ رِمالُ السريرِ بظهرِهِ وجَنبَيه، فأخبرتُهُ بخبرِنا وخبرِ أبي عامر وقال: قل له استغفرْ لي، فدَعا بماءٍ فتوضَّأ، ثم رفعَ يدَيهِ فقال: اللهمَّ اغفرْ لعُبَيدٍ أبي عامر،ورأيتُ بياضَ إبطيْه. ثمَّ قال: اللهمَّ اجعَلْهُ يومَ القيامةِ فوق كثيرٍ من خلقِكَ من الناس. فقلتُ: ولي فاستغفرْ.

فقال: اللهمَّ اغفر لعبدالله بن قَيسٍ ذنبَه، وأدخلْه يومَ القيامة مُدخَلاً كريماً. قال أبو بُردَةَ: إحداهما لأبي عامرٍ، والأُخرى لأبي موسى».

تخريج الحديث

أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، «باب غزوة أوطاس»، [ورقمه: ٤٣٢٣] ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، «باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين» [ورقمه: ٢٤٩٨].

غريب الحديث

جشمي : من قبيلة جشم
مرمل : معمول بالرمال، وهي حبال الحصر التي تصنع بها الأسِرَّة.

شرح الحديث

كان خاتمة غزوة حنين نصراً أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، بعد أن حلّت الهزيمة بالمسلمين في أول الأمر.

وأرسل الرسول ﷺ طائفة من الجيش بقيادة أبي عامر الأشعري عم أبي موسى الأشعري إلى أوطاس للقضاء على ما تبقى من فلول الأعداء، ودارت رحى معركة انتصر فيها المسلمون، وقتل دريد بن الصمة، ورمي قائد الجيش الإسلامي بسهم في ركبته كانت فيه وفاته.

وكان في الجيش أبو موسى الأشعري، فانتهى إلى أبي عامر والسهم في ركبته، فاستعلم منه عمن رماه بالسهم، فأشار إلى راميه، وهو رجل من جشم، فانطلق أبو موسى الأشعري خلف الجشمي، ولم يغادره إلا وقد صرعه، فبشّر أبو موسى أبا عامر بقتل قاتله، فطلب منه أن ينزع السهم، فلما نزعه فاض منه ماءٌ كثير، فعلم أنه مفارق الحياة لا محالة، فحمَّله إلى رسول الله ﷺ ، طالباً منه أن يستغفر له، وكلّفه بمهمة قيادة الجيش.

عاد أبو موسى منصوراً، حاملاً إلى الرسول ﷺ سلام أبي عامر، وطلبه منه أن يستغفر له.

فدعا الرسول ﷺ بماء، فتوضأ، ثم رفع يديه حتى ظهر بياض إبطيه، وقال: (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثيرٍ من خلقك من الناس).

واهتبل أبو موسى الأشعري الفرصة، فطلب منه ﷺ أن يدعو له أيضاً، فقال: (اللهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً).

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- كان الرسول ﷺ يُنصِّب للجيوش التي لا يخرج فيها قائداً، كما فعل في غزوة أوطاس، حيث نصّب على الجيش المرسل أبا عامر الأشعري.

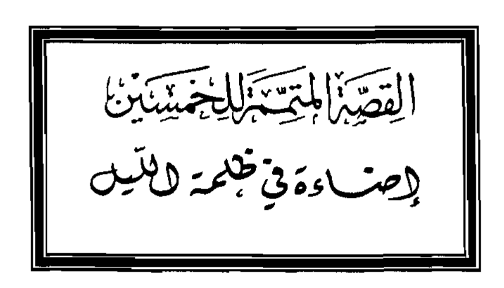
٢- يجوز لقائد الجيش أن يولي غيره مقامه إذا أصيب وتمكّن من ذلك، كما فعل أبو عامر في تكليفه قبل وفاته بقيادة الجيش.

٣- انتصر أبو موسى لأبي عامر فقتل قاتله.

٤- دعاء الرسول ﷺ لأبي عامر وأبي موسى.

٥- يستحب لمن أراد الدعاء أن يتوضأ، كما فعل الرسول ﷺ ذلك عند دعائه للأشعريين.

* * *



تمهيد

سهر صحابيان كريمان في ليلة ظلماء عند رسول الله ﷺ ، فلما خرجا من عنده أضاء لهما مصباحان الطريق، حتى إذا افترقا أضاء لكل واحد منهما مصباح حتى وصل منزله.

نص الحديث

عن أنس بن مالك «أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النبي ﷺ ، خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِي ﷺ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، وَمَعَهُمَا مِثْلُ المِصْبَاحَيْنِ، يُضِيئَانِ بَيْنَ أَيْدِيهِما، فَلَمَّا افْتَرَقَا صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحد، حَتَى أَتَى أَهْلَهُ».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة، باب من غير ترجمة، [ورقمه: ٤٦٥ وانظره أيضاً تحت الرقمين التاليين: ٣٦٣٩، ٣٨٠٥].

شرح الحديث

يخبرنا الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ أن صحابيين تأخرا في ليلة من الليالي الشديدة حتى صلّيا مع رسول الله ﷺ صلاة العشاء، وذكر

البخاري عن معمر عن ثابت عن أنس أن أحد الرجلين هو أسيد بن حضير، ونقل البخاري عن حماد قال: أخبرنا ثابت عن أنس: «كان أسيد ابن حضير، وعباد بن بشر» [البخاري: ٣٨٠٥].

وذكر الإمام أحمد في مسنده عن أنس أن أسيد بن حضير، ورجلاً آخر من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ ليلة في حاجة لهما، حتى ذهب من الليل ساعة، وليلة شديدة الظلمة، حتى خرجا من عند رسول الله ﷺ ينقلبان، وبيد كل واحد منهما عُصَيَّةٌ، فأضاءت عصا أحدِهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترق بهما الطريق، أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه، حتى بلغ إلى أهله.

[مسند أحمد طبعة مؤسسة الرسالة: ١٩/ ٣٩٦ ورقمه: ١٢٤٠٤، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وذكروا هناك مخرجيه].

وهذا الحديث يذكر بصراحة ووضوح أن هذين الصحابيين تأخرا عند رسول الله ﷺ بعد الصلاة في حاجة لهما، (ذكر الحديث البخاري)، فلما خرجا من عنده في تلك الليلة المظلمة خرج معهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما، وفي رواية أحمد أن مع كل واحد منهما عصا، فأضاءت عصا أحدهما، فلما افترقا أضاءت لكل واحد منهما عصاه.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- إجراء الكرامات على أيدي الصحابة، فقد أضاءت لكل واحد من هذين الصحابيين عصاه حتى وصلا إلى ديارهما.

٢- فضل الصحابة وإكرامهم، وإنارة العصي لهم في مرجعهما إلى منازلهما.

٣- فضل أسيد بن حضير وعباد بن بشر.



تمهيد

قصة فيها خبث وطرافة، فقد عرض مشرك على مؤذن الرسول ﷺ بلال أن يقرضه ما يريده من المال، ويصبر عليه، وبعد أن أصبح في ذمة بلال مبلغ من المال لذلك المشرك، تبين له أن مراده هو إعادته عبداً بالمال الذي أصبح مديناً به.

نص الحديث

عن عبدالله الهَوْزَنيِّ، قال: «لَقِيتُ بلالاً مُؤَذِّنَ رَسولِ الله ﷺ بحَلَبَ، فَقُلْتُ: يَا بلالُ! حَدِّثني كَيْفَ كانت نَفَقَةُ رسولِ الله ﷺ ؟

قَالَ: مَا كَانَ لَهُ شَيْءٌ، كُنْتُ أنا الذي أَلِي ذلِكَ مِنْهُ مُنذُ بَعَثَهُ الله إلى أنْ تُوُفِّيَ، وكان إذا أتاهُ الإنسانُ مُسْلِماً، فرآهُ عارياً؛ يأمُرني فانْطَلِقُ، فأَسْتَقْرِضُ، فأشْتَري لَهُ البُرْدَةَ؛ فأكسُوهُ وأُطْعِمُهُ، حَتَى اعتَرَضَني رَجَلٌ مِنَ المشْرِكين، فَقَال: يَا بلالُ! إنَّ عِندي سَعَةً؛ فَلا تَسْتَقْرِضْ مِنْ أحَدٍ إلا مِنِّي، ففعلت.

فلمَّا أنْ كَانَ ذاتَ يَوْمٍ تَوَضَّأْتُ، ثُمَّ قُمْتُ لأُؤَذِّن بالصلاة؛ فإذا المشْرِكُ قَدْ أقْبَلَ في عِصَابةٍ من التُّجَّار، فَلَمَّا رَآني قال: يَا حَبَشِيُّ، قلت: يا لَبَّاهْ، فَتَجَهَّمني، وَقَالَ لي قَوْلاً غَلِيظاً، وَقَالَ لِي: أتَدري كَمْ بينك وبين الشَّهْرِ؟

قَالَ: قُلْتُ: قَرِيبٌ. قَالَ: إنَّما بَيْنَكَ وَبَيْنَه أربَعٌ، فآخذُكَ بالَّذي علَيْكَ، فأردُّك تَرْعَى الغَنَم، كَمَا كُنْتَ قَبلَ ذلكَ.

فأَخَذَ فِي نَـفْسِي مَا يَأْخُذُ في أنفُسِ النَّاسِ، حَتَّى إذا صَلَّيْتُ العَتَمَةَ، رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ إلى أَهْلِهِ، فاستَأْذنْتُ علَيْهِ؟ فأَذِنَ لي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! بأبي أنـْتَ وأمي، إنَّ المُشْرِكَ الَّذِي كنت أتَدَيَّنُ منه قال لي كذا وكذا، وليس عندك ما تَقْضِي عني، ولا عندي، وهو فاضحي، فَأْذنْ لي أنْ آبقَ إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا؛ حتى يرزق الله رسوله ﷺ ما يقضي عني.

فخرجت حتى إذا أتيتُ منزلي؛ فجعلت سيفي وجِرابي ونَـعْلي ومِجَنِّي عند رأسي، حتى إذ انشق عَمُودُ الصبح الأول؛ أردْتُ أن أنطلق؛ فإذا إنسان يسعى يدعو: يا بلال! أجِبْ رسول الله ﷺ ، فانطلقتُ حتى أتيته، فإذا أرْبَعُ ركائبَ مُناخاتٍ؛ عليهن أحمالُهُنَّ، فاستأذنت، فقال لي رسول الله ﷺ :

(أبشر! فقد جاءك الله بقضائك)، ثم قال:

(ألم ترَ الركائبَ المُناخاتِ الأربعَ؟)، فقلت: بلى. فقال:

(إن لك رقابَهُنَّ، وما عليهن؛ فإن عليهن كُسْوَةً وطعاماً؛ أهداهنَّ إليَّ عظيم (فَدَكَ)، فاقْبضْهُنَّ واقْضِ دَيْنَكَ). ففعلت (فذكر الحديث)، ثم انطلقت إلى المسجد؛ فإذا رسول الله ﷺ قاعد في المسجد، فسلمت عليه، فقال:

(ما فعل ما قِبَلَكَ؟).

قلت: قد قضى الله كلَّ شيء كان على رسول الله ﷺ ، فلم يَبْقَ شيء. قال: (أفَضَلَ شيء؟). قلت: نعم. قال:

(انظر أن تريحني منه؛ فإني لست بداخل على أحد من أهلي حتى تُرِيحَني منه).

فلما صلى رسول الله ﷺ العتمةَ دعاني، فقال:

(ما فعل الذي قِبَلَك؟).

قال: قلت: هو معي، لم يأتنا أحد، فبات رسول الله ﷺ في المسجد (وقصّ الحديث)، حتى إذا صلى العتمة – يعني: من الغد – دعاني فقال:

(ما فعل الذي قِبَلَكَ؟).

قال: قلت: قد أراحك الله منه يا رسول الله! فَكَبَّرَ وحَمِدَ الله؛ شفقاً من أن يدركه الموتُ وعنده ذلك، ثم اتَّبَعْتُهُ حتى جاء أزواجَهُ، فسَلَّم على امرأةٍ امرأةٍ، حتى أتى مَبيتَهُ» .

تخريج الحديث

رواه أبو داود في سننه [٣٠٥٥]، وهو في صحيح سنن أبي داود للألباني [٨/ ٣٨٠، ورقمه: ٢٦٨٨] وقال الألباني فيه: إسناده صحيح.

إسناده: حدثنا أبو توبة الرَّبيعُ بن نافع: حدثنا معاوية – يعني: ابن سَلاَّم – عن زيد أنه سمع أبا سَلام، قال: حدثني عبدالله الهَوْزَنِيُّ..

قلت: وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم؛ غير عبدالله هذا، وهو ثقة مخضرم، كما في «التقريب».

والحديث أخرجه البيهقي (٩/ ٢١٥) من طريق المؤلف.. مختصراً.

ثم أخرجه (٦/ ٨٠-٨١) من طريق أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي: حدثنا أبو توبة.. به أتم منه؛ فإنه ساق القدر الذي اختصره المؤلف؛ وأشار إليه بقوله «فذكر الحديث»، و «قص الحديث».

وتابعه معمر بن يعمر - وهو ثقة - : عند ابن حبان (٢٥٣٧).

أقول: ورواه ابن حبان، انظره في صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، [٢/ ٤٩٢، ورقمه: ٢١٥٢].

غريب الحديث

عصابة من التجار : جماعة من التجار.

تجهمني : قابلني بوجه عابس.

مِجَنِّي : هي الآلة التي يتقي بها المحارب ضربات عدّوه.

عمود الصبح : البياض العمودي الذي يمتد طولاً إلى السماء، قبل أن يمتد عرضاً في الأفق.

مناخات : باركات.

ركائب : النياق التي تُركب.

صلى العتمة : صلّى صلاة العشاء.

الذي قبلك : المال الذي عندك.

شرح الحديث

ائتمن الرسول ﷺ بلالاً على أمرين:

الأول: الأذان، فكان يرقب الوقت، فإذا دخل الفجر أو الظهر أو غيرهما صدح بالأذان، معلماً الصحابة بدخول الوقت.

الثاني: المال، فكان شأنه موكولاً إليه، فإذا احتاج استدان، فإذا جاء الرسول ﷺ مال أعطاه إياه، فسدّ ما التزمه من ديون.

وقد وقع لبلال واقعة غريبة، فقد عرض عليه مشرك أن يقترض منه دون غيره، ولم يكن يعلم بالسبب الذي دعاه إلى ذلك، فقد أراد من وراء هذا الأمر إعادة بلال إلى العبودية.

لقد استدان بلال من ذلك المشرك، وأصبح في ذمته له مال كثير، وفي يوم كان بلال يتوضأ استعداداً لرفع الأذان، فإذا بذلك التاجر مقبل مع عصبة من التجار، فإذا به يكشف لبلال عن وجه قبيح، لم يكن يقابله بمثله من قبل، لقد أعلمه في ذلك اليوم بالغاية التي قصدها من وراء مداينته، فهو يريد من وراء ذلك أن يحمِّل بلالاً ديوناً كثيراً يعجز عن سدادها، عند ذلك من حقه أن يعيد بلالاً رقيقاً يرعى الغنم، وهذا ما كان عليه الناس في الجاهلية.

لقد كان بلال راشداً حصيفاً، فلم يكلم أحداً، وانتظر حتى صلى مع الرسول ﷺ صلاة العشاء، ثم دخل عليه فأخبره خبره مع ذلك المشرك، كما أخبره أنه لا مال لدى الرسول ﷺ للسداد، ولا عنده هو، ولذلك عزم على الانطلاق إلى بعض الأحياء خارج المدينة، ليقيم عندهم حتى يهيئ الله المال اللازم للسداد، فعاد إلى منزله مجمعاً الانطلاق خارج المدينة قبل أن يطلع الفجر.

لقد جمع قبل نومه عند رأسه سيفه وجرابه ونعله ومِجَنَّه، حتى إذا اقترب الفجر من الطلوع انطلق عامداً إلى بلد آخر، فكان عنده حتى يكون سداد الدَّيْن، فلما انشق عمود الصبح الأول الذي يسبق الفجر، وهذا النور يكون عمودياً، قبل أن ينتشر ضوء النهار انتشاراً، وأراد أن ينطلق،

إذا به يسمع من يناديه باسمه، يا بلال، يا بلال، فطلب منه المنادي أن يجيب دعوة رسول الله ﷺ .

فانطلق إلى رسول الله ﷺ ، فإذ عند بابه ركائب أربع مناخات، عليهن أحمالهن، ودخل على رسول الله ﷺ فبشَّره أن الله قد يَسَّر ما يسدُّ به عنه دَيْنه، لقد وصلت قافلة من عند حاكم (فدك) وأميرها، فأمره بقبضها، وبيعها، وأخبره أنه لن يدخل بيته، ولا بيت أحد من أهله حتى ينفق كل ما جاءه، وقد بقي الرسول ﷺ في المسجد، ونام فيه ليلة، حتى أنفق بلال كل ما عنده.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- فضل بلال رضي الله عنه إذ وكَّل الرسول ﷺ له أمر الأذان وشؤون المال.

٢- مكر الرجل المشرك الذي خطط لإعادة بلال للرق والعبودية.

٣- هدوء بلال وحصافته وتخطيطه للطريقة التي يخلص بها مما أريد به.

٤- هيأ الله لرسوله ﷺ ولبلال ما قضى به الديون وفاض عن الحاجة.

٥- كان الرسول ﷺ حريصاً على إنفاق المال الذي يأتيه في مواضعه.

* * *



تمهيد

أراد اليهود إحراج الرسول ﷺ عندما رفعوا إليه أمر رجل وامرأة زنيا منهم، فأظهر الحق الذي في كتابهم، وأمر بهما فرُجِما حتى الموت.

نص الحديث

عن عبدالله بن عمر رضيَ الله عنهما «أنَّ اليهود جاؤوا إلى النبيِّ ﷺ برجُلٍ منهم وامرأةٍ قد زَنيا، فقال لهم: كيف تفعلونَ بمن زَنى منكم؟ قالوا: نُحمِّمهما ونضرِبهما. فقال: لا تجدونَ في التوراةِ الرَّجمَ؟ فقالوا: لا نجدُ فيها شيئاً.

فقال لهم عبدالله بن سَلام: كذبتم، فأْتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوَضعَ مِدْراسُها الذي يُدَرِّسُها منهم كفَّهُ على آيةِ الرَّجم، فطفِقَ يَقرأُ ما دُونَ يدهِ، وما وراءَها، ولا يَقرأُ آيةَ الرَّجم، فنزعَ يدَهُ عن آيةِ الرَّجم فقال: ما هذه؟

فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمرَ بهما فرُجما قريباً من حيث مَوضعُ الجنائز عند المسجد، قال: فرأيتُ صاحبَها يَجنأُ عليها، يَقيها الحجارة».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير في باب ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران:٩٣] [ورقمه: ٤٥٥٦، ورواه أيضاً تحت الأرقام التالية: ١٣٢٩، ٣٦٣٥، ٦٨١٩، ٦٨٤١، ٧٣٣٢، ٧٥٤٣] ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الحدود، باب رجم اليهود [ورقمه: ١٦٩٩].

غريب الحديث

نحممهما ونضربهما : أي نسكب عليهما الماء الحميم.

مِدْراسها : عالم اليهود الذي يقوم على تدريسها وتعليمها.

يجنأ : يميل.

شرح الحديث

يذكر ابن عمر ﷺ وعن أبيه أن اليهود جاؤوا إلى الرسول ﷺ برجل وامرأة منهم زنيا، فسألهم عما يفعلونه بمن زنى منهم.

قالوا: نحممهما، أي نصب عليهما الماء الحار، ونضربهما.

فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟

فقالوا: لا نجد فيها شيئاً.

فقال لهم عبدالله بن سلام، وكان من علمائهم، فأسلم: كذبتم، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين.

فجاؤوا بالتوراة، ونشروها، ووضع مِدْراسهم، وهو عالمهم الذي يدرِّسهم إياها إصبعه على آية الرجم، وأخذ يقرأ ما قبلها، وما بعدها، ولا يقرأ آية الرجم.

لقد كان حال اليهود في زمن الرسول ﷺ كحالنا اليوم، فالكتاب والسنّة فيهما حكم الزاني، ولكن لا نفعل فيمن يزني ما حكم الله فيه.

ورجم الزاني والزانية لا يزال إلى اليوم في التوراة، كما كان في عهد الرسول ﷺ وقبل عهده، ففي الإصحاح العشرين من سفر اللاويين، من أوله: «وكَّل الرب موسى قائلاً، وتقول لبني إسرائيل: كل إنسان من بني إسرائيل، ومن الغرباء النازلين في إسرائيل أعطى من زرعه لمولك فإنه يُقتل، يرجمه شعب الأرض بالحجارة» وفي هذا الإصحاح تفصيلات في قتل الزناة أكثر من ذلك.

فلما رفع يده عن آية الرجم، وأقرّوا بوجودها، أمر الرسول ﷺ بهما فرجما، في موضع قريب من موضع الجنائز، قرب المسجد النبوي، وقد أخبرنا ابن عمر رضي الله عنهما أن الرجل اليهودي كان يميل على المرأة، ليقيها من الحجارة التي تُقذف بها.

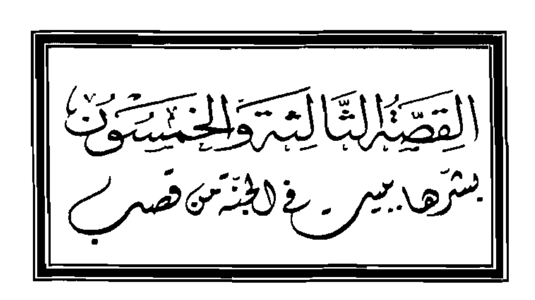
عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- حكم الرسول ﷺ على الزانيين من اليهود بمثل حكم التوراة لما تحاكموا إليه. قال النووي: «إنما هو لإلزامهم بمثل ما يعتقدونه في كتابهم» [شرح النووي على مسلم: ١٠-١٢/ ٣٥٣].

٢- تغيير اليهود لشريعة التوراة مع وجود الحكم الصريح في كتابهم، فقد كان الحكم ولا يزال في كتابهم، ولكنهم عملوا بخلاف ما أمرهم به، فقد كانوا يحممونهم ويضربونهم.

٣- كذب اليهود، فقد ادعوا أنه لا وجود للرجم في كتابهم، وأخفى عالمهم آية الرجم، وتصدى له عبدالله بن سلام، فأزاح يده عن الآية، وأظهر آية الرجم.

* * *



تمهيد

أمر جبريل عليه السلام الرسول ﷺ أن يبلغ خديجة من ربها ومنه السلام، ويبشرّها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه، ولا نصب.

نص الحديث

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، هذهِ خديجة قد أتتْ معَها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعام أو شراب، فإذا هيَ أتتْكَ فاقرَأْ عليها السلامَ من ربِّها ومِنِّي، وبَشِّرها ببَيْتٍ في الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَـصَب».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه، باب «تزوج النبيّ خديجة» [ورقمه: ٣٨٢٠ وانظره أيضاً برقم: ٧٤٩٧ ومسلم: ٢٤٣٢].

غريب الحديث

قصب : المراد به قصب اللؤلؤ في الجنة.

لا صخب : الصخب: الصياح والمنازعة برفع الصوت.

النصب : التعب.

شرح الحديث

هذا الحديث في خديجة، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي، تجتمع مع الرسول ﷺ في قصي، وهي أقرب نسائه إليه في النسب، وهي أول زوجة تزوجها الرسول ﷺ [فتح الباري: ٧/ ١٦٨] وهي أفضل نساء هذه الأمة، ففي الحديث (خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة) أي مريم في السابقين، وخديجة في هذه الأمة) [البخاري: ٣٤٣٢، ومسلم: ٢٤٣٠] ولم تكن عائشة تغار على امرأة ما تغار من خديجة، ففي البخاري ومسلم عن عائشة قالت: «ما غرت على امرأة للنبي ما غرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها» [البخاري: ٣٨١٦، ٣٨١٧، ومسلم: ٢٤٣٤ مختصراً].

وفي هذا الحديث ذكر راويه فضيلة من فضائلها، فقد جاء جبريل إلى الرسول ﷺ ، فقال له: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء من طعام أو شراب، وطلب منه عندما تأتيه أن يقرأها السلام من ربّها ومنه، وأن يبشِّرها ببيت من قصب، لا ضجيج فيه ولا تعب.

لقد أثار الرسول ﷺ بكثرة ذكره لخديجة بالخير، وتعظيمه لقريباتها وصديقاتها بعد وفاتها غيرة عائشة زوجته، كما سبق ذكره، تقول عائشة: «إن كان ليذبح الشاة، فيهدي في خلائل خديجة منها ما يسعهن» [البخاري: ٣٨١٦].

وقالت عائشة أيضاً: «ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن

في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: (إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد) [البخاري: ٣٨١٨، مسلم: ٢٤٣٤].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- فضل خديجة وعِظَم مكانتها عند ربها تبارك وتعالى.

٢- خديجة إحدى المبشرات بالجنة.

٣- طلب جبريل عليه السلام من الرسول إبلاغ خديجة السلام من ربها ومنه.

٤- لخديجة في الجنة بيت من قصب، لا صخب فيه ولانصب.

٥- غيرة عائشة من خديجة لكثرة ذكره إياها، وكثرة إهدائه لصاحباتها.

* * *

القصة الرابعة والخمسون
إنما الصبر عند الصدمة الأولى

تمهيد

مرّ الرسول ﷺ بامرأة جالسة عند قبر ولد لها فقدته، فوعظها، ولم تكن تعرفه، فقالت له: «وما تبالي بمصيبتي».

فلما عرفته انطلقت إليه معتذرة، فقال لها: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى).

نص الحديث

عَنْ أنس بْنِ مَالِكٍ؛ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ أتى عَلَى امْرَأةٍ تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا. فَقَالَ لَهَا: (اتَّقِي الله وَاصْبِرِي) فَقَالَتْ: وَمَا تُبَالِي بمُصِيبَتِي! فَلَمَّا ذَهَبَ، قِيلَ لَهَا: إنَّهُ رَسُولُ الله ﷺ . فَأخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ. فَأتَتْ بَابَهُ. فَلَمْ تَجِدْ عَلَى بَابِهِ بَوَّابِينَ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله! لَمْ أعْرِفْكَ. فَقَالَ: (إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ أوَّلِ صَدْمَةٍ) أوْ قَالَ: (عِنْدَ أوَّلِ الصَّدْمَةِ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز، «باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى» [ورقمه: ٩٢٦. ورواه البخاري في مواضع من صحيحه مختصراً، وانظره فيه تحت الأرقام التالية: ١٢٥٢، ١٢٨٣، ١٣٠٢، ٧١٥٤].

غريب الحديث

الصبر عند الصدمة الأولى : الصبر الكامل يكون عند حلول المصيبة أول مرة.

ما تبالي بمصيبتي : ما تكترث بما أصابني

شرح الحديث

مرّ رسول الله ﷺ على امرأة جالسة عند قبر صبي لها تبكيه، فقال لها: (اتقي الله واصبري).

فقالت له، ولم تكن تعرفه: (وما تبالي بمصيبتي)؟ أي: إنك لا تكترث بما حلّ بي، ونزل بي.

فلما تركها الرسول ﷺ وانصرف عنها، جاءها من سألها عما قال لها ذلك الرجل، وما قالته له، عند ذلك أعلمها أنه رسول الله ﷺ ، ففاجأها ذلك أيما مفاجأة، وأخذها مثل الموت، وانطلقت إليه معتذرة إليه، فأتت بابه، فلم تجد منزله مثل بيوت الملوك المحاطة بالحرس والجنود، فاستأذنت عليه، وقالت له: لم أعرفك، فقال لها رسول الله ﷺ : (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) أو (إنما الصبر عند أول صدمة).

والمعنى أن الصبر الصحيح الكامل الذي يعطى صاحبه كامل الأجر يكون عندما تقع الواقعة، أي: عند موت الولد، أو فقد الزوج، أو خسران التجارة ونحو ذلك، والمراد أن الصبر يقع للعبد عندما تقع المصيبة، وتحل الفاجعة. وقد أورد ابن الجوزي خبراً يدل على مدى استمساك المرء عندما تحل به فاجعة كبيرة، «فقد نظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال: ما رأيت مثل

هذه النضارة، وما ذاك إلا من قلة الحزن، فقالت: يا عبدالله، إن لي حزناً ما شاركني فيه أحد، فقال: وكيف؟ قالت: أخبرك أن زوجي ذبح شاة يوم أضحى ولي صبيّان يلعبان، فقال الأكبر للأصغر: أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة؟ قال: نعم فذبحه، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فالتجأ إلى الجبل فأكله الذئب، فخرج أبوه يطلبه، فمات عطشاً، فأفردني الدهر، فقال: فكيف صبرت؟ فقالت: لو وجدت في الجزع دركاً ما حزنت عليهم» [أحكام النساء لابن الجوزي: ص ٣٨٨].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- المكث عند قبر الميت ولداً أو أباً أو أخاً بعد دفنه ينافي الصبر المأمور به شرعاً.

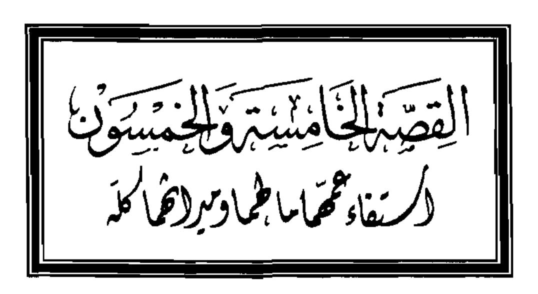
٢- يشرع الإنكار على من لم يصبر على المصيبة بعد الوفاة كما أنكر الرسول ﷺ على هذه المرأة.

٣- كانت بعض نساء المدينة لا يعرفن رسول الله ﷺ كما وقع لهذه المرأة.

٤- لم يكن عند منازل رسول الله ﷺ حرس ولا جنود يحيطون بها كما يفعل الملوك والأمراء.

٥- الصبر الكامل الوافي هو الذي يقع من العبد عند نزول المصيبة.

* * *



تمهيد

قصة هذا الحديث تتضمن سؤالاً في الميراث سألته صحابية عن ميراث زوجها الذي استُشهد تاركاً إياها وابنتيها وشقيق زوجها، ولم يكن عند الرسول ﷺ علم بالجواب، حتى أنزل الله أحكام الفرائض في سورة النساء.

نص الحديث

عَنْ جَابرِ بْنِ، عبدالله، قالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، حَتَّى جِئْنَا امْرَأَةً مِنَ الأنْصَارِ في الأسْوَاف، فَجاءَتِ الْمَرْأَةُ بابْنَتَيْنِ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، هَاتَان بِنْتَا ثابت بن قَيْسٍ، قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَد اسْتَفَاءَ عَمُّهُمَا مَالَهُمَا وَمِيرَاثهمَا كُلَّهُ، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً إلاَّ أَخَذَهُ، فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ الله، فَوالله لاَ تُنْكَحَانِ أَبَداً إلاَّ وَلَهُمَا مَالٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (يَقْضِي الله في ذلكَ) قَالَ: وَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاء ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ [النساء:١١] الآية، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (ادْعُوا لِيَ الْمَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا، فَقَالَ لِعَمِّهِمَا: (أَعْطِهِمَا الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَلَكَ).

تخريج الحديث

هذا الحديث رواه أبو داود في سننه في كتاب الوصايا، «باب ما جاء في ميراث الصُّلب» [ورقمه: ٢٨٩١] وأورده الألباني في صحيح سنن أبي

داود: [ورقمه: ٢٥١٣] وحكم عليه بالحسن، وقال: ذكر ثابت بن قيس فيه خطأ، والمحفوظ أنه سعد بن الربيع.

ورواه الترمذي في سننه في كتاب الفرائض، «باب ما جاء في ميراث البنات، [ورقمه: ٢٠٩٢] وقال فيه: «هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبدالله بن محمد بن عقيل. وأخرجه الألباني في صحيح سنن الترمذي [ورقمه: ١٧٠١] وحكم عليه الألباني بالحسن أيضاً.

غريب الحديث

الأسواف : قال ابن الأثير في [جامع الأصول: ٢/ ٨٤] «الأسواف: موضع في المدينة، كان يومئذ معروفاً.

استفاء : أخذه لنفسه، يعني: جعله فيئاً له.

شرح الحديث

خرج الرسول ﷺ في زمرة من أصحابه فيهم جابر بن عبدالله إلى منطقة في المدينة تدعى (الأسواف)، وهناك جاءته زوجة سعد بن الربيع الذي استُشهد في غزوة أحد بابنتي سعد، وعرضت عليه المشكلة، فقد كان لسعد أخ حاز كل ما كان يملكه، ولم يدع لها ولا لابنتيها شيئاً من المال، وهذا سيعكر عليهما أمر الزواج، فالفتاة التي تملك المال تكون الرغبة في الزواج منها كبيرة.

فقال الرسول ﷺ : (يقضي الله في ذلك).

وهذا يدل على أنه لم يكن عند الرسول ﷺ علمٌ بالحكم الشرعي في مثل هذه الحال، فانتظر أن يأتيه الوحي بالحكم الذي يقضي به الله.

فنزلت أحكام الفرائض في سورة النساء، ونزل قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ ﴾ [النساء:١١]. فدعا الرسول ﷺ عمّهما، وأمره أن يعطي البنتين الثلثين، ويعطي زوجة سعد الثمن، وله الباقي.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- كان الصحابة يعرضون على الرسول ﷺ ما أشكل عليه من قضاياهم، كما عرضت زوجة سعد بن الربيع ما فعله شقيق سعد مع ابنتي أخيه.

٢- كان الرسول ﷺ يتوقف فيما ليس له به علم، وينتظر قضاء الله فيه، كما فعل الرسول ﷺ في هذه المسألة.

٣- عندما نزل الحكم الشرعي من عند الله أمر الرسول ﷺ أصحاب القضية بالالتزام بالحكم.

٤- كان الرسول ﷺ عندما يتنقل في المدينة يصحب بعض أصحابه معه، ففي مسيره إلى زوجة سعد صحبه ثلة من أصحابه.

٥- حُسْن استماع الرسول ﷺ لما عُرض عليه من مشكلات، وحُسْن إجابة الرسول ﷺ .

٦- العلم بأن سعد بن الربيع كان من شهداء غزوة أحد، وأنه خلف وراءه بنتين وزوجة وأخاً، وترك مالاً.

٧- للبنتين - إذا لم يكن معهما أخ - من ميراث أبيهما الثلثان، وللزوجة الثمن، والباقي للأخ.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القصة السادسة والخمسون
هل أنتم صادقيّ إن سألتكم

تمهيد

حاول اليهود أكثر من مرة قتل نبينا محمدٍ ﷺ ، ومن ذلك تسميمهم الشاة التي أهدوها له في خيبر، فأخبرته اللقمة التي أخذها منها أنها مسمومة، وعصمه الله من شرّهم.

نص الحديث

عَنْ أبي هريرة ﷺ ، قال: لّما فتحت خيبر أُهْدِيَتْ للنَّبيِّ ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ : (اجْمَعُوا إلَيَّ مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ يَهُودَ). فَجُمِعُوا لَهُ، فقال: (إنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ). فقالوا: نـعَم.

قال لَهُمُ النَّبيُّ ﷺ : (مَنْ أَبوكُمْ). قالوا: فُلانٌ، فَقال: (كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلانٌ). قالوا: صَدَقْتَ، قال: (فَهَلْ أَنْتُمْ صادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سَأَلْتُ عَنْهُ). فَقالوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ في أبينا.

فَقال لَهُمْ: (مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟). فقالوا: نَكُونُ فِيهَا يَسيراً، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ : (اخسَؤُوا فِيهَا، وَالله لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَداً).

ثُمَّ قالَ: (هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ). فَقالوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قال: (هَلْ جَعَلْتُمْ في هَذِهِ الشَّاةِ سُمّاً). قالوا: نَعَمْ، قال: (مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذلِكَ). قالوا: أَرَدْنَا إنْ كُنْتَ كَاذِباً نَسْتَرِيحُ، وَإنْ كُنْتَ نَبيّاً لَمْ يَضُرُّكَ.

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب الجزية والموادعة، «باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين» [ورقمه: ٣١٦٩. وفي كتاب الطب، «باب ما يذكر في سم النبي» ورقمه: ٥٧٧٧].

غريب الحديث

فيها سم : جعلت المرأة التي طبختها فيها سماً.

شرح الحديث

فتح الرسول ﷺ وأصحابه خيبر، وكان سكانها من اليهود، فأهدوا الرسول ﷺ شاة مصلية مسمومة، وأكثروا من السم في ذراعها، لأن الرسول ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها.

وذكر ابن إسحاق أن التي فعلت ذلك هي زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم، فأكل بشر بن البراء بن معرور منها لقمة، وأخبرت اللقمة التي أكلها الرسول ﷺ بحالها وأنها مسمومة، ولم يستسغ أكلها [فتح الباري: ٧/ ٦٢٢].

عند ذلك أمر الرسول ﷺ أن يحشدوا له من كان من اليهود في تلك الناحية، فجمع له عدد منهم، فقال لهم: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟ فقالوا: نعم.

فسألهم عن أبيهم، فقالوا: فلان، فقال: كذبتم، أبوكم فلان.

فصدقوه فيما أخبرهم به.

ثم قال لهم: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه.

فقالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

فسألهم عن أهل النار، فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم: اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم أبداً فيها.

وقد ذكر ربّ العزة فريتهم هذه في قوله تعالى في سورة البقرة ورد عليها: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١].

إن ما يدَّعونه كذب لاشك ولا مرية فيه، فليس عندهم عهد من الله بأن يبقوا في النار أياماً، ثم يخلفهم غيرهم فيها، وواقع الأمر أنهم يكذبون على الله، ويقولون عليه ما لا يعلمون، والصواب أنهم سيخلدون في نار جهنم أبداً، لأنهم كفار كفراً أكبر، لتكذيبهم بالرسول ﷺ وبشريعته شريعة القرآن.

لقد سألهم هذين السؤالين ليعلمهم أنه يعلم من أمرهم ما يخفونه ويكتمونه عند ذلك سألهم السؤال المقصود، سألهم عن الشاة التي أهدوها له، هل جعلوا فيها سماً، فأقروا بذلك، ولم يكذبوا فيه.

فسألهم عما حملهم على فعل ذلك، فقالوا: إنهم أرادوا أن يستريحوا منه إن كان كاذباً، وإن كان نبياً فإنها لن تضره.

لقد نجا الرسول ﷺ لأن الله عصمه حتى يبلّغ الدعوة للعالمين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ

يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧] أما غيره فقد أثر فيهم السمُّ فماتوا، فقد أكل معه بشر بن البراء بن معرور من تلك الشاة لقمة فتوفي.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- من عادة اليهود قتل الأنبياء بغير حق، كما قال تعالى لهم: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩١] وقد حاولوا قتل رسولنا ﷺ أكثر من مرة.

٢- كَذَب اليهود، كما فعلوه عندما سألهم الرسول ﷺ عن أبيهم فكذبوا.

٣- لا يزال اليهود إلى اليوم يزعمون أنهم سيدخلون النار أياماً معدودات، ثم نخلفهم فيها، وقد أكذبهم القرآن فيما قالوه، كما أكذبهم الرسول ﷺ.

٤- كان سمّ المرأة اليهودية الشاة بأمر من جماعتهم، ولم يكن رأياً انفردت به.

٥- كان لهذا السم أثره في وفاة الرسول ﷺ ، فقد ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب ما يُذكر في سمِّ النبي، رواه عروة عن عائشة عن النبي ﷺ » وقال ابن حجر في تعليقه على هذه الترجمة: «كأنه يشير إلى ما علقه في الوفاة النبوية آخر المغازي، فقال: (يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم) وقد ذكرت هناك من وصله، وهو البزار وغيره» [فتح الباري: ١٠/ ٣٠١].

٦- كانت المرأة التي سمّت الشاة موتورة من الرسول ﷺ ، قال ابن حجر: «وقع عند ابن سعد عن الواقدي بأسانيده المتعددة أنها قالت: (أي المرأة التي سمت الشاة) «قتلت أبي وزوجي وعمي وأخي، ونلت من

قومي من نلت، فقلت: إن كان نبياً، فسيخبره الذراع، وإن كان ملكاً استرحنا منه» [فتح الباري: ١٠/ ٣٠١].

٧- كان كفر اليهود كفر عناد واستعلاء، فإنهم اطلعوا على حفظ الله لنبيه، واطلاعه على الغيب، ولم يؤمنوا به.

٨- كان الرسول ﷺ يعاوده أثر تلك اللقمة التي أكلها في خيبر مرة بعد مرة، كما سبق ذكره في رواية عروة عن عائشة.

٩- حُسْن اختبار الرسول ﷺ لليهود، فقبل سؤاله إياهم عن سمّهم الشاة سألهم سؤالين، ولذلك عندما سألهم عن الشاة اعترفوا بسمّهم لها.

١٠-لم يثرهم الرسول ﷺ حتى إذا مات بشر بن البراء بن معرور قتلت المرأة التي تعمّدت سمّها كما تدل عليه بعض الروايات.

* * *

القصة السابعة والخمسون
إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة

تمهيد

قال هذه العبارة التي عنونت بها لهذه القصة أبو جهل لعنه الله، عندما أراد أن يطأ رقبة الرسول ﷺ بسبب صلاته في المسجد الحرام علانيةً، فجعل الله بينه وبينه من الأهوال ما أرعبه، وملأ قبله وجلاً وخوفاً.

نص الحديث

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ أبو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقيلَ: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ. قَالَ: فَأَتى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إلاَّ وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ. قَالَ: فَقيلَ لَهُ: مَالَكَ؟ فَقَالَ: إنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقاً مِنْ نارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً.

فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ : (لَوْ دَنا مِنِّي لاختَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْواً عُضْواً).

قَالَ: فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ - لاَ نَدْرِي في حَدِيثِ أبي هُرَيْرَةَ، أوْ شَيْءٌ بَلَغهُ-: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ

بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (يعني أبا جهل) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۞ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۞ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۞ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۞ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ [العلق: ٦-١٩].

زَادَ عُبَيْدُ الله في حَدِيثِهِ قَالَ: وَأَمَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ.

وَزَادَ ابْنُ عَبْدِ الأَعْلَى: فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ. يَعْنِي قَوْمَهُ.

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب صفة القيامة، باب قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦-٧] ورقمه: [٢٧٩٧].

غريب الحديث

يعفر وجهه : التعفير التمريغ في التراب.

نكص على عقبيه : رجع وراءه القهقرى.

الاختطاف : الاستلاب بسرعة.

الرجعى : المرجع.

لنسفعن بالناصية : أي: لنذلَّنه، وننكِّل به، ونأخذ بشعر مقدمة رأسه بشدة وقوة.

شرح الحديث

كان أبو جهل واسمه الحكم بن هشام مغيظاً محنقاً من إعلان رسول الله ﷺ دينه بين ظهراني المشركين، فقد كان يخرج إلى المسجد الحرام،

ويصلي فيه علانيةً، فأقسم أبو جهل بالآلهة التي يعبدها من دون الله، وهي اللات والعزى على أن يعاقب رسول الله ﷺ إن فعل ذلك مرة أخرى بأن يطأ على رقبته وهو ساجد، أو ليعفرن وجهه في التراب، ولم يرهب الرسول ﷺ قوله، فلما خرّ الرسول ﷺ ساجداً أراد أبو جهل أن يفعل ما وعد بفعله، وانطلق إلى رسول الله ﷺ فما فجأ مشاهديه منه إلا تراجعه مسرعاً خائفاً مذعوراً، يتّقي بيديه هولاً يشاهده دون قومه، فلما استفسروا منه عن السبب الذي صيّره إلى هذه الحال، قال: «إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة».

لقد حفظ الله عبده ورسوله ﷺ ، واستمرّ الرسول ﷺ في صلاته عزيزاً كريماً، وآب أبو جهل بالخزي والخسران، ولو تجاوز حدّه، ودنا من الرسول ﷺ خطوة لاختطفته الملائكة عضواً عضواً كما قال الرسول ﷺ .

وكانت تلك آية باهرة لأبي جهل وللكفرة من مشركي قريش، ولكن أنى للقلوب التي ختم عليها أن تتوب أو تنيب.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- في الحديث صورة من صور المواجهة التي كانت بين كفرة قريش والرسول ﷺ .

٢- مدى طغيان السادة من قريش، واغترارهم بقوتهم وقومهم، وعدم مراعاتهم للحرمات.

٣- حماية الله وحفظه لرسوله ﷺ ، فقد جعل بينه وبين أبي جهل خندقاً من نار، وهولاً، وأجنحة.

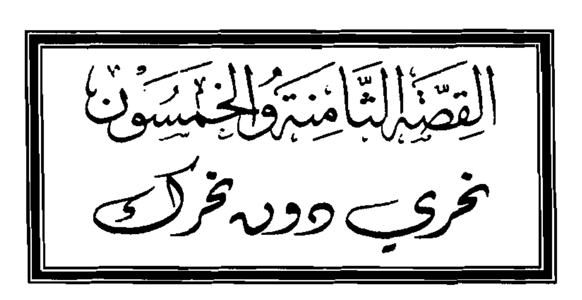
٤- رؤية أبي جهل الحماية الإلهية التي حمى الله بها رسوله ﷺ ، ولاشك أنه قرّ في نفسه أن الرسول ﷺ محفوظ معصوم، وكان هذا دليلاً كافياً كي يصدق بالرسول ﷺ ، ولكنه الاستكبار والجحود الذي لا تنفع معه الآيات.

٥- حلف أهل الجاهلية بالآلهة التي يعبدونها من دون الله، وقد نهى الرسول ﷺ عن الحلف بغير الله مطلقاً ويزداد الإثم إذا حلف المرء بمعبود من دون الله، وعليه إن فعل ذلك أن يقول: لا إله إلا الله.

٦- في الحديث أن فعل أبي جهل المذكور هو سبب نزول قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ إلى قوله ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [اقرأ:٦-١٩].

٧- عَظِمَ إثم زعماء الكفر وقادة أهل الجاهلية، فهم الذين كانوا يتصدّون للرسول ﷺ ، ويقومون بالأعمال التي تُجرِّئ غيرهم على مثل أفعالهم.

* * *



تمهيد

راوي هذا الحديث أنس بن مالك، كان فتىً صغيراً عندما حضر معركة أحُد، وقد شهد بعض وقائعها، وحدّثنا بجملة منها في هذا الحديث.

نص الحديث

عن أنسٍ ﷺ قال: «لما كان يوم أحُدٍ انهزمَ الناسُ عنِ النبيِّ ﷺ ، وأبو طلحةَ بينَ يدَي النبيِّ ﷺ مُجوِّبٌ عليهِ بحجَفَةٍ له.

وكان أبو طلحةَ رجلاً رامياً شديدَ النزع، كسر يومَئذ قوسَين أو ثلاثاً، وكان الرجلُ يَمرُّ معه بجعْبَةٍ من النَّبل، فيقول: انثُرْها لأبي طلحةَ.

قال: ويُشرِفُ النبيُّ ﷺ يَنظرُ إلى القوم، فيقولُ أبو طلحة: بأبي أنتَ وأمي، لا تُشرفْ يُصيبُكَ سهمٌ من سِهام القوم، نَحرِي دُونَ نحرِك.

ولقد رأيتُ عائشةَ بنتَ أبي بكرٍ وأمَّ سُليم وإنهما لمشَمّرَتان أرَى خَدَمَ سُوقهما تنقزان القِرَبَ على متونهما تُفرغانهِ في أفواهِ القوم، ثمَ ترجِعان فتَملآنِها، ثم تجيئانِ فتُفرِغانهِ في أفواه القوم، ولقد وقعَ السيفُ من يَدَي أبي طلحةَ إما مرَّتين وإما ثلاثاً».

تخريج الحديث

رواه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ [آل عمران:١٢٢] [ورقمه: ٤٠٦٤ وانظره أيضاً برقم: ٣٨١١] ورواه مسلم في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، «باب: غزوة النساء مع الرجال» [ورقمه: ١٨١١].

غريب الحديث

انهزم الناس يوم أحد : بعضهم، أو أطلق ذلك باعتبار تفرّقهم.

مُجوِّبٌ عليه : مُتَرِّس.

شديد النزع : شديد الرمي.

جعبة : الجعبة من آلات الحرب، وهي التي توضع فيها السهام.

لا تشرف : لا تطلب الإشراف، أي: الظهور.

نحري دون نحرك : أفديك بنفسي.

خدم سوقهما : الخلاخيل اللاتي بأرجلهما.

تنقزان : تنقلان.

شرح الحديث

هذا الحديث يقص طرفاً من غزوة أحد، والقاص لهذه القصة أحد الذين شهدوا أحداثها، وله صلة قوية بمن تقص عنهم، فالقاص هو أنس ابن مالك، كان قد قارب الحلم في تلك الغزوة، وهو خادم رسول الله ﷺ ،

وأمه أم سُلَيم التي كانت تنقل القرب على ظهرها لتفرغه في أفواه المقاتلين، وأبو طلحة المجوب على رسول الله ﷺ زوج أمه.

يحدث أنس عن أبي طلحة أنه كان في المعركة مجوباً على رسول الله ﷺ بحجفة له، يرفعها كي يدفع السهام التي يصوبها الأعداء تجاهه، وتجاه الرسول ﷺ ، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً، شديد الرمي للسهام، وقد كسر في ذلك اليوم قوسين أو ثلاثاً، لكثرة رميه وشدّته.

وكان الرسول ﷺ يأمر من يمر به من الرجال الممتلئة جعابهم سهاماً أن ينثروها لأبي طلحة، وكان أبو طلحة يرمي، وكان الرسول ﷺ يتراءى المواضع التي يرمي أبو طلحة إليها، فيقول له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك. وأخبر أنس عن مشهد آخر شهده في تلك الغزوة، فقد رأى أمه أم سليم، وعائشة زوج الرسول ﷺ بنت أبي بكر الصديق، وهما تحملان القرب ملأى على ظهورهما، فتفرغان ما فيها في أفواه المقاتلين، ثم ترجعان فتفعلانه مرة بعد أخرى، وأخبر أنس عن أبي طلحة أن السيف وقع من يده مرة بعد مرة، وهو يقاتل في أحد، مما يدل على دخوله في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- هزم المسلمون في غزوة أحد بسبب عدم التزامهم بما أمرهم الرسول ﷺ به.

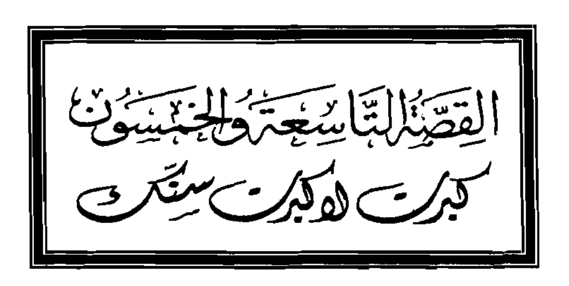
٢- كان في غزوة أحد نماذج راقية، منهم أبو طلحة الأنصاري.

٣- الصفات الطيبة التي كانت في أبي طلحة، ومن ذلك قدراته الفائقة في رمي السهام.

٤- ما كانت تفعله عائشة وأم سُلَيم من نقل الماء على ظهريهما للمقاتلين من المسلمين.

٥- كان أبو طلحة من الذين غشاهم الله بالنعاس أمنة منه، حتى إن السيف ليسقط من يده.

* * *



القصة التاسعة والخمسون

كبرت لا كبرت سنك

تمهيد

عنوان هذه القصة دعاء دعا به النبي ﷺ على يتيمة لأم سليم، فانطلقت باكية إلى أم سليم تخبرها بهول الفاجعة لقد دعا عليها الرسول ﷺ أن لا يكبر سنّها، فقامت أم سليم مهتاجة تطلب النبي ﷺ لتستعلم منه عن دعوته على تلك اليتيمة.

نص الحديث

عن أنس بن مَالِكٍ قَالَ: كَانَتْ عِنْدَ أمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ، وَهِيَ أمُّ أنسٍ، فَرَأَى رَسُولُ الله ﷺ الْيَتِيمَةَ، فقالَ: (آنتِ هِيَهْ؟ لَقَدْ كَبِرْتِ، لاَ كَبِـرَ سِنُّكِ)، فَرَجَعَتِ الْيَتِيمَةُ إلَى أمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي. فَقَالَتْ أمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكِ؟ يَا بُنَيَّةُ! قَالَتِ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلَيَّ نبيُّ الله ﷺ أنْ لاَ يَكْبَرَ سِنِّي. فَالآنَ لا يَكْبَرُ سِنِّي أبداً. أوْ قَالَتْ: قَرْنِي. فَخَرَجَتْ أمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا، حتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ الله ﷺ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ : (مَا لَكِ؟ يَا أمَّ سُلَيْمٍ!) فَقَالَتْ: يَا نبيَّ الله! أدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي؟ قَالَ: (وَمَا ذاكِ؟ يَا أمَّ سُلَيْمٍ!) قَالَتْ: زَعَمَتْ أنَّكَ دَعَوْتَ أنْ لاَ يَكْبَرَ سِنُّها وَلاَ يَكْبَرَ قَرْنُهَا.

قَالَ فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ . ثُمَّ قَالَ (يَا أمَّ سُلَيْمٍ! أمَا تَعْلَمِينَ أنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي، أنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إنَّما أنَا بَشَرٌ، أرْضَى كَمَا

يَرْضَى الْبَشرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ، مِنْ أُمَّتِي، بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ، انْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُوراً وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك في كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبّه أو دعا عليه، ليس هو أهلاً لذلك [ورقمه: ٢٦٠٣].

غريب الحديث

آنتِ هِيَه : أي أأنت هي الفتاة الصغيرة التي أعرفها.

لا كبر سنك أو قرنك : لا طال عمرك. والسن والقرن واحد.

تلوث خمارها : تديره على رأسها.

شرح الحديث

رأى رسول الله ﷺ يتيمة لأم سليم لم يرها منذ زمن، فرآها قد كبرت، فقال لها مداعباً: آنت هِيَهْ؟ لقد كبرت، لا كبر سنك.

وكان قد وقر عند الصحابة أن الرسول ﷺ مستجاب الدعوة، فأرعب الجارية دعاء الرسول ﷺ ، وأيقنت أن سنّها لن يكبر بعد هذا الدعاء، فأحزنها ذلك وأبكاها، وعادت إلى أم سليم حزينة ملتاعة، واستخبرت أم سليم منها عن السبب في حزنها وبكاها، فلم تكد تسمع أم سليم بما أخبرتها به، حتى أهمها الأمر واستثارها، فذهبت منطلقة إلى الرسول ﷺ ،

ويدل على مدى اهتمامها بالأمر أنها لم تتأنَّ ليكتمل لباسها، بل كانت تدير خمارها على رأسها، وهي منطلقة إليه، حتى لقيته.

ورأى الرسول ﷺ أم سليم على هذه الحال، فاستخبرها عن أمرها، فأرادت أن تتثبت عما أخبرتها الجارية به، فلم تقل له: لِمَ قلت للجارية كذا وكذا، بل قالت: «أدعوت على يتيمتي؟» وأخبرته بما حكته الجارية من دعائه عليها.

فضحك الرسول ﷺ متعجباً من الحال التي بلغتها أم سليم في عجلتها واهتياجها وخوفها، ثم بيّن لها أنه ليس كل دعاء صدر منه، فإنه يقع على المدعو عليه، وينزل به، وأخبرها أنه اشترط على ربّه أن يجعل كل دعوة دعا بها على من لا يستحقها أن يجعل الله تلك الدعوة للمدعو عليه طهوراً وزكاة وقربة يقرّبها بها منه يوم القيامة.

وإنما اشترط الرسول ﷺ على ربّه هذا الشرط لكونه بشر، يرضى كما يرضون ويغضب كما يغضبون، ويسهو كما يسهون، ويتصرف كما يتصرفون، ولا يستطيع أن يتخلص من بشريّته، فاطمأن قلب أم سليم وهدأت، وعادت لتبشِّر يتيمتها أنها ستكبر، وأنها نالت بتلك الدعوة قربة من ربّ العباد في يوم الميعاد.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- مداعبة الرسول ﷺ على طريقة العرب في كلامها للصغير بالدعاء عليه، من غير قصد لإيذائه، والمراد من وراء ذلك مباسطة الصغير وممازحته والتلطف به.

٢- تعظيم الصحابة لما يصدر عن الرسول ﷺ واهتمامهم به، وخوفهم من دعائه عليهم، فقد وقر في صدورهم أن دعوته مستجابة، ولذلك استثار الدعاء منه الجارية، كما استثار أم سليم، وخافوا من عواقبه.

٣- بيان ما اشترطه الرسول على ربه في رفعه من دعا عليه ممن ليس بأهل لذلك، وانظر الأحاديث الكثيرة التي أوردها مسلم في صحيحه المناظرة لهذا الحديث في الشرط الذي شرطه على ربه.

٤- الرسول ﷺ بشر يرضى كما يرضى الناس، ويغضب كما يغضبون، فضلاً عن تناوله الطعام، ومشيه في الأسواق، ومعاشرته الأزواج، وجعل له النسل والذرية، ولكنه أتقى الناس لله، وأكثرهم له مخافة، فمن رام رفع الرسول ﷺ عن مرتبة العبودية إلى مرتبة الربوبية، فقد ضلّ ضلالاً بعيداً.

٥- اهتمام المسلمين بأبنائهم ورعايتهم لهم، فأم سليم استفسرت من يتيمتها عما نابها، وأسرعت لاستجلاء الأمر الذي أخبرتها به، وتبين حقيقته.

٦- عناية المسلمين باستجلاء الأمور، قبل الحكم بدون علم، فأم سليم لم تكن تدري مدى صحة ما قالته الجارية، فإن كان صحيحاً فلا تدري ما الذي دعا الرسول ﷺ إلى دعائه عليها، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ واستوضحت الأمر منه.

٧- لقد كان موقف أم سليم وجاريتها عجباً، ولا حرج على من ضحك في المواقف التي تدعو إلى العجب، كما ضحك الرسول ﷺ من موقف أم سليم.

٨- فيه مدى اهتمام الرسول ﷺ بأمّته، فاشترط الرسول على ربه ذلك الشرط حتى لا يوقع أحداً من أمته بدعائه عليه في غضب الله ومقته، بل يزداد مقاماً ورفعةً إن لم يكن أهلاً لتلك الدعوة.

القصة المتممة للستين

إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره

تمهيد

لطمت الرُّبَيعُ بنت النضر امرأة شابة على وجهها فكسرت رباعيتها، فأصر أهلها على القصاص بكسر ثنية الربيع، فأقسم أخوها أنس بن النضر على عدم كسر سنها، فرضيت المرأة المكسورة سنها وأهلها بدية السن، فقال الرسول ﷺ العبارة التي عنونت لهذه القصة بها.

نص الحديث

عَنْ أنسٍ: أنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ كَسَرَتْ ثنِيَّةَ جَارِيَة، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبوْا، فَعَرَضُوا الأَرْشَ فَأَبوْا، فَأَتوْا رَسُولَ الله ﷺ وأَبَوْا إلا الْقِصَاصَ، فأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بالقِصَاصِ، فقال أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: يَا رَسُولَ الله، أَتُكْسَرُ ثنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟ لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بالْحَقِّ لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «يا أَنَسُ، كتاب الله الْقِصَاصُ». فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «إنَّ مِنْ عِبَادِ الله مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ».

تخريج الحديث

أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير باب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾ [البقرة:١٧٨] [ورقمه: ٤٥٠٠، ورواه

أيضاً تحت الأرقام التالية: ٢٧٠٣، ٢٨٠٦، ٤٤٩٩، ٤٦١١، ٦٨٩٤. ورواه مسلم برقم: ١٦٧٥] والذي يظهر لي أن الذي في مسلم قصة أخرى، والله أعلم.

غريب الحديث

الرُّبَيِّع : عمّة أنس بن مالك أخت أنس بن النضر.

ثنية جارية : سِنُّها.

الأرش : دية العضو المكسور.

القصاص : أن يفعل بالجاني كما فعل بالمجني عليه.

أبرّه : أمضى ما أقسم عليه.

شرح الحديث

لطمت الرُّبَيِّع بنت النضر امرأة شابة على وجهها بيدها فكسرت ثنيتها [البخاري: ٦٨٩٤] فطلب أهل الربيع، وفيهم أخوها أنس بن النضر من المرأة المضروبة أن تعفو عن القصاص، فأبوا إلا القصاص، فلما رأى الرسول ﷺ تشددهم في طلب حقهم أمر به الرسول ﷺ ، وقد هيج هذا الحكم أنس بن النضر، فقال: «يا رسول الله، أتكسر ثنية الرُّبَيِّع؟ لا والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنيتها».

فقال الرسول ﷺ لأنس مستغرباً متعجباً: (يا أنس كتاب الله القصاص) يريد الرسول ﷺ بكتاب الله القصاص قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة:٤٥]. وهذا الحكم وإن كان قد كتبه

الله على بني إسرائيل، فإنه مكتوب علينا أيضاً، وقد دلّ على ذلك قوله ﷺ في هذا الحديث: (كتاب الله القصاص). عند ذلك رضيت الجارية ورضي قومها، وقبلوا الدية، أي عفوْا عن القصاص إلى الدية.

فقال رسول الله ﷺ : (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه) فالله أكرم أنس بن النضر ﷺ بقبول الجارية وأهلها ديّة سنّها، فأبرّ بذلك أنساً في إقسامه على عدم كسر سن الربيع.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- هذه القضية قضية حكم وقضاء حَكَم فيها الرسول ﷺ ، فقد كان الرسول ﷺ نبياً وقاضياً.

٢- إذا كسر عبد سن غيره أو قلع عينه أو قطع أذنه، يفعل به مثل ما فعل به، إلا إذا عفا المجني عليه إلى الدية، أو عفا عن القصاص والدية.

٣- حكم الرسول ﷺ بالقصاص لتمسك أصحاب الحق به.

٤- أقسم أنس على عدم كسر ثنية الربيع، فرضيت المكسورة سنّها وأهلها بالديّة.

٥- أكرم الله أنس بن النضر بإبرار قسمه في عدم كسر سن أخته، فقد جعلهم يقبلون الدية.

* * *

القصة الحادية والستون
نذرت أن تنحرها إن نجاها الله عليها

تمهيد

أسِرتْ امرأةٌ من المسلمين، فتحللت في ليلة من الليالي من وثاقها، وركبت ظهر ناقة من النوق التي لا تسبق، فطارت بها متجهة إلى المدينة، ونذرت المرأة ذبحها إن نجاها الله عليها، فأبَى الرسول ﷺ أن يأذن لها بذبحها، لأنها لا تملكها.

نص الحديث

عن عمران بن حصين قال: أُسِرَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأنصَارِ، وأُصِيبَتِ الْعَضْبَاءُ، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ في الْوَثَاقِ، وَكَانَ الْقَوْمُ يُرِيحُونَ نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتِهِمْ، فَانْفَلَتَتْ ذاتَ لَيْلَةٍ مِنَ الْوَثَاقِ، فَأَتَتِ الإبِلَ، فَجَعَلَتْ إذا دَنَتْ مِنَ البَعِيرِ رَغَا فَتَتْرُكُهُ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَضْبَاءِ، فَلَمْ تَرْغُ. قَالَ: وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ. فَقَعَدَتْ في عَجُزِهَا ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَانْطَلَقَتْ.

وَنَذِرُوا بهَا فَطَلَبُوهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ. قَالَ: وَنَذَرَتْ للهِ؛ إنْ نَجَّاهَا الله عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، فَلَمَّا قَدِمَتِ الْمَدِينَةَ رَآهَا النَّاسُ، فَقَالُوا: الْعَضْبَاءُ، نَاقَةُ رَسُولِ الله ﷺ ، فقَالَتْ: إنَّها نَذَرَتْ؛ إنْ نَجَّاهَا الله عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا. فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ فَذَكَرُوا ذلِكَ لَهُ. فقَالَ: (سُبْحَانَ الله! بِئْسَمَا جزَتْهَا، نَذَرَتْ للهِ إنْ نَجَّاهَا الله عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ في مَعْصِيَةٍ، وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ الْعَبْدُ).

وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ: (لاَ نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ).

تخريج الحديث

رواه مسلم في صحيحه في كتاب النذر، باب: «لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم» [ورقمه: ١٦٤١].

غريب الحديث

أصابوا : أصابوها: أخذوها.

حلفاء : جمع حليف، وهو الذي يحالفك على شيء، أي: يعاهدك عليه.

سابقة الحاج : أي: الناقة التي تسبق النياق الذاهبة إلى الحج، وهي هذه الناقة المسماة بالعضباء. والعضباء المشقوقة الأذن، ولم تكن ناقة رسول الله ﷺ مشقوقة الأذن، ولكنها سميت بهذا الاسم.

رغاء : صوت البعير إذا صاح.

منوقة : مذللة مؤدبة.

مدربة : الناقة التي دُرِّبت على الركوب، والسرعة في السير.

نذروا بها : علموا بها.

شرح الحديث

أسِرت امرأة من الأنصار، وأصيب معها ناقة لرسول الله ﷺ تدعى العضباء، وكانت العضباء من خير النياق في ذلك العصر، فعن أنس بن

مالك ﷺ قال: «كانت لرسول الله ﷺ ناقة، يقال لها: العضباء، لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشقّ ذلك على المسلمين حتى عرفه، فقال رسول الله ﷺ : (حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه) [البخاري وأبو داود والنسائي. وانظر جامع الأصول لابن الأثير: ٥/ ٤٠ ورقمه: ٣٠٣٩].

وفي ليلة من الليالي بينما كان القوم الذين أسروا المرأة يريحون نعمهم بين أيدي بيوتهم، انفلتت تلك المرأة من وثاقها، فأتت مواضع الإبل، فكانت كلما اقتربت من بعير رغا، فتتركه، حتى جاءت العضباء ناقة رسول الله ﷺ فلم ترغ، وكانت ناقة مذللة مدربة، وكانت المرأة تجيد ركوب الإبل وتحسنه، فركبت على عجزها، ثم زجرتها، فطارت بها تجاه المدينة.

ولما رأى القوم ما فعلته المرأة بالناقة انطلقوا على خيولهم وجمالهم وراءها، وكانت ناقة سريعة الجري، ففاتتهم، ولم يستطيعوا اللحاق بها، فنجت عليها، وأنجتها، ووصلت المدينة المنورة، ورآها الناس، فقالوا: ناقة رسول الله ﷺ .

فقالت لهم: إنها لما ركبتها وانطلقت عليها نذرت لله تعالى أن تنحرها إن هي أنجتها، فلما بلغ الرسول ﷺ ما قالته، قال: (سبحان الله، بئسما جزتها، نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنّها، لا وفاء لنذرٍ في معصية، ولا فيما لا يملكه العبد).

وبهذا فإن الرسول ﷺ لم يأذن لها بنحرها، فإنها نذرت أن تنحر ما لا تملكه.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

١- ما كان عليه الناس في عصر الرسول ﷺ فالمسلمون كانوا يأسرون من غيرهم، وقبائل العرب الذين يحاربون الرسول ﷺ يأسرون منهم.

٢- قدرة النساء في ذلك الزمان على ركوب الإبل والاستمساك بها، والانطلاق بها حتى يصلن إلى ديارهم.

٣- بعض الإبل كان يملك قوة عظيمة، كالعضباء، فكانت لا تسبق في الميدان.

٤- إذا نذر العبد أن ينحر ما لا يملكه كما فعلت هذه المرأة، فلا يجوز له الوفاء بنذره، وذهب الأئمة الثلاثة أنه لا يجب في هذا النذر كفارة يمين، وذهب أحمد أنه يجب فيه الكفارة لحديث رواه، ولكن النووي حكم على ذلك الحديث بالضعف [النووي على مسلم: ١٠-١٢/٢٦٧].

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com



ISBN 9957-477-09-9
9789957477097

